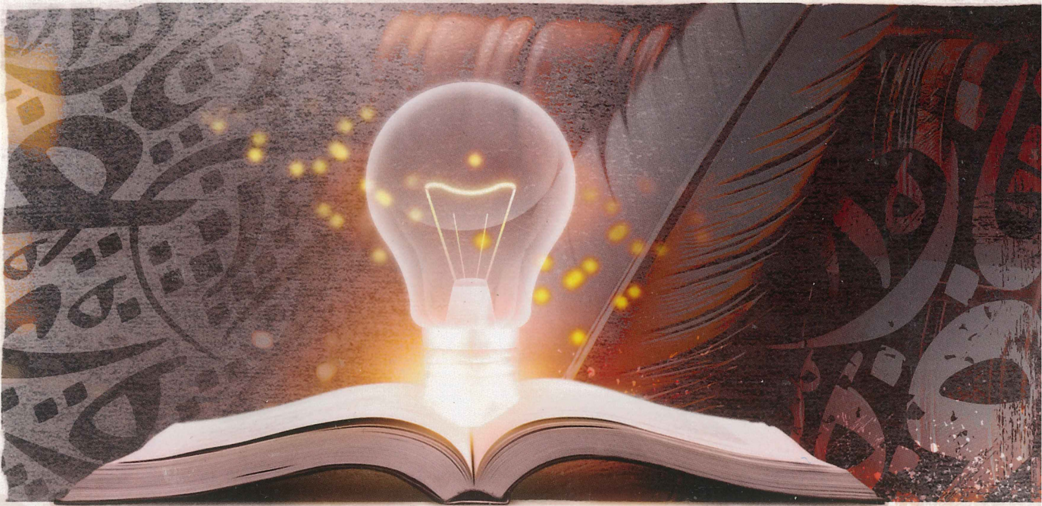
إبداعات العلماء والمؤلفين



تأليف
راشد بن عبد الرحمن بن ردن البداح

مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع

إبداعات العلماء والمؤلفين

ح راشـد بن عبد الرحمن بن ردن البداح، ١٤٤٥هـ
فهـرسـة مكتبة الملك فهـد الوطنية أثنـاء النـشر

البـداح، راشد بن عبد الرحمن بن ردن
إبـداعـات العـلمـاء./ راشد بن عبد الرحمن بن ردن البداح-
ط١- الزلفـي، ١٤٤٥ هـ.
٤٦٤ص ؛ ١٧ x ٢٤ سم.
ردمك: ٨-٩٩٥٨-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

رقـم الإيـداع: ١٨٢٥٣ / ١٤٤٥
ردمك: ٨-٩٩٥٨-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م)

مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - شارع السويدي العام - شرق النفق
الإدارة والمبيعات جوال - ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٣٤١٧ - ٠٠٩٦٦٥٦٥٦١١٥٠٠٥٨ - ٠٠٢٠١١١٦٨٩٩١٠٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣
القاهرة - خلف الجامع الأزهر الشريف - هاتف: ٠٢/٢٥١٠٧٤٧٢ الإسكندرية - جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥١
البريد الالكتروني: d.alhijaz@gmail.com

إبداعات العلماء والمؤلفين

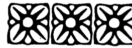


تأليف
راشد بن عبد الرحمن بن زدن البداح

مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس



المقدّمة

الحمد لله مبدِع الكائنات، والصلاة والسلام على من أنزل الله عليه بديع الآيات، وعلى آله وصحبه أُولي المكرُمات، أما بعد:

فإن العلماء والمؤلفين عمومًا، قد وهبهم الله قدرة عقلية، ليست لسائر البشر.

وإن طائفة متفوّقِة موفَّقة منهم، قدَّموا العلم حين قدَّموه بإبداع وإمتاع، فتفجرت ينابيع البدائع على أقلامهم، وفاضت عيون الحقائق من خلال عباراتهم، وأنعشت أرواحَ السامعين إشاراتُهم، فصارت غَواني المعاني لديهم تتباهَى، ومبتكَرَاتُها لا تتناهَى.

وفي هذا الكتاب تجْلِيَةٌ لمجالات؛ أبدع فيها العلماء والمؤلفون، وتجديدات منهم فيما اشتهروا به من فنون العلم، لا سيما علومَ الشرعِ.

وفي الكتاب دفعٌ لما قد يَظنه الظان، أن عامة العلماء والمؤلفين المبدعين؛ إنما هم نُسَخٌ مكررة لمن سبقوهم، أو أنهم مقلدون لا مجتهدون، وأنهم للعلم يكرِّرون فلا يُبدعون.

مُبتكِر العلم له رتبةٌ وبعدَه مَن يفهم المبتكِرَ[1]

وفيه دفاع عنهم، وإبراز لما تفتَّق عنه ذكاؤهم، وبراعتهم في تقديم العلم بصورة أجمل من القمر، وبلذَّة ألذّ من وجبة الطباخ الماهر، وبدلالة أدلَّ من الخِرّيت في مَهامِهِ الفَيافي.

---

(١) الوافي بالوفيات (٢٧/٦٤)

وقد رجعت **-بحمد الله- لأكثر من خمس مئة مرجع**، فجمعتُ لك من لطائف مُلَحِهم، ما يجري مجرى الحلواء، التي تُقدَّم في أواخر الموائد. فلتنطلق الآن إلى أبواب من الإبداع والإمتاع مُشْرَعة، وانهَلْ من أنهارٍ من الروعة مترعة؛ لتُرِيَك مشاهد أدَقَّ، وتُوقِفَك على شواهد أوثَقُ. فسترى -مثلًا-:

- علماء بالشريعة مخترِعين، أو أطباء، أو يُتقِنون لغات أخرى.
- وعلماء أذكياء أبدَعوا، فأتقَنوا علومًا كثيرة.
- ومبدعين، رغم أنهم زَمْنَى أو مُعاقُون.

أسأل الله أن يكتب لهذا الكتاب القبول عنده، ثم عند خلقه.

راشد بن عبد الرحمن البداح

٦ محرم ١٤٤٥هـ

١. مفهوم الإبداع ومقوِّماته متعلَقاته

الإبداع هو: الاختراع والابتكار على وجه لم يُسبق إليه، أو ما يُبهِر المطَّلع عليه، بحيث يكون موصوفًا بالجِدَّة السابقة، والجودة الفائقة[١].

فالإبداع إما جديد يَسبق في طرحه، أو جيد يفوق من سبقه. وكلا الأمرين إبداع بحسبه.

واعلم أن نتائج الأفكار لا تقف عند حد، بل لكل عالم ومتعلم منها حظ، يحرزه في وقته المقدَّر له، والعلوم مِنح إلهية، وفتوحات صَمَدانية، يفتح مُغلَقِها لمن يشاء متى شاء.

مقوِّمات الإبداع ثلاث:

هذه المقومات الإبداعية الثلاث تتمثل في ثلاث أعضاء من البدن: القلب واللسان واليد.

وقد صاغها أبو الفضل عبد الرحمن الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٤هـ) فقال: يحتاج العالِم إلى ثلاثة أشياء؛ جَنان مفكِّر، ولسان معبِّر، وبَنان مصوِّر[٢].

والمقصود أن العالِم الصاعد في أفق الإبداع، يلزمه أن يخوض غمار الإبداع في التفكير الإبداعي، والجذب في التعبير الإلقائي، والجِدَّة والجودة في التأليف الكتابي.

---

(١) باختصار من: التربية الإبداعية في منظور التربية الإسلامية (ص: ٤٢١)
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١١٨/٣٤)

والعالِم الذي يَبتكر العلوم، أو تكون له يدٌ في تتميم نواقصها هو العبقري، وانظر لعبقرية الأئمة المجتهدين، حيث أورثَتْنا هذه الثروة العظيمة، من أصول الشريعة وأحكامها.

والمبدع قد يتعثر فيتأثر، لكنه لا يسقط فيرقد، والمبدع قد يتعلق، لكنه يتألق، ولربما يسبِق بمراحل مَن كان يعلِّمه، أو مَن كان يَكبُرُه؛ لأن الأعمار ليست إلا أرقامًا.

واعتبر بحال سُليم الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٧هـ) فقد قرأ في صِغره على شيخ يُقرىء القرآن، فقرأ عنده، فجهد أن يقرأ الفاتحة، فلم يقدر على ذلك؛ لانغلاق لسانه، فقال له: يا بُني! ألك والدة؟ قال: نعم، فقال: قل لها تدعو لك؛ يرزقك الله قراءة القرآن، ومعرفة العلم. قال سليم: ثم رجعت إلى والدتي، فسألتُها الدعاء، ففعلَتْ. ثم إني كبرت وتفقَّهت، فبينا أنا يومًا في الجامع وقد كتبت «مختصر المزني» وأنا أقابل عليه صديقًا لي، وإذا الشيخ قد حضر، وسلم علينا وهو لا يعرفني وسمع مقابلتنا، وهو لا يعلم ما نقول، ثم قال: متى نتعلم مثل هذا؟! فأردت أن أقول له: إن كان لك والدة قل لها: تدعو لك، فاستحييتُ منه[١].

والمبدع -أيضًا- محارَب؛ لأنه بَزَّ أهل زمانه، وبرَّز على أقرانه، وحتمًا سيثور عليه حاسدون ومنافسون.

ولذا قال الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ): وهذه قاعدة مطردة، في كل عالم يتبحر في المعارف العلمية، ويفوق أهل عصره، ويَدينُ بالكتاب والسنة؛ فإنه لا بد أن يستنكره المقصرون، ويقع له معهم محنة بعد محنة، ثم يكون أمره الأعلى، وقوله الأَولى، ويصير له بتلك الزلازل لسان صدق في الآخِرين، ويكون لعلمه حظ لا يكون لغيره[٢].

---

(١) المصدر السابق (٧٢/٢٥٨)
(٢) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١/٦٥)

هل للإبداع علاقة بالذكاء؟

الذي عليه أكثر الباحثين في هذا الباب: أن الذكاء ليس لازمًا للإبداع، وإن كان مؤثرًا فيه(١).

قال الشيخ محمد الخضر حسين -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٧هـ): ومن لم تكن همته في العلم كبيرة لم يَكفِهِ ذكاؤه، ولا جِدُّه في الطلب لأنْ يكون عبقريًا؛ فقد يكون الرجل ذكيًا مُجدًا في التحصيل، وصغر همته يُحْجِم به أن يوجه ذكاءه إلى نقد آراء قديمة، أو ابتكار آراء جديدة حميدة:

إذا غامرتَ في شَرَفٍ مَرومٍ فلا تقْنَعْ بما دون النُّجومِ(٢)

واعلم أن الذكاء نابع من جَودة القريحة، وثُقوب الذهن، حاوٍ لجواهر نفيسة، فإذا طلب صاحبه العلمَ، فبلغ فيه مبلغًا، فقد حفظ جمالها على نفسه، وأحرز منفعتها لها(٣).

ولذلك؛ فأنت تجد في أشخاص زامَلْتَهم في مراحلك الدراسية، وقد كانوا نابغين نابِهين متفوقين، أو موهوبين. فأين هم الآن بعدما تخرجتم، وشققتم طريقكم في الحياة؟!

والكثيرون في طريق طلب العلم يسيرون، ولكنَّ القليلين هم الذين يواصلون، والأقل هم الذين يصِلون فيُفلِحون.

ومن جميل النقول: أن الأعمش -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٨هـ) كان طلابه كثيرون جدًا، فقيل له: يا أبا محمد، ما ترى؟ ما أكثَرهم! فقال: لا تنظروا إلى كثرتهم، ثُلثهم يموتون، وثُلثهم يلحقون بالأعمال، وثُلثهم من كل مئةٍ يفلح واحد(٤).

---

(١) مجلة البيان (١٤٠/١٠٠)
(٢) موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين (٢٧٠/١/٥)
(٣) بتصرف من: الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص: ٧٣)
(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (١١٤/١)

وهذه المحصلة النهائية مؤسفة أحيانًا، فثَمَّتَ أذكياء كان لهم حضور فاعل، فلما تأخروا وغابوا لم يُفقدوا، وكأنهم لم يتفوقوا أو يُبدِعوا.



٢. دعوة إلى الإبداع العلمي

إذا قيل «إبداعات العلماء» انصرف الذهن للاختراعات الحسية المذهلة، والناس تَبهرهم المخترعات المحسوسة أكثر من المعنوية، ولكن عند التحقيق؛ فإن بعض المخترعات الذهنية أكثر انبهارًا، وأقوى آثارًا.

ففي طائفة من أبواب العلم مَهَامِهُ فِيْحٌ، تَحارُ فيها القَطا، ومَفاوِزُ تَقْصُر بها الخُطا، ومَجَاهلُ تَضِل فيها أحلام أُولي النُّهَى، لكن الله انتدب لها أفرادًا من العلماء الراسخين، فمهَّدوها للطالبين، وذلَّلوها للراغبين.

بالمبدِعات عنهم سار المثلْ وطبق الأرض سهولًا وجبلْ
وعندهم غَوص على العلوم منثورها والمحكم المنظوم[١]

ونحن تشتد حاجتنا إلى الإبداع في العلم والتأليف؛ لأن بعض البيئات تُعَوِّدك الرَّتَابة، واستنساخ جهود السالفين.

وإن عِظَم الهمة يدعو طلاب علوم الشريعة الإسلامية خصوصًا، أن يمدوا أنظارهم إلى هذه العلوم الحديثة؛ ليكونوا من مُجملها على بصيرة، وليزدادوا بها بينة على بيناتهم المفحمة لهذه الفئة، التي تزعم أن بين الدين والعلم خلافًا، وأن من العلم ما لا يستقر مع حقائق الدين في نفس واحدة.

وطالبُ العلم العبقري، الذي يخوض العلم بنظر حر، ويتناول مباحثه

(١) كنوز الذهب في تاريخ حلب (٢/٣٥٥)

بنقد وبصيرة، يكون أعظم همة ممن يجمع مسائله حفظًا، ويتلقاها كما يتلقاها «حاكي الصدَى»[١].

ومن روائع الأقوال في مجال الإبداع العلمي، مقولة نفيسة للخليل بن أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٠هـ) حيث يقول: نَوَازِع العلم بدائع، وبدائع العلم مَسارِح العقل[٢].

ومدلول هذه المقولة الآنفة يفيد أمرين يفيد أمرين:

- أنه ليس الإبداع في كل العلم، ولكن يُنتزع منه انتزاعًا.
- أن تلك المنتزَعات البديعات فرصة سانحة؛ ليُبدع فيها عقول الأذكياء، ويَحير فيها النُظَراء.

فيا من يتوسم في نفسه علائم الذكاء: انطلق؛ فالباب مفتوح للداخلين، واصعد على سلم المعالي، ولا تخشَ السقوط، وإلا فأمسِكْ بجذع شجرة الإبداع ولا تخَفْ، فوَرَبِّك! ما هو إلا أن تَهُزَّ جذعها، فتُساقِطْ عليك رُطَبًا جَنيًا، ثم يهطل وَدْق السماء الهتَّان، فيُنبت من بديع العلم وسْميًا. فبديعه ميسر الولوج، بهيُّ الرياض والمروج، وأجواؤه كلَيْلِ تِهامة، لا حرَّ ولا قَرَّ، ولا مخافة ولا سآمة.

موقفنا من المبدِعين

للإبداع في عظمة الأمة حظ كبير، لذلك نرى الشعوب والأقطار يُباهي بعضها بعضًا بالمبدعين من علمائها.

وانظر إلى رسالة كتبها أبو الوليد الشقندي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٩هـ) حين ذكر العلماء المبدعين بالأندلس، وهو يقارنهم بعلماء المشرق، فيقول: وإنك إن تعرضت للمفاضلة بالعلماء، فأخبِرني هل لكم في الفقه مثل عبد الملك بن

(١) بتصرف من موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين (٥٥/١/٥)

(٢) طبقات النحويين واللغويين (ص: ٤٨)

حبيب، الذي يُعمل بأقواله إلى الآن، ومثل أبي الوليد الباجي، ومثل أبي بكر ابن العربي؟!..نجوم الإسلام، ومصابيح شريعة محمد ﷺ وهل لكم في الحفظ مثل أبي محمد بن حزم؟! الذي زهد في الوزارة والمال، ومالَ إلى رتبة العلم، ورآها فوق كل رتبة(١).

بل ولابن حزم نفسه أيضًا -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) رسالة؛ نوَّه فيها بفضل الأندلس، فذكر طائفة من جهابذة تلك البلاد، يقيسهم ببعض علماء الشرق وأدبائه. فيقول: وبلدنا هذا - على بُعده من ينبوع العلم، ونأْيِهِ من مَحِلَّةِ العلماء، فقد ذكرنا من تآليف أهله، ما إنْ طُلب مثلها بفارس، والأهواز، وديار مضر، وديار ربيعة، واليمن، والشام، أعوزَ وجود ذلك.. وإذا سمَّينا بقيَّ بن مَخلد لم نُسابق به إلا محمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج النيسابوري، وسليمان بن الأشعث السجستاني، وأحمد بن شعيب النسائي(٢).

يقولون ذِكر المرء يُبقِي لنسلِهِ ... وليس له ذِكر إذا لم يكن نَسْلُ
فقلت لهم: نَسلي بدائع حكمتي ... فمَنْ سرّه نسلٌ فإنا بذا نَسْلُوا(٣)

ومن الناس من ينظر إلى علماء الشريعة والأدب نظرة دُونية، فلا يرى -بزعمه- عظمة أولئك العلماء إلا فيمن يَكتشف مخترعات، أو يعلم ظاهرًا من الحياة الدنيا من خلال العلوم التجريبية.

قال ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ): واعلموا أنه لولا العلماء الذين ينقلون العلم، ويُعلِّمونه الناس جيلًا بعد جيل؛ لهلك الإسلام جملةً، فتدبروا هذا، وقِفوا عنده، وتفكروا فيه نِعِمَّا، ولذلك سُمُّوا ورثة الأنبياء(٤).

وبعض البيئات لا تعتني بعلماء الشريعة واللغة، ولا ترفع بهم رأسًا،

(١) فضائل الأندلس وأهلها (ص: ٣٣)
(٢) رسائل ابن حزم (١٨٧/٢)
(٣) المختصر في علم الأثر (ص: ١٨١)
(٤) المصدر السابق (١٥٣/٣)

بل بعضهم صار أحطَّ نظرةً، بحيث إنه مُولَعٌ بتتبع مثالب أولئك العلماء وإبرازها، وكتم مناقبهم، وإهمالها.

قال الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ): ومن لم يحفظ من أخبارهم إلا ما نَزَر من بعضهم في بعض، على الحسد والهفَوات، والغضب والشهوات، دون أن يُعنَى بفضائلهم، ويَروِيَ مناقبهم، حُرم التوفيق، ودخل في الغيبة، وحادَ عن الطريق[١].

مــن كل معنــىً بديــعٍ راقَ مبتكَــرٌ   عرائسًــا يَعتــرِي حُسّــادَها ضَغَــنُ[٢]

احذر هذه العبارة المثبِّطة عن الإبداع:

يا أيها السالك طريق الإبداع: احذر من التأثر بعبارة: «ما ترك الأول للآخِر شيء».

ولذا نقل ابن عبد البر - رحمه الله تعالى - (ت ٤٦٣هـ) أنه: لا كلمةَ أضرُّ بالعلم وبالعلماء والمتعلمين من هذه الكلمة[٣].

وعلَّل حاجي خليفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٦٧هـ) وجه ضرر هذه الكلمة، بأنها: تقطع الآمال عن العلم، وتَحمل على التقاعد عن التعلم، فيقتصر الآخِر على ما قدم الأول من الظواهر، وهو خطر عظيم، وقول سقيم، فالأوائل وإن فازوا باستخراج الأصول وتمهيدها، فالأواخر فازوا بتفريع الأصول وتشييدها.

قــل لمــن لا يــرى المعاصــر شــيئًا   ويـــرى لـــلأوائـــل الـتـقـديـمـا
إن ذاك الـقـديـم كـــان حديثًا   وســيبقى هــذا الحديــث قديمــا[٤]

وقائل هذه العبارة الضارة أو مصدِّقها إنما يبرر لكسله أو فشله.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١١١٨/٢)
(٢) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (١٢٠/٣)
(٣) جامع بيان العلم وفضله (٤١٦/١)
(٤) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٣٨/١)

قال الجاحظ - رحمه الله تعالى - (ت ٢٥٥هـ): إذا سمعت الرجل يقول: ما ترك الأول للآخِر شيئًا؛ فاعلم أنه ما يُريد أن يُفلح(١).

حقًا: لنحارب هذه العبارة المثبطة، ولْتُعدَّل إلى عبارة محفِّزة، فلْيُقَل بدَلَها: كم ترك الأول للآخِر من شيء. وحينئذ يستبدل بالنفي إثباتًا، ويكون المحذور مطلوبًا

وهذه العبارة البديلة المحفزة قد ضمنَّها الشاعر، فأجاد حين قال:

فقُل لمن بالسبْق قد فُضِّلوا كم ترك الأول للآخِرِ(٢)

بل الشاعر الآخر يؤكد مفتخرًا قائلًا:

فَسَلْ منصفًا عن حالتي غيرَ جائر يُخَبِّرْك أن الفضل للمتأخرِ(٣)

ومن جميل النقول ومَتينها -في هذا المقام- ثلاثة نُقول دافعة رافعة:

أحدهما: لابن بسام -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٢هـ) إذ يقول: وكم من نكتة أغفلتْها الخطباء، ورب متردِّم غادرته الشعراء، والإحسان غير محصور، وليس الفضل على زمن بمقصور؛ وعَزيز على الفضل أن يُنكَر، تَقَدَّمَ به الزمان أو تأخر، ولَحَى الله قولهم: الفضل للمتقدم؛ فكم دَفن من إحسان، وأخمل من فلان. ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين لضاع علم كثير، وذهب أدب غزير(٤).

والنقل الثاني الجميل: قول النحوي ابن مالك صاحب الألفية -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٢هـ): إذا كانت العلوم مِنحة إلهية، ومواهب اختصاصية؛ فغير مستبعَد أن يُدَّخر لبعض المتأخرين ما عسُر على كثيرٍ من المتقدمين -أعاذنا الله من حَسَدٍ يَسُدُّ باب الإنصاف، ويَصُد عن جميل الأوصاف-(٥).

---

(١) معجم الأدباء (٢١٠٣/٥)
(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٢٩٨/٩)
(٣) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٣٤١/١)
(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (المتوفى ٥٤٢هـ) (١٣/١)
(٥) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد (ص: ٢)

والنقل الثالث البليغ قول العلامة صِدِّيق خان -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ): ولا غَرْوَ في هذا؛ فرُبَّ حديث تَقدم على قديم وسبق وإن تأخر، فالرجال معادن، ولكل زمان محاسن، والخواطر مَوارد لا تُنزح، والأفكار مصابيح لا تُطفأ، والأفهام مرايا لا تَتناهى صورها، والعُقول سحائب لا يَنْفَد مطرها، والمعالي غير متناهية، والفضائل غير متوارية، وأُم الليالي وَلود، والفضل في كل حين مشهود، وإن الفضل بيد الله، يؤتيه من يشاء[١].

إذًا قُل: كم ترك الأول للآخِر من شيء، ولا تقُل: ما ترك الأول للآخِر من شيء. ونادِ بلسان الشاعر القائل:

من قال قبلي في قرون قد مضوا ... الفضل للمتقدِّم المتبحِّر
فليعكسنّ ليَ القضية وليقل ... الفضل كل الفضل للمتأخر[٢]

توجيهٌ وجيهٌ:

ليس معنى هذا أن يهوَّن من علم السلف، وأن الخلف فاقُوهم، حاشا وكلا!

فالقرون الثلاثة مفضَّلة ومقدَّمة في الجملة، فإن الله تفضل على القرون الأولى بفضائل، لم تكن لمن بعدهم، وكلامهم قليل كثير البركة، وكلام مَن بعدهم كثير، وهو أقل بركة.

ولذا قال ابن رجب -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٥هـ) : فلا يوجد في كلام مَن بعدهم من حق، إلا وهو في كلامهم موجود بأوجز لفظ، وأخصر عبارة، ولا يوجد في كلام مَن بعدهم من باطل، إلا وفي كلامهم ما يبين بطلانه، لمن فهمه وتأمله، ويوجد في كلامهم من المعاني البديعة، والمآخذ الدقيقة، مالا يَهتدِي إليه مَن بعدهم، ولا يُلِمُّ به[٣].

(١) الحطة في ذكر الصحاح الستة (ص: ٢٨)
(٢) مجمع الآداب في معجم الألقاب (٤/٤٩١)
(٣) بيان فضل علم السلف على علم الخلف (ص: ٥)

وقال السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) مُنبهرًا ومتعجبًا: فلله دَرَّ السلف! ما كان أوقَفَهم على المعاني اللطيفة، التي يدأَب المتأخرون فيها زمانًا طويلًا، ويُفْنُون فيها أعمارهم، ثم غايتهم أن يحوموا حول الحِمى[1].



(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/٢٩١)

٣. الشريعة وعلماؤها هم منبع الإبداع

إننا -بحمد الله- في أمة سبَّاقة، وللمعالي توّاقة، تعيش في مفاخر زاخرة، ومآثر ممتدة، يتوارثها طارِفٌ عن تالِدٍ، وهذه المفاخر والمآثر لا بد أن نُبَيِّنها ونَبْنِيَها في نفوسنا ونفوس أجيالنا، ونوقن أن أُمَّتنا أكمل الأمم، وأحدُّها ذكاءً، وأن أمة اليهود والنصارى لم يحوزوا من علوم الاختراع والإبداع ما حُزْنا، وأن ما نراه من حالنا غير المُرضية، إنما هو تكاسل منا نحن المسلمين، وإلا فالقدرات ظاهرة، والطاقات باهرة، لكنها خاملة لا نشِطة، ونائمة لا ميتة.

قال ابن تيمية: كل من استقرأ أحوال العالم وجد المسلمين أحدَّ وأسدَّ عقلًا، وأنهم ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال، أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال[١].

ولابن تيمية مقولات أخرى رائعة ومتفرقة، تعضد هذا الأمر، وتكشف مصداقيته.

قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): فليس عند أهل الكتاب فضيلة علمية وعملية؛ إلا وأمة محمد ﷺ أكمل منهم فيها. فأما العلوم: فهم أحذق - في جميع العلوم - من جميع الأمم، حتى العلوم التي ليست بنبوية ولا أُخروية، كعلم الطب -مثلًا- والحساب، ونحو ذلك، هم أحذق فيها من الأُمَّتين، ومصنفاتهم فيها أكمل من مصنفات الأُمَّتين، بل أحسن علمًا وبيانًا لها

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٤)

من الأولين، الذين كانت هي غاية علمهم، وقد يكون الحاذق فيها مَن هو عند المسلمين منبوذ بنفاق وإلحاد، ولا قدْر له عندهم، لكن حصل له بما يَعلمه من المسلمين، من العقل والبيان، ما أعانه على الحذق في تلك العلوم، فصار حُثالة المسلمين أحسن معرفة وبيانًا لهذه العلوم من أولئك المتقدمين(١).

ومن الشواهد المعاصرة، العاضدة لكلام ابن تيمية: ما نراه من المفاخر التي حصلها المبدعون من شبابنا وبناتنا، المبتعثين للدراسة في بلاد الشرق والغرب، فإن طائفة منهم برعوا في علوم يتلقونها، أو مسابقات يشاركون فيها، فتفوَّقوا فيها، بل ففاقوا أهلها.

وقال ابن تيمية -أيضًا-: المسلمون لا يشك أحد من الأمم أنهم أعظم الأمم عقولًا وأفهامًا، وأتمُّهم معرفة وبيانًا.. وأنهم لم يَحصل في النوع الإنساني أمة أكمل منهم.. وحصل لهم من العلوم النبوية والعقلية ما كان للأمم قبلهم، وامتازوا عنهم بما لم تعرفه الأمم(٢).

وفي موضع آخر قال: ولا ريب أن أمة محمد أكمل عقولًا.. ولهذا كانت علومهم، وأعمالهم القلبية وإيمانهم أعظم(٣).

وقال -رحمه الله تعالى- عن رجاحة عقول السلف، ورسوخ علومهم: ومما يجب أن يستقر في النفوس أن سلف هذه الأمة أوتوا عمقًا في الفهم لم يؤته عامة من جاء بعدهم؛ فإن السلف كانوا أعظم عقولًا، وأكثر فهومًا، وأحدَّ أذهانًا، وألطف إدراكًا.. وهم أعلم الأمة باتفاق علماء الأمة(٤).

حتى إن ابن تيمية يفضِّل عقل النصراني المتربِّي عند المسلمين، على

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٢٢/٦)
(٢) المصدر السابق (٧/٣)
(٣) المصدر السابق (٣٠٠/٥)
(٤) درء تعارض العقل والنقل (٢٨٧/٧)

الذي تُرُبِّي عند بني مِلَّته. ولذا قال: والنصارى الذين تربَّوا تحت ذمة المسلمين، أكمل من غيرهم من النصارى عقولًا وأخلاقًا[١].

وإن المقومات التي تقوم عليها العلوم والفُهوم، وتبنَى عليها قواعد الشريعة، لهي قواعد متينة، ومتقدمة بل متفوقة. فلا غرابة -إذًا- أن تُنتج أجيالًا متعاقبين من العلماء العظماء، الذين يجدد الله بهم الدين، ويدحض بهم ما يضاده.

التجديد والإبداع مطلب شرعي

علماء الشريعة خصوصًا؛ قد فتح الله بهم من القلوب مُقْفَلها، وأزاح بهم عن النفوس عِلَلَها، فقَمَع بهم زيغ الزائغين، وشكَّ الشاكِّين، وانتحال المبطِلين، وصدقت بهم بشارة رسول رب العالمين، بقوله ﷺ: **إن الله عَزَّوَجَلَّ يَبعثُ لهذه الأمة، على رأسِ كل مئةِ سَنَة، مَن يُجدِّدُ لها دِينَها**[٢].

والظاهر- والله أعلم- أن الحديث يعم كل صنف من أصناف العلماء، من مفسرين، ومحدثين، وقراء، وفقهاء، ونحاة، ولغويين، إلى غير ذلك من أصناف العلوم النافعة[٣].

والمراد من تجديد الدين للأمة إحياء ما اندرَس من العمل بالكتاب والسنة، والأمر بمقتضاهما، وإماتة البدع والمحْدَثات، وكسر أهلها باللسان، أو تصنيف الكتب، أو التدريس أو غير ذلك[٤].

---

(١) الجواب الصحيح (١/١٦٥)

(٢) سنن أبي داود (٤٢٩١) وقد صحح إسناده اثنا عشر عالِمًا، وهم: الحاكم والبيهقي والعراقي وابن حجر والسخاوي والسيوطي والعجلوني وملا علي قاري والمناوي والشوكاني والألباني. بل قال السيوطي: اتّفق الحفّاظ على تصحيحه. وقال العجلوني: اعتمده الأئمة. انظر: شرح مختصر الروضة (٣/١٤٤) والتنوير شرح الجامع الصغير (١/١٥٤) و(٣/٣٦٩) والتيسير (١/٢٦٧) وفيض القدير (٢/٢٨٢) ومرقاة المفاتيح (١/٣٢٢) وقطر الولي (ص: ٣٣٦) والمقاصد الحسنة (ص: ٢٠٣) ومرقاة الصعود (٣/١٠٦١) وكشف الخفاء (١/٢٧٦) والسلسلة الصحيحة (٢/١٤٨)

(٣) البداية والنهاية ط هجر (١٩/٤٢)

(٤) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/٣٤٠)

فيبعث الله هؤلاء المجدّدين المبدعين، الضاربين من كل غنيمة بسهم؛ ليُعيدوا للناس الثقة بدينهم، ويعلموهم ما جهلوا من شأنه. وليس تجديدهم بإضافة شيء جديدٍ إلى الدين، فهذا ليس بتجديد، وإنما هو تبديد وتهديد.

وإن تراث العلماء الثمين، فيما دَوَّنوه من تقريرات، أو دبَّجوه من تحريرات، لهي علامة جلية جليلة على نَواحٍ فائقة من الإبداع العلمي، سواء في جانب السَّبْك والبلاغة، أو جانب الرد والحجة، أو في جانب الفهم والاستنباط، أو في موهبة الحفظ، والحفظ أعجب. فالإبداع سَمْتُهم، والحفظ سِمَتُهم، وليس الاستحفاظ.

ومن الأمثلة على العلوم الشرعية الضخمة الدقيقة: علم الحديث، وعِلَلُه، ورجاله، فهذا العلم من مفاخر أمة المسلمين على غيرهم من الأمم، وهو علمٌ ضخم التفريعات، دقيق النتائج والمحصلات، للتوصل إلى صحة الحديث من ضعفه، ويسبق هذه النتيجة بحوث دقيقة متفردة وعجيبة، في تاريخ الرواة، وسيَرهم العلمية، والخُلقية، ومنزلتهم في الصدق والضبط والأمانة، ومن المعدَّل ومَن المجروح؟! حتى نشأ بين أيديهم من دقة التعقُّب والتقصي والتتبع علم مستقل، عُرف فيما بعد بعلم الإسناد، أو علم الرجال،

وقد أفنى علماء الحديث أعمارهم، وأراقوا فيها ماء عيونهم، من أجل هدف واحد نبيل، ألا وهو نفي الخطأ والكذب على رسول الله ﷺ.

وهذا العلم لا نظير له عند غير المسلمين، لا قديمًا ولا حديثًا، وقد اعترف بذلك المستشرقون فقالوا: يحق للمسلمين أن يفتخروا بعلم الحديث من علومهم، فقد دُرِس بفضل علم الرجال الذي صَمَّمه المسلمون حياة نصف مليون رجل.

الإبداع في بابٍ أو مسألة من العلم

إن للعلم رياضًا وحياضًا، وخمائل وغِياضًا، وطرائق وشعابًا، وشواهق وهضابًا. يتفرع عن كل أصل منه أفنان وفنون، وينشق عن كل دَوحة منه جذوع وغصون.

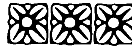
وقد عُني به في كل عصر عصابة، هم أهل الإصابة، أحرزوا دقائقه، وأبرزوا حقائقه، وقنصوا شوارده، ونظموا قلائده.. فألَّفوا وأفادوا، وصنفوا وأجادوا، وبلغوا من المقاصد قاصيتها، وملكوا من المحاسن ناصيتها، جزاهم الله رضوانه[١].

واعلم أنه كلما اهتدى العالِم إلى مسألة فريدة من مسائل العلوم الصحيحة؛ تنفتح له بها كُوَّة في العالَم، يُشرف منها على كُوىً كثيرة، يتحقق أن وراءَها مشاهد عظيمة، فتنبعث نفسه إلى فتحها، حتى يكون إمامًا في ذلك العلم المطروق، وحينها يزداد شغفًا لطلب المزيد، ويتفوق في مجاله على نظرائه، بل على السابقين من علمائه.

فلو سألت -مثلًا-: كيف تفوَّق الشافعي على العلماء في علم الأصول؟

والجواب خذه من كلام الفخر الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ) حيث قال: استنبط الشافعي - رحمه الله - علم أصول الفقه.. والناس كلهم عيال على الشافعي فيه؛ لأنه هو الذي فتح هذا الباب، والسبْق لمن سَبَق[٢].

يا مبدعًا تأتي بدائعه ... فينا بما تستعجِز الفِكَرا
يا أيها الحَبر الّذي نَشرت ... ألفاظه من فضله حِبَرا[٣]



(١) القاموس المحيط (ص: ٢٦)
(٢) مناقب الشافعي للفخر الرازي (ص ٥٧)
(٣) قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان (١١٨/٨)

٤. اعترافات المنصفين من المفكرين الكافرين أن الشريعة وعلماءَها هم منبع الإبداع

لقد أحرزت الشريعة الإسلامية قصَب السبْق، في احتوائها مقومات النهوض والرقي.

وهذا أمر تَوَاتَر على الاعتراف به أعداء الدين، وإليك بعض اعترافات وآراء المنصفين من المفكرين والباحثين في القانون والشرع، من غربيين وشرقيين مختلفي المشارب والأفكار؛ لتعرف أن الحق لا يعدم نصيرًا، وأن تلك الشريعة حقًا هي منبع الإبداع والمبدعين:

١. المؤرخ الفيلسوف «جورج سارتون» يطرح بكل شفافية وجرأة، خلاصة رأيه لأثر المسلمين على الحضارة الإنسانية: المسلمون عباقرة الشرق في القرون الوسطى، لهم مأثرة عظمى على الإنسانية، يتمثل في أنهم تولوا كتابة أعظم المؤلفات والدراسات قِيمة، وأكثرها أصالة وعُمقًا، مستخدمِين في ذلك لغتهم العربية، التي كانت -بلا مِراء- لغة العلم للجنس البشري.. ومن الصعب أن تتصور ماذا يمكن أن يكون الوضع، لو لم يَقُم العرب والمسلمون بحمل رسالة العلم والثقافة، وتطويرها، وحملها إلى الأجيال التالية(١).

٢. يرى الأستاذ لامبير الفرنسي: أن الكتب والمؤلفات الموضوعة في

(١) أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية - أحمد علي الملا (ص١١٠)

الشريعة الإسلامية كنز لا يفنَى، ومنبع لا يَنْضَب، أمدّت المدنية المسيحية الحاضرة، بقسط وافر من الأصول العامة.

٣. قال النصراني السوري فارس الخوري: لم يستطع علماء القانون المنصفون، إلا الاعتراف بأن الشريعة المطهرة متَّفقة مع العلم، مطابقة لأرقى النُّظُم والحقائق العلمية.

٤. قال المفكر سنتيلانا: إن في الفقه الإسلامي ما يكفي المسلمين في تشريعهم المدني، إن لم نَقُل: إن فيه ما يكفى الإنسانية كلها.

٥. قال الأستاذ شبرل، عميد كلية الحقوق بجامعة فيَنّا: إن البشرية لَتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها، إذ أنه -رغم أمِّيَّته- استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أن يأتي بتشريع؛ سنكون -نحن الأوربيين- أسعد ما نكون، لو وصلنا إلى قِمَّته بعد ألفَي سنة.

٦. قال هوكنج الأمريكي، أستاذ الفلسفة بجامعة هارفرد: إني أشعر بأني على حق، حين أقدِّر أن الشريعة الإسلامية تحتوي على جميع المبادئ اللازمة للنهوض.

٧. في قرار المؤتمر الدولي للقانون المقارن، الذي انعقد في لاهاي سنة ١٩٣٧م وخلاصته: أن الشريعة الإسلامية حية، صالحة للتطور، ومسايِرة للمدنية الحديثة[١].

أرأيت كيف أن الأمم الأخرى - والتي نظن أنها متحضرة- قد استعظمَتْ حضارة أُمتنا.

---

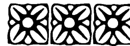
(١) النقول الستة الماضية كلها منقولة من: فقه الإسلام - حسن أحمد الخطيب (ص٤٠٦ -٤١٣). ضمن مقالة مقنعة مُوعِبة بعنوان: الشريعة الإسلامية وأعلام القانون في هذا العصر. والمقالة موجودة -أيضًا- في مجلة الرسالة (١٧/٦٨٩)

أرأيت كيف أن بين أيدينا كنوزًا قد فرطنا فيها، وتراثًا ثاويًا قد نقدمه على استحياء، ونتقازم عن التطاول به إذا ما قُورِن بحضارة الشرق أو الغرب، ولكنهم هم بما عندنا منبهرون، وبتَليد حضارتنا يُفاخرون.

أبيات فخمة، تستنهض همم المعاصرين، وتُشيد بالمبدعين الغابرين:

للشاعر محمود غنيم -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٢هـ)

إنّـي تذكّـرْتُ - والذكـرى مُؤَرّقـةٌ -   مجـدًا تليـدًا بأيدينـا أضَعْنَـاهُ
كـم صرّفَتْنَـا يـدٌ كنـا نصرِّفُهـا   وبـات يملكنـا شـعبٌ مَلَكْنـاهُ
الدِّيـنُ والضـادُ مـن مَغناكـم انبعثا   فطبّقـا الشـرق أقصـاهُ وأدنـاهُ
سَـلِ الحضـارةَ ماضيهـا وحاضرَهـا   هـل كان يتّصـل العهـدانِ لـولاَهُ؟
وكيـف سـاسَ رعـاةُ الإبْـل مملكـةً   مـا ساسَـها قيصـرٌ مـن قبـلُ أو شـاهُ
استرشَـد الغـربُ بالماضـي فأرشَـدَهُ   ونحـن كان لنـا مـاضٍ نسِـيناهُ
إنّـا مَشَـيناَ وراء الغـرب نقبـسُ مـن   ضيـائـه فـأصابـتـناَ شـظـايـاهُ
الله يعلـم مـا قلّبـتُ سـيرتَهم   يومًـا وأخطـأ دمـع العيـن مجـراهُ
مـاضٍ نعيـش علـى أنقاضـه أُممـا   ونسـتمدُّ القُـوى مـن وَحْـي ذكـراهُ
لا دَرّ دَرُّ امـرئْ يُطـرِي أوائلَـه   فخـرًا وَيُطْـرِقُ إن سـاءَلْته مـا هـوْ
إنـي لأعتبـرُ الإسـلام جامعـةً   للشـرق لا محـضَ ديـن سَـنّهُ اللهُ[1]



(١) مجلة الرسالة (٥٩/٩٣) وهذه المجلة الفخمة، قد أصدرها خلال واحد وعشرين عامًا الأديبُ أحمد الزيات -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٨هـ)

٥. علماء بالشريعة أطباء بالأبدان:

الطب لوحده علم رفيع شريف، والطبيب جليل القدر عند الناس عمومًا.

ومن اللطائف أن شاعرًا نظم بيتين، يحضُّ على إكرام الطبيب والمقاتل، أكثر من إكرام وتعليم أهل الحِرَف:

هَبُـوا الأجيـر أو الحـرّاث قـد بلغـا حـدّ القـراءة فـي صُحْـف وفي كتُـبِ
مَـن المُـداوي إذا مـا علـةٌ عرَضَـتْ؟ مَـن المُدافـع عن عِـرض وعن نَشَـبِ[1]

وكان الشافعي يقول: لا تسكن ببلدة ليس فيها عالم ينبئك عن دينك، ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك[2].

فكيف إذا اجتمع الوصفان في شخص واحد؟! فهذا هو الكمال والجمال.

فأي إبداع هذا الذي يصل بعالم الشريعة، أن يكون مُلِمًّا بعلم الأبدان مع علم الأديان؟!

قال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): العلم عِلمان؛ علم الأبدان، وعلم الأديان[3].

ومن اعتناء علماء الشريعة بعلم الطب، أن عرَّفوا الفقه بأنه: الفهم، والعلم،

(١) مجلة الرسالة (٥٣/١٠٨)
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤١٠/٥١)
(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٤٢/٩)

والشعر، والطب. قالوا: لأن الفقه في العُرف مخصوص بعلم الأديان، والطب في العرف مخصوص بعلم الأبدان، والشعر في العرف مخصوص بعلم الأوزان[١].

وأما أنهم يُضَمِّنون كتبهم مسائل فقهية؛ فهذا كثير جدًا. وخذ مثالًا واحدًا فقط:

فهذا العبقري المتفنن ابن عقيل -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٣هـ) نراه يقرر مسألة طبية مهمة في زمننا، ألا وهي التأكيد على الانضباط في أوقات تناول الدواء، الموصوف من الطبيب المختص.

قال ابن عقيل: إذا قيَّد حكيمُ الطبِّ شربَ الدواءِ بوقتٍ ففاتَ، لا نعلمُ أنَ شربَهُ بعَد خروجِ الوقت سادٌّ مسدَّ شُربهِ في الوقت[٢].

والأعجب أن تجد أمثلة عجيبةً لعلماءَ بالشرع، كانوا مَهَرة بالطب، أو أن لهم فيه تأليفًا.

كم صنفوا في الطب كُتُبًا أتَتْ   بكل معنىً مبدعٍ مُغْرِبٍ[٣]

ولذا قال العبقري المتفنن القرافي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٤هـ): وكم يخفى على الفقهاء والحكامِ الحقُ في كثير من المسائل؛ بسبب الجهل بالحساب والطب والهندسة، فينبغي لذوي الهمم العلية أن لا يتركوا الاطلاع على العلوم ما أمكنهم ذلك:

فلم أرَ في عيوب الناس عيبًا   كنقص القادرين على التمامِ[٤]

وهذه التنوع والتفنن في العلوم سمة ظاهرة باهرة لأمة محمد ﷺ. ولذا قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): أمة محمد ﷺ..هم أحذَقُ في جميع

---

(١) رفع النقاب عن تنقيح الشهاب للشوشاوي (١/١٥٧ و ١٦٠)
(٢) الواضح في أصول الفقه للقرافي (٣/٦٢)
(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٥٩٦)
(٤) الذخيرة للقرافي (٥/٥٠٢)

العلوم من جميع الأمم، حتى العلوم التي ليست بنبوية ولا أخروية، كعلم الطب -مثلًا- والحساب ونحو ذلك؛ هم أحذَقُ فيها من الأُمَّتَين [اليهود النصارى]، ومصنفاتهم فيها أكمل من مصنفات الأُمَّتَين(١).

ولأجل التشجيع على التبحر بالعلوم الأخرى قال النبي ﷺ: **ما أنزل الله داء، إلا قد أنزل له شفاء، عَلِمه من عَلِمه، وجَهِله من جَهِله**(٢).

ففي قول النبي ﷺ: «**عَلِمه من عَلِمه، وجَهِله من جَهِله**» تشجيع للعلماء، والباحثين على الاجتهاد والبحث، عن دواء لكل داء لم يُكتشف علاجه.

فإليك الآن ستين مثالًا مشرِّفًا، لعلماء في الشريعة وهم -في نفس الوقت- لهم معرفة بالطب:

١- قال عروة بن الزبير -رحمه الله تعالى- (ت ٩٣هـ) لعائشة ﵂: يا أُمَّتاه، لا أَعجب من فهمك.. ولا أَعجب من عِلمك بالشعر، ولكن أعجب من عِلمك بالطب كيف هو؟ ومن أين هو؟ فضربتْ على منكبُه، وقالت: أيْ عُرَيَّةُ؛ إن رسول الله ﷺ كان يَسقَم في آخر عمره، فكانت تَقْدَم عليه وفود العرب من كل وجه، فتَنْعَتُ له الأنعاتَ، وكنتُ أعالجها له، وكنتُ أسمع الناس ينعَتُ بعضهم لبعض، فحفظتُه(٣).

٢- الخليل بن أحمد الفراهيدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٠هـ) اكتشف دواء لأحد الأطباء، ينفع لظُلمة العين، يجمع فيه أخلاطه من بضعة عشر نوعًا من الأعشاب(٤).

٣- القاضي المفضل بن فضالة القتباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ)

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٦/٢٢)
(٢) مسند أحمد ط الرسالة (٣٥٧٨)
(٣) المسند (٢٤٣٨٠) والشريعة للآجري (٥/٢٤١٢)
(٤) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (١/٢٨٢)

كان إذا أشكل عليه القضاء في شيء كتب به إلى مالك؛ حتى يأتيه جوابه، فيعمل به. وكان إذا جاءه رجل قد انكسرت يده أو رجله جبرَها[١].

٤- الشافعي - رحمه الله تعالى - (ت ٢٠٤هـ) مع إمامته في علم الشريعة- كان بصيرًا في الطب، وكان يتلهّف على ما ضيّع المسلمون من الطب، ويقول: ضيَّعوا ثلث العلم، ووكَلوه إلى اليهود والنصارى[٢]. وقال: لا أعلم علمًا بعد الحلال والحرام أنبل من الطب، إلا أن أهل الكتاب قد غَلَبونا عليه[٣].

وله أقوال في التحذيرات الطبية[٤]. وكان يقول: شيئان أَغفَلهما الناس؛ النظر في الطب، والعناية بالنجوم[٥]. ومن الطب النفسي علم الفراسة. وقد قال الشافعي عن نفسه: خرجت إلى اليمن؛ في طلب كتب الفراسة، حتى كتبتُها وجمعتُها[٦].

٥- إمام النحو الفراء -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٧هـ) فقد كان فقيهًا عالمًا بأيام العرب وأخبارها وأشعارها، عارفًا بالطب[٧].

٦- الأصمعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٦هـ) له «الطب النبوي»[٨].

٧- النحوي ابن السُّمَينة القرطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٥هـ) كان بارعًا في الأدب والعروض، عالمًا بالحديث والفقه والجدل، عارفًا بالطب والرياضيات[٩].

٨- ابن أبي داود السجستاني -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٦هـ) قال عن نفسه: أنا أعرف الطب[١٠].

---

(١) تاريخ ابن معين - رواية الدوري (٤/٤٣٩)
(٢) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/١١٦)
(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٠/٥٧)
(٤) تاريخ الإسلام (١٤/٣٣٣)
(٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/١٤٢)
(٦) المصدر السابق (٩/١٤٤)
(٧) معجم الأدباء (٦/٢٨١٣)
(٨) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/١٠٩٥)
(٩) معجم الأدباء (٦/٢٨٣٤)
(١٠) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٩/٨٣)

٩- الفقيه أبو رجاء الأسواني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٥هـ) له نظم في الطب[١].

١٠- ابن حبان البستي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٤هـ) كان عارفًا بالطب والنجوم[٢].

١١- ابن السنِّي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٤هـ) له كتاب في الطب[٣].

١٢- الحافظ أبو نعيم الأصبهاني - رحمه الله تعالى - (ت ٤٣٠هـ) له كتاب في الطب[٤].

١٣- ابن سميق القرطبي - رحمه الله تعالى - (ت ٤٥١هـ) محدّث وقته. كان قويّ المشاركة في عدّة علوم، حتى في الطب[٥].

١٤- الفقيه النحوي الطبيب أبو سعد الكنجروذي - رحمه الله تعالى - (ت ٤٥٤هـ) كان بارِع وقته؛ لاستجماعه فنون العلم، وكان مُسنِد خراسان في عصره[٦].

١٥- أبو المطرف عبد الرحمن اللخمي - رحمه الله تعالى - (ت ٤٦٧هـ) كان فقيهًا عالمًا متفننًا، وله في الطب تَوَاليف[٧].

١٦- المازَرِي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٦هـ) مصنف كتاب «المُعْلم بفوائد شرح مسلم» كان أحد الأذكياء الموصوفين، والأئمة المتبحرين، مرِض مَرْضة، فلم

(١) العقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ٢٣١)
(٢) ميزان الاعتدال (٥٠٦/٣)
(٣) الكتاب مفقود. وقد أشار إليه في كتابه: رياضة المتعلمين (ص٣١٦)
(٤) البداية والنهاية (٦٧٤/١٥)
(٥) العبر في خبر من غبر (٢٩٨/٢)
(٦) المصدر السابق (٣٠١/٢)
(٧) التكملة لكتاب الصلة (١٣/٣)

يجد من يعالجه إلا يهودي، فلما عوفي على يده، قال: لولا التزامي بحفظ صناعتي، لأعدمتك المسلمين. فأثّر هذا عند المازري، فأقبل على تعلم الطب، حتى فاق فيه، وألَّف فيه مؤلفًا، وكان يفتي فيه كما يفتي في الفقه(١).

١٧- ابن الإلبيري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٧هـ) من مصنفاته «شرح مشكل ما وقع في الموطأ وصحيح البخاري». وألَّف في طب العين؛ بسبب رؤيا رآها، قيل له فيها: أَلَّفتَ في نور البصيرة، فألِّف في نور البصر(٢).

١٨- أبو الربيع البُرِّيَّاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٠هـ) كان عالمًا بالأصول والحديث، مع مشاركة في الطب(٣).

١٩- أمير دولة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٩هـ) كان أسرع الناس نفوذَ خاطرٍ، في غامض مسائل النحو، وصح أنه يحفظ صحيح البخاري، وتعلَّم الطب(٤).

٢٠- الوزير العلّامة المتفنن أبو الحسن بن أبي القاسم البيهقي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٥هـ) له مؤلفات في التفسير والفقه والأصول والسيرة والبلاغة والطب، وله كتاب «تفاسير العقاقير» مجلدة ضخمة(٥).

٢١- ابن البراق - رحمه الله تعالى - (ت ٥٦٧هـ) شُهِر بحفظ كتب كثيرة من الحديث، وكان ذا نظر صالح في الطب(٦).

٢٢- الفقيه ابن رُشد القرطبي الحفيد - رحمه الله تعالى - (ت ٥٩٥هـ) كان

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٠٦/٢٠)
(٢) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٢١٠/٤)
(٣) المصدر السابق(٧٠/٢)
(٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: ١٧٤)
(٥) معجم الأدباء (١٧٦٣/٤)
(٦) المصدر السابق (٥٠٢/٤)

يُفزَع إلى فتياه في الطب، كما يُفزع إلى فتياه في الفقه. ومن مصنفاته: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في الفقه، وكتاب «الكليات في الطب»[١].

٢٣- ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) له في كل علم مشاركة، وله في الطب كتاب «اللقط» مجلدان[٢].

٢٤- علي بن عتيق القرطبي - رحمه الله تعالى - (ت ٥٩٨هـ) شيوخه يَنيفون على مئة وخمسين شيخًا. وكان بصيرًا بالقراءات والحديث. يشارك في علم الطب، وله فيه تصانيف[٣].

٢٥- الظهير النعماني الفارسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٨هـ) كان عالمًا بالنحو، والتفسير، والفقه، والحساب، والطب، يحفظ في كل فن كتابًا[٤].

٢٦- المفسر فخر الدين الرازي - رحمه الله تعالى - (ت ٦٠٦هـ) صنف في الطب «شرح الكليات للقانون»[٥].

٢٧- المقرئ النحوي ابن قراقيش الصويتي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٨هـ) كان رأسًا في الطب[٦].

٢٨- الفقيه المحدث عبد الكبير الغافقي -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٧هـ) كان عارفًا بالطب، مستفتىً فيه، ناجح العلاج[٧].

٢٩- الفقيه النحوي الطبيب عبد اللطيف ابن اللباد -رحمه الله تعالى-

---

(١) تاريخ الإسلام (٤٢/١٩٨) وجواهر الدرر في حل ألفاظ المختصر (٧/٣٢١)
(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٤٨٤)
(٣) تاريخ الإسلام (٤٢/٣٦٠)
(٤) معجم الأدباء (٢/٨٥٧) وبغية الوعاة (١/٥٠٢)
(٥) المصدر السابق (٤٣/٢١٢)
(٦) معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار (ص: ٣٢٤)
(٧) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٢/٢١١)

(ت ٦٢٩هـ) اختصر كتبًا كثيرة في الطب، وقد سمع «سنن» ابن ماجة، و «مسند» الشافعي[١].

٣٠- ابن يونس الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٩هـ) كان الأوحد في المذهب الشافعي، وكان يعرف في الطب، ويحل مسائل الرياضيات[٢].

٣١- العبقري المتفنن القرافي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٤هـ). وقد مرَّت عبارته آنفًا، وهي تدل على إحاطته بعلم الطب.

٣٢- الفقيه رشيد الدين أبو حفص الربعي الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٩هـ) برع في الطب[٣].

٣٣- الفقيه الطبيب الجمال أحمد بن الحسين الدمشقي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٤هـ) برع في الفقه على مذهب الشافعي، وكان فاضلًا في الطب، بل قد ولِيَ رئاسة الطب[٤].

٣٤- القاضي المفسر القُطْب الشِّيرازي - رحمه الله تعالى - (ت ٧١٠هـ) من بحور العلم. من كتبه «فتح المنان في تفسير القرآن» نحو ٤٠ مجلدًا، و «شرح كليات القانون في الطب»[٥].

٣٥- الفقيه الحافظ صدر الدين ابن الوكيل -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٦هـ) قالوا عنه: وأما الطب؛ فلو شاهده ابن سينا لما أطرب «قانونه»، أو ابن النفيس لعاد نفيسًا قد ذهبت نونه. ولكنه كان يعرف الطب علمًا لا علاجًا، فاتفق أن السلطان حصل له سوء هضم، فوصف له علاجًا كاد أن يهلكه! فقال له السلطان بعد أن

---

(١) المصدر السابق (٣٥٣/٤٥)
(٢) وفيات الأعيان (٣١١/٥)
(٣) الوافي بالوفيات (٢٦٦/٢٢)
(٤) البداية والنهاية ط هجر (٦٨١/١٧)
(٥) الأعلام للزركلي (١٨٧/٧)

شُفي: أقبل على فقهك ودَعِ الطب؛ فإن غلط المفتي يُستدرك، وغلط الطبيب لا يُستدرك(١).

٣٦- كمال الدين ابن الزملكاني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٧هـ) مرض مرةً، وكان يعالجه جملة من الأطباء، فخرج يومًا من عنده رئيس الأطباء وقال: الله لا يُعافي هذا الشيخ كمال الدين! قيل: لأي شيء؟! قال: حتى يَطول علاجنا له واجتماعنا به؛ لأننا نسمع منه أسماء أعضاء ما كنا نحققها، وأمراض ما نصححها، فاستفدنا منه تصحيح ألفاظ ذلك كله(٢).

٣٧- ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) وقد ذكر الذهبي بَصَرَه بالطب، حيث قال: ورأيت شيخنا الشيخ تقي الدين ابن تيمية بصيرًا بالطب(٣).

وله أحوال في علاجه لأمراضه وعلاجه للمرضى بالرقى وكان يعالج بآية الكرسي، وكان يأمر بكثرة قراءتها المصروع ومن يعالجه بها، وبقراءة المعوذتين(٤).

وربما يناقش الأطباء في طِبِّهم، ويقنعهم، فقد تحدث مرةً مع ابنَ القيم عن قصة وقعت له فقال: ابتدأني مرض، فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض. فقلت له: لا أصبر على ذلك، وأنا أحاكمك إلى علمك، أليست النفس إذا فرحت وسُرَّت قويَت الطبيعة، فدفعت المرض؟! فقال: بلى. فقلت له: فإن نفسي تُسَرُّ بالعلم، فتقوى به الطبيعة، فأجد راحة! فقال: هذا خارج عن علاجنا!(٥).

---

(١) فوات الوفيات (١٣/٤) وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢٥٥/٩) والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٣٧٣/٥)
(٢) أعيان العصر وأعوان النصر (٦٣٤/٤)
(٣) الطب النبوي للذهبي (ص: ٢٢٨)
(٤) زاد المعاد (٦٨/٤ - ٦٩) و (٣٥٨/٤)
(٥) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٧٠)

٣٨- ابن فرج الطرسوني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٠هـ) كان قائمًا على النحو والفقه والقراءة، بفضل نباهته وذكائه، وكان صَنَعَ اليدين، يُحْكِم تراكيب الطب[١].

٣٩- ابن لاجين الأغَري -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ) كان فقيهًا عالمًا بالنحو والتفسير والقراءات والطب[٢].

٤٠- الأديب ابن الأكفاني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ) تقدَّم في معرفة الطب، فكان يُصيب، حتى يتعجب الحذاق في الفن منه. وله كتاب «غُنية اللبيب عند غَيبة الطبيب»[٣].

٤١- محمد بن الصريخى -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٠هـ) كان من صدور المقرئين، قائمًا على العربية، مشاركًا في الفقه، ودرَّس في الطب[٤].

٤٢- ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) له «الطب النبوي» وهو المجلد الرابع من «زاد المعاد»، وله «الطاعون» وله مَباحث في الطب في ثنايا كتبه، كـ «تحفة المودود» و«مفتاح دار السعادة».

قال عن نفسه وهو يقرر قاعدة طبية: ذاكرتُ مرة بعض رؤساء الطب بمصر بهذا، فقال: والله لو سافرتُ إلى الغرب في معرفة هذه الفائدة لكان سفرًا قليلًا[٥].

٤٣- ابن زين العرب -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٨هـ) عالم بالحديث والنحو، وشرح «كليات القانون» لابن سينا[٦].

---

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٣٨٩)
(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٨٦/١)
(٣) الوافي بالوفيات (٢١/٢) والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٣/٥)
(٤) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٥١٩/٥)
(٥) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١٧/١)
(٦) المصدر السابق (٣١٠/٤)

٤٤- ابن المُغْلِي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٨هـ) يحفظ في كل مذهب فقهي متنًا، ولما اشتغل أهل بلده بالطب حفظ «القانون»[١].

٤٥- يحيى بن الكرماني - رحمه الله تعالى - (ت ٨٣٣هـ) حفظ القرآن، و«الشاطبية» و«الكافية» و«الشافية» و«الحاوي في الفقه».. وعمل كتابًا في «الطب» نظمًا ونثرًا[٢].

٤٦- الفقيه ابن نَعيم البساطي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٢هـ) يُتقن الطب[٣].

٤٧- أبو زرعة البيجوري -رحمه الله تعالى- (بعد ٨٩٩هـ) أخذ الحديث والفقه عن ابن حجر، وأخذ الطب عن الزين ابن الجزري[٤].

٤٨- الحاج عزوز الصنهاجي -رحمه الله تعالى- (نحو ٩٠٠هـ) جوّد القرآن، وحفظ الحديث والتاريخ، ونبغ في الطب[٥].

٤٩- يوسف بن عبد الهادي بن المِبْرَد - رحمه الله تعالى - (ت ٩٠٩هـ): وهذا الفقيه الحنبلي مِن أعجب مَن مرَّ عليَّ، فقد ألَّف في الطب والأعشاب ثمانيًا وأربعين رسالة، ومنها: (الكمال في أدوية الصدر والسعال - فصول مختلفة في الطب - الأدوية المفردة للعلل المعقدة)[٦].

٥٠- جلال الدين السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) له «الطب النبوي» و«المنهل الروي في الطب النبوي»[٧].

---

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٣٤/٦) والجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب أحمد (٩١/١)

(٢) المصدر السابق (٢٥٩/١٠)

(٣) المصدر السابق (٦/٧)

(٤) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٦٥/٢)

(٥) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٥٢٣)

(٦) محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (٦٤/١)

(٧) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١٠٩٥/٢) و (١٨٨٢/٢)

٥١- موفق الدين عبد اللطيف -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢٦هـ) كان عالمًا بالنحو واللغة، والطب، وله نحو مئتي مصنف[١].

٥٢- جمال الدين الحميري الشهير بحُرَق -رحمه الله تعالى- (ت ٩٣٠هـ) كانت له اليد الطولَى في جميع العلوم، وصَّنف في كثير من الفنون، كالحديث والنحو الصرف، والحساب، والطب، والأدب، والفلك[٢].

٥٣- الشيخ أحمد غرس الدين -رحمه الله تعالى - (ت ٩٧١هـ) كان فائقًا في جميع الفنون، وله «شرح الموجز في الطب»، وله حواشٍ على أوائل تفسير الكشاف وتفسير البيضاوي[٣].

٥٤- الفقيه لطف الله ابن الغياث الظفيري -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٣٥هـ) الْتَمَس منه شريف مكة أن يصنف كتابًا في الفقه والفرائض، وله في الطب يد قوية[٤].

٥٥- أحمد بن سلامة القليوبي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٦٩هـ) أشهر فقهاء الشافعية في القرن الحادي عشر، وله «التذكرة في الطب»[٥].

٥٦- أبو الإسعاد بن أيوب الخلوتي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٠٦هـ) من أكابر العلماء المحققين في سائر الفنون، حتى كان في علم الأبدان غاية لا تُدرَك[٦].

٥٧- الفقيه محمد الحجيج التونسي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٠٨هـ) له كتاب في الطب؛ قال فيه: «شرحت فيه كل مسألة عويصة»[٧].

---

(١) ذيل مرآة الزمان (١٨٠/٢)
(٢) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ١٣٣)
(٣) طبقات المفسرين للأدنه وي (ص: ٣٩٢)
(٤) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٧١/٢)
(٥) معطية الأمان من حنث الأيمان (ص: ٩)
(٦) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (٥١/١)
(٧) تراجم المؤلفين التونسيين (١٠٣/٢)

٥٨- المفسِّر القاسمي -رحمه الله تعالى - (ت ١٣٣٢هـ) ألّف في مواضيع نادرة ومتعددة، وإذا قرأتَ كتابه «دلائل التوحيد» رأيتَ فيه حصيلة حسنة من علوم الفلك والجغرافيا والجيولوجيا والحيوان والنبات. ولما أصيب بمرض «البواسير»، فدفعه أَلَمُه إلى البحث عن هذا المرض بحثًا علميًا، ووضع رسالة سماها «ما قاله الأطباء المشاهير في علاج البواسير»[1].

ومن المعاصرين الأحياء:

٥٩- الشيخ المؤلف محمد إسماعيل المقدم -حفظه الله تعالى-: له أكثر من عشرين مؤلفًا في الفقه والتربية، وهو طبيب نفساني.

٦٠- الشيخ المقرئ الطبيب الاستشاري عبد الله بن محمد الجار الله -حفظه الله تعالى-: لا زال في المسجد النبوي، يقرئ ويُجيز بالقراءات العشر، ويُحكِّم في المسابقات القرآنية الدولية، وممن قرأ عليه الشيخ د. ياسر الدوسري، إمام المسجد الحرام.



---

(١) مقدمة تفسير القاسمي (٢/١)

٥. علماء بالشريعة مختِرعون[1]:

حينما تُذكر اختراعات علماء المسلمين، يتبادر للذهن الخوارزمي في الرياضيات، وجابر بن حيان والكندي في الكيمياء، والرازي في الطب، والزهراوي في الجراحة، وابن الهيثم في الهندسة، والبيروني في الجغرافيا.

لكن قد لا يخطر في بالِ أحدنا، أن العلماء المتبحرين بعلوم الشريعة، لهم سهم في اختراع مخترعات احتاجوها، أو وجدوا فسحة من وقت فاخترعوها.

ولا يلزم من ذلك أن تكون مخترعاتهم يعم نفعها، أو تَمَسُّ حاجة الناس إليها؛ لأنهم إنما صنعوا لحاجتهم إليها، و«الحاجة أم الاختراع».

فإياك والمثبِّطين الذين يتقزَّمون عند مخترعات الغرب والشرق، كقول الشاعر:

نُـدِلُّ ونسـتعْلِي بمخترعاتهـم ... ولا كاشـفٌ منـا ولا ثَـمّ مُبـدِعُ[2]

وهذا العنوان «علماء بالشريعة مخترعون» يعطيك مؤشرًا تفاؤليًا أن العلماء

(١) أما الذي ينتهي اسمه بمهنة كان يمتهنها هو أو أبوه؛ فهذا ليس مجال بحثي، وهذا كثير جدًا. وقد استوعب ابن ماكولا هؤلاء العلماء أصحاب المهن في «الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب» (٣٨٨/٦ - ٣٩٧) وذكر منهم: العطار والعصَّار والقصَّار والقطَّان والقصَّاب. ومن الكتب المفقودة كتاب «الصُّنَّاع من الفقهاء والمحدِّثين» لابن سعيد السعدي الفروي -رحمه الله تعالى- (بعد ٢٥٧هـ). انظر: العقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ١٢٠)

(٢) مجلة الرسالة (٤٨/٢٨)

عباقرة، برغم النظرة الدونية من الناس لهم، ولولا اشتغالهم بالعلم الأعلى المعنوي لأبدعوا في الأعمال المهنية، والاختراعات الحسية.

ذلك أن الله آتاهم ذكاءً، فسخَّروه في علوم الشرع والآلة، فإن وجدوا فَضْلة وقت بادروا بتعلم جديد لا يقطعهم، فأبدعوا وما أوغلوا في تَطَلُّبه.

ومن لطيف الأمثلة قصة ابن ثوابة الكاتب -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٧هـ) حين قال له صديقه ذات يوم: إنك -بحمد الله ومَنِّه- ذو أدب وفصاحة، وبراعة وبلاغة، فلو أكملت فضائلك، بأن تضيف إليها معرفة البرهان القياسي، وعلم الأشكال الهندسية، وقرأت إقليدس وتدبّرته، فقال ابن ثوابة: وما كان إقليدس ومن هو؟ قال: رجل من علماء الروم، وضع كتابًا فيه أشكال كثيرة مختلفة.. فقال ابن ثوابة: وكيف ذلك؟ قال: لا تعلم كيف هو، حتى تشاهد الأشكال. قال: فافعل ما بدا لك، عسى أُفيدُ به براعةً في صناعة. فأتاه بشيخ، ولكنه لم يَعُد إليه بعد ذلك(١).

وهؤلاء العلماء المتفننون، تركوا الإيغال في تعلم الصناعة والاختراع في ظاهر من الحياة الدنيا، حينما وجدوا غيرهم كفاهم مؤونة ذلك.

قال الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ): الصناعات والتجارات؛ لو تُركت بطلت المعايش، وهلك أكثر الخلق.. ولو أقبل كلهم على صَنعة واحدة لتعطلت البواقي، وهلكوا.. فليشتغل بصناعة مهمة؛ ليكون في قيامه بها كافيًا عن المسلمين(٢).

والمخترعات العجيبة؛ كان ابتداء كثير منها من لدن علماء المسلمين وعباقرتهم، وهي بدعم سخي من الأمراء آنذاك. ومِن أعجبِ تلك المخترعات القديمة هذه الثلاث الآتيات:

---

(١) معجم الأدباء (٤٤٣/١)
(٢) إحياء علوم الدين (٨٣/٢)

• الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٨هـ) اتخذ له في جامعه مقصورة عجيبة، كانت مدبرة بحِيَل هندسية، بحيث تُنصب إذا استقر المنصور ووُزراؤه بمصلاه منها، وتختفي إذا انفصلوا عنها[١].

• سِنِمَّار بنى حصنًا عجيبًا لأحد الملوك، فقال له: إني لأعرف منه حجرًا، لو زُعزع لسقط الحصن. قال: فاصعد فأرنيه، فصعد فأشرف ليريه، فرمى به الملك إلى أسفل، ويقال: إنه لما فرِغ منه تعجبوا لحسنه، فقال: لو علمت أنكم تؤتونَني أجري لبَنَيتُ لكم بناء يدور مع الشمس، قالوا له: نراك تُحسن تبني أحسن من هذا وأجود، ولم تَبْنِه. فرموا به من فوقه إلى أسفل! فضربته العرب مثلًا، فقالوا: جزاه جزاء سنمار![٢].

• المهندس الحاج يَعِيش المالقي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٠هـ) صنع «مقصورة» للمسجد الجامع بمراكش، تتسع لأكثر من ألف رجل، وضعت على حركات هندسية، فكان إذا قَرُب وقت رَواح الخليفة إلى الجامع يوم الجمعة دارت الحركات، فتبرز الأضلاع في زمان واحد، ويظل باب المنبر مغلقًا، فإذا قام الخطيب انفتح الباب وخرج المنبر، في دفعة واحدة بحركة واحدة، ولا يُسمع له حِسٌّ[٣].

وتختـرع البدائـع بارعـات   وأطعهـا علـى سـمع وعيـنِ[٤]

مدار المخترعات القديمة:

وقد تركزت كثير من المخترعات حول ما يَعني المسلم، في صلاته وصيامه

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (١٩٦/٢) ونفح الطيب (٢٤٠/٣)
(٢) المنمق في أخبار قريش (ص: ٢٧٨)
(٣) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية - لمؤلف أندلسي مجهول من أهل القرن الثامن عشر الميلادي (ص١٤٤) نشر دار الرشاد بالدار البيضاء عام ١٣٩٩هـ
(٤) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٢٨٧/٣)

وعباداته، ولأجل ضبط أوقات الصلاة؛ تفننوا في اختراع آلة تسمى «الميقاتة» و«المنجانة» وبالفارسية «البنكان» أي: الساعة، أو آلة حساب الوقت[(١)].

ولذا كان الملوك والعلماء قديمًا يستعملون بالنهار الإصطرلابات، وبالليل البنكامات، ولهم بالنهار سوى الإصطرلابات خطوط وظل، يعرفون به ما مضى من النهار وما بقي[(٢)].

ودُونَك الآن بضعًا وثلاثين نموذجًا، لعلماء في الشرع خصوصًا، أو علماء في لغة القرآن، قد اخترعوا فأبدعوا، و«الاختراع يرادِف الإبداع»[(٣)]. ولذلك تجدهم أبدعوا، فسبقوا الغرب الذي يفاخر بمخترعاته، وإنما اقتبس الغرب كثيرًا منها من علمائنا:

١. من براعة ذكاء الخليل الفراهيدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٠هـ) أنه اخترع علم العروض، ومن ابتكاراته التي لم تتم -والله المستعان- أنه قال: أريد أن أعمل نوعًا من الحساب تَمضي به الجارية إلى البقَّال، فلا يُمكنه أن يظلمها. فدخل المسجد وهو يُعْمِل فِكره، فصدمته سارية وهو غافل، فانصرع، فمات من ذلك[(٤)].

ومن فطنته العجيبة في معرفة خفايا الطب: أنه كان في زمنه رجل مجرِّب، يعطِي دواء ينفع لظُلمة العين، فمات، فاحتيج إلى ذلك الدواء، ولم يُعرف ما هو. فذُكر ذلك للخليل فقال: ألَهُ نسخة معروفة؟ قالوا: لم نجِدْ نُسختَه. قال: فهل كانت له آنية يعمل فيها؟ قالوا: نعم؛ إناء كان يجمع فيه الأخلاط. قال: فأْتُوني به. فجاؤوه

---

(١) رحلة ابن جبير ط دار الهلال (ص: ٢١٩) ونفح الطيب (٣/٣٧٤)
(٢) الحيوان (٢/٤٠٦). والإصطرلاب والبنكام آلات يُعرف بهما الوقت نهارًا وليلاً.
(٣) دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (١/٣٩)
(٤) تاريخ الإسلام ت تدمري (١٠/١٧٤)

به، فجعل يتشمَّمه، ويُخرجه نوعًا نوعًا، حتى ذكر خمسة عشر نوعًا، ثم عمله وأعطاه الناس، فشُفُوا به. وبعد مُدة وُجِدتْ النسخة والأخلاط المذكورة، وفيها ستة عشر، لم يُغفِل منها إلا واحدًا[١].

٢. القاضي المفضل بن فضالة القتباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ) كان إذا أشكل عليه القضاء في شيء كتب به إلى مالك؛ حتى يأتيه جوابه، فيعمل به. وكان يصنع الأرْحِية[٢].

٣. الأديب الشاعر عباس بن فِرناس بن ورداس -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٤هـ) المشهور باختراع الطائرة. فهل تعلم أن الشعر كان أغلبَ أدواته، وقد وصفُوه بأنه حكيم الأندلس، وكان من أهل الذكاء، وكان كثير الاختراع، فهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، كما صنع آلةً؛ لمعرفة الأوقات، ورفَعَها للأمير. وهو أول من حاول اختراع الطائرة، لكنها محاولة فاشلة، فسقط على إثْرها، ومرض مدة، ثم شُفي، وعاش بعدها سنين[٣].

وهذا خلافًا لما يُذكر تندُّرًا أو تهكُّمًا: أنه مات من أثر اختراعه الفاشل، بل يصوِّرونه الأعداء بالسذاجة، ويُخْفون إبداعاته الآنفة الذِّكْر! وقد يقلِّدهم بعضنا جهلًا. مع أن محاولة اختراعه للطائرة صارت نقطة انطلاقة، وبوابة لمن جاء بعده؛ لإكمال لمسيرته.

وهذا يعطيك درسًا: أن الناس قد لا تتذكرك إلا في لحظة فشَلِك. فلا تتراجع، وامضِ قُدُمًا، ولا تلْوِ على مُثَبِّط، ولا مُبَطِّئ.

٤. الزَّجَّاج -رحمه الله تعالى- (ت ٣١١هـ) لزم شيخه المبرّد، وحبس نفسه

---

(١) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (١/٢٨٢)
(٢) تاريخ ابن معين - رواية الدوري (٤/٤٣٩)
(٣) طبقات النحويين واللغويين (ص: ٢٦٨) والمغرب في حلى المغرب (١/٣٣٣)

على ذلك، إلّا ما يشغله من صناعة الزجاج في كلّ خمسة أيّام من الشهر، فيتقوّت بذلك الشهر كلّه(١).

٥. القَفَّال المَرْوَزي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٠هـ) صار معتمد المذهب الشافعي، وقد ابتدأ التعلم بعدما أفنى شَبيبته في صناعة الأقفال، وكان ماهرًا فيها. وذات م أخرج القفال يده، فإذا على ظهر كفه آثار المَجْلِ، فقال: هذا من آثار عملي في ابتداء شبابي!(٢)

وقصة القَفّال عجيبة! فإنه عاش ثمانين سنة؛ أربعين سنة جاهلًا، ثم أربعين سنة عالمًا، وشرح «مختصر المزني» شرحين، وانتهت إليه رياسة المذهب بالعراق.

فقد كان مُنافِسُه القفّال الشاشِي صنع قُفلًا ومفتاحًا وزنه خفيف جدًا، فأُعجب الناس به جدًا، وبلغ خبره إلى القفّال المرْوزي، فصنع قفلًا مع مفتاحه وزنه رُبْع وزن الأول، وأراه الناسَ فاستحسنوه، ولكن لم يَشِعْ له ذِكْر، فقال يومًا لبعض من يأنَس إليه: ألا ترى كلَّ شيء يفتقر إلى الحظ؟ عمِل الشاشي قفلًا وزنه دانَق، وطنّت به البلاد، وعملتُ أنا قُفلًا بمقدار رُبعه؛ ما ذكَرني أحد! فقال له: **إنما الذِّكر بالعلم لا بالأقفال.**

فكانت هذه العبارة بمثابة الشرارة التي أوقدت في نفسه حُب العلم، فرغب في العلم وقد بلغ أربعين سنة، فجاء إلى شيخ من أهل مرو، وعرّفه رغبته فيما رغب فيه، فلقَّنه أول جملة من كتاب المزني، وهو: «هذا كتاب اختصرتُه». فرقِيَ إلى سطحه، وكرّر على نفسه هذه الكلمات الثلاث، من العِشاء إلى أن غلبته عينه فنام، ثم انتبه وقد طلع الفجر وقد نسيَها، فضاق صدره وقال: أَيْش أقول للشيخ؟!

---

(١) المقفى الكبير (٩٩/١) وإنباه الرواة على أنباه النحاة (٢٥٠/٣)

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٥٤/٥) والمَجْل: ثخانة جِلْدة اليد؛ بسبب العمل بها. انظر: مجمع بحار الأنوار للفتَّني الهندي (٥٤٤/٤)

وخرج من بيته، فقالت له امرأة من جيرانه: يا أبا بكر! لقد أسهرتَنا البارحة في قولك: هذا كتاب اختصرتُه! فتلقَّنها منها، وعاد إلى شيخه، وأخبره بما كان منه، فقال له: لا يصدَّنّك هذا؛ فإنك إذا لازمتَ الحفظ صار لك عادة. فجَدَّ حتى كان منه ما كان[١].

٦. أبو بكر القتاليّ -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٠هـ) كان من كبار العلماء، جمع بين العلم والزهد وسمع الكثير وحدّث. كان يخيط جلود الثعالب ويعملها فِراء[٢].

٧. العلامة اللغوي الجوهري، مصنِّف «الصحاح» -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٣هـ) هو ثاني من حاول اختراع وسيلة للطيران، فقد صنع جناحين من خشب، وربطهما بحبل، وصعد سطح جامع نيسابور، ونادَى في الناس: لقد صنعتُ ما لم أُسبَق إليه، وسأطير الساعة. فازدحم أهل نيسابور ينظرون إليه، فتأبّط الجناحين ونهض بهما، فخانَه اختراعه، فسقط إلى الأرض قتيلًا[٣].

٨. ابن بنت خلدون الكندي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٣٥هـ) له حِذق بالفقه، ينظر في اثني عشر علمًا. وكان له حظ من الحساب والهندسة. وقد دبَّر جلب ماء البحر، من ساحل تونس إلى القيروان، وسَوقه خليجًا من هنالك، بنظر هندسي ظهَرَ له. ولكنه اختُرم قبل نَفاذ رأيه فيه![٤]. أي: أنه عزم على اختراع محطة، لها مضخات تدفع الماء.

٩. الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ) يشرح لنا محتويات الساعة شرحًا دقيقًا، كأنما صنعها، بل لو أراد صنع مثيلها لفعل، لولا أن وقته ثمين! فيقول:

---

(١) معجم البلدان (١١٦/٥) وآثار البلاد وأخبار العباد (ص: ٤٥٩)
(٢) المقفى الكبير (٢٤٠/٥)
(٣) معجم الأدباء (٦٥٨/٢) ونزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص: ٢٥٣). لكن قوله: إنه صنع ما لم يُسبَق إليه، متعقَّب بما مضى من محاولة عباس بن فرناس.
(٤) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٦٦/٨) وجمهرة تراجم الفقهاء المالكية (٧٩٧/٢)

صندوق الساعات التي بها يُتعرَّف أوقات الصلوات.. لا بد فيه من آلة على شكل أسطوانة، تحوِي مقدارًا من الماء معلومًا، وآلة أخرى مجوّفة، موضوعة فيها فوق الماء، وخيط مشدود أحد طرَفيه في هذه الآلة المجوفة، وطرَفه الآخر في أسفل ظرف صغير، موضوع فوق الأسطوانة المجوفة، وفيه كُرَةٌ وتحته طاسٌ، بحيث لو سقطت الكرة وقعت في الطاس، وسُمع طَنينها، ثم يُثقب أسفل الآلة الأسطوانية ثقب بقدر معلوم، ينزل الماء منه قليلًا قليلًا، فإذا انخفض الماء انخفضت الآلة المجوفة الموضوعة على وجه الماء، فامتد الخيط المشدود بها، فحرك الظرف الذي فيه الكره تحريكًا يقربه من الانتكاس، إلى أن ينتكس فتتدحرج منه الكرة، وتقع في الطاس وتطن، وعند انقضاء كل ساعة تقع واحدة؛ لتنبيه الحاضرين وإسماعهم، ثم إلى حركاتهم في الاشتغال بالصلوات والأعمال، عند معرفتهم انقضاء الساعة(١).

١٠. أبو الفتح ابن ريحان الهروي النشائي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٥هـ) شيخ صالح ورِع، أُقْعِدَ وزَمِنَ، فكانت له عَجَلة يركبها ويسيِّرها، إما بنفسه وإما بغيره(٢).

١١. تعاسيف الكاتب الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٩هـ) كان عارفًا بالقرآن، وكان ماهرًا في علم الرياضيات، بارعًا في الهندسة، وعمِل للسلطان اختراعين إبداعيين:

• صنع كرة عظيمة كبيرة، فيها الكواكب المرصودة. [قبة مركز مرصد فلكي].

• عمل طاحونًا على نهر العاصي، وبنى له أبراجًا، وتحيل فيها بحيل هندسية (منتزه ونوافير ومحطة لجلب ماء النهر)(٣).

---

(١) المقصد الأسنى (ص: ٩٣)
(٢) الأنساب للسمعاني (١٣/٩٩)
(٣) الوافي بالوفيات (٢٤/٢٢٨)

١٢. الفقيه أبو عمرو عثمان بن مكي الشارعي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٩هـ) فيه ذكاء مفرط، وهو كثير المحفوظ، وله اليد الطولى في عمل الساعات، ومعرفة الاصطرلاب(١).

١٣. العالم الأصولي العبقري القَرَافي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٤هـ) صنع ما يسمى في زماننا بـ: «المنبه المؤقت» وفيه إبداعات إضافية مبهرة، فقال: عملتُ أنا شَمْعَدان(٢)، وفيه شمعة يتغير لونها في كل ساعة، وفيه أسدٌ تتغير عيناه من السواد الشديد إلى البياض الشديد، ثم إلى الحُمرة الشديدة، في كل ساعة لهما لون، فيعرف التنبيه في كل ساعة، وتسقط حصاتان من طائرين، ويدخل شخص، ويخرج شخص غيره، ويُغلق باب ويُفتح باب، وإذا طلع الفجر طلع شخص على أعلى الشمعدان وإصبعه في أذنه، يشير إلى الأذان. غير أني عجزت عن صنعة الكلام.

وهذا عجيب! لكن الأعجب في ذكاء القرافي، أن يصنع «روبوتًا» رجلًا آليًا يمشي ويلتفت، ويُصدر صوتًا!! فقد قال: وصنعتُ -أيضًا- صورة حيوان يمشي، ويلتفت يمينًا وشمالًا، ويُصفِّر ولا يتكلم(٣).

١٤. ابن خميس الحَجْري -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٨هـ) من أكابر الأعلام العارفين بالنحو واللغة، وغيرهما من أنواع العلوم، وكان صَنَعَ اليدين، فقد صنع قدحًا من الشمع على أبدع ما يكون، في شكله، ولطافة جوهره، وإتقان صنعته، وكتب بدائرة شَفَتِه:

---

(١) تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب (ص: ٨١)
(٢) الشمعدان عبارة عن أعمدة مصنوعة بشكل متناسق، وتكون مجتمعة وموزع عليها مواضع للشمع.
(٣) نفائس الأصول في شرح المحصول للقرافي (٤٤١/١)

وما كنتَ إلا زهرة في حديقةٍ تبسّم عني ضاحكات الكمائمِ
فقُبِّلتَ من طَوْرٍ لطَورٍ فها أنا أُقبِّل أفواه الملوك الأعاظمِ[١]

١٥. المقرىء ابن مشبع المِقَصَّاتي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٣هـ) سمِّي بذلك؛ لأنه يعمل المِقَصَّات. قال الذهبي: قرأتُ عليه.. ولعله أقرأَ أكثر من خمسين سنة[٢].

١٦. زين الدين الآمِدي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٤هـ) هو أول من صنع الحروف البارزة. وهي المسماة بـ «لغة برايل». ومنه تعْلَمُ أن الآمدي اخترعها قبل برايل بست مئة سنة. ولكن قومي لا يعلمون، ولعظمائهم لا يُلمِّعون!

وقد كان الآمدي أعمى، لكنه آية في قوة الفراسة وحدة الذهن، وكان كلما اشترى كتابًا أخذ ورقة، وفتلها فصنعها حرفًا أو أكثر، من حروف الهجاء، لعدد ثمن الكتاب بحساب الجُمَّل، ثم يُلصقها على طرف جلد الكتاب، ويجعل فوقها ورقة تثبِّتها، فإذا غاب عنه ثمنه مَسَّ الحروف الورقية، فعرفه[٣].

١٧. ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) لم يُحفظ له اختراع، لكنه لعبقريته أتقن علومًا لا يعرفها إلا الأذكياء، كالجبر والحساب والهندسة، وكمعرفة مواقيت الكسوف، والنجوم.

وأما «الكيمياء» فقد كشف زَيْفها بكل براعة وتمكُّن، وله عدة كتابات عنها، وإليك خلاصة كلامه: «الكيمياء» هي المعمولة بالمعالجات الطبيعية، لتكون كالذهب والفضة المخلوقَين. والكيمياء لا تختص بهذين؛ بل تصنع كيمياء الجواهر، كاللؤلؤ والزبرجد، وكيمياء المشمومات، كالمسك والعنبر والورد، وكيمياء المطعومات. والكيمياء غِشٌّ، وهي تشبيهُ المصنوع من ذهبٍ أو فضةٍ

---

(١) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (٣٠١/٢)
(٢) معرفة القراء الكبار (ص: ٣٨٨) والضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٢٢٨/١١)
(٣) الوافي بالوفيات (١٢٧/٢٠) والأعلام للزركلي (٢٥٧/٤)

أو غيره بالمخلوق، وهي محرَّمةٌ بلا نزاعٍ بين علماء المسلمين. وهي أشدُّ تحريمًا من الربا. ويقترنُ بها كثيرًا السِّيمياء التي هي من السحر.. وقد قال لي رأس من رؤوسهم لما نهيتُه عنها، وبيّنتُ له فسادها وتحريمها، ولما ظهرت عليه الحجة، أخذ يستعفي عن المناظرة، ويذكر أنه منقطع بالجدال[1].

ولِفِطْنة ابن تيمية الخارقة كشف ألاعيب بعض المخادعين، والبائعين بالدنيا الدين، كجماعة الأحمدية الصوفية، فقد أرادوا أن يُظهِروا شيئًا من الحِيَل التي يتحيّلون بها في دخول النار فلا تضرهم، بحيث يَدْلِكُ الواحد منهم جسمه بأدوية، من حجر الطلْق وقشور النارِنْج ودهن الضفادع وغير ذلك، ثم يُضرم نارًا، ويدخلها دون ضرر. فجاء إليهم ابن تيمية، وفضح خداعهم أمام الناس، وقال لهم: تلك أحوال شيطانية باطلة من باب الحيل، فمن أراد منكم أن يدخل النار فليغسل جسده بالماء الحار، وليدلكه بالخل والأشنان، ثم يدخل بعد ذلك إلى النار، إن كان صادقًا. ثم قال: بل أُدخل إصبعي وإصبعك فيه بعد الغسل؛ ومن احترقت إصبعه فهو مغلوب. قال ابن تيمية: فلما قلتُ ذلك تغيّر وذَلَّ، واصفرَّ وجهه. ففضحهم على الأشهاد، وكتب عَقيب هذه الواقعة جزءًا في حال الأحمدية وضلالهم[2].

وكشف خدعة فرقة أخرى، صوفية شيطانية بهتانية، فقال عنهم: يصنعونَ من دَمِ الأخوين، والزعفران، ونَبتٍ يُقال له: أمُّ عربيل، وكذلك اللاذِن والسَّمْن، ويُظْهِرون به أن الدم يخرج من أحدهم وقتَ الوَجْدِ. فلم تنطلِ عليه مخادعاتهم، ودمَغهم بالحق حين مجادلتهم، وأظهر الله السُّنة على يديه، وأخمدَ بدعتهم[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٧٣/٢٩ و ٣٧٥ و ٣٨٠ و ٣٨٥ و٣٩٠) وجامع المسائل لابن تيمية ط عالم الفوائد - المجموعة التاسعة (٤٨٩/١)ر

(٢) مجموع الفتاوى (٣١٠/١١ و ٤٥٩ و ٤٦٦ و ٤٩٦). وانظر: العقود الدرية (ص: ٢١٠) والبداية والنهاية ط هجر (٥١/١٨)

(٣) جامع المسائل لابن تيمية ط عالم الفوائد - المجموعة الخامسة (ص: ٢٢٤) والمجموعة الثامنة (٣٩٧/١)

١٨. ابن فضل الله العمري -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ) كان من تلاميذ ابن تيمية، وأذن له في الإفتاء على مذهب الشافعيّ، وكان قلّما طالع شيئًا إلّا واستحضره أو أكثره. قال عنه ابن شاكر -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٤هـ): هو أكمل الكَمَلة الذين رأيتهم. وقد عرف مسالك الأرض وممالكها، وخطوط الأقاليم والبلدان وخواصها، وصور الكواكب، وحذق في علم الاصطرلاب، وحلّ التقويم(١).

١٩. جواد بن أبي المكارم اللخمي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٦هـ) حفظ القرآن، وطرفًا من العربية، وكتب المصاحف، والهياكل المدوَّرة، وأتى في ذلك بالعجائب، وبلغ في فنون الزركشة والنقش، والنجارة، والتطريز والخياطة، والبيطرة إلى الغاية، وكتب مصحفًا صغيرًا جدًا، يُقرأ في الليل، وكتب آية الكرسي على أرزة، وأما عمل الخواتيم ونقشها؛ فكان لا يُلحق في ذلك(٢).

٢٠. ابن الجمال المغربي السوسي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٣هـ) كان أعجوبة الدهر في صناعة الأشياء الدقيقة، حتى كان يصنع بيده ورقًا، يكتب فيه بخطه الدقيق سورة الإخلاص، وآية الكرسي، وقصيدة مديح من نظمه، ويجعلها في فلقة كزبرة يابسة، ويغطيها بالأخرى(٣).

٢١. محمد ناصر الدين ابن البيطار -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢١هـ) كان في ابتداء أمره يتعانَى صناعة البيطرة، ثم أقبل على الفقه والفرائض، ففاق أقرانه(٤).

٢٢. الفقيه ابن إسحاق الخوارزمي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٧هـ) كان يرسم صفة الكعبة والمسجد الحرام في أوراق، ويُهديها للهنود وغيرهم(٥).

---

(١) المقفى الكبير (٤٥١/١) وفوات الوفيات (١٥٩/١)
(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٩١/٢)
(٣) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس (١٤٠/٣)
(٤) إنباء الغمر بأبناء العمر (١٨٨/٣)
(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٣٣/٧)

٢٣. المؤرخ المتفنن المقريزي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٥هـ) شيوخه بلغوا ست مئة نفس، وتصانيفه زادت على مئتي مجلدة. له «الأوزان والأكيال الشرعية» و «المقاصد السنية في معرفة الأجسام المعدنية» وعنده خبرة بالاصطرلاب، والميقات[١].

٢٤. ابن المجدي الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٠هـ) صار رأس الناس في الحساب والهندسة، ومن مؤلفاته: «معرفة حساب الهلال» و«الفصول في العمل بالمقنطرات» وله في «إخراج القبلة بثلاث نقط»، و«الإشارات في كيفية العمل بالمحلولات»[٢].

٢٥. الشمس ابن النجار الدمشقي -رحمه الله تعالى- (بعد ٨٥٠هـ) كان نجارًا بارعًا في صنعته، متقدمًا فيها، خصوصًا في الأشياء الدقيقة، ثم أعرض عنها، وأقبل على القراءات، واشتغل في فنون العلم[٣].

٢٦. الكافِيَجي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٩هـ) لازَمه السيوطي أربع عشرة سنة. من تصانيفه «حل الإشكال» في الهندسة، و «الرمز» في علم الإصطرلاب[٤].

٢٧. أبو عبد الله العثماني المراغي المدني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩١هـ) عرَضَ له عارض من صغره، بحيث أُقعد، حتى صار يمشي أولًا على عكازين، ثم بأخَرةٍ صار يوضع على تَكَّةٍ، لها بَكَرٌ، تسحب بها إلى باب المسجد، ويحمله مِن ثَم حامل إلى الروضة، فيجلس بها في أيام الجُمَع، وأشهُر الحديث[٥].

٢٨. العلامة ابن عمران الغزي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٤هـ) نسخ بخطه الكثير من المصاحف الشريفة، وعمل طريقة في المصحف الشريف لم يُسبق

(١) المصدر السابق (٢/٢٢)
(٢) المصدر السابق (١/٣٠٠)
(٣) المصدر السابق (١٠/١٠٧)
(٤) الأعلام للزركلي (٦/١٥٠)
(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٩/٥٧)

إليها في مقابلة الأحرف، وهي أنه إذ كان أول حرف من أول سطر من الصحيفة أَلِفًا، يكون أول حرف من أول السطر الأخير منها كذلك، وأول السطر الثاني مثلًا واوًا، فيكون الذي يقابله قبل السطر الأخير كذلك، ويكون أول الصفحة أول الآية، وآخر الصفحة آخر الآية، وهذه الطريقة من العجائب! وفي الحقيقة هي طريقة في غاية المشقة، وقد سهلها الله له، فعملها في أسرع وقت[(١)].

٢٩. أبو زرعة البيجوري -رحمه الله تعالى- (بعد ٨٩٩هـ) من تلاميذ ابن حجر. تدرب في صناعة الحبر، وبرع في سبك النحاس. وليس له في كثير من الصنائع أستاذ، بل بعضها بالنظر[(٢)].

٣٠. المسنِد ابن إيدغمش الكبير -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠١هـ) كان فَرَّاءً، ثم صار جنديًا، ثم عاد إلى صنعة الفِراء[(٣)].

٣١. المحدث عبد القادر الأَبَّار -رحمه الله تعالى- (ت ٩١٤هـ) اشتهر بالأَبَّار؛ لأنه كان يصنع الإبَر بحانوته، ثم اشتغل في العلم، ورحل في طلبه، وكان السخاوي ممن أخذ عنه الحديث وغيره[(٤)].

٣٢. علاء الدين الأيديني الملقب باليتيم -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢٠هـ) كانت له مشاركة في كل العلوم، وكان يشتري الكتاب أبتر، ويكمله فيعمل له جِلدًا، وكان يعرف تلك الصنعة، وقد اجتمع له بهذا الطريق كتب كثيرة[(٥)].

٣٣. الأديب اللغوي الشاعر محمد الحرفوشي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥٩هـ) له تصانيف كثيرة. وكان يصنع القماش المتخذ من الحرير، وكان كثير

---

(١) الأنس الجليل (٢/٢٤٠)
(٢) المصدر السابق (٢/٦٥)
(٣) المصدر السابق (٦/٧٤) وأما العالم النحوي المشهور بالفرّاء؛ فلم يعمل في صناعة الفراء، وإنما لأنه كان يفري الكلام. انظر: الأعلام للزركلي (٨/١٤٦)
(٤) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (١/٢٤٢) وشذرات الذهب لابن العماد (١٠/٩٤)
(٥) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ٢٠٣)

من الطلبة يقصدونه وهو في حانوته يشتغل، فيقرؤون عليه، ولا يشغله شاغل عن العلم[١].

٣٤. المحدث المتفنن ابن الفاسي الروداني المغربي السوسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٩٤هـ) المتفنن في جميع العلوم، اشتغل بتأليف كتاب الجمع بين الكتب الخمسة والموطأ، وله منظومة في علم الميقات وشرحها، واخترِع كُرة فلكية عظيمة، واخترِع الاصطرلاب، وانتشر في الهند واليمن والحجاز، وأنشأ تربة بالمعلاة، وجعلها جدارًا أوتارًا متقاطعة في نصف قامة، على شكل شطرنجي، وعدتها ثلاثة آلاف وسبع مئة قبر[٢].

٣٥. فتح الله الشيرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٩٧هـ) أحد العلماء المتبحرين في العلوم. ومن مصنفاته «منهج الصادقين» تفسير القرآن بالفارسي. وله ثلاثة مخترعات عجيبة:

- رحىً تطحن الحبوب، تُترك بنفسها بلا تحريك وتدوير.
- مرآة يُتراءى فيها الأشكال الغريبة، من القريب والبعيد.
- بندقية تُطلِق اثنتي عشرة طلقة في الدورة الواحدة[٣].

٣٦. الشيخ أحمد شاكر -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٧هـ) من اختراعاته: دولاب دوّار، كان يضع عليه الكتب التي يُكثِر من تناوُلها، ككُتب التراجم[٤].

٣٧. المحدث الشيخ الألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) قد وجد فسحة من وقت؛ ليوفِّر للعلم أوقاتًا، فاخترع ثمان اختراعات:

أ- مهنته القديمة في تصليح الساعات.

---

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/٤٩)
(٢) المصدر السابق (٤/٢٠٦) وسمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي (٤/٥٤٨)
(٣) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٤/٣٩٢)
(٤) الألباني كما عرفته- عصام موسى هادي (ص ١٩)

ب- تصميم جهاز؛ لتسخين المياه بحرارة الشمس. صمَّمه بنفسه.

ج- صمَّم مِزْوَلة؛ لمعرفة أوقات الصلاة.

د- صنع بنفسه مصعدًا داخليًا؛ ليصعد به من الطابق الأرضي حتى الطابق العلوي(١).

هـ- من اختراعاته الموفرة للجهد والوقت: دولاب دوّار للكتب، فقد رآه عند الشيخ أحمد شاكر، فاقتبسه منه، وطوَّره، وجعله يستوعب كتبًا أكثر(٢).

و- ومن اختراعاته التوفيرية: أنه كان يربي في بيته أنواعًا من الطيور، وقد أراد وبصحبته أهله السفر للعمرة لمدة أسبوعين، فصنع جهازًا مؤقتًا، ومبرمجًا في غاية البراعة، بحيث إنه في ساعة محددة يوميًا يفرِّغ كمية محددة من الحبوب والماء.

ز- في منزله بعَمّان طيورٌ، وقد وضع أنبوبًا طرفه عند شرفة مكتبته، ونهايته منحدر في مكان الطيور على بُعد عشرين مترًا، فإذا أكل شيئًا كالحبِّ أو اللوز أدخل فضلاته في رأس الأنبوب؛ لينزل إلى الطيور.

ح- في منزله شجرة تين، وكان يأخذ ثمر التين منها، وهو على شُرفة المنزل، عن طريق عصا طويلة من ابتكاره، وذلك أنه جعل العصا مقسّمة متداخلة، يتحكّم في طولها وقِصَرها، ووضع في نهايتها كأسًا مدبّبة حادّة، بحيث يسقط فيها التين، إذا مسّه برأس تلك العصا(٣).

علماء مخترعون مسلمون ليسوا بعلماء في الشريعة:

أما هذا العنوان فقد أُلِّف فيه بحوث ومؤلفات، ويَطول سَرْد قائمة العلماء في هذا الصدد، وإنما اقتبس الغرب والشرق أكثر المخترعات العصرية، من

(١) مجلة الدعوة- عدد ١٧١٧. شعبان (١٤٢٠)
(٢) الألباني كما عرفته- عصام موسى هادي (ص ١٩)
(٣) الإمام الألباني دروس ومواقف وعبر - للسدحان (ص ١١١)

أولئك العلماء الأذكياء العباقرة، فقد اخترعوا اختراعات ممهِدة في ميادين العلوم والفنون لاكتشافات واختراعات، لولاها ما استطاع علماء الفرنجة أن يقطعوا شوطًا بعيدًا في التقدم والرقي.

وإليك قَبسًا من مقال فائق، بعنوان: «الممهِدون للاكتشاف والاختراع» بقلم الأستاذ قدوري حافظ طوقان -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩١هـ) حيث يضرب عدة أمثلة، شاهدة على ما قررتُه، من أن بداية كثير من المخترعات كانت من لدن علماء الإسلام. ولأكتفِ منها بأربعة أمثلة من المقال:

١. الجاذبية: تقرن هذه الكلمة باسم «نيوتن» الذي لم يمض عليه إلا ثلاثة قرون، لكن هل تعلم أن موسى بن شاكر -رحمه الله تعالى- (بعد ٢٠٠هـ) قال بالجاذبية منذ اثني عشر قرنًا، ووضع بعض قوانينها؟!

٢. التكامل والتفاضل في الرياضيات: يزعمون أن مخترعه «ليبنتز» وقد ثبت أن ثابت بن قرة -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٨هـ) من الذين حَلُّوا مسائل على طريقة التكامل المتبعة الآن.

٣. الساعات الدقاقة أو الرقاصة: ثبت لدى بعض علماء الفرنجة أن العرب سبقوا «غاليلو» في اختراع الساعات الدقاقة، كما في سيرة «البوزجاني» -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٨هـ).

٤. دوران الأرض: «كوبرنيكس» له الفضل في تثبيت فكرة دوران الأرض، لكن العلامة عبد الرحمن الإيجي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٦هـ) سبقه في إثبات ذلك[1].

---

(١) هذه الأمثلة الثلاثة، وغيرها كثير، تجدها في مقال منشور في مجلة الرسالة (٥٠/٧٢)

إيماضة

قد يكون بعض المخترعين مجهولين أو مغمورين، عبر قروننا الإسلامية الغابرة المنيفة، وإليك هذه الأمثلة الخمسة اللطيفة:

١. أحمد ابن الشاعر المشهور كُشَاجِم -رحمه الله تعالى- (بعد ٤٠٠هـ) كان يقرأ فصَّ الخاتم باللمس دون الرؤية، وهذا سابق لاختراع قراءة «برايل» للعميان[١].

٢. الشاعر علي بن أفلح العبسيّ -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٥هـ) بنى له قصرًا أُجري بالذهب، وعمل فيه الصور، وفيه الحمام العجيب، فيه صنبور؛ إن فرَكه الإنسان يمينًا خرج الماء حارًا، وإن فركه شِمالًا خرج باردًا[٢].

٣. الشاعر المنجنيقي: -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ) كان متفوقًا في صناعة المنجنيق، مغرى بالسلاح وصناعته. صنف كتابًا سماه «عمدة السالك في سياسة الممالك» يتضمن أحوال الحروب والفروسية وحيَلهما، وفتح الثغور، وبناء المعاقل وهندستها.

٤. الأديب ابن العطار الدنيسري -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٤هـ) له بيتان من الشعر، قد تستشِفُّ منهما أن النظارات اختُرعت قبل سبعة قرون. فهو يقول:

أتى بعد الصِبا شَيبي وظهري ... رمى بعد اعتدالٍ باعوجاجِ
كفَى إن كان لي بصر حديد ... وقد صارت عيوني من زجاجِ[٣]

فهو يتألم لحاله، أنْ كان بصره قويًا، ثم ضعُف، حتى احتاج إلى ارتداء شيء، يشبه النظّارة الزجاجية!

٥. كتب بعض المغاربة إلى أحد الملوك، رقعة في ورقة بيضاء، إن قرئت

(١) الأعلام للزركلي (١٦٧/٧)
(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٣٣٨/١٧) وانظر: الأعلام للزركلي (٢٦٤/٤)
(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر (٤٤١/١)

في ضوء السراج كانت فضية، وإن قرئت في الشمس كانت ذهبية، وإن قرئت في الظل كانت حبرًا أسود[١].



(١) الوافي بالوفيات (١/١٦١)

٦. علماء بالشريعة يتقنون لغات أخرى[١]

من عجائب إبداعات علماء الشرع، وإنجازاتهم العالية في التفنن لا التخصص: أن تجِد عالِمًا بالشرع يُتقن من اللغات الأجنبية لغةً أو أكثر؛ لينشر العلم، وليدعو إلى الله بها.

حتى لقد تمنى شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) أن يتعلم الإنجليزية، وقال: من قال: أنا أريد أن أتعلم اللغة الإنجليزية، أو غيرها من اللغات الأجنبية؛ لأدعو إلى الله بها، فنقول له: هذا خير، ونساعدك على هذا ونشجعك. وتعلمُها للدعوة إلى الله قد يكون واجبًا[٢].

ومن قبله بقرن من الزمن، يوصيك الشيخ طاهر الجزائري -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٨هـ) فيقول: تعلموا كل ما يتيسر لكم تعلمه، ولو لغة مالطة؛ فقد يجيء

(١) ثمت فائدتان لطيفتان تحت هذا الباب:
الأولى: حديث «من تعلم لغة قوم أمِن مكرهم» قالت عنه اللجنة الدائمة للإفتاء: لم نجده فيما اطلعنا عليه من كتب أهل الحديث. وقال ابن عثيمين: موضوع مكذوب، لا يصح لا سندًا ولا معنىً. انظر: فتاوى اللجنة الدائمة (٤/٤٣٦) والشرح الممتع على زاد المستقنع (١٢/٤٤) ومجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٢٦/٥٢)
الفائدة الثانية: من أسهل اللغات تعلمًا، وأقربها للعربية هي اللغة العبرية، ثم السريانية، وتأمل المثالين رقم (١١ و ١٧) فيما يأتي. ولذلك قال المسعودي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٦هـ) في التنبيه والإشراف (١/٦٩): والعربية أقرب اللغات بعد العبرانية إلى السريانية.

(٢) الشرح الممتع على زاد المستقنع (١٢/٤٤) ومجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٢٦/٥٢)

زمن تحتاجون إليها، وإياكم أن تقولوا: إنها لا تدخل في اختصاصنا؛ فالعلم كله نافع، والمرء يتعلم ما حسُنت به الحياة[١].

فإليك الآن سردًا لبضعة وخمسين موهوبين، مبدعين عبر القرون، لهم علم بالشريعة، ويجيدون لغاتٍ غيرَ لُغَتهم الأم:

١. سلمان الفارسي ﷺ (ت ٣٦هـ) قرأ كُتُب الفارسية، والرومية، واليهودية[٢].

٢. صهيب الرومي ﷺ (ت ٣٨هـ) نشأ بالروم سَبْيًا، فعلموه لغتهم، فتكلم بها[٣].

٣. زيد بن ثابت ﷺ (ت ٤٥هـ) أتقن لغة اليهود ولغة النصارى، في وقت وجيز. قال زيد: أمرني رسول الله ﷺ فتعلمت له كتاب يهود. وقال: إني واللهِ ما آمنُ يهود على كتابي. فتعلمتُه. فلم يمرَّ بي إلا نصف شهر حتى حذِقتُه، فكنت أكتب له إذا كَتب، وأقرأ له إذا كُتب إليه[٤].

وقال زيد -أيضًا-: أمرني رسول الله ﷺ أن أتعلم السِّرْيانية[٥].

فعلق ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) قائلًا: يحتمل أن زيدًا تعلَّم اللسانَين؛ لاحتياجه إلى ذلك[٦].

٤. عبد الله بن عَتيك ﷺ (ت ١٢هـ) بعثه رسول الله ﷺ إلى خيبر في نفر معه؛ لقتل أبي رافع اليهودي، فقدَّموا عبد الله؛ لأنه كان يرطِن باليهودية[٧].

(١) المذكرات لمحمد كرد علي (٧١٩/٣)
(٢) تاريخ بغداد ت بشار (٥١١/١)
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٤١/٢٤)
(٤) سنن أبي داود (٣٦٤٧)
(٥) سنن الترمذي ت بشار (٢٧١٥) هذا حديث حسن صحيح.
(٦) فتح الباري لابن حجر (١٨٧/١٣)
(٧) الطبقات الكبرى ط العلمية (٧٠/٢)

٥. أبو العالية -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠هـ) كان يتكلم بالفارسية[١].

٦. وهب بن منبه اليماني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٠هـ) يجيد لغة اليهود أكثر من اليهود أنفسهم! فقد هُدمت كنيسة للنصارى، فوجدوا في أساسها حجرًا مكتوبًا بالعبرانية. فلم يجدوا من يقرؤه! فقال رجل من اليهود للوليد بن عبد الملك: ابعث إلى وهب؛ فإنه يقرأ كل كتاب. فأرسل إليه، فقرأه[٢].

٧. الأصمعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٦هـ) قال عن نفسه: مررتُ بالشام على باب دَيْر، وإذا على حَجَر منقور كتابة بالعبرانية، فقرأتُها، فأخرج راهب رأسه من الدَّير وقال لي: يا حَنيفي أتُحسن تقرأ العبرانية؟! قلت: نعم[٣].

٨. العلّامة محمد بن المَرْزُبان -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٩هـ) كان أحد التراجُمة، ينقل الكتب الفارسية إلى العربية، له أكثر من خمسين منقولًا من كتب الفُرس[٤].

٩. أبو عثمان الصابوني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٩هـ) يتكلم في درسه كلامًا مهذبًا عذبًا بالعربية والفارسية[٥].

١٠. قال أبو بكر محمد بن عبد الباقي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٥هـ): أَسَرَتْني الروم، وبقيت في الأَسْر سنة ونصفًا، والسلاسل على يديَّ ورجليَّ. وكان ثَم معلم يعلم الصبيان الخط بالرومية، فتعلمت في الحبس الخط الرومي[٦].

١١. الظهير النعماني الفارسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٨هـ) كان فقيهًا لغويًا نحويًا، وكان عارفًا باللغة العبرانية، ويناظر أهلها بها، حتى لقد قال له بعض

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٢٦٢٨٣)
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٥٢/١٨)
(٣) المصدر السابق (٥٧/٣٧) وطبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها (٨١/٣)
(٤) معجم الأدباء (٢٦٤٥/٦)
(٥) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢٧١/٤)
(٦) ذيل طبقات الحنابلة (٤٣٨/١)

رؤساء اليهود: لو حُلِّفت أنّ سيدنا كان حَبرًا من أحبار اليهود لحَلفتُ؛ فإنه لا يعرف هذه النصوص بالعبرانية إلّا من تدرّب بهذه اللغة(١).

١٢. الفقيه المفسِّر المبارك ابن الدهان الواسطي -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٢هـ) يتكلم سبع لغات: بالتركية، والفارسية، والرومية، والأرمينية، والحبشية، والهندية، والزنجية. فكان إذا قرأ عليه عجميّ، واستغلق عليه المعنى بالعربية، يفهّمه إياه بالعجمية على لسانه(٢).

١٣. أبو بكر الرقوطي المرسي -رحمه الله تعالى- (بعد ٧٠٠هـ) لما تغلَّب الروم على مرسية أكرمه ملكهم، وبنى له مدرسة، وكان يُقرئ بها المسلمين واليهود والنصارى جميع ما يرغبون فيه بألسنتهم(٣).

١٤. الفقيه الشافعي النحوي محمد بن يوسف الجزري -رحمه الله تعالى- (ت ٧١١هـ) قرأ عليه المسلمون واليهود والنصارى(٤).

١٥. زين الدين الآمِدي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٤هـ) كان أعمى، لكنه آية في قوة الفراسة وحدة الذهن، عارفًا بلغات كثيرة، منها الفارسية والتركية والمغولية والروميّة(٥).

١٦. قاضي سِمنان بالعراق عبد اللطيف السِّمناني -رحمه الله تعالى- (بعد ٧٢٢هـ) كان يجيد اللغة الفارسية، ويعتني بالأدب الفارسي(٦).

---

(١) معجم الأدباء (٨٥٧/٢) وبغية الوعاة (٥٠٢/١)

(٢) معجم الأدباء (٢٢٦٣/٥) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (٨٧/٢٢)

(٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٠٩/٥)

فائدة: عرَضَ ملك الروم على الرقوطي التنصَّر، فقال: أنا أعبد واحدًا، وقد عجزتُ عما يجب له عليَّ من الحق، فكيف حالي لو عبدتُ ثلاثة؟!

(٤) معجم الأدباء (٢٢٣٨/٥) وبغية الوعاة (٢٧٨/١) والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٥٥/٦)

(٥) الوافي بالوفيات (١٢٧/٢٠) وعنه الأعلام للزركلي (٢٥٧/٤)

(٦) مجمع الآداب في معجم الألقاب (٦٨٩/٦)

١٧. ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) أتقن كثيرًا من اللغة العبرية دون تعليم[١].

وقال عن نفسه: فإنَّا عند الحاجة إلى الخطاب نخاطبُ الرجل بالفارسية والرُّومية والتُّركية[٢].

١٨. القاضي برهان الدين الزرعي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤١هـ) كان ذهنه يتوقد ذكاءً، وكان كثير التسري من التُّرك، وتعلم منهم لسانهم، وتحدث به جيدًا[٣].

١٩. عبد الجبار بن نعمان الخوارزمي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) كان إمامًا عالمًا، بارعًا مفننًا، وكان فصيحًا باللغات الثلاثة: العربية والعجمية والتركية[٤].

٢٠. رئيس الأطباء ابن نَفِيس -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٦هـ) تفقه بالحنفية، وتعلّم عدة لغات[٥].

٢١. الفقيه السراج الدموشي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٩هـ) ألّف كتابًا في اللغة التركية على قواعد العربية[٦].

٢٢. العلّامة ابن عَرَبْشَاه -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٤هـ) كان أحد الأفراد في إجادة النظم باللغات الثلاث؛ العربية والعجمية والتركية. ومن تصانيفه: «منتهى الأرب في لغات الترك والعجم والعرب»[٧].

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١١٠/٤)
(٢) جامع المسائل لابن تيمية ط عالم الفوائد - المجموعة التاسعة (١٣/١) ومجموع الفتاوى (٦٣/٦) وقاعدة في المحبة (ص: ١١٨)
(٣) الوافي بالوفيات (٢٠٤/٥)
(٤) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (١٤٤/٧)
(٥) الأعلام للزركلي (١٣٥/٥)
(٦) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١١١/٦)
(٧) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٢٨/٢)

٢٣. الفقيه النحوي أبو العباس أحمد الجبرتي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٨هـ) حدّث عن نفسه فقال: أتقنتُ أربع لغات، من ألسُن العجم(١).

٢٤. عبد الرحمن بن محمد الكلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٣٠هـ) اشتغل بالتدريس في سائر العلوم، وله إلمام بالفارسية، والتركية(٢).

٢٥. المفسر أبو السُّعُود -رحمه الله تعالى- (ت ٩٨٢هـ) يكتب باللغات الفارسية والتركية(٣).

٢٦. الفقيه حسن بن طورخان الأَقْحِصَاري -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٢٥هـ) أجاد اللغات الثلاث: العربية والتركية والفارسية(٤).

٢٧. رمضان بن عبد الحق العكاري -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥٦هـ) كان عالمًا مقدمًا بالفقه والعربية، وهو فيما عداهما من العلوم كامل الأدوات، وكان يعرف اللغة التركية معرفة تامة(٥).

٢٨. المفسر الفقيه الحنفي ابن الصائغ الدروري -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٦٦هـ) من كتبه «حاشية» على تفسير البيضاوي، وكان يجيد الفارسية والتركية حق المعرفة، بحيث إنه إذا تكلم بهما يُظن أنه من أهلهما(٦).

٢٩. حاجي خليفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٦٧هـ) صاحب «كشف الظنون» كان يجيد التركية والعربية والفارسية(٧).

---

(١) تاريخ البريهي (ص: ٢٤٣)
(٢) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٢٢٥/١)
(٣) الأعلام للزركلي (٥٩/٧)
(٤) المصدر السابق (١٩٤/٢)
(٥) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١٦٧/٢)
(٦) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣١٧/٣)
(٧) سلم الوصول إلى طبقات الفحول (مقدمة/٣٠)

٣٠. إبراهيم الكوراني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٠١هـ) من فقهاء الشافعية. كان مع علمه بالعربية يجيد الفارسية والتركية[١].

٣١. مراد المرادي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٣٢هـ) كان يحفظ أكثر من عشرة آلاف حديث، مع أسانيدها وحفظ روايتها، وكان يتقن اللغات الثلاث؛ العربية، والفارسية، والتركية. وله من التآليف المفردات القرآنية في مجلدين، وجعله باللغات الثلاث، أولًا بالعربية، ثم بالفارسية، ثم بالتركية[٢].

٣٢. صالح الحلبي الملقب -رحمه الله تعالى- (ت ١١٧٨هـ) حفظ الشاطبية والرائية، وكان يجمع للعشرة، فلقب نفسه بالعشري، وكان يتكلم باللغات الثلاث؛ العربية والعجمية والتركية، وربما نظم باللغة الكردية والعبرانية والرومية[٣].

٣٣. مُرتضى الزَّبيدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٠٥هـ) صاحب «تاج العروس» كان يحسن التركية والفارسية[٤].

٣٤. عارف حِكمَتْ -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٧٥هـ) له نظم باللغات الفارسية والتركية[٥].

٣٥. الشيخ الفقيه عناية الجرياكوثي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٢٠هـ) لم يكن له نظير في زمانه بمعرفة اللغة العبرانية، فقد صحِب أحبار اليهود ست سنين، وأخذ عنهم لغتهم، وله كتاب في تصريف العبرانية[٦].

٣٦. أحمد فائز الكلزردي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٦هـ) يُحسن عدة لغات، كردي الأصل، له مؤلفات بالعربية والكردية والفارسية وأكثرها بالعربية،

---

(١) المصدر السابق (٣٥/١)
(٢) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (١٢٩/٤)
(٣) المصدر السابق (٢١٦/٢)
(٤) الأعلام للزركلي (٧٠/٧)
(٥) المصدر السابق (١٤١/١)
(٦) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (١٣١٥/٨)

ولكن أعجبها «كنز اللسن المكنوز» وفيه ست لغات، واثنا عشر فنًا، وهو مرتب على أحد عشر جدولًا، ولغاته: العربية، والكردية، والفارسية، والتركية، والفرنسية، والروسية[١].

٣٧. طاهر الجزائري -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٨هـ) أتقن اللغة الفرنسية والفارسية والتركية، وتعلم السريانية والعبرانية والحبشية والبربرية[٢].

٣٨. أحمد كمال باشا -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤١هـ) من نوابغ مصر. كان يجيد اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية والتركية والهيروغليفية، ويعرف قليلًا من القبطية والحبشية[٣].

٣٩. المفتي الفقيه الحنفي ابن بَرّي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٤هـ) كان مرجعًا للفتوى في العهد العثماني، ثم قاضيًا في العهد السعودي، وكان يجيد اللغة التركية[٤].

٤٠. أمير البيان العلّامة شَكِيب أَرْسلان -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٦٦هـ) كان يجيد الفرنسية والتركية، وله إلمام بالإنجليزية والألمانية[٥].

٤١. محمد كرد علي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٢هـ) كان يجيد اللغة والفرنسية والإنجليزية[٦].

٤٢. سليمان الندوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٣هـ) كان إلى جانب لغته الأردية، متضلعًا بالعربية والفارسية والإنجليزية، وتعلم اللغة العبرية وشيئًا من اللغة التركية والفرنسية[٧].

---

(١) الأعلام للزركلي (١/١٩٢)
(٢) المصدر السابق (٣/٢٢٢)
(٣) المصدر السابق (١/١٩٩)
(٤) الأعلام للزركلي (١/٤٨)
(٥) المصدر السابق (٣/١٧٣)
(٦) المذكرات لمحمد كرد علي (ص: ٣١٧)
(٧) سيرة السيدة عائشة أم المؤمنين - سليمان الندوي (ص: ٢١)

٤٣. محمد الخضر حسين -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٧هـ) كان يتقن اللغة الألمانية كتابةً وقراءة، والتركية والفرنسية[١].

٤٤. المحدث عبد الرحمن الأفريقي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٧هـ) يجيد اللغة الأفريقية، واللغة الفرنسية[٢].

٤٥. العلّامة الأديب عبد الوهاب عزام -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٨هـ) كان يحسن الفرنسية والإنجليزية والفارسية والأردية والتركية. من كتبه المطبوعة «فصول من المثنوي» ترجمها عن الفارسية، وعلق عليها[٣].

٤٦. الفقيه السفير عبد الرحمن بن محمد البسام -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٧هـ) يجيد خمس لغات: الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والأردية، والإيطالية[٤].

٤٧. الشيخ تقي الدين الهلالي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٧هـ) يتقن الإنجليزية والألمانية والفرنسية[٥].

٤٨. إحسان إلهي ظهير -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٧هـ) كان يجيد البنجابية والفارسية والعربية والإنجليزية[٦].

٤٩. العلّامة الأديب محمود شاكر -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٨هـ) يتقن الإنجليزية كأهلها، فقد ترجم قصائد إنجليزية، وقام في صدر شبابه على تحرير

---

(١) موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين (٨٣/٢/١٥)
(٢) ترجمة الشيخ عبد الرحمن الأفريقي للشيخ عمر فلاتة (ص: ١٦٤) والمجموع في ترجمة الشيخ حماد الأنصاري (٦٣١/٢)
(٣) الأعلام للزركلي (١٨٦/٤)
(٤) علماء نجد خلال ثمانية قرون (١٧٦/٣)
(٥) الدعوة إلى الله - محمد العبودي (ص: ٧)
(٦) تكملة معجم المؤلفين - محمد خير رمضان (ص: ٢٦)

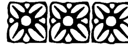
مجلة إنجليزية، ومع هذا كله؛ فإن أبا فهر لما سافر إلى لندن، تحدث إلى الطبيب الإنجليزي بالعربية، وجعل بينهما مترجمًا؛ اعتزازًا منه بلغته![١].

٥٠. المحدث عبد القادر الأرناؤوط -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٥هـ) أرسله الشيخ ابن باز إلى ألبانيا للدعوة؛ لأنه يتقن اللغة الألبانية[٢].

٥١. ومن الأمثلة المشرِّفة المعاصرة ما حدَّثوا به عن معالي الشيخ صالح الحصين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٤هـ) أنه يُتقن اللغتين الإنجليزية والفرنسية[٣].

٥٢. والشيخ المحقق الهندي عُزير شمس -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٤٤هـ) يتحدث بِسِت لغات.

٥٣. وأيضًا: المحقق بشار عواد -حفظه الله تعالى- يتحدث بالإنجليزية، وبالألمانية.



(١) ظل النديم - وجدان العلي (ص: ٢١)
(٢) المعجم الجامع في تراجم المعاصرين (ص: ١٧٥)
(٣) الشيخ صالح الحصين - لمؤلفه محمد الفريح (ص٣٧)

٧. العلماء الأذكياء الذين أبدعوا فأتقنوا علومًا كثيرة[1]

الأذكياء من العلماء نادرون، كنُدْرة الكبريت الأحمر، وهم متناثرون عبر القرون كتناثُر الدُّر في روضة فَيحاء. كما أن بعضهم مغمورون، لا يُعرفون، وربما أن سبب انغمارهم عدم مواصلتهم الطريق، وانشغالهم بمعاشهم.

فإن أوتي المرء ذكاءً فلا يُقعِده كسله عن المُضي في شتى العلوم، ولا يمكث في علم أدنى، وقُدراته تؤهله للأعلى، وليبذل وُسعه، وليسْعَ جُهده، وليلجأ إلى معلِّم إبراهيم ومفهِّم سليمان.

قال ابن أبي زيد القيرواني المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٦هـ): العلم لا يأتي إلا بالعناية والمُباحَثة والمُلازَمة، مع هداية الله وتوفيقه[2].

وأكابر العلماء؛ كما أنهم أزكياء، فهم أذكياء، بل عباقرة أباطِرة!

ولذلك؛ فلا تستغرِب أن تجِدَهم يعرفون علومًا نادرة أو غريبة، أو يتقنون فنونًا من العلم الدنيوي، لا يتقنها إلا المتخصصون. بل ربما تراهم قد نافَسوا المتخصصين في علومهم.

ولذلك تكثر في تراجمهم أمثال هذه العبارات: « وكان متفنِّنًا - ذا تفنُّن في العلوم - أتقن جميع العلوم - صنَّف في جميع الفنون». ويَصدق عليهم قول القائل:

---

(١) هذا المبحث له علاقة بالمبحث الرابع المُعَنْوَن بـ: التخصص الشرعي هل يمنع من التوسع في غير العلم الشرعي؟. وإنما أخَّرته وأفردتُه هما؛ لاتصاله بالمبحث الذي قبله.

(٢) النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات (٥/١)

لم يأتِ في الإبداع فنًا واحدًا إلا أتى من بعده بفنون[١]

ولذلك كانوا يجمعون كافة العلوم؛ لأجل العلم الذي برعوا فيه أكثر.

وانظر -مثلًا- لعلم التفسير، فإن العلماء قالوا: لا بد له من التبحُّر في كل العلوم. وخصُّوا منها عشرة علوم، كعلم الاشتقاق والسيَر، وأصول الفقه، وعلم الموهبة. ومنهم من زادها، فجعلها خمسة عشر علمًا[٢].

وعند التتبع الفاحص، فإنك واجِدٌ الأذكياء إذا كانوا علماء، لا يقنعهم دروب الناس المعبَّدة المسلوكة، بل إنهم يسلكون الأوعَر، ومع ذلك فتجدهم يصِلون لهدفهم بجدارة وسرعة.

ويصِف هذا المعنى أحد أذكيائهم، وهو ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) حيث يقول: وبعض الناس يكون كلما كان الطريق أدق وأخفى، وأكثر مقدمات وأطول كان أنفع له؛ لأن نفسه اعتادت النظر في الأمور الدقيقة.. ولهذا يرغب كثير من علماء السنة في النظر في العلوم الصادقة الدقيقة، كالجبر والمقابلة، وعويص الفرائض، والوصايا[٣].

وتأمل ما عبَّر به العبقري الآخر المتفنن القرافي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٤هـ) حيث قال: وكم يَخفى على الفقهاء والحكامِ الحقُ في كثير من المسائل؛ بسبب الجهل بالحساب والطب والهندسة، فينبغي لذوي الهمم العَلِيَّة ألا يتركوا الاطلاع على شتى العلوم ما أمكنهم ذلك:

فلم أرَ في عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمامِ[٤]

---

(١) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٥/٢٧٣)
(٢) تفسير الراغب الأصفهاني (١/٣٩) والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٤/٢١٣)
(٣) مجموع الفتاوى (٩/٢١٣)
(٤) الذخيرة للقرافي (٥/٥٠٢)

وخذ الآن سبعين مثالًا بديعًا، لعلماء متفنِّنين، أذكياء مبدعين، علَتْ هِمَمهم، فعزموا أن يُحيطوا بكل مفيد من العلوم، فحققوا أكثر عزيمتهم:

١. قال عبد الله بن مسعود ﷺ (ت ٣٢هـ): إني لأحسب عُمَرَ ﷺ قد رُفع معه يوم مات تسعة أعشار العلم، وإني لأحسب علم عمر لو وُضع في كفة الميزان، وعلم من بعده لرجح عليه علم عمر(١).

٢. قال ابن عباس -رضي الله عنهما- (ت ٦٨هـ): عِلمٌ عجِز الناس عنه؛ وددتُ أني علِمتُه(٢).

٣. قال تلميذه مكحول -رحمه الله تعالى- (ت ١١٦هـ): ما خرجتُ من مصر وبها علم إلا حويتُ عليه فيما أُرَى، ثم أتيتُ الحجاز، فما خرجتُ منها وبها علم إلا حويتُ عليه فيما أُرَى، ثم أتيت العراق، فما خرجت منها وبها علم إلا حويت عليه -فيما أرى-، ثم أتيت الشام فغَرْبَلْتُها(٣).

٤. قال عبد العزيز ابن الخليفة عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى وآباءَه- (ت ١٥٠هـ): ما من شيء إلا قد تعلمتُ فيه شيئًا، إلا أشياء صغار، كنت أستحي أن يُرى مثلي يُسأل عنها. فبقيَتْ جهالتُها فيَّ حتى الساعة(٤).

٥. الخليل بن أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٠هـ) استنبط من عِلل النحو ما لم يستنبطه أحد، وما لم يسبقه إلى مثله سابق، وله اختراعات سبق ذِكرها، ولا يُعلم أنه اجتمع لأحد من أهل الإسلام من حسن الفهم، وصحة الفطنة، وذكاء القلب، وحِدّة القريحة ما اجتمع له(٥). وكانوا يقولون: لم يكن في العرب

---

(١) المعجم الكبير للطبراني (٨٨٠٩) و (٨٨١٠)
(٢) رياضة المتعلمين لابن السني - تحقيق نظام يعقوبي (ص٣٣٢)
(٣) سنن أبي داود (٢٧٥٢)
(٤) المصدر السابق (ص٣٣٨)
(٥) إكمال تهذيب الكمال (٢٢٠/٤)

بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد، ولا أجمع. وكان لا يقدر على تحصيل فِلْسَين، وأصحابه وتلاميذه يكسَبون بعلمه الأموال[١].

٦. ومن العجائب التي تَخفَى على الأكثرين أن الشاعر أبا نواس -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٨هـ) عالِم عبقري فَذٌّ، ولكنه انشغل بالشعر عن العلم، حتى لقد قال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): لولا مُجون أبي نواس لأخذتُ عنه العلم[٢].

وقال عنه الجاحظ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ): ما رأيتُ أحدًا كان أعلم باللغة من أبي نواس. وقال ابن المعتز -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٦هـ): كان أبو نواس عالمًا فقيهًا، عارفًا بالأحكام والفتيا[٣].

٧. كان الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) كما قال تلميذه محمد بن عبد الحكم: أعلم بكل فن، لو كنت أدركته وأنا رجل كامل، لاستخرجت من جَنْبَيه علومًا جمة[٤].

وقال المزني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٤هـ): لو كنا نفهم عن الشافعي كل ما يقول لأتيناكم عنه بِصنُوف العلم، ولكنا لم نكن نفهم[٥].

٨. من اللطائف أن إمام النحو الفَرَّاء -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٧هـ) يكون ابن خالة الفقيه محمد بن الحسن -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٩هـ) فقال له الفراء يومًا: قَلَّ رجل أنعَمَ النظر في باب من العلم، فأراد غيرَه إلا سهُل عليه! فقال له محمد: يا أبا زكريا، فأنت الآن قد أنعمتَ النظر في العربية، فنسألك عن باب

(١) معجم الأدباء (١٢٦٣/٣ و١٢٦٩) وإنباه الرواة على أنباه النحاة (٣٨٠/١)
(٢) الحيوان (٤٤٩/٧)
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤١٢/١٣) وطبقات الشعراء لابن المعتز (ص: ٢٠١)
(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠٤/٩)
(٥) مناقب الشافعي للبيهقي (٢٧٣/٢)

من الفقه؟ قال: هاتِ على بركة الله، قال: ما تقول في رجل صلى فسها، فسجد سجدتي السهو، فسها فيهما؟ ففكر الفراء ساعة، ثم قال: لا شيء عليه. فقال له محمد: ولِمَ؟! قال: لأن التصغير عندنا لا تصغير له، وإنما السجدتان تمام الصلاة، فليس للتمام تمام[1].

٩. أول من اشتهر في الأندلس بعلم الحساب والنجوم: أبو عبيدة مسلم بن أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٥هـ) وكان يلقب بصاحب القِبلة؛ لكونه عالمًا بحركات الكواكب وأحكامها، وكان صاحب فقه وحديث[2].

١٠. عيسى بن مسكين الإفريقي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٥هـ) كان متفننًا في كل العلوم. قال أحد تلاميذه: أدخلني إلى بيت مملوء بالكتب، ثم قال لي: كلها رواية، وما فيها كلمة غريبة إلا وأنا أحفظ لها شاهدًا من كلام العرب[3].

١١. العلامة يحيى ابن السُّمينة -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٥هـ) كان بصيرًا بالحساب والنجوم، والنحو واللغة، والعَروض، ومعاني الشعر، والفقه، والحديث، والأخبار[4].

١٢. أبو بكر بن الأنباري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٨هـ) مرض، فدخل عليه أصحابه يعودونه، فرأوا من انزعاج والده عليه أمرًا عظيمًا، فطيَّبوا نفسه، ورجَوا عافية أبي بكر، فقال: كيف لا أنزعج وأقلق لعلةِ مَن يحفظ جميع ما ترون؟! وأشار إلى جدار مملوء كتبًا[5].

١٣. الشاعر كُشَاجِم -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٠هـ) كان متفننًا في خمسة علوم، ولفظ «كشاجم» منحوت من علوم كان يتقنها؛ فالكاف للكتابة، والشين

(١) تاريخ بغداد ت بشار (٢٢٤/١٦)
(٢) تاريخ علماء الأندلس (١٢٦/٢)
(٣) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (٦٧/٢)
(٤) معجم الأدباء (٢٨٣٤/٦)
(٥) تاريخ بغداد ت بشار (٢٩٩/٤) ونزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص: ٢٠٣)

للشعر، والألف للإنشاء، والجيم للجدل، والميم للمنطق، وتعلم الطب، فزِيد في لقبه طاء، فقيل «طكشاجم» ولم يشتهر به[١].

١٤. الأستاذ عبد القاهر بن طاهر البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٧هـ) كانت له يد في عامة فنون العلم، فهو يُحسِن سبعة عشر علمًا[٢].

١٥. اللغوي المشهور الثعالبي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٩هـ) كان ماهرًا في فنون كثيرة، منها علم الحساب والفرائض، ودرَّس في سبعة عشر عِلمًا[٣].

١٦. ابن بنت خلدون الكندي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٣٥هـ) ينظر في اثني عشر علمًا. وكان له حظ من الحساب والهندسة[٤].

١٧. إسحاق العشاري -رحمه الله تعالى- (بعد ٤٣٧هـ) قيل له ذلك؛ لأنه كان يحقق عشرة علوم[٥].

١٨. الأديب الشاعر أبو بكر ابن الخياط الطليطلي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٧هـ) كان بارعًا بالهندسة والفلك وبالطب[٦].

١٩. عبد الواحد العكبري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) يتقن علومًا كثيرة، منها النحو واللغة، ومعرفة أيام العرب والتواريخ[٧].

٢٠. الحسن ابن أبي عقامة -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٣هـ) من مصنفاته: كتاب في الفرائض والحساب، وآخر في المساحة. ونظم أبياتًا يفاخر بتفنن علومه، ومنها قوله:

---

(١) الأعلام للزركلي (١٦٧/٧)
(٢) طبقات الشافعيين (ص: ٣٩٣) والبداية والنهاية ط هجر (٦٧٢/١٥)
(٣) البداية والنهاية ط هجر (٦٧٢/١٥)
(٤) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٦٦/٨)
(٥) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (٣٨٢/٣)
(٦) معجم الأدباء (٢٨٠٦/٦) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٤٩٧)
(٧) نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص: ٢٥٩) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢٥/١٨)

ولكـــن ســـعيت لجمـــع العلـــوم كســـعي أبي قبـــلُ فـــي كسْـــبِهنّه
فهـــل قـــد رأيتـــم فتـــى قـــط مثلـــي لعشـــرين علمًـــا يفـــرغ ذهنـــه[١]

٢١. ابن الصواف العبدي المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٩٠هـ) كان إمامًا في عشرة علوم[٢].

٢٢. محمد بن عبد الباقي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٥هـ) يُعرف بـ«قاضي المارستان» برع في الفرائض والحساب والجبر والمقابلة والهندسة، وله فيها تصانيف. والخط الرومي[٣].

٢٣. النحوي ابن الخشاب -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٧هـ) كانت له معرفة بالحساب والهندسة، ويقول: إني متقِن في ثمانية علوم، ما يسألني أحد عن علم منها، ولا أجد لها أهلًا[٤].

٢٤. أبو الطيب طاهر بن يحيى -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٧هـ) تضلَّع من العلوم تضلعًا جيدًا، حتى كان يقول: أنا ابن ثمانية عشر عِلمًا[٥].

٢٥. الظهير النعماني الفارسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٨هـ) كان عالمًا بالنحو والتفسير والفقه، والحساب والمنطق والهيئة والطب، ويحفظ في كل فن كتابًا[٦].

٢٦. للفخر الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ) كتاب اسمه «حدائق الأنوار في حقائق الأسرار» أورد فيه ستين علمًا[٧].

---

(١) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (٥٢٢/٣)
(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٥٦/١٩)
(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٤٣٨/١)
(٤) المصدر السابق (٢٤٧/٢)
(٥) السلوك في طبقات العلماء والملوك (٣٣٧/١)
(٦) معجم الأدباء (٨٥٧/٢) وبغية الوعاة (٥٠٢/١)
(٧) السابق (١٩٠٥/٢)

٢٧. يوسف السَّكَّاكي: -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ) مصنف كتاب «مفتاح العلوم» المشتمل على اثني عشر علمًا، الدال على تبحره وإمامته(١).

٢٨. ابن يونس الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٩هـ) كان يتقن أربعة وعشرين علمًا، وكان إذا خاض معه ذو فن توهَّم أنه لا يُحسن غير ذلك الفن، وكان يُقرئ العلوم بأسْرها، وكان جماعة من الحنفية يشتغلون عليه بمذهبهم، بل كان يحل مسائل الرياضيات(٢).

٢٩. ابن الحطاب الزوقري -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٥هـ) تضلع من علوم شتى، بحيث كان نحويًا، لغويًا، فروعيًا، أصوليًا، فرضيًا، حسابيًا، حديثيًا، وكان يقول: أنا ابن عشرين علمًا(٣).

٣٠. شيخ المالكية والشافعية في وقته الشريف الكركي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٨هـ) أتقن ثلاثين فنًا من العلوم(٤).

٣١. الفقيه الشافعي محمد بن سعادة الخويي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٣هـ) صنَّف كتابًا ضمَّنه عشرين علمًا(٥).

٣٢. أبو القاسم بهاء الدين القِفْطي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٧هـ) قال عن نفسه: أعرف عشرين علمًا، أُنسيت بعضها؛ لعدم المذاكرة(٦).

٣٣. ابن نصر الله المازني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٧هـ) كان يشتغل في نحو ثلاثين علمًا(٧).

---

(١) معجم الأدباء (٢٨٤٦/٦) وديوان الإسلام (٨٩/٣)
(٢) وفيات الأعيان (٣١١/٥) وطبقات الشافعيين (ص: ٨٤٦)
(٣) السلوك في طبقات العلماء والملوك (٤٧٨/١)
(٤) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (٣٢٦/٢)
(٥) فوات الوفيات (٣١٣/٣) والعقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ٣٨٢) وطبقات الشافعيين (ص: ٩٤٥)
(٦) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣٩٢/٨)
(٧) بغية الوعاة (١٠٨/١)

٣٤. أبو بكر الرقوطي المرسي -رحمه الله تعالى- (بعد ٧٠٠هـ) كان عارفًا بجملة من الفنون، وبالهندسة والطب، وكان يُعِدُّه المَلِك في زمانه لمن يَفِدُ عليه من أصحاب الفنون، فيجاريهم فيغلبهم غالبًا[١].

٣٥. الحكيم النحوي شهاب الدين الشاغوري -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٤هـ) كان ماهرًا في العلوم، حتى كان يُقرِئ ثلاثين درسًا في ثلاثين علمًا[٢].

٣٦. الفقيه الشافعي النحوي محمد بن يوسف الجزري -رحمه الله تعالى- (ت ٧١١هـ) قرأ عليه المسلمون واليهود والنصارى[٣].

٣٧. صدر الدين ابن الوكيل الفركاح -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٦هـ) كان ذكيًا حافظًا نظّارًا، يسرد في كل فن أسفارًا. حفظ كتاب «المفصل» في مئة يوم، وحفظ «ديوان المتنبي» في جمعة، و«المقامات» في خمسين يومًا، في كل يوم مقامة، وكان لا يمر بشاهد للعرب إلا حفظ القصيدة كلها[٤]. قال عنه ابن تيمية عنه: ابن الوكيل ما يرضى لنفسه أن يكون في شيء إلا غاية، فيقول: كان في كذا غاية، وفي كذا غاية[٥].

٣٨. ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) وسأبسط الحديث عنه بعض البسط؛ لأنه معدود من أذكياء العالم. ويكفيك أن تتذكر قول ابن دقيق العيد فيه: «رأيت رجلًا العلوم كلها بين عينيه؛ يأخذ منها ما يريد، ويدَع ما يريد»[٦].

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٠٩/٥)
فائدة: عرَضَ ملك الروم على الرقوطي التنصُّر، فقال: أنا أعبد واحدًا، وقد عجزتُ عما يجب له عليَّ من الحق، فكيف حالي لو عبدتُ ثلاثة؟!
(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٥٥٩/١)
(٣) معجم الأدباء (٢٢٣٨/٥) وبغية الوعاة (٢٧٨/١) والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٥٥/٦)
(٤) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٣٧٣/٥)
(٥) أعيان العصر وأعوان النصر (١٥/٥)
(٦) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية (ص: ٢٩)

فقد أتقن من العلوم الجبر والمقابلة، والمنطق، وردَّ على أكابرهم، والهيئة وعلم أهل الكتابين، والمِلل الأخرى، وعلم أهل البدع، كل هذا يعرفه وهو ابن بضع عشرة سنة(١). وقد أتقن كثيرًا من اللغة العبرية دون تعليم، ولكن بمجرد المعرفة بالعربية(٢). ويعرف كيفية حساب الكسوف الماضي والمستقبل(٣) ويعرف خطَّ الجن! قال: وقد رأيتُ خط الجن غيرَ مرة(٤). وقلَّ أن يَدْخلَ في علم من العلوم، في باب من أبوابه إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب، ويستدرك أشياء في ذلك العلم على حُذَّاق أهله(٥).

أبٌ للمعالي وهي وقْف حبيسة ... عليه بجدٍّ صادق غير مبدع(٦)

قال عنه مترجِموه: كان إذا سئل عن فن من العلم، ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحَكَم أن أحدًا لا يَعرف مثلَه.. حتّى إنه ما تكلّم معه فاضل في فنّ من الفنون إلّا ظنّ أنّ ذلك الفنّ فنُّه(٧).

وقال هو مسهِّلًا علوم الرياضة الذهنية، ومُثْبِتًا سهولة العلوم عليه: كثير من متأخري أصحابنا يشتغلون وقت بَطَالتهم بعلم الفرائض، والحساب والجبر، والمقابلة والهندسة، ونحو ذلك؛ لأن فيه تفريحًا للنفس، وهو علم صحيح لا يدخل فيه غلط. وقال: مبدأ وضع «المنطق» من الهندسة(٨).

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٤/٤٩٤) وعنه: الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص: ١٨)
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/١١٠)
(٣) المصدر السابق (٣٥/١٧٥)
(٤) المصدر السابق (١٣/٩٤)
(٥) طبقات علماء الحديث (٤/٢٨٢)
(٦) قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان (٢/١٠٦)
(٧) المقفى الكبير (١/٢٧٦) والرد الوافر (ص: ٥٨)
(٨) مجموع الفتاوى (٩/١٢٦ و ١٢٩ و ١٣٠)

وحتى علم التاريخ؛ فقد كان مبرزًا فيه. وقد قال عنه الأديب والمؤرخ أحمد أمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٣هـ): قرأت في فتاوى ابن تيمية، فوجدت فيها من الفوائد التاريخية، ما لم أجده في كتب التاريخ نفسِها[١].

٣٩. من عجائب وغرائب الكتب المفقودة: «نفائس الفنون في عرائس العيون» لمحمد بن محمود الآملي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٣هـ) فقد أراد أن يجمع كل فنون العلم في تأليف واحد، فلم يزَل يجمع، إلى أن بلغ مئة وعشرين علمًا![٢].

٤٠. العز ابن جماعة -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٧هـ) تفنَّنَ في علوم كثيرة، بحيث إنه كان يقول: أنا أُقرِئ في خمسة عشر علمًا، لا يعرف علماء عصري أسماءَها. وكانت دروسه بنحو خمسين درسًا في اليوم والليلة![٣].

٤١. عفيف الدين اليافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٨هـ) له منظومة تشتمل على قريب عشرين علمًا[٤].

٤٢. يوسف العبادي الحنبلي السرمري -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٦هـ) تصانيفه بلغت مئة في بضعة وعشرين علمًا[٥].

٤٣. أبو البقاء ابن تمام السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٧هـ) قال: أعرفُ عشرين علمًا؛ لم يسألني عنها بالقاهرة أحد[٦].

---

(١) فيض الخاطر لأحمد أمين (١٠٥/٣)

(٢) كشف الظنون (١٩٦٦/٢). وهذا العدد كبير جدًا! وعليه؛ فلعل المقصود تعداد أبواب بعض الفنون، وليس تعداد كل علم مستقلًا بمجمله.

(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٣٨/٢) وبهجة الناظرين إلى تراجم المتأخرين من الشافعية البارعين (ص: ٥٢)

(٤) الوفيات لابن رافع (٣١٣/٢) والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (٧٥/٧) وطبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٩٥/٣)

(٥) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٢٤٧/٦)

(٦) طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (١٢٩/٣) وبغية الوعاة (١٥٢/١)

٤٤. ابن المؤذن المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٨هـ) قال عنه ابن حجر: كان من آيات الله في سرعة الحفظ، وجَودة القريحة، وهو أذكى من رأيتُ من البشر[١].

٤٥. ابن توزت التلمساني -رحمه الله تعالى- (بعد ٨٠٠هـ) كان يقول لكل من جاءه للقراءة: أقرأ في أي علم شئت! وذات مرة؛ أشكلت عليه مسألة هندسية، فنظر فيها كتبًا كثيرة أيامًا، فلم يجِدها، فقال: هكذا أُتعب نفسي بالمطالعة؟! فتركها وتدبر المسألة بعقله، حتى أتقنها[٢].

٤٦. ابن الشحنة -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٥هـ) له ألفية تشتمل على عشرة علوم[٣].

٤٧. ابن المُغْلِي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٨هـ) كان غاية في الذكاء، وسرعة الحفظ، وجودة الفهم، ولما اشتغل بالفقه هرب أهل بلده إلى النحو، فحفظ فيه كتابًا كبيرًا، فهرب أهل بلده إلى الطب، فحفظ «القانون»[٤].

٤٨. تاج الدين النعماني الفرغاني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٤هـ) كتب رسالة تشتمل على أربعة عشر علمًا[٥].

٤٩. ابن نَعيم البساطي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٢هـ) يُتقن الجبر والطب والهندسة والحساب. وقال: أعرفُ نحو عشرين علمًا، ولي نحو عشرين سنة؛ ما سُئلتُ عن مسألة منها[٦].

---

(١) المصدر السابق (٥١٩/١)
(٢) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٥٥٣)
(٣) درر الفرائد المستحسنة في شرح منظومة ابن الشحنة (ص: ٢٨)
(٤) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٣٤/٦) والجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب أحمد (٩١/١)
(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٨٢/٢)
(٦) الدرر الكامنة (٦/٧)

٥٠. عبد الرحمن البسطامي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٨هـ) له كتاب مُوعِب اسمه: «موضوعات العلوم» وذكر فيه مقدار مئة علم![١].

٥١. أبو الفضل المغربي المشدالي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦١هـ) أحد أذكياء العالم. أَبانَ عن تفنُّن في العلوم؛ فقهًا وأصولًا وكلامًا ونحوًا، وغير ذلك[٢].

٥٢. ابن حامد الصفدي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٠هـ) شُهِدَ له بمعرفة اثني عشر علمًا[٣].

٥٣. علاء الدين القوشجي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٩هـ) جمع عشرين متنًا في مجلدة واحدة، كل متن من علم، وسماه «محبوب الحمائل» يحمله ولا يفارقه أبدًا، وكان ينظر فيه كل وقت، فحفِظ كل ما فيه من العلوم[٤].

٥٤. كمال الدين ابن قلي الأردبيلي -رحمه الله تعالى- (بعد ٨٨٩هـ) كان يقول: قد ملَّكني الله -تعالى- ثلاثين علمًا[٥].

٥٥. حميد الدين الحسيني -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٨هـ) قالوا عنه: لو ضاعت كتب العلوم لأمكن أن يكتبها كلها من حِفظه[٦].

٥٦. عبد الله بن الحسين العكبَري -رحمه الله تعالى- (ت ٩١٦هـ) كان يفتي في تسعة علوم، كالحساب والفرائض، والجبر والمقابلة، والقراءات الشاذة[٧].

٥٧. علاء الدين اليتيم -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢٠هـ) كانت له مشاركة

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١٩٠٥/٢)
(٢) بغية الوعاة (٢٤٧/٢)
(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٢٧٧/٥)
(٤) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ٩٩)
(٥) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٢٣٥/٢)
(٦) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ١٠٦)
(٧) ذيل طبقات الحنابلة (٢٣١/٣)

في كل العلوم، وربما يُدرِّس في يوم واحد عشرين درسًا؛ ما بين صرف ونحو وحديث(١).

٥٨. جمال الدين الحميري الشهير بحُرَق -رحمه الله تعالى- (ت ٩٣٠هـ) كانت له اليد الطولَى في جميع العلوم، وصَّنف في كثير من الفنون، كالحديث والنحو الصرف، والحساب، والطب، والأدب، والفلك، وغير ذلك(٢).

٥٩. الطّيب بن عفيف الدّين الطيبي اليمني -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤٧هـ) أقرأَ في أربعة عشر علمًا(٣).

٦٠. عبد العزيز بن عبد الواحد اللمطي -رحمه الله تعالى- (بعد ٩٥٦هـ) له منظومة، فيها نيف وعشرون فنًا(٤).

٦١. شيخ القراء بالمدينة عبد العزيز المِكْنَاسِي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٦٤هـ) له منظومات شتى، في ثمانية وعشرين علمًا. ومن إبداعه أنه يختار كُتبًا مؤلَّفة، فيَنظِمها شعرًا(٥).

٦٢. أيوب بن أحمد الحنفي الخلوتي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٧١هـ) كان يقول: أعرف ثمانين علمًا!(٦).

٦٣. ابن بركات الكوافي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٧٦هـ) اتفق له من العجائب: أنه أقرأ النحو، وسمَّع القرآن، وكتب الفقه في آن واحد. وكان يكتب الصحيفة من الورق بغَطَّة واحدة للقلم بالحبر، وختم القرآن ختمتين وثُمُن ختمة في يوم واحد!(٧).

---

(١) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ٢٠٣)
(٢) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ١٣٣)
(٣) المصدر السابق (ص: ٢٠٤) وشذرات الذهب (٣٨٢/١٠)
(٤) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٢٧٦)
(٥) الأعلام للزركلي (٢٢/٤)
(٦) مشيخة أبي المواهب الحنبلي (ص: ٢٠)
(٧) المصدر السابق (ص: ٤)

٦٤. عثمان الشمعة -رحمه الله تعالى- (ت ١١٢٦هـ) عكف عليه نجباء الطلبة، في كل فن من العلوم النافعة، فكان يُقرئ في أكثر من عشرة علوم، في الفقه وأصوله، والفرائض، والحديث ومصطلحه، والتفسير والقراءات، والحساب، والنحو، والبلاغة[١].

٦٥. الفقيه الحنبلي عبد الله بن أحمد العضيب -رحمه الله تعالى- (ت ١١٦١هـ) كان يتبع الغرباء من سائر الأجناس، ويقرأ على من وجد أي فن عنده؛ حتى يستفيده منه، حتى إنه كتب هوامش على «شرح التهذيب» في المنطق[٢].

٦٦. محمد بن عفالق -رحمه الله تعالى- (ت ١١٦٤هـ) أقرأ جميع الفنون. وقال عند موته: في صدري أربعة عشر علمًا، لم أُسأل عن مسألة منها[٣].

٦٧. الفقيه عبد الرّزّاق بن محمد السلّوم -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٤هـ) رحل إلى العراق، فقرأ بها المنطق، والأصول، والحساب، والجبر، والمقابلة، والهندسة، وقَلَّ عِلم إلا وله فيه يد، وكان من أشد أهل زمانه ذكاء وفطنة[٤].

٦٨. الفقيه محمّد بن إبراهيم بن عريكان -رحمه الله تعالى- (بعد ١٢٧٠هـ) أتقن علم الحساب والجبر والهندسة، والفلك[٥].

٦٩. ابن الخياط الزرهوني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٩٥هـ) كان يُخبر عن نفسه أنه: يُحسن أربعةً وعشرين علمًا[٦].

٧٠. عَلَوي السَّقَّاف -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٥هـ) له منظومة، لخَّص بها ثلاثين علمًا[٧].

---

(١) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (٣/١٦٦)
(٢) السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة (٢/٦٠٤) وتسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (٣/١٦٠٦)
(٣) تسهيل السابلة (٣/١٦٠٩)
(٤) السحب الوابلة (٢/٥٣١)
(٥) المصدر السابق (٢/٨٣٤)
(٦) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (٤/٥٨١)
(٧) الأعلام للزركلي (٤/٢٤٩)

وبعد:

فسبحان الوهاب المبدع، الذي وهب تلك العقول هذه القدرات، فأبدعت أيما إبداع، وتألَّقت حتى حلَّقت.

وحقًّا: إن هؤلاء السبعين مبدعًا مُوعِبًا، يَصدق على الواحد منهم قول الشاعر:

وكان من العلوم بحيث يُقضَى ... له من كل علمٍ بالجميعِ[١]



---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٩/٢٠٨)

٨. مبدعون رغم أنهم زَمْنَى أو معوَّقون

العجيب أن كثيرًا من النابغين تلازمهم أمراضهم آخر حياتهم! لكنهم لا ينقطعون عن الإبداع والعطاء، بل منهم معوَّقون جسديًا، ولكنهم أكثر انطلاقًا من الأصحاء؛ لأنهم لا يعتبرون الإعاقة في الجسد، بل في الروح والهمة. فـ (كم من أعرجٍ في درَج المعالي أعرجَ، ومن صحيح القدم ليس له في الخير قدم)[١].

إذًا فالعاهة ليست عَيبًا، بل كثيرًا ما تكون عونًا، ودافعًا للمضي قُدُمًا، للمنافسة، بل للمسابقة. بل إن بعضهم قد يكون مبرِّزًا بعدما يصاب بهذه الإعاقة، وقبلها لم يكن شيئًا مذكورًا.

ومن لطيف التسميات في زماننا أن يُسمى أولئك المعاقون بـ «أصحاب الهمم»[٢] فإن لكثير منهم هِمَمًا في العلم لم تَعُقْها الإعاقة، ولم تنقضها أمراضها.

ومن عجائب الموافقات، أن حديثًا اجتمع في إسناده أحد عشر راويًا، كلهم ذوو إعاقة، وهم على التوالي: حدثنا المزكوم، قال: حدثنا الزمِن، قال: حدثنا المفلوج، قال: حدثنا الأثرم، قال: حدثنا الأحدب، قال: حدثنا الأصم، قال: حدثنا

---

(١) الكلم النوابغ للزمخشري (ص: ٢٦)

(٢) وإن سُمِّيَ الواحد منهم بصريح العبارة بالمعاق، أو بذي الإعاقة؛ فلا ضيرَ عليه، ولا على القائل، لا سيما وقد صدر مرسوم ملكي، يقضي باعتماد هذه التسمية (معاق) في المخاطبات الرسمية.

الضرير، عن الأعمش، عن الأعور، عن الأعرج، عن الأعمى، أن النبي ﷺ توضأ مرةً مرةً[١].

وإليك الآن أربعين مثالًا عجيبًا، ومنتقىً ومرتبًا حسب القرون:

١. أبان بن عثمان بن عفان -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥هـ) كان به صَمَمٌ كثير، وأصابه الفالج قبل أن يموت بسنة، وهو راوي حديث: من قال: **بسم الله الذي لا يَضر مع اسمه شيء.. لم تُصِبْهُ فَجأةُ بلاءٍ**». فجعل الرجل الذي سَمِعَ منه الحديث ينظرُ إليه، فقال له: ما لك تنظر إليَّ؟ فواللهِ ما كذبتُ على عثمانَ، ولا كذَبَ عثمان على النبي ﷺ، ولكن اليوم الذي أصابني فيه ما أصابني، غضبتُ، فنسيتُ أن أقولها، ولا زلت أقولها منذ ثلاثين سنة، حتى كانت هذه الليلة[٢].

٢. عمرو بن دينار -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٦هـ) قال عنه تلميذه سفيان بن عيينة: كان عمرو لا يدَعُ إتيان المسجد، وكان يُحمل على حمار، وما أدركته إلا وهو مُقْعَد، فكنت لا أستطيع أن أحمله من الصغر، ثم قويتُ على حَمْله، وكان منزله بعيدًا[٣].

٣. حسين بن علي الجعفي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٣هـ) كان رأسًا في إقراء القرآن، روى عنه سفيان بن عيينة حديثين، ولم يَرَه إلا مُقعدًا، كان يُحمل في مِحَفَّة على مِقْعد في مسجد على باب داره، وربما دعا بالطشت، فبالَ مكانَه[٤].

(١) مشيخة قاضي المارستان (١١٠٥/٣) وتفصيلهم -رحمهم الله تعالى- كما يلي: المزكوم أبو علي الصولي، والزمِن أحمد بن محمد بن سليمان، والمفلوج محمد بن محمد الطوسي، والأثرم الحسن بن مهران، والأحدب عبد الله بن الحسين قاضي المصيصية، والأصم عبد الله بن نصر الأنطاكي، والضرير أبو معاوية، والأعمش سليمان بن مهران، والأعور إبراهيم النخعي، والأعرج الحكم بن مروان، والأعمى عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٤٩/٦) والحديث في سنن أبي داود ت (٥٠٨٨)

(٣) الطبقات الكبرى ط دار صادر (٤٨٠/٥)

(٤) الثقات للعجلي ط الباز (ص: ١٢٠)

٤. الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) أصيب بالبواسير، فلا يبرح الطَّست تحته، وما لقي أحدٌ من السُّقم ما لقي، بحيث ربما اجتمع فيه ثلاثون مرضًا، حتى ساء خلُقه، فكان يقول: إني لآتي الخطأ وأنا أعرفه. أراد به ترك الحمية. وقيل: ما كان يتحفَّظه من مكارم الأخلاق. قال أحد تلاميذه: دخلت يومًا على الشافعي، وكان يصنّف كتابًا، فقلت له: رحمك الله! إن أصحاب مالك وأصحاب أبي حنيفة صنَّفوا الكتب الكثيرة، ويجتهدون في العلم أكثر من اجتهادك! فقال: أليس ترى ما نحن فيه؟! - وكان يتأذى بالبَواسير - ثم قال: نُصَنِّف ويُصَنِّفُون، وما كان لله -تعالى- يبقى إلى الدهر[1].

٥. العالم النحوي ابن الخَرَّاز -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٩هـ) أُقعد في آخر عمره، فَلَزِم داره نحوًا من سبعة أعْوَام، فسمع منه النَّاس وانتفعوا منه في بيته[2].

٦. الحارث بن مسكين المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧١هـ) كان مُقعَدًا من رجليه. فكان يُحمل إلى الجامع في مِحَفَّة، وكان يركب الدابة متربِعًا[3].

٧. قال أبو عمر الطلَمَنْكي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٩هـ): دخلتُ مرسية، فتشبَّثَ بي أهلها؛ ليَسمعوا عليَّ «غريب المصنَّف»[4]. فقلت لهم: انظروا لي مَن يقرأ لكم، وأُمسِكُ أنا كتابي، فأَتَوْني برجل أعمى يُعرف بابن سِيْدة، فقرأه عليَّ من أوله إلى آخره! فعجبتُ مِن حِفظه. وكان أعمى ابن أعمى![5].

٨. المقرئ الضرير أبو الوحش ابن قيراط -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٨هـ)

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (١/١٧٧ و٢/٢٩٢)وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢/٣٤٢)
(٢) بغية الوعاة (١/٢٦٣) وتاريخ علماء الأندلس (٢/٨٢)
(٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٤/٢٨) وكتاب الولاة وكتاب القضاة للكندي (ص: ٣٣٤)
(٤) لأبي عبيد القاسم بن سلاّم.
(٥) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٣٩٧)

أُقعد، فكان يؤتَى به محمولًا إلى الجامع، فكان يُقرِئ القرآن من ثلث الليل إلى قريب الظهر(١).

٩. الناسخ العلامة ابن فطيمة البيهقي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٦هـ) انظر لعزيمته! فقد كان مقطوع أصابع يديه العشر؛ لِعِلَّةٍ لحِقَتْها، فكان يأخذ القلم بكفيه، ويترك الورق تحت رجليه، ويكتب بكفيه خطًا مَليحًا من أسرع ما يكون، وكان يكتب كل يوم خطًا واسعًا مقروءًا(٢).

١٠. علاء الدين الكاساني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٧هـ) كان كثيرًا ما يعرض له النقرس في رجليه والمفاصل، فكان يُحمل في مِحَفَّة من منزله، ويخرج إلى الدرس ولا يمنعه ذلك الألم من الاشتغال(٣).

١١. الخطيب ابن المظفر الطوسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠١هـ) كان مقعدًا من فالج عرض له في آخر عمره، فلا يقدر على النهوض، ولم يزل يُقرأ عليه الحديث إلى أن توفي(٤).

١٢. ابن عبدربه التجيبي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٢هـ) أُقعد من شكاية بقدميه، منعته من القيام والتصرف، فعكف على النظر والمطالعة، فانتفع بذلك(٥).

١٣. ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ) عرض له مرض في كَف يديه ورجليه، فانقطع في منزله، وترك المناصب، وفي تلك المدة ألَّف كتاب «جامع الأصول» و«النهاية» وغيرهما(٦).

---

(١) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣٥/٢٠٥)

(٢) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ٦٨٨)

(٣) بغية الطلب في تاريخ حلب (٤/٢٩٠) والمِحَفَّة: سرير له ذراعان من كلّ ناحية، يستلقي فوقه العاجِز عن المشي. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١/٥٢٦)

(٤) قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان لابن الشعار الموصلي (١/١٦٣)

(٥) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٤/٥٣٢)

(٦) الكشكول (١/٢٦)

١٤. زين الأمناء الحسن ابن عساكر الدمشقي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٧هـ) أصابته زَمَانة في الآخر، فكان يُحمل في مِحَفَّة إلى الجامع، وإلى دار الحديث النورية، فيَسْمَع العلم(١).

١٥. شيخ القراء جمال الدين الفاضلي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٢هـ) أصيب بطرف من الفالج قبل وفاته بسنتين، فكان يقرئ في بيته، وقد انتهى الذهبي عليه إلى أواخر سورة القصص، فلما ازداد الفالج على الشيخ مُنع الطلبة من الدخول عليه حتى مات(٢).

١٦. الفقيه الشافعي المصري نجم الدين ابن الرفعة -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٠هـ) كان مُكبًا على الاشتغال، حتى عرض له وجع المفاصل، بحيث كان الثوب إذا لمِس جسمه آلَمَه، ومع ذلك معه كتاب ينظر إليه، وربما انكبَّ على وجهه وهو يطالع(٣).

١٧. المحدث علاء الدين أبو الحسن بن العطار تلميذ النووي -رحمهما الله تعالى- (ت ٧٢٤هـ) أصابه فالج أكثر من عشرين سنة، فكان يُحمل في مِحَفَّة. ولم يدَعِ الدرس والتأليف. ومن تصانيفه «حكم البلوى وابتلاء العباد».

١٨. علي بن عبد الله التبريزي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٦هـ) مِن أعرف الناس بالفقه الشافعي، وحصل له في آخر عمره صمم، بحيث إنه كان يُقرئ والكتاب بيده، ويشير إلى طلابه: هل فهمتم؟(٤).

١٩. ابن المغيزل -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٧هـ) كان عظيم الهمة في

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢٢/٢٨٦)
(٢) معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار (ص: ٣٧٧)
(٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١/٣٣٩)
(٤) العقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ٤١٥)

تحصيل الفوائد والعلم، مثابرًا على ذلك، مع تعلُّله بالربو وضيق النفَس، حتى لقد كان من ضعف جسمه يلبس الفروة في أغلب الأوقات[١].

٢٠. وأعجب منهم ابن جابر الأندلسي الهواري الأعمى -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٠هـ) له رفيق اسمه أبو جعفر الرعيني، وهما المشهوران بالأعمى والبصير. وكان ابن جابر يؤلف وينظم، والرعيني يكتب، ولم يزالا هكذا على طول عمرهما خمسين سنة[٢].

٢١. التاجر المحدث ابن زعيب الرحبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٤هـ) لازم ابنَ كثير، وكثيرًا من أصحاب ابن تيمية، فلما كبر دفع ماله لولده محمد، وأقبل على الإسماع، وأصيب في رجليه بالمفاصل، ولكنه للعلم مواصل[٣].

٢٢. ابن خلفون المنهلي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٥هـ) ابتدأ الفالج معه سنتين، ولم يمنعه عن الإقراء والإفتاء.. وهو صابر شاكر حتى مات[٤].

٢٣. المقرئ أبو الفتح السنهوري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٤هـ) تجرع الفاقة، وعرض له رمَدٌ بعينيه، وفالِجٌ، ومع ذلك لم ينفكَّ عن الكتابة والاقراء[٥]

٢٤. المولى العالم الفاضل الرومي الحنفي بالي الأيدي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢٩هـ) سقط مرة عن فرسه، فانكسرت رجله، فاستمر ملقى على ظهره أكثر من شهرين، ولم يترك الدرس[٦].

٢٥. أبو الضياء الغيثي المقصري -رحمه الله تعالى- (ت ٩٧٥هـ) كُفَّ بصره

---

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٢٤٨/٩)
(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٧١/٥) وشذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤٦٢/٨)
(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر (٤٤٩/١)
(٤) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٨١/٤)
(٥) المصدر السابق (٦٩/٣)
(٦) شذرات الذهب لابن العماد (١٦٢/٨) والكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (١٦٥/١)

قبل وفاته بتسع سنين، فاحتسب ورضي، واستمر على تدريسه، وألَّف مؤلفاته وهو على حالة العمى(١).

٢٦. الشيخ النحوي أبو بكر الشنواني -رحمه الله تعالى- (ت ١٠١٩هـ) ابتلي بالفالج، فمكث فيه سنين، وألَّف المؤلفات المقبولة(٢).

٢٧. وأما العلّامة عبد الرؤوف المُناوي الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٣٠هـ) فقد كان يقتصر يومه وليلته على أكلة واحدة، وقد توالَى عليه نقص في أطرافه وبدنه؛ من كثرة التداوي، ولما عجز صار ولده تاج الدين يستملي منه التآليف ويسطرها. وله نحو ثمانين مصنفًا(٣).

٢٨. الفقيه الشافعي ابن علوان الأسود -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٧٤هـ) تمرَّض مقعدًا ثلاث سنين، وكتب كُتبًا كثيرة بخطه، منها الجامع الصغير للسيوطي، كتب منه إحدى وعشرين نسخة، حتى حفظ الكتاب عن ظهر قلب(٤).

٢٩. الفقيه الحنفي شوكة علي السنديلوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٢٠هـ) تشنجت أعصابه في طفولته، فهزلت قدماه من ذلك، فصار مقعدًا لا يقدر أن يمشي، ولكنه قرأ المختصرات، وفاق أقرانه في الفقه، والأصول، والعربية(٥).

٣٠. الشيخ أحمد الكانبوري الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٢٢هـ) كان يُدرِّس خمسة عشر درسًا في كل يوم، وفي أثناء ذلك عرضت له البواسير، فيهرق الدم الكثير وهو لا يتعطل عن التدريس، حتى غلب عليه الهزال، ومنعه الأطباء عن التدريس قاطبة، ولكنه ما تركه حتى توفي(٦).

---

(١) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ٢٧٦)
(٢) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٧٩/١)
(٣) الأعلام للزركلي (٢٠٤/٦)
(٤) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١٦٠/٣)
(٥) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (١٢٤٤/٨)
(٦) المصدر السابق (١١٨٠/٨)

٣١. رفيق بك العظم -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٣هـ) كان شديد الميل إلى التاريخ والأدب سكن مصر، إلا أنه لكثرة المطالعة والسهر أصيب بمرض العصب، فاضطر إلى ترك المطالعة، وسافر إلى الشام؛ لأجل تبديل الهواء، ولما عوفي عاد إلى مصر، فعاد للقراءة(١).

٣٢. المفسر الأصولي الدمشقي عبد القادر ابن بدران الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٦هـ) أصيب بداء الفالج في آخر عمره، حتى خدرت يمناه عن الكتابة، واستعان عليها باليسرى(٢).

٣٣. وهذا الشيخ سليمان بن سحمان -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٩هـ) طرأ عليه نقص بصره عند بلوغه خمسة وستين سنة، فبعثه الملك عبد العزيز -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٣هـ) لعلاج عينيه في البحرين، فلم يُقدَّر له الشفاء ورجع بدون فائدة، فعاد إلى التأليف والردود بحماس.. فألَّف قبل ذهاب بصره، وبعد ما طرأ عليه ضعف البصر ستة وعشرين من المؤلفات(٣).

٣٤. كتاب «السيف المجلى على المحلى» مؤلفه: مهدي حسن الشاه جهانبوري -رحمه الله تعالى-، قال في آخره: «فرغت من تسويده سنة (١٣٨٨) من الهجرة؛ وأنا مريض بمرض الفالج من خمسة أعوام، عاجز عن القيام والقعود إلا بمُعِين»(٤).

٣٥. مرض الشيخ عبد الرحمن بن قاسم -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٢هـ) وهو يجمع فتاوى ابن تيمية، فسافر للعلاج إلى بيروت، ثم باريس عن طريق القاهرة. يقول ابنه الشيخ محمد: وصلنا القاهرة، وقمنا بزيارة دار الكتب المصرية، ثم

---

(١) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (ص: ٦٣٠) والأعلام للزركلي (٣/٣٠)
(٢) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (٣/١٧٨١)
(٣) مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص: ٢٠٢)
(٤) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (١١/٣٢٦)

تصفحنا ما فيها من المجاميع.. فتحصل من الجميع مجلد متوسط). وبينما هو يعالج في بيروت ضحَّى براحته وحاجته؛ فضحى بمرافقة ابنه، ليأمره بالسفر من بيروت إلى دمشق؛ للتنقيب والنسخ. فسبحان الفاتح المانح.

يقول الابن: كنت أتصفح المجلد، فأجد فيه مسائل ونقولًا عن شيخ الإسلام أستغربُها، وأستعذبُها.. فأخذت أتابع المطالعة والتصفح جميع الموجود فيها؛ وهو بضع وأربعون مجلدًا.. ففرحت فرحًا عظيمًا؛ بالتوفيق للعثور على هذه الكنوز العلمية(١).

٣٦. ومن عجائبهم في الصمود برغم الإعاقة أن الشيخ الهندي آصف القدوائي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٩هـ) مكث ثلاثًا وأربعين سنة على السرير مشلولًا، يُقلِّبه الممرِّض، ومع ذلك فقد ألَّف عشرات الكتب، وتُرجمت لعدة لغات(٢).

٣٧. المفسر المقرئ عبد الفتاح المرصفي المصري -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٩هـ) كان بعضهم يقرأ عليه أثناء تناوله الطعام. ورغم مرضه الشديد كان يُقرئ الطلاب، ولا يمنع أحدًا(٣).

٣٨. وأما الألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) فهو العَجب العجاب؛ فقد أصيب في عينه، فطلب منه الطبيب أن يمكث شهرًا لا يقرأ شيئًا! فمكث أيامًا، ثم أصابه الملل، فذهب الشيخ المكتبة الظاهرية ليبحث ورقة ضائعة من مخطوطة، ونسي أو تناسى مرضه، فلم يجدها، ولكنه في تلك الأثناء كان يدون الأحاديث التي يقف عليها في المخطوطات، حتى دوَّن أربعين مجلدًا من الأحاديث بخط يده! وكان عدد المخطوطات آنذاك حوالي عشرة آلاف مخطوطة!(٤)

---

(١) مقدمة مجموع فتاوى ابن تيمية (١/هـ)
(٢) تتمة الأعلام للزركلي - محمد خير رمضان (٧/١)
(٣) الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة (١٢٦٢/٢)
(٤) محدث العصر للشيخ سمير الزهيري - دار المغني (ص١٦)

ولما ضعف عن الكتابة صار يُملي على أولاده وأحفاده ما يُخرِّجه من أحاديث، ولقد أملى مرَّة حول حديث ضعيف ثماني عشرة صفحة كاملة.

وكان وهو على فراش الموت -إذا صَحَا لحظات يقول: ناوِلوني الجرح الأول، أعطُوني الجرح الثاني. يعني كتاب الجرح والتعديل[١].

تقول ابنته أم عبد الله: قبل وفاته بيومين ما فَتِيء يحاول الاستفادة من أي سانحة، يجد فيها بعض النشاط- حتى لو كانت خمس دقائق، بل حتى لو كانت جملة، أو كلمة كان قد وقف عندها، فيجلس ليتمَّها- متحاملًا على أوجاعه[٢].

ويقول صديقه القديم الشيخ زهير الشاويش -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٤هـ): قبْلَ وفاته بثمان وأربعين ساعة، طلب إحضار كتابه: «صحيح سنن أبي داود»؛ لينظر فيه[٣].

٣٩. شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) في أواخر أيامه ألقى دروسه بحجرته بالمسجد الحرام، وهو تحت الأجهزة الطبية، حتى آخر ليلة من رمضان. وفي اليوم التاسع والعشرين في رمضان نُقل من الحرم إلى مستشفى جدة، وأدخل العناية المركزة قرابة الأربع ساعات تقريبًا، وعندما جاء العصر تحسَّنتْ حالته شيئًا ما، فأصرَّ أن يذهب إلى مكة رغم محاولات أولاده ثَنْيَه عن ذلك، فقال: لا تَحرِمونا هذا الأجر فهذه آخر ليلة في رمضان! وبالفعل ذهبنا إلى مكة ومعنا الأطباء المرافقون، وأجلسناه في غرفة داخل الحرم.. ولما انتهى من الدرس قال للأطباء: لو جلسنا في جدة لَفَاتنا هذا الخير العظيم؟![٤].

---

(١) انظر: مقالات الألباني - جمع: نور الدين طالب (١٨١ - ٢٢٠)
(٢) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (٣/٦)
(٣) من مقطع مرئي في اليوتيوب.
(٤) صفحات مشرقة -حمود المطر (ص١٤١)

٤٠. عبد الله بن عبد العزيز الجبرين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٨هـ) لما قطع مشوارًا في تأليف كتابه، الذي هو مشروع عمره: (تسهيل الفقه ١٢ جزءًا) أصيب بمرض السرطان، فأكمله وهو يعالج بأمريكا، ثم أخبروه بأن المرض قد انتشر في جزء كبير من جسمه، فما زاده هذا الخبر إلا إصرارًا على المُضي في بحث مسائل الكتاب، وتحرير مواضع الخلاف بتأنٍ، لا بِروح العَجِل الذي أنهكتْه الآلام. ولقد أخبر خاصَّته: أنه كان يعاني لمدة طويلة، من بعض الأمراض المزمنة، مثل آلام الركبة، وآلام القرحة، وآلام الرقبة، وآلام في مفاصل اليد؛ من كثرة الكتابة على الحاسوب، إلى أن اشتدت به الآلام، وأُدخل المستشفى للمرة الأخيرة[1].

بيان بأسماء الإعاقات والأمراض المذكورة أعلاه وتفسيراتها:

اسم الإعاقة أو المرض	المراد بها
١. الفالج	الشلل النصفي
٢. القولنج	القولون
٣. النقرس	التهاب مفاصل أصابع الرجل
٤. الزمانة	المرض الذي يقعده وطول مدته
٥. الذرب	الإسهال
٦. البواسير	انتفاخ في فتحة الشرج

(١) من مقدمة تسهيل الفقة، بقلم أحد ملازميه (لم يذكر اسمه) (١٣/١)

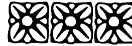
بيان بأسماء بعض العلماء ذوي الاحتياجات الخاصة (الإعاقات)[١]:

اسم العالم	نوع الاحتياج (الإعاقة)
١. مسروق بن الأجدع	أحدب، أشلّ وفلج أيضًا
٢. إمام اللغة ابن الأعرابي	أحول أعرج
٣. الرافعي	أصم
٤. قالون	أصم
٥. محمد بن سيرين	أصم
٦. المؤرخ الجزري	أصم
٧. ثعلب إمام النحو واللغة	أصم صممًا شديدًا
٨. سلمة بن دينار (ت ١٤١هـ)	أعرج
٩. علقمة بن قيس، صاحب ابن مسعود	أعرج
١٠. معاذ بن جبل	أعرج

(١) بعض العلماء قد ألف في إحصائهم: ككتاب «الضَّبط والتَّبيين لذوى العاهات من المحدثين» لابن المِبْرَد الحنبلي (ت ٩٠٩ هـ)، وللجاحظ كتاب: البرصان والعرجان والعميان والحُولان.

اسم العالم	نوع الاحتياج (الإعاقة)
١١. أبو الأسود الدّؤلى	أعرج، مفلوجُ، أبخر
١٢. عبد الرحمن البراك	أعمى
١٣. المفتي عبد العزيز آل الشيخ	أعمى
١٤. شيخهما ابن باز	أعمى
١٥. شيخه محمد بن إبراهيم	أعمى
١٦. ابن سِيده اللّغويّ	أعمى
١٧. أبو القاسم السّهيلي صاحب الروض الأنف	أعمى
١٨. أبو القاسم الشاطبيّ	أعمى
١٩. الترمذي	أعمى
٢٠. قتادة بن دعامة	أعمى
٢١. سفيان بن عُيينة	أعور
٢٢. النحوي أبو الفتح ابن جني	أعور
٢٣. إبراهيم الحربي	أعور - صداع دائم

نوع الاحتياج (الإعاقة)	اسم العالم
أعور أعرج	٢٤. داود الأنطاكي
أعور وأحنف، مائل الذقن	٢٥. الأحنف بن قيس
أعور، أعرج، ثم عمى	٢٦. عطاء بن أبى رباح
شلل رباعي	٢٧. ابن الأثير صاحب جامع الأصول
مجذوم	٢٨. أبو قلابة
مقطوع الرجل	٢٩. الزمخشري
الفالج	٣٠. قوام السنة (ت ٥٣٥هـ)



٩. مُفْتون صغار لكنهم كبار:

نعم صغار سن، لكنهم كبار قدر، وقد كان شيوخهم يَلْمَحون فيهم الألمعية والنبوغ، فكانوا يُولونهم عناية خاصة، ورعاية فائقة، فكان منهم ما كان.

وخذ استفتاحًا بمثال يَبهَرك، للعلامة محمد البشير الإبراهيمي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٥هـ) حيث يَحكي عن نبوغه منذ طفولته، فيقول: ما بلغتُ تسع سنين من عمري حتى كنت أحفظ القرآن، مع فهم مفرداته وغريبه، وكنت أحفظ معه «ألفية ابن مالك»، و«ألفية ابن معطي الجزائري»، و«ألفيتي الحافظ العراقي» في السير والأثر، وأحفظ «جمع الجوامع في الأصول».. وحفظت «ديوان الحماسة»، وكتاب «كفاية المتحفظ» للأجدابي الطرابلسي، وكتاب «الألفاظ الكتابية» للهمداني، وكتاب «الفصيح» لثعلب، وكتاب «إصلاح المنطق» ليعقوب السكيت[1].

فهذه عشرة كتب، التَهَمها صبي مُفْرَط الذكاء والحفظ! فصار نابغة زمانه!.

ومن جراء عبقرية هؤلاء الصغار، فإنك واجدٌ منهم مَن أجاز له مشايخه أن يجلس للفتوى وهو صغير.

وليس صِغَر السنّ عَيبًا. ومن الحِكم البليغة قول عبد الله بن المعتز- رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٦هـ): الجاهل صغير وإن كان شيخًا، والعالِم كبير، وإن كان حدَثًا[2].

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٢٧٣/٥)

(٢) نثر الدر في المحاضرات لأبي سعد الآبي (١٠٤/٣)

وقد كان عاصم بن أبي النجود -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٨هـ) يجيء إلى سفيان يستفتيه، ويقول: يا سفيان أتيتنا صغيرًا، وأتيناك كبيرًا[١].

وقال الزنجي -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ) للشافعي وهو ابن خمس عشرة سنة: أفتِ يا أبا عبد الله، فقد واللهِ آنَ لك، أن تفتي[٢].

إذًا فالإبداع والعبقرية لا تُحَدُّ بعمر معين، ولذا فقد فاقوا شيوخهم الذين يَكْبُرونهم بعقود من السنين، فطالت مُدَد إفتائهم وتعليمهم للناس، بحسب أعمارهم. وهؤلاء العباقرة المبدعون هم نوادر عبر التاريخ. وفي أضرابهم يقول الشاعر مستنهضًا:

إذا بلـغ الفتــى عشــرين عامًــا ... ولــم يفْخَـر فليــس لــه افْتخــارُ[٣]

ودونَك نبأ عشرة منهم في الجدول التالي:

العالِم: مولده - وفاته = عمره = مدة إفتائه	عمره حين بداية إفتائه
١. الشافعي مولده ١٥٠ - وفاته ٢٠٤ = ٥٤ = ٣٩	١٥ سنة
٢. حَجاج بن أرطاة مولده ٨٠ - وفاته ١٤٥ = ٦٥ = ٥٠	١٦ سنة
٣. ابن تيمية مولده ٦٦١ - وفاته ٧٢٨ = ٦٧ = ٤٩	١٧ سنة
٤. ابن رَزين مولده ٦٠٣ - وفاته ٦٨٠هـ= ٧٧ = ٥٩	١٨ سنة
٥. الهيتمي مولده ٩٠٩ - وفاته ٩٧٤ =٦٥ = ٤٧	١٩ سنة

---

(١) وفيات الأعيان (٢/٣٨٧)
(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/٩٣)
(٣) نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة للمحبي (ت ١١١١) (١/٢٠٣)

عمره حين بداية إفتائه	العالِم: مولده - وفاته = عمره = مدة إفتائه
١٩ سنة	٦. الجُوَيني مولده ٤١٩ - وفاته ٤٧٨ = ٥٩ = ٣٩
٢٠ سنة	٧. الجُنيد مولده ٢٢١ - وفاته ٢٨٩ = ٦٨ = ٤٨
٢٠ سنة	٨. مالك بن أنس مولده ٩٣. وفاته ١٧٩ = ٨٦ = ٦٦
٢١ سنة	٩. ابن الزّمَلكاني مولده ٦٦٧ - وفاته ٧٢٧ = ٦٠ = ٣٩
١٣ سنة(١)	١٠. محمود الألوسي مولده ١٢١٧. وفاته ١٢٧٠ = ٣٣

وإليك نموذجًا آخر لنخبة من العلماء المبدعين، من خلال جدول يجيب عن السؤال التالي:

كم عمر التلميذ الأبرز حين وفاة شيخه الأميز؟

الشيخ الأميز وتلميذه الأبرز	عمر التلميذ حين وفاة شيخه
١. عمر بن الخطاب وابن عباس	٢٣ + قبل الهجرة بـ٣ = ٢٦ سنة
٢. ابن عباس وسعيد بن جبير	٦٨ - ٤٤ = ٢٤ سنة
٣. ابن مسعود وعلقمة	٣٢ - ١٠ = ٢٢ سنة
٤. أبو حنيفة ومحمد بن الحسن	١٥٠ - ١٣١ = ١٩ سنة
٥. نافع ومالك بن أنس	١١٧ - ٩٣ = ٢٤ سنة

---

(١) وهذا من أعجبِهم؛ فالعمر الصغير مُبهِر جدًا! قال عنه الشيخ صِدّيق خان: واشتغل بالتدريس والتأليف وهو ابن ثلاث عشرة سنة. انظر: التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٥٠٨)

الشيخ الأميز وتلميذه الأبرز	عمر التلميذ حين وفاة شيخه
٦. مالك والشافعي	١٧٩ - ١٥٠ = ٢٩ سنة
٧. الشافعي والمزني	٢٠٤ - ١٧٥ = ٢٩ سنة
٨. أحمد وابنه عبد الله	٢٤١ - ٢١٣ = ٢٨ سنة
٩. ابن حجر والسخاوي	٨٥٢ - ٨٣١ = ٢١ سنة
١٠. السعدي وابن عثيمين	١٣٧٦ - ١٣٤٧ = ٢٩ سنة

أخي القارئ الكريم: ارجع بصرك مرتين في الجدول الآنف! فكل هؤلاء التلاميذ المبرزين لم يبلغوا الثلاثين عند وفاة شيوخهم، وقد كان التلاميذ المبدعون اشتهروا بشيوخهم؛ لأنهم أكثروا الأخذ عنهم.

جدول بأعمار أبرز تلاميذ ابن تيمية حين وفاته (ت ٧٢٨هـ) -رحمنا الله وإياهم-.

اسم التلميذ وتاريخ ولادته	عمره حين توفي شيخه ابن تيمية
ابن مفلح -رحمه الله تعالى- (٧٠٨هـ)	٢٠ سنة
ابن عبد الهادي -رحمه الله تعالى- (٧٠٥هـ)	٢٣ سنة
ابن كثير -رحمه الله تعالى- (٧٠٠هـ)	٢٨ سنة
الصفدي -رحمه الله تعالى- (٦٩٦هـ)	٣٢ سنة
ابن القيم -رحمه الله تعالى- (٦٩١هـ)	٣٧ سنة

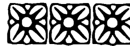
وهذا الجدول يعطيك مؤشرًا للعالِم، ألا يتقاعس عن تعليم الصغار الموهوبين خصوصًا، فلعل الله أن يجعل الخير فيهم أو في أحدهم؛ ليخلُفَك في العلم والتعليم والفتيا.

نماذج لعلماء مكثوا على كرسي الإفتاء خمسة عقود متتالية، فأكثر:

اسم العالِم ووفاته	مدة مكثه بالإفتاء
١- العلامة البغولني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٣هـ)	٦٠ سنة(١)
٢- أبو الحسن الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٩هـ)	٦٠ سنة(٢)
٣- أبو بكر بن إسحاق الصبغي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٢هـ)	٥٧ سنة(٣)
٤- ابن عقيل الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٣هـ)	٥٠ سنة(٤)
٥- سليمان بْن حمزة المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٥هـ)	٥٢ سنة(٥)
٦- شهاب الدين المرعشي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٢هـ)	٥٢ سنة(٦)

(١) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٧/٥٧)
(٢) المصدر السابق (٢٧/٤٠٠)
(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣/١١)
(٤) المصدر السابق (١٧/١٨٢)
(٥) معجم الشيوخ الكبير للذهبي (١/٢٦٨) وذيل طبقات الحنابلة (٤/٤٠١)
(٦) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (١/٢٢٥) وسلم الوصول إلى طبقات الفحول (١/١١٨)

مدة مكثه بالإفتاء	اسم العالِم ووفاته
٥٠ سنة[١]	٧- أبو سعيد السيرافي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٨هـ)
٥٠ سنة[٢]	٨- ابن الأزرق الهمذاني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٩هـ)
٥٠ سنة[٣]	٩- أبو الذكاء القرشي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٧هـ)
٥٠ سنة[٤]	١٠- ابن نصر الكنّاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١٢هـ)
٥٠ سنة[٥]	١١- أبو إسحاق الشيرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٦هـ)
٥٠ سنة[٦]	١٢- (الرستمي الشافعي) -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦١ هـ)



(١) الدر الثمين في أسماء المصنفين (ص: ٣٣٣)
(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٥/٢٠٠)
(٣) تاريخ الإسلام ت تدمري (٥١/٣٠٩)
(٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠/٨٣)
(٥) المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور (ص: ١٣٠)
(٦) الوافي بالوفيات (١٢/٤٠)

١٠. المبدعون الحافظون للكتب والمجلدات، لا للمتون والمنظومات:

مَن حفِظ مَتنًا فقد علا كعبُه في العلم، وحصيلة محفوظاتك هي العلم الباقي معك. ومن منتخَب كلام العرب قولهم: حرْفٌ في تَامُورِكَ خير من أَلْفٍ في وِعائك[١].

فالمبدع بالعلم حقًا هو الذي اختزن العلم في ذاكرته، ولم يكتفِ بالتقييد والكتابة، ولم يكتفِ بمجرد الفهم، بل أضاف إليهما حفظ الأصول؛ ليضمن الوصول، وإلا تاهَ وانقطع.

قال شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) أراد بعض الناس أن يمكروا بنا، قالوا لنا: إن الحفظ لا فائدة فيه، وإن المعنى هو الأصل. ولكن -الحمد لله- أنه أنقذنا من هذه الفكرة، وحفظنا ما شاء الله أن نحفظ، من متون النحو، وأصول الفقه، والتوحيد[٢].

ومن أوتي فهمًا ثاقبًا، وحفظًا متقَنًا فذاك الكمال. فليحمد الله كثيرًا على فتوحاته.

ومن همم الطامحين للكمال: أن تجد أحدهم يكافح حتى يحصِّل علمًا يجهله، فينبُغُ فيه ليكون من أعلامه. كما في قصة أبي بكر الأنصاري المعروف

(١) المنتخب من كلام العرب (ص: ٥٢) القلب يقال له: التَّامُورُ.
(٢) كتاب العلم لابن عثيمين (ص: ١١١)

بالأبيض -رحمه الله تعالى- (ت ٥٢٠هـ) فقد سئل عن معنى لفظة غريبة، فعجز عنها بمحضر من خجل منه، فأقسمَ أن يقيِّد رجليه بقيد حديد، ولا ينزعه حتى يحفظ «الغريب المصنَّف» فدخلت عليه أمه في تلك الحال، فارتاعَتْ، فقال:

رِيعَتْ عجوزي أن رأتني لابسًا   حِلَقَ الحديد ومثل ذاك يَرُوعُ
قالت: جُنِنتَ فقلت: بل هيَ هِمّـ   ـةٌ هي عنصر العلياء والينبوعُ[1]

وليُعلم أن الفهم غير الحفظ من حيث تركيبة الجسم، والحكماء يقولون: إنهما لا يجتمعان على سبيل الكمال؛ لأن الفهم يستدعي مزيد رطوبة في الدماغ، والحفظ يستدعي مزيد يُبوسة، والجمع بينهما مُحال[2].

قال الأديب محمد كُرْد عَلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٢هـ): والحافظة حاسة مستقلة عن بقية حواس الإنسان، ولا يكاد أحد يدرك كيف تعِي الحافظة الأرقام والأعداد، وتحفظ العبارات والمفردات، وتُحكم اللغات واللهجات، وتردد الألحان والأصوات.. وغاية ما عُرف من أمرها، أنها بالانتباه والتمرن، وأن الكسل ابن الترَف، والكسل يجرح الحافظة، إن لم نَقُل: يقتلها.. ولو لم يكن استناد المؤلفين في الأغلب إلا على ما في لوح محفوظهم، لَمَا تيسر لهم أن يؤلف أحدهم عشرات من المجلدات، يعجز العالِم اليوم عن نَسخها، وعن تصفُّحها[3].

ومن الأمثلة العجيبة المقارِبة لزمن عصرنا، ما كان من الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٩هـ) فإنه ذو حافظة نادرة، فكان

---

(١) الغريب المصنف لأبي عبيد (٢٨٢/١) ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقّري (٤٨٩/٣)

فائدة: التعبير عن الأم بالعجوز، يبدو من السياق أنه ليس من العقوق، بل هو مما جرت به عادتهم من غير نكير. وفي الصحيحين أن أنسًا قال: صففتُ أنا، واليتيم وراءَه، والعجوزُ من ورائنا (يقصد جدته مُليكة)

(٢) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٩٠/١)

(٣) مجلة المقتبس (١/٣٦)

يحفظ المتن للقراءة الثالثة وربما الثانية، وكانت تقرأُ عليه المعاملة الحكومية الطويلة، والتي تبلغ ثلاث مئة صفحة، ثم يُملي الجواب، وهو مستحضر كل ما مر فيها من الجزئيات[١].

ومَلَكة الحفظ كما أنها غريزة تتفاوت؛ إلا أنها موهبة تُكتَسب، وتتزايد بفضل الوهاب -سبحانه-. والعلماء في ذلك درجات. وسيأتيك بعض نبأ نوادر الحفاظ.

وقد قالوا عن الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ): لم يكن حِفظه على قدر تصانيفه، كنا إذا سألناه عن شيء أجابَنا بعد أيام، وأما تصانيفه فمصنوعة مهذَّبة[٢].

نعم؛ بين الحفاظ المبدعين تفاوُتٌ، ولهم في ذات العلم مشارِبُ، ويكون هذا حتى بين الصحابة الأجلاء. ولذا عقد ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) مقارنة بين الجبَلين أبي هريرة وابن عباس، فأبدع -كعادته- فقال: وأين تقع فتاوى ابن عباس، وتفسيره، واستنباطه من فتاوى أبي هريرة، وتفسيره؟ وأبو هريرة أحفظ منه، بل هو حافظ الأمة على الإطلاق.. فكانت هِمته مصروفة إلى الحفظ، وبلغ ما حفظه كما سمعه، وهمة ابن عباس مصروفة إلى التفقُّه والاستنباط، وتفجير النصوص، وشق الأنهار منها، واستخراج كنوزها[٣].

ومن عجائب الأخبار أن أبا بكر الميمني المروزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٠هـ) أملى مئة وأربعين مجلسًا على الأحاديث بالأسانيد، فاعترض عليه بعض المنازعين، فأراد أن يثبت لهم قوة حافظته، وتحريه لصحيح الأحاديث، فروى لهم حديث: «**من كذب على متعمدًا**» بنيف وتسعين طريقًا[٤].

---

(١) فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ (١/١٥)
(٢) المنثور من الحكايات والسؤالات لابن طاهر المقدسي (ص: ٤٧)
(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٥٩)
(٤) العقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ١١٨)

وهذه الملَكة الهائلة تمتاز بها أمة محمد ﷺ فهي أمة الحفظ عبر القرون، وليسوا كأمة اليهود، الذين لم يحفظ علماؤها حتى نصوص التوراة، وإنما عرفوه واستظهَروه ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): كل من استقرأ أحوال العالم، وجد المسلمين أحدَّ وأسدَّ عقلًا، وأنهم ينالُون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال، أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال[١].

ولكن لا يغِبْ عن بالِك أن حُفَّاظ تلك الأزمان الزاهرة، ليسوا كحُفاظ أزماننا الحاضرة.

قال الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) مقارِنًا حُفاظ زمانه بحفاظ أزمنة الإسناد الغابرة: وأين من أضنَى عمره في الرحلة والفن خاصة، وسمع من أربعة آلاف شيخ.. وسمع في أكثر من مئة مدينة.. إلى من لم يسمع إلا ببغداد، ولا روى إلا عن بضعة وثمانين نفسًا؟! فأنت لا ينبغي أن يطلَق عليك اسم الحفظ باعتبار اصطلاحنا، بل باعتبار أنك ذو قوة حافظة، وعلم واسع، وفنون كثيرة، واطلاع عظيم. فغفر الله لنا ولك[٢].

ويتملكك العجب حين ترى العالم النحوي الحسن الصغاني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٠هـ) وهو يوصي طلابه ويحفِّزهم، على حفظ كتاب مطبوع في مجلدين، فيقول: احفظوا «غريب أبي عبيد القاسم بن سلام» فمن حفِظه مَلَكَ ألف دينار، فإني حفظته فملكتُها، وأشرتُ على بعض أصحابي بحفظه، فحفِظه ومَلكها[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٤)
(٢) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤٠٧/٣٧)
(٣) معجم الأدباء (١٠١٥/٣)

وهل يمكن لعالِم أن يجرؤ، فيقول لمعاصريه ما قاله أبو حاتم الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٧هـ) لخلائق مجتمعين من العلماء: مَن أغربَ عليَّ حديثًا غريبًا مسندًا صحيحًا لم أسمع به، فله عليَّ درهم يَتصدق به. قال: وكان مُرادي أن أستخرج منهم ما ليس عندي، فأذهب فأسمع، فما تهيَّأ لأحد منهم أن يُغْرِبَ عليَّ حديثًا[1].

وأختارُ أبكار الكلام وعُونَهُ ... وأحفظ مما أستفيد عيونَهُ
فيا لائمي دعني أُعالي بقيمتي ... فقيمة كل الناس ما يحسنونَهُ[2]

عبارة «ما سمعتُ شيئًا إلا حفظتُه»:

هناك عباقرة، ما يسمعون شيئًا إلا ويحفظونه من المرة الأولى، وهذا كثير، بل إن بعض هؤلاء الأذكياء يقول عن نفسه بكل ثقة: «ما سمعتُ شيئًا إلا حفظتُه». وهذه عبارة فيها فخامة تدعو للفخَار، ولن يقولها إلا من وثِق من ذاكرته وجرَّبها.

وقد أحصيتُ أسماء عشرة أذكياء عباقرة عبر القرون، يقول الواحد منهم عن نفسه: إني ما سمعتُ شيئًا إلا حفظتُه. وهم كما يلي:

١. الشعبي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٤هـ).
٢. سفيان الثوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٦١هـ).
٣. الخليل بن أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٠هـ).
٤. سفيان بن عيينة -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٨هـ).
٥. إسحاق بن راهويه -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٧هـ).
٦. أبو العباس بن الفرات -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩١هـ).
٧. أبو عمرو الداني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٤هـ).

---

(١) تاريخ بغداد ت بشار (٤١٤/٢)
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٨/٦)

٨. الشاعر أبو العلاء المعري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٩هـ).
٩. أبو عبد الله الفاسي الصدفي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥١هـ).
١٠. أبو عبد الله المرسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٥هـ).

الحافظون لبعض الكتب ذات المجلدات:

ومن المفاخرِ والمفاخرُ جَمَّة: أن تجِد عالِمًا يُملي أو يؤلِّف من حافظته كتابًا من مجلدات.

ويُملــي فيُصغِــي الكاتبــانِ تَطَرُّبًــا إلـى مُبدعـاتٍ هـن والسـحرُ واحـدةٌ[1]

وثَمَّت عبر القرون حفاظ يلتهمون الكتب المقروءة الْتهامًا، ويحفظون سطورها ضبطًا وإتقانًا. وخذ على ذلك أربعة شواهد فائقة، ونماذج رائقة، من أولئك النوادر الحفَّاظ الملتهِمين للعلم:

١. من أعجب الأمثلة: حُفاظ عبر القرون، حفظوا «كتاب سيبويه» في النحو، بالرغم من استغلاق عبارته، وتعسُّر فهمه. وسيأتيك سَرْدُ خمسة وعشرين عالِمًا، حفظوا «الكتاب» برُمَّته، فضلًا عن استيعابه وفهمه.

٢. من النماذج الباهرة: أنني أحصيتُ أكثر من عشرين حافظًا، غالبهم مغمورون، وهم يحفظون «ديوان المتنبي» كاملًا، علمًا أن الديوان يشتمل على قرابة خمسة آلاف بيت!

٣. من الأمثلة العجيبة أن علماء أذكياء حفظوا «المنهاج في شرح النووي على صحيح مسلم»[2] المكوَّن من تسع مجلدات. ومن باب أولى أن يكونوا قد حفظوا ما دونه.

---

(١) يتيمة الدهر (١٦٩/٤)

(٢) قال السخاوي في المنهل العذب الروي (ص: ٧) عن هذا الشرح: «وهو عظيم البركة». فعلَّق الشيخ المحقق مشهور حسن سلمان: هو كذلك، وأنا -ولله الحمد- أدرّسه منذ أكثر من عشر سنين، ولي عليه إملاءات؛ أرجو الله -تعالى- الإعانة على نشرها. انظر: تحفة الطالبين لابن العطار - تحقيق مشهور (هامش ص ٧٠)

وإليك أسماء ستةِ أعلام، قد حفظوا واستحضَروا هذه التسعة مجلدات:

أ- محمد بن أحمد النُّوَيري[١].

ب- أحمد بن عمر بن أبي الرِّضا الحلبي[٢]

ت- عثمان بن محمد الدِّيَمي القاهري[٣].

ث- نجم الدين القَمُولي[٤].

ج- محمد ابن ظهيرة القَلْيُوبي[٥].

ح- أحمد بن علي الهِيْتي القاهري[٦].

٤. وسيدهشك جدولٌ بعد بضع صفحات، فيه ثلاثون مثالًا، لمن يحفظون الكتب المتنوعات، ذات المجلدات المتعددات.

الحافظون عن ظهر قلب لكتاب سيبويه في النحو:

النحو صعب وطويل سُلَّمه، وعمدته «كتاب سيبويه»، وإن بابه لَمِنْ ذهب، وجدرانه من حديد، فهو كتاب مستغلِق فهمه إلا على العبقري، فكيف بمن سيحفظ لفظه؟! فهو العبقري حقًا! ولذا يسمى كتاب سيبويه بـ«قرآن النحو»[٧].

عليك قُران النحو نحوِ ابـ ـن قنبر فآياته مشهودة وشواهده[٨]

وقد كان المبرد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٦هـ) إذا أراد مُريد أن يقرأ

(١) إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر (١١١/١)

(٢) المصدر السابق (١٤٣/١)

(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٤٠/٥) والنور السافر عن أخبار القرن العاشر للعَيْدَرُوس (ص ٢٦)

(٤) الوافي بالوفيات للسبكي (٢٢٧/١) والدرر الكامنة لابن حجر (٤٧٢/١)

(٥) طبقات الشافعية (٢٠٣/١)

(٦) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٦/٢) وشذرات الذهب لابن العماد (١٨٥/١٠)

(٧) نور القبس لليغموري (المتوفى ٦٧٣) (ص: ٢١) وغرائب الاغتراب للألوسي (ص: ١٣٨)

(٨) الإحاطة في أخبار غرناطة (٣٦/٣)

عليه كتاب سيبويه، يقول لَهُ: هل ركبتَ البحر؟! يقوله تعظيمًا له، واستصعابًا لما فيه(١).

ومن الطرائف قول النحوي المازني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٨هـ): قرأ عليَّ رجل كتاب سيبويه في مدة طويلة، فلما بلغ آخره قال لي: أما أنت فجزاك الله خيرًا، وأما أنا فما فهمتُ منه حرفًا(٢).

ومَن فَهِم أو حَفِظ هذا الكتاب العمدة فقد ارتقى مرتقى منيفًا، وحاز فضلًا شريفًا.

قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): كتاب سيبويه في النحو؛ إذا فهِمه الإنسان كان لسيبويه في قلبه من الحُرمة، ما لم يكن قبل ذلك(٣). وقال: ليس في العالَم مثل كتاب سيبويه، وفيه حكمة لسان العرب(٤).

يقول ابن فرتون -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٢هـ) مفتخرًا بحفظه لكتاب سيبويه:

لو لم يكن ليَ آباءٌ أَسُودُ بهم ... ولم يُثبت رجال العُرْب لي شرفًا
ولم أَنَلْ عند مَلِك العصر منزلة ... لكان في سيبويه الفخر لي وكفى(٥)

ولذلك كانوا يتواصَون بالاعتناء بهذا الكتاب الأم، جيلًا بعد جيل.

فهذا أبو سعيد السيرافي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٨هـ) يقول مُوصِيًا تلميذه: اصرف هِمتك إليه؛ فإنك لا تدركه إلا بتعب الحواسّ، ولا تتصوّره إلا بالاعتزال عن الناس(٦).

---

(١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص: ٥٥)
(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٢٨٣/١)
(٣) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣٣٣/٨)
(٤) مجموع الفتاوى (٤٦/٩)
(٥) تحفة القادم (ص: ٢٢) وبغية الوعاة (٥٥٧/١)
(٦) معجم الأدباء (٨٧٩/٢) والدر الثمين في أسماء المصنفين (ص: ٣٣٣)

وقال ابن كثير -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٣هـ): وشرَحه أئمة النحاة بعده، فانغمروا في لُجَجِ بحره، واستخرجوا من جواهر حاصِلِه، ولم يبلغوا إلى قَعْرِه[١].

وهذا الملك الأيوبي شرف الدين عيسى -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٤هـ) قرأ على شيخه في النحو كتاب سيبويه، وقد كرر قراءته قرابة ست مرات[٢].

ومن العجائب المُبْهِرة أن علماء الجن لهم اعتناء بكتاب سيبويه! بل ويَميلون لمذهب سيبويه من بين النحويين![٣].

ومع استغلاق ومَتانة متن هذا الكتاب؛ فقد كان طائفة من العلماء يحفظونه عن ظهر قلب. فإليك خمسة وعشرين عالِمًا حفِظوه، فصاروا ذوي سيبويه[٤]، وهم - كما أحصيتُهم بالتتبع-:

١. حمدون المعروف بالنعجة -رحمه الله تعالى- (ت بعد ٢٠٠هـ)[٥].

٢. إبراهيم بن الوزان القيرواني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٦هـ)[٦].

٣. عبد الله الأسلمي -رحمه الله تعالى- (ت بعد ٤٢٠هـ) يختمه كل خمسة عشر يومًا[٧].

٤. غالب القيسي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٥هـ)[٨].

٥. أبو عبيد الله الطليطلي النحوي -رحمه الله تعالى- (ت بعد ٥٠٢هـ)[٩].

---

(١) البداية والنهاية ط هجر (٦٠٧/١٣)
(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٢١٠/٤)
(٣) نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري (ص: ٥٦)
(٤) هكذا يُجمع لفظ: «سيبويه» بتقديم « ذوِي» عليه.
(٥) طبقات النحويين واللغويين (ص: ٢٣٥)
(٦) معجم الأدباء (٨٩/١)
(٧) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٢٥٣)
(٨) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٢٦/١٨)
(٩) الاعتبار لأسامة بن منقذ (ص: ٢٠٩). يقول أسامة عن الطليطلي: أخذت جزءًا، وفتحته، وقرأت منه سطرًا، فقرأ الصفحة بأجمعها حفظًا.

٦. ابن أبي كدية التميمي القيرواني -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٢هـ)[١].

٧. ابن فرتون الأبرش النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٢هـ)[٢].

٨. محمد ابن برنجال -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٦هـ)[٣].

٩. نائت أبو الزهر الضرير -رحمه الله تعالى- (بعد ٥٤٠هـ)[٤].

١٠. ابن الأديب السعدي اليحصبي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٩هـ)[٥].

١١. ابن طاهر النحوي الأندلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٠هـ)[٦].

١٢. ابن سيد الكناني الإشبيلي المعروف باللص -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٦هـ)[٧].

١٣. عبد الله بن بري النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٢هـ)[٨].

١٤. أبو إسحاق الضرير الملقب بالوجيه الذكي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٠هـ)[٩].

١٥. جابر بن نام الحضرمي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٦هـ)[١٠].

١٦. تاج الدين أبو اليمن الكندي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ)[١١].

١٧. أبو جعفر أحمد الحميري -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٠هـ)[١٢].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٨٨/٥٤)

(٢) تحفة القادم (ص: ٢٢) وبغية الوعاة (٥٥٧/١)

(٣) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٥٥٣)

(٤) نكث الهميان في نكت العميان (ص: ٢٨٥)

(٥) بغية الوعاة (٣٨/٢) قيل عنه: يحفظ كتاب سيبويه كحفظه للقرآن.

(٦) إنباه الرواة على أنباه النحاة (١٩٤/٤)

(٧) بغية الوعاة (٣٤٤/١)

(٨) طبقات الشافعيين (ص: ٧١٥)

(٩) الوافي بالوفيات (٩٤/٦)

(١٠) بغية الوعاة (٤٨٤/١)

(١١) تاريخ الإسلام ت تدمري (١٤٤/٤٤)

(١٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: ٢٢١)

١٨. ابن الدهان المبارك الواسطي -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٢هـ)[١].

١٩. ابن الخير الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٨هـ)[٢].

٢٠. ابن أبي عمران المزالي الفاسيّ -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٣هـ)[٣].

٢١. الوزير ابن مطرف الإشبيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٦هـ)[٤].

٢٢. محمد القللوسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٧هـ)[٥].

٢٣. ابن عبد المنعم الحميري -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٧هـ)[٦].

٢٤. شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ)[٧]. والعجيب المدهش أن مترجميه قالوا: أَخذ يتأمَّله حتَّى فهمه. وكلمة «يتأمله» هل تعني أنه تلقَّنه بلا شيخ؟! هذا خليق بهذا الجبل الأشم، والبحر الخضم.

٢٥. محمد بن إبراهيم البعقيلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٧٢هـ)[٨].

طائفة من الذين يحفظون ديوان المتنبي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٤هـ):

١. ابن جِنّي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٢هـ) وكان المتنبي يقول: ابن جِنّي أعرفُ بشِعري مني[٩].

٢. ابن الطراوة السبائي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٢٨هـ)[١٠].

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٨٦/٢٢)
(٢) الوافي بالوفيات (٩٢/٦)
(٣) المقفى الكبير (١٢٤/٧)
(٤) بغية الوعاة (٧٤/١)
(٥) الإحاطة في أخبار غرناطة (٥٣/٣) والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٤٣٣/٥)
(٦) الإحاطة (١٠١/٣) والدرر (٢٨٢/٥)
(٧) تاريخ ابن الوردي (٢٧٦/٢)
(٨) سوس العالمة (ص: ٤٠)
(٩) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤٩٤/٤)
(١٠) التكملة لكتاب الصلة (٩١/٤)

٣. الفيلسوف ابن رشد الحفيد -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٥هـ)[١].

٤. النحوي الطبيب الأديب عبد اللطيف بن اللبَّاد -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٩هـ)[٢].

٥. الأديب الأندلسي إسماعيل بن محمد الشقُنْدي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٩هـ)[٣].

٦. ضياء الدين ابن الأثير الجزري -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٧هـ)[٤].

٧. ابن النحاس البياسي -رحمه الله تعالى- (٦٥٣هـ)[٥].

٨. شرف الدين الإربلي الهذباني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٦هـ)[٦].

٩. علي بن زيد البيهقي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٥هـ)[٧].

١٠. تقي الدين السروجي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٣هـ)[٨].

١١. العلامة ابن المرحَّل -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٦هـ) حفِظه في جُمُعة[٩].

١٢. الأديب ابن الصائغ -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٠هـ)[١٠].

١٣. الفقيه النحوي ابن القماح السخاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٣هـ)[١١].

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٠٨/٢١)
(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٦٨٣)
(٣) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (٢٢٢/٣) وريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا (ص: ٤٥٥). وفيهما قصة لطيفة، فانظرها.
(٤) وفيات الأعيان (٣٨٩/٥)
(٥) المصدر السابق (٢٣٨/٧)
(٦) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٥٤/٢٣)
(٧) معجم الأدباء (١٧٥٩/٤)
(٨) الوافي بالوفيات (١٨٣/١٧)
(٩) طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٢٣٣/٢) والدارس في تاريخ المدارس (٢٢/١) والبدر الطالع للشوكاني (٢٣٤/٢)
(١٠) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٥٨/٥)
(١١) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (٢١٥/٤)

١٤. السلطان أبو عبد الله المهدي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٥٩هـ)(١)

١٥. أمير المؤمنين محمد بن القائم بأمر الله السعدي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٦٤هـ)(٢).

١٦. محمد السروري المقدسي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٨٩هـ)(٣).

١٧. إسماعيل العجلوني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٦٢هـ) صاحب «كشف الخفاء»(٤).

١٨. الأديب محمد محمود بن أحمذيه الشنقيطي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٢٢هـ)(٥).

١٩. أبو العباس ابن مخلوف الشريف -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٢٣هـ)(٦).

٢٠. الأديب زكي مبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧١هـ)(٧).

٢١. الأديب محمود شاكر -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٨هـ). حَفِظه ولم يبلغ العاشرة(٨).

٢٢. الأديب عبد العزيز الربيعي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٤٢هـ)(٩).

---

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٣٥/٥)
(٢) درة الحجال في أسماء الرجال (٢٠٤/٢)
(٣) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤١٤/٣)
(٤) النفحة المسكية في الرحلة المكية (ص: ٢٥٥)
(٥) بلاد شنقيط المنارة والرباط - الخليل النحوي (ص: ٢٣١)
(٦) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (٥٩٦/١)
(٧) مجلة الرسالة (العدد ٢٥٠ ص٢٥). وهو أول من دعا إلى الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة المتنبي.
(٨) ظل النديم - جواد العلي (ص: ٩٩)
(٩) ليس له إلا كتابان، كلاهما عن المتنبي، ومن حُبه للمتنبي فقد سمى أحد أبنائه بـ: محسَّد، على اسم ابن المتنبي، ومن وفائه للمتنبي فهو يضحِّي عنه كل سنة. أفادني بذلك أحد أصهاره وجُلَّاسه، وهو أخونا الأستاذ الشاعر أحمد بن صالح العامر.

إنهم لَهُمُ الهِمَم:

اعلم أن ديوان المتنبي ليس كأي ديوان، في بلاغته وجزالته، وفخامته، وثروته. حتى إن كثيرًا من الأدباء يقدِّمون شعر المتنبي على كل الشعر، ويدْعون لحفظ أكبر قدر من أبياته.

قال بعض شُراح الديوان: لم يُسمَعْ بديوان شعر في الجاهلية ولا في الإسلام، شُرِحَ هذه الشروح الكثيرة سوى هذا الديوان، ولا تداوَل على ألسنةِ الأدباء في نظم ونثر، أكثر من شعر المتنبي. وقد وقفوا له على أكثر من أربعين شرحًا ما بين مطولات ومختصرات، ولم يُفعل هذا بديوانٍ غيرِه[١].

ومما يدل على العناية بهذا الديوان: أنه لا تخلو منه مكتبة، ولو صغرت، حتى إن الحسن بن حامد الديبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٧هـ) ليس في مكتبته إلا كتابان: «جزء الحكايات» للموصلي عن ابن عليل، و«شعر المتنبي»، ولم يكن عنده غيرهما[٢].

ومع ذلك كله؛ فقد قال أبو جعفر أحمد الحميري -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٠هـ): يَعجَب أحدكم من حفظ ديوان المتنبي؟! واللهِ لقد أدركتُ أقوامًا لا يعُدُّون مَن حفِظ كتاب سيبويه حافظًا، ولا يَرَوْنه مجتهدًا![٣].

فمن أيهما تَعْجَب؛ ممن حفِظ واحتفى بالديوان، أم ممن لا يَعُدُّ حِفظه شيئًا مذكورًا؟!

(١) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي (٤٢٧/١) ووفيات الأعيان (١٢١/١)
(٢) وفيات المصريين (ص: ٥٢) وتاريخ دمشق لابن عساكر (٤٧/١٣)
(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: ٢٢١)

مختارات لثلاثة وثلاثين نموذجًا فاخرًا، يحفظون مجلدات لا صفحات

العالم الحافظ	الكتاب المحفوظ ومؤلفه	عدد مجلداته
١. إبراهيم ابن الوزان القيرواني (٣٤٦هـ)	العين للخليل	٨ مجلدات
٢. الكمال البسطامي الحنفي	كتاب الهداية في الفقه	٤ مجلدات
٣. ابن السّيد البطليوسي (ت ٥٢١هـ)	العين للخليل	٨ مجلدات
٤. ظهير الدين النعماني (ت ٥٩٨هـ)	لباب التفاسير للكرماني وجمهرة ابن دريد	٤ ج -٢ج
٥. الشهرزوري (ت ٦٨٢هـ)	المهذب لأبي إسحاق	٣ مجلدات
٦. محمد المنير البلبيسي	الروضة للنووي عن ظهر قلب	١٢ مجلد
٧. فرج الصفدي (ت ٧٥١هـ)	يسرد الروضة كأنها مرآته	١٢ مجلد
٨. ابن الفخار الأنصاري (ت ٥٩٠هـ)(١)	مقدمات ابن رشد(٢)	٣ مجلدات

(١) ومن شدة ضبطه له؛ قال بعض أصحابه: لو أضيف هذا الكتاب إليه فقيل: كتاب ابن الفخار، لكان أحق بالإضافة إليه منه إلى مسلم. انظر: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٩٥/٤)

(٢) المصدر السابق (٩٧/٤) قال ابن الفخار: ثلاثة كتب هي عندي كسورة من القرآن: كتاب

العالم الحافظ	الكتاب المحفوظ ومؤلفه	عدد مجلداته
٨. ابن عبد المنعم الحميري (٧٢٧هـ)	«الصحاح» في اللغة للجوهري	٦مجلدات
٩. بو جعفرك البيهقي (ت ٥٤٤هـ)	«الصحاح» في اللغة للجوهري	٦مجلدات
١٠. عبدالرحمن بن عبدالغني المقدسي (٦٤٣)	كتاب الكافي	٤ مجلدات
١١. أبو عبد الله بن الفخار القرطبي	النوادر لابن أبي زيد	١٤ مجلدًا
١٢. علي بن عبد الله المتيوي	المدونة(١)	٤ مجلدات
١٣. ابن تيمية (٧٢٨هـ)	المحلى(٢)	١٢ مجلد
١٤. علي بن عبد الكافي السبكي	المحصول والمهذب والوسيط(٣)	٦ج -٣ج- ٧ج

مسلم والمقدمات والتقصِّي.

(١) عرض المدونة يومًا واحدًا عن ظهر قلب، ثم صار يُلقي من حفظه. انظر: نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٣٢٣)

(٢) قالوا عنه: لو شاء أورد «المحلى» عن ظهر قلب! انظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص: ٣٤٩)

(٣) قالوا: في الغالب ينقل عبارة المهذب والوسيط بالفاء والواو. طبقات الشافعية الكبرى للسبكي

العالم الحافظ	الكتاب المحفوظ ومؤلفه	عدد مجلداته
١٥. أبو القاسم ابن الحرستاني	الوسيط للغزالي	٧مجلدات
١٦. ابن قطب الشثيني الحنبلي	الفروع لابن مفلح	١١ مجلد
١٧. ابن الأديب السعدي (ت ٥٥٩هـ)	«كتاب سيبويه» كسورة من القرآن	٤ مجلدات
١٨. أحمد المزجلدي (ت ٨٦٤هـ)	المدونة وكلام شارحيها بألفاظهم	٤ مجلدات
١٩. برهان الدين ابن الفركاني	يورد مسائل الرافعي كالفاتحة	١٠ مجلدات
٢٠. أبو الذكاء القرشي (٦٨٧هـ)	تفسير الثعلبي	١٠ مجلدات
٢١. ابن رسلان الخوارزمي (ت ٥٠٣هـ)	تفسير الثعلبي	١٠ مجلدات
٢٢. أبو الفضل الرياشي النحوي	كتب الأصمعي	١٢ كتابًا
٢٣. أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة	تصانيف أبيه ابن قتيبة	٢١ كتابًا
٢٤. أحمد ابن المطارحي (ت ٧٢٤هـ)	حلية الأولياء لأبى نعيم	١٠ مجلدات

(١٩٩/١٠)

العالم الحافظ	الكتاب المحفوظ ومؤلفه	عدد مجلداته
٢٥. الحافظ موسى الحازمي (ت ٥٨٤هـ)	«الإكمال» لابن ماكولا	٧ مجلدات
٢٦. ابن عَبْدُون الأندلسي (٥٢٩هـ)	«الأغاني» لا يخطئ فيه واوًا ولا فاءً	٢٤ مجلدًا
٢٧. ابن فرحون اليعمري (٧٦٩هـ)	تفسير ابن عطية[1]	١٠ مجلدات
٢٨. أبو بكر با فقيه (ت ١٠٠٥هـ)	فتح الجواد للهيثمي بالفاء والواو	٣ مجلدات
٢٩. سيدي المختار الشنقيطي (ت ١٣٩٧هـ)	الإتقان للزركشي+فتح الباري	٢+١٣
٣٠. محمد المختار الشنقيطي (ت١٤٠٥هـ)	البداية والنهاية	١٥ مجلد
٣١. ابن المرحل العثماني (ت ٧١٦هـ)	كثيرة إذا وضعها على بعض كانت =	بِطول قامته
٣٢. المفسر ابن عَطِيّة (ت ٣٨٣هـ)	يحفظ شواهد على معاني القرآن	٥٠ ألف بيت

(١) يقول: لازمتُ تفسير ابن عطية، حتى كدتُ أحفظه! الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (٤٥٥/١)

وإليك الآن مئة وأربعة وثلاثين مثالًا، لعجائب الحفاظ النوابغَ عبر القرون، والذين حفظوا محفوظات خارجة عن العادة، منهم مغمور فَذّ، ومنهم عَلَم جِهبذ[١]:

١. ابن عباس -رضي الله عنهما- (ت ٦٨هـ) حفِظ قصيدة عمر بن أبي ربيعة «أمن آل نُعْم أنت غاد فمبكُر» في سَمْعةٍ واحدة، وهي ثمانون بيتًا[٢]. وقد قال له عمر: لقد علمتَ علمًا ما علمناه. وقد كان يجلس وطلاب العلم واقفون خارج بيته، حتى يَضيق بهم الطريق، فيدخل أصحاب القرآن، حتى يملؤوا البيت والحجرة عنده يسألونه، ثم يخرجون، فيدخل أصحاب العربية والشعر يسألونه، ثم أصحاب الفقه يسألونه، كلهم يُصدرهم في وادٍ واسع[٣].

قال ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ): وجمعتُ فتاوي ابن عباس في سبعة أسفار كبار[٤].

٢. قال الشعبي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٤هـ): كنت لا أكتب شيئًا إلا حفظته، وإني الآن لَكأني أنظر إلى أكثر من سبعين ألف حديث في كتابي[٥].

٣. الزُّهري -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤هـ) حَفِظ القرآن في ثمانين ليلة! وقال عن نفسه: ما استعدْتُ علمًا قط[٦].

---

(١) وجدتُ في هذا غرائب قد لا تُصدَّق، وهي أقرب للنوادر الظريفة، فمنها ما ذكره الخطيب في تاريخ بغداد (٦٨/١٦) أن ابن الكلبي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) قال: حفظتُ ما لم يحفظه أحد، ونسيتُ ما لم ينْسَه أحد! كان لي عم يعاتبني على حفظ القرآن، فدخلت بيتًا، وحلفت أن لا أخرج منه حتى أحفظ القرآن، فحفظته في ثلاثة أيام!! ونظرت يوما في المرآة، فقبضت على لحيتي؛ لآخذ ما دون القبضة، فأخذت ما فوق القبضة!
وقد علق على القصة ابن عقيل في كتابه الفنون (٧١/١) فقال: وهذا بعيد عندي. وكأنه من خرق العادات!

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢٩٦/١)

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٩١/٧٣) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٤٥/٣)

(٤) الوابل الصيب لابن القيم (ص: ٥٩)

(٥) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢٥٣/٢)

(٦) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣١٣/٥٥)

٤. قال أبو عمرو بن العلاء -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٤هـ): لقد حفظت في علم القرآن أشياء؛ لو كُتبتْ ما قدِر الأعمش على حَملها(١).

٥. سفيان الثوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٦١هـ) أملى على طلابه كُتُبًا كثيرة، فجاءه أحدهم وقد ضاع منه كتاب الديات، يريده أن يُمليه عليه، فقال سفيان: إذا وجدتني خاليًا، فذكِّرني حتى أُمْلِيَه عليك. فحج، فلما طاف وسعى، ثم اضطجع، قال الطالب: فذكَّرته، فجعل يُملي عليَّ الكتاب بابًا في إثر باب، حتى أملاه جميعه من حفظه(٢).

وذات مرة؛ سمع سفيان مئة حديث، فحَفِظها كلها من سماعها لأول مرة، وكان لا يسمع شيئًا إلا حفظه، حتى كان يُخاف عليه(٣).

٦. إسماعيل بن عياش -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ) كان يحدِّث الأحاديث من حفظه، وما رئي معه كتاب قط، وكان يحفظ شيئًا كثيرًا، يحفظ عشرة آلاف، وعشرة آلاف، وعشرة آلاف(٤).

٧. إمام النحاة يونس بن حبيب -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٢هـ) قال عنه معمر بن المثنى: اختلفت إلى يونس أربعين سنة، أملأ كل يوم ألواحي من حِفظه(٥).

٨. شيخ النحاة علي الأحمر -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٤هـ) كان يحفظ أربعين ألف بيت شاهد في النحو، سوى ما كان يحفظ من القصائد وأبيات الغريب(٦).

٩. قال أبو داود الطيالسي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٣هـ): أسرُدُ ثلاثين ألف

---

(١) المصدر السابق (٦٧/١٠٥)
(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٧/٢٤٧)
(٣) الثقات للعجلي ط الباز (ص: ١٩٠)
(٤) تاريخ بغداد ت بشار (٧/١٨٦)
(٥) معجم الأدباء (٦/٢٨٥١)
(٦) تاريخ بغداد ت بشار (١٣/٥٨٩)

حديث ولا فخر، وفي صدري اثنا عشر ألف حديث لعثمان البري، ما سألني عنها أحد من أهل البصرة، فخرجت إلى أصبهان، فبثثتُها فيهم[١].

١٠. الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) كان يصنع كتابًا من غدوة إلى الظهر من حِفظه، من غير أن يكون في يده أصل، ولا يأخذ في شيء إلا تقول: هذه صناعَتُه. إذا أخذ في الشعر والعربية تقول: هذه صناعته، وإذا أخذ في أيام العرب تقول: هذه صناعته. يجيء إليه أصحاب الأدب، فيقرؤون عليه الشعر فيفسره، ولقد كان يحفظ عشرة آلاف بيت شعر من أشعار هذيل، بإعرابها وغريبها ومعانيها[٢].

١١. الواقدي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٧هـ) كان يقول مفتخرًا: ما من أحد إلا وكُتُبه أكثر من حفظه، وحفظي أكثر من كتبي. وكان للواقدي ست مئة قِمَطْر كتبًا، وكان كل قِمَطر منها حِمْل رَجُل، وكان له مملوكان يُملي عليها ليلًا ونهارًا، فيكتبان تصانيفه[٣].

١٢. معمر بن المثنى -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٨هـ) أقام عشرين سنة، ما رأوا له كتابًا. يعني: أنه كان يحدثهم من حفظه[٤].

١٣. أبو زرعة الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٢١١هـ) سئل عن رجل حلف بالطلاق، أن أبا زرعة يحفظ مئتي ألف حديث، هل حنث؟ فقال: لا. ثم قال أبو زرعة: أحفظ مئتي ألف حديث كما يحفظ الإنسان ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، وفي المذاكرة ثلاث مئة ألف حديث[٥].

---

(١) المصدر السابق (٣٢/١٠)
(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٢٩/٩) ومناقب الشافعي للبيهقي (١٧٩/١) وتاريخ دمشق لابن عساكر (٣٣٥/٥١)
(٣) تاريخ بغداد ت بشار (٩/٤) والدر الثمين في أسماء المصنفين (ص: ١٢٢)
(٤) تاريخ ابن معين - رواية الدوري (٨٠/٣) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (٨/٧)
(٥) تاريخ بغداد ت بشار (٣٣/١٢)

فعلق البيهقي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٨هـ) قائلًا: وإنما أراد ما صح من حديث رسول الله ﷺ وأقاويل الصحابة، وفتاوى من أُخذ عنهم من التابعين(١).

واستنبط السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) فقال: فهذه العبارات عن هؤلاء الأئمة، صريحة في إرادة حقيقة العدد دون المبالغة، خصوصًا مسألة أبي زرعة في الطلاق(٢).

١٤. الأصمعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٦هـ) حفِظ ست عشرة ألف أرجوزة، فقيل له: أفيها شيء هو بيت أو بيتان؟ فقال: فيها المئة والمئتان(٣).

١٥. أبو تمام الشاعر -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٨هـ) كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة للعرب، غير القصائد والمقاطيع(٤).

١٦. إسحاق بن راهويه -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٨هـ) أملى أحد عشر ألف حديث من حفظه، فما زاد حرفًا ولا نقص حرفًا. وما رئي بيده كتاب قط، وما كان يحدِّث إلا حفظًا. وقال إسحاق عن نفسه: لكأنّي أنظر إلى مئة ألف حديث في كتبي؛ أسردها(٥).

١٧. الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ) يحفظ مليون حديث! قال أبو زُرعة الرازي: كان أحمد يحفظ ألفَ ألفِ حديث، فقيل له: وما يدريك؟ قال: ذاكَرْتُه، فأخذتُ عليه الأبواب(٦)

فعلّق الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) قائلًا: فهذه حكاية صحيحة

---

(١) تهذيب التهذيب (٣٣/٧)
(٢) البحر الذي زخر في شرح ألفية الأثر للسيوطي (٧٤٢/٢)
(٣) تاريخ بغداد ت بشار (١٥٧/١٢)
(٤) وفيات الأعيان (١٢/٢)
(٥) تاريخ بغداد ت بشار (٣٦٢/٧) وتاريخ دمشق لابن عساكر (١٣٥/٨)
(٦) تاريخ بغداد ت بشار (٩٠/٦)

في سعة علم أبي عبد الله، وكانوا يَعُدُّون في ذلك المكرر، والأثر، وفتوى التابعي، وما فُسِّر، ونحو ذلك. وإلا فالمتون المرفوعة القوية لا تبلغ عُشر مِعشار ذلك[١].

١٨. كان بندار -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٢هـ) يحفظ سبع مئة قصيدة، أول كل قصيدة «بانَتْ سعاد»!

قال أبو محمد الخشاب -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٧هـ): أنعمتُ التفتيش والتنقير، فلم أَقَعْ على أكثر من ستين قصيدة؛ أولها «بانت سعاد»![٢].

١٩. ابن إسرائيل الأنباري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ) كان الكاتبَ للمتوكل والمنتصر وللمعتز، وكان أذكى الناس، لا يمر بسمعه شيء إلا حفظه. قال عن نفسه: لقد كنتُ أنسخ الكتاب، فلا أفرغ من نسخه حتى أحفظ ما فيه حرفًا حرفًا، وكنت ربما امتُحنت، فلا أُسقط مما فيه حرفًا واحدًا! فعلتُ هذا مرّات كثيرة لا أحصيها[٣].

٢٠. زنباع بن الحارث -رحمه الله تعالى- (نحو ٢٨٠هـ) كان يحفظ عشرين حديثًا في ساعة. وحضر عند محمد بن وضاح، وقد أملى اثنا عشر حديثًا على من كان عنده، وزنباع يتشاغل عن ذلك ويتحدث مع من كان يجاوره، فقال له ابن وضاح: تَدَع أن تكتب سنن النبي ﷺ وتشتغل بالحديث؟! فقال له: أصلحك الله! لم أشتغل عما أمليتَه، وقد حفظتُه! فأملاها كما أملاها ابن وضاح! فعجب منه، وكان يُدنيه بعد ذلك. وتوفي زنباع حدثًا في الأربعين من عمره[٤].

٢١. أبو بشر البندنيجي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٤هـ) قال: حفظت في

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١١/١٨٧)
(٢) معجم الأدباء (٢/٧٦٦). وفي هذا الخبر غرابة شديدة! لكن هؤلاء الجبال في الحفظ يأتي منهم العجائب!
(٣) الوافي بالوفيات (٦/١٥٢)
(٤) تاريخ علماء الأندلس (١/١٨٨)

مجلس واحد مئة وخمسين بيتًا من الشعر بغريبه. وحفظ «كتاب الأجناس الأكبر» للأصمعي، وقرأ من حفظه كتبًا كثيرة[١].

٢٢. ابن أبي عاصم الشيباني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٧هـ) ذهبت كتبه بالبصرة في فتنة الزنج، فأعاد من حفظه خمسين ألف حديث[٢].

٢٣. صالح جزرة -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٣هـ) حدث دهرًا طويلًا من حفظه، ولم يكن معه كتاب استصحبه[٣].

٢٤. قِرْطِمة البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٠هـ) كان آية في الحفظ، فقد قال لصاحبه: ترى هذه الكتب؟ خذ أيها شئت حتى أقرأه. فأخذ كتاب «الأشربة»، فجعل يَسْرد من آخر الكتاب إلى أوله، حتى قرأه كله[٤].

٢٥. أبو العباس بن الفرات -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩١هـ) قال: ما اشتهيتُ أن أحفظ شيئًا قط إلا حفظتُه، وما آسَى من عمري إلا على ثلاث سنين، أفنيتُها في علم إقليدس، فكيف لم أُفْنِها في الفقه؟![٥]

٢٦. إمام الكوفيين في النحو واللغة أحمد بن يحيى المعروف بثعلب -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩١هـ) يقول: بلغت خمسًا وعشرين سنة، ولم يبقَ شيء من كتب الفراء إلا قد حفظته، وما بقي مسألة إلا وحفظت موضعها من الكتاب[٦].

٢٧. ابن مظاهر الأصبهاني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٤هـ) أحد الأذكياء

---

(١) معجم الأدباء (٢٨٤٤/٦)
(٢) طبقات الحفاظ للسيوطي (ص: ٢٨٥)
(٣) تاريخ بغداد ت بشار (٤٣٩/١٠)
(٤) طبقات الحفاظ للسيوطي (ص: ٣١٧)
(٥) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (ص: ٢٢٢)
(٦) تاريخ بغداد ت بشار (٤٤٨/٦)

الأفراد، حفِظ «المسنَدات» جميعها، ثم شرع في حفظ «الموقوفات» ومات شابًا؛ لم يُمَتَّع بعلومه(١).

٢٨. أبو الفرج الشنبوذي، غلام ابن شنبوذ -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٧هـ) كان رأسًا في القراءات والتفسير، وذكر أنه حفظ شواهدَ للقرآن خمسين ألف بيت من الشعر(٢).

٢٩. النحوي أبو محمد المكفوف -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٨هـ) ربما استعار بعض الصبيان كتابًا فيه شعر، أو شيء من أخبار العرب، فيقتضيه صاحبه إياه، فإذا ألحَّ عليه أعلمَ المكفوفَ بذلك، فيقول له: اقرأ عليَّ. فإذا فعل قال: أعِدْه ثانية. ثم يقول: رُدَّه على صاحبه، ومتى شئتَ تعالَ؛ حتى أُمليَه عليك(٣).

٣٠. أبو بكر الباغندي -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٢هـ) كان يسرد بعض الأحاديث بأسانيدها في الصلاة وهو لا يشعر، فيسبَّح به. وكان يقول: أنا أُجيب في ثلاث مئة ألف مسألة من الحديث(٤).

٣١. ابن أبي داود السجستاني -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٦هـ) قال عنه أحد تلاميذه: أملَى علينا ابن أبي داود نحو العشرين سنة، ما رأيت بيده كتابًا، إنما كان يملي حفظًا. فقال له التلميذ: لله درك! ما رأيتُ مثلك، إلا أن يكون إبراهيم الحربي. فقال ابن أبي داود: كلُّ ما كان يحفظ إبراهيم فأنا أحفظه، وأنا أعرف الطب، وإبراهيم ما كان يعرفه، وأنا أعرف النجوم، وإبراهيم ما كان يَعرف(٥).

٣٢. ابن دريد -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢١هـ) كان يُملي كتابه جمهرة اللغة، المكوَّن من أربعة مجلدات، ثم يقول معتذِرًا: وإنما أملينا هذا الكتاب ارتجالًا،

---

(١) سير أعلام النبلاء ط. الرسالة (٥٦٣/١٤)
(٢) لسان الميزان (٥١/٥)
(٣) الوافي بالوفيات (٢٩٠/١٧)
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٦٩/٥٥)
(٥) المصدر السابق (٨٣/٢٩)

لا عن نسخة ولا تخليدٍ في كتاب قبله. وقال في آخر الكتاب: فإن كنا أغفلنا من ذلك شيئًا لم يُنكَر علينا إغفاله؛ لأنَّا أمْليناه حفظًا[١].

٣٣. ابن أبي موسى البزّاز -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢١هـ) كان يحفظ نحوًا من مئة ألف حديث[٢].

٣٤. أحمد بن الإمام ابن قتيبة الدينوَري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٢هـ) كان يحفظ كتب أبيه، كما يحفظ القرآن، ويَرُد فيها من حِفظه النُّقطة والشَّكلة، وما معه نسخة. كان أبوه حفَّظه إياها في اللوح، وعِدَّتُها واحد وعشرون مصنفًا[٣].

٣٥. أبو بكر الأنباري-رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٨هـ) سألَتْه جارية يومًا عن تعبير رؤيا، فقال: أنا حاقن. فمضى، فحفظ كتاب الكرماني في «التعبير»، وجاء من الغد وقد صار معبرًا للرؤيا. ومن عجائب سعة حفظه، أنه مات ولم يجدوا من تصنيفه إلا شيئًا يسيرًا؛ وذاك أنه كان يملي من حفظه، وقد أملى كتاب «غريب الحديث»، في خمس وأربعين ألف ورقة، وكتاب «شرح الكافي»، وهو نحو ألف ورقة، وكتاب «الهاءات»، وهو نحو ألف ورقة[٤].

٣٦. ابن عُقدة الهمداني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٢هـ) كان آية في الحفظ، وكان يحفظ نحوًا من ست مئة ألف حديث، وكانت كتبه ست مئة حِمْل جَمَل[٥].

٣٧. أبو عمر الزاهد الملقب بغلام ثعلب -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٥هـ) كان آية في الحفظ، أملى في اللغة ثلاثين ألف ورقة من حفظه[٦].

---

(١) جمهرة اللغة (١٠٨٥/٢)
(٢) تاريخ ابن يونس المصري (٤٦٣/١)
(٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٢٧٣/٥)
(٤) معجم الأدباء (٦٥٥/٢) وطبقات الحنابلة (٧١/٢)
(٥) سلم الوصول إلى طبقات الفحول (٢١٣/١)
(٦) الوافي بالوفيات (٥٣/٤)

٣٨. أبو القاسم التنوخي القاضي من بحور العلم والأدب -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٢هـ) حَفِظ قصيدةً لدِعْبِل من ست مئة بيت في ليلة واحدة[١].

٣٩. غلام ثعلب -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٥هـ) أملى من حفظه ثلاثين ألف ورقة لغةً، وجميع كُتُبه التي في أيدي الناس؛ إنما أملاها بغير تصنيف[٢].

٤٠. أبو العباس الإبّياني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٢هـ) قرئ عليه صدر من كتاب البيوع. فقال: بقيَ من الكتاب حديث كذا، ومسألة كذا. قال الراوي: فنظرنا فلم نرَ شيئًا. فتأملنا، فإذا ورقتان منه الْتَصَقَتا، وتجاوزناهما. فإذا في الصفحتين كل ما ذكره. فعجبنا من حفظه[٣].

٤١. خالد بن سعد الأندلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٢هـ) حفظ عشرين حديثًا من سَمعة واحدة. وكان أمير المؤمنين المستنصر بالله يقول: إذا فاخَرَنا أهل المشرق بيحيى بن معين؛ فاخَرْناهم بخالد بن سعد[٤].

٤٢. الشاعر المتنبي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٤هـ) كان يُكثِر من ملازمة الوراقين وهو صبي، فأحضر رجل كتابًا من كتب الأصمعي؛ ليبيعه، فأخذ المتنبي ينظر فيه طويلًا، فقال له الرجل: يا هذا، أريد بيعه، وقد قطعتني عن ذلك. فإن كنتَ تريد حفظه، فهذا -إن شاء الله- يكون بعد شهر!. فقال له: فإن كنتُ قد حفظتُه في هذه المدة، فما لي عليك؟ قال: أَهَبُ لك هذا الكتاب! فأقبل يتلوه عليه إلى آخره. ثم استلمه، فجعله في كُمِّه[٥].

(١) تاريخ بغداد ت بشار (١٣/٥٥٠) وفيها قصة عجيبة مع أبيه فانظرها. وفي آخر القصة يقول التنوخي عن أبيه: فهاله ما رآه من حسن حفظي! فضمَّني إليه، وقبَّل رأسي وعيني، وقال: بالله يا بني! لا تخبر بهذا أحدًا؛ فإني أخاف عليك العين!.
(٢) طبقات الحنابلة (٢/٦٨)
(٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٦/١٠)
(٤) تاريخ علماء الأندلس (١/١٥٤)
(٥) المقفى الكبير (١/٢٢٣)

٤٣. أملى أبو علي القالي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٦هـ) جميع كتبه من حفظه، وهي مئة وعشرون ألف ورقة، وما رأى أحد معه دفترًا قط(١).

٤٤. الأديب الوزير أبو الفضل ابن العميد -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٩هـ) كان في حداثته يُخاطِر رفقاءه، والأدباء الذين يعاشرهم، على حفظ ألف بيت في يوم واحد! يقول: أحفظ عشرين عشرين، وثلاثين ثلاثين، أعيدها، ثم اشتغل بغيرها، حتى أفرغ من الجميع في اليوم الواحد(٢).

٤٥. أبو عبد الله الخشني البلاطي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦١هـ) كان يحفظ ثلاثين ألف بيت شعر، شاهد في كتاب الله عز وجل (٣).

٤٦. المفسر ابن عَطِيّة -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٣هـ) كان يحفظ خمسين ألف بيت في الاستشهاد على معاني القرآن(٤).

٤٧. كان الدارقطني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٥هـ) يحفظ دواوين جماعة من الشعراء، وكان يحفظ ديوان السيد الحميري، في جملة ما يحفظ من الشعر(٥).

٤٨. الحافظ أبو عبد الله بن بكير -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٨هـ) يكون بين يديه أجزاء كبار، فيقول لأحد تلاميذه: أيما أحب إليك؟ تذكر لي متن ما تريد من هذه الأحاديث؛ حتى أخبرك بإسناده، أو تذكر إسناده؛ حتى أخبرك بمتنه؟ فيذكر له المتون، فيحدثه بالأسانيد من حفظه كما هي في كتابه، وفعل هذا معه مرارًا كثيرة(٦).

---

(١) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص: ٨١)
(٢) تجارب الأمم وتعاقب الهمم (٦/٣١٦)
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٢/٤٢٥)
(٤) ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم (ص: ١١٥) وتاريخ دمشق لابن عساكر (٣١/٣٠)
(٥) تاريخ بغداد ت بشار (١٣/٤٨٧)
(٦) المصدر السابق (٨/٥٢٣)

٤٩. القاضي الباقلاني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٣هـ) كان يكتب كل ليلة، خمسًا وثلاثين ورقة، تصنيفًا من حفظه[١].

٥٠. الوزير أبو القاسم المغربي -رحمه الله تعالى- (ت ٤١٨هـ) استظهر عدة كتب في النحو واللغة، ونحو خمسة عشر ألف بيت، كل ذلك قبل استكماله أربع عشرة سنة[٢].

٥١. من العجائب النادرة الباهرة، أن الشاعر المشهور أبا العلاء المعري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٩هـ) لما كان صبيًا ضريرًا، كان عبقريًا يحفظ في أيام قلائل عدة كتب، بمجرد سماعها مرة واحدة، فحضر بين يدي رجل أديب، فاختار له كراسة، وقرأها على الصبي المعري وهو يموج ويستزيد، ثم تلا ما أملاه عليه، وهو يعارضه بالكتاب حرفًا حرفًا. قال الرجل: فكاد عقلي يذهب؛ لِمَا رأيتُ منه، وعلمتُ أن ليس في العالم من يقدر على ذلك، إلا أن يشاء الله[٣].

ومن عجائبه أنه سئل عن مقدار سرعته في الحفظ، فقال للسائل: خذ كتابًا من هذه الخزانة، واذكر أوله، فإني أُورده عليك حفظًا. فقال السائل: كتابك! ليس بغريب إن حفظته. فقال: قد دارَ بينك وبين أخيك كلام بالفارسية، إن شئتَ أعدتُه. فأعاد الحديث أجمع، ما أخلّ بحرف منه، ولم يكن يعرف اللغة الفارسية![٤].

٥٢. ابن أبي الطيب النيسابوري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٨هـ) له كتاب «التفسير الكبير» في ثلاثين مجلدًا. و«التفسير الأوسط» أحد عشر مجلدًا. و«التفسير الصغير» ثلاث مجلدات. وكان يُملي ذلك من حفظه. ولما مات لم

---

(١) السابق (٣/٣٦٤)
(٢) وفيات الأعيان (٢/١٧٣)
(٣) بغية الطلب في تاريخ حلب (٢/٨٧١)
(٤) معجم الأدباء (١/٣٠٦)

يوجد في خزانة كتبه إلا أربع مجلدات، أحدها فقهي، وآخر أدبي، ومجلدان في التاريخ[١].

٥٣. أبو المحاسن الرُّوياني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٢هـ) كان يقول واثقًا: لو احترقت كتب الشافعي، لأمليتُها من خاطري[٢].

٥٤. ابن أرسلان الخوارزمي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٣هـ) أتى على حفظ جميع «شرح المهذب» لأبي بكر الصيدلاني، وهو في مجلدات، فربما كان يُسأل عن مئة مسألة منه في مجلسه، ويجيب عنها على الفور. وحفظ «تفسير الثعلبي» جميعه، وهو يقع في عشر مجلدات، فكان إذا سئل في مجلسه في مواضع متفاوتة، ذكر أقوال المفسرين من غير خطأ[٣].

٥٥. قال الإمام الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ): قُطعتْ علينا الطريق، وأخذ العيَّارون جميع ما معي، ومضَوا، فتبعتهم، فالتفت إليَّ مُقَدَّمهم وقال: ارجع ويحك! وإلا هلكتَ. فقلت له: أسألك بالذي ترجو السلامة منه، أن تردَّ عليَّ تعليقتي فقط، فما هي بشيء تنتفعون به، فقال لي: وما هي تعليقتك؟ فقلت: كُتُبٌ في تلك المِخلاة، هاجرتُ لسماعها، وكتابتها، ومعرفة علمها. فضحك وقال: كيف تدَّعي أنك عرفت علمها، وقد أخذناها منك، فتجردت من معرفتها، وبقيت بلا علم؟! ثم أمر بعض أصحابه، فسلم إليَّ المخلاة. قال الغزالي: فقلت: هذا مستنطَق، أنطقه الله ليرشدني به في أمري. فلما وافيت «طُوس» أقبلتُ على الاشتغال ثلاث سنين، حتى حفظتُ جميع ما علَّقته، وصرتُ بحيث لو قُطع عليَّ الطريق لم أتجرَّد من علمي[٤].

---

(١) المصدر السابق (١٧٨١/٤)

(٢) وفيات الأعيان (١٩٨/٣)

(٣) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٠٧/٦)

(٤) المصدر السابق (١٩٥/٦). والعيَّارون: قُطّاع الطريق، والعاطلون بلا عمل. والمِخْلاة: كيس يعلق برقبة الدابة، يوضع فيه بعض المتاع. انظر: المغرب في ترتيب المعرب (ص: ٣٣٤)

٥٦. الفقيه زيد بن عبد الله اليَفاعي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٤هـ) حضر مجلس علم، وكانت عليه أطمار رثّة، فأقامه رجل من المجلس احتقارًا له، فقال: لا تُقِمْني؛ فإني أحفظ مئة ألف مسألة بعِلَلِها[1].

٥٧. ابن الفحام القرشي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٦هـ) كان يحفظ القراءات كالفاتحة[2].

٥٨. أبو بكر الأنصاري المعروف بالأبيض -رحمه الله تعالى- (ت ٥٢٠هـ) سئل عن لغة، فعجز عنها، بمحضر من خجل منه، فأقسم أن يقيِّد رجليه بقيد حديد، ولا ينزعه حتى يحفظ «الغريب المصنف» فدخلت عليه أمه في تلك الحال، فارتاعت، فقال:

رِيعَتْ عجوزي أن رأتني لابسًا ... حِلَقَ الحديد ومثل ذاك يَرُوعُ

قالت: جُنِنتَ فقلت: بل هيَ هِمّةٌ ... هي عنصر العلياء والينبوعُ[3]

٥٩. هارون بن النضر الريفي -رحمه الله تعالى- (بعد ٥٦٣هـ) يقرأ كتاب «التلقين» لعبد الوهاب البغدادي في مذهب مالك؛ يقرؤه من حفظه، كما يقرأ الإنسان فاتحة الكتاب، ويَحضر عنده دُوَين مئة طالب؛ لقراءة المدونة[4].

٦٠. أبو الحسن البيهقي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٥هـ) قال عن نفسه: حفظتُ في عهد الصبا «كتاب الهادي للشادي» و«السامي في الأسامي» كلاهما

---

(١) معجم البلدان (٤٣٩/٥)

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٨٩/١٩)

(٣) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب للمقّري (٤٨٩/٣) وانظر: مقدمة الغريب المصنف لأبي عبيد (٢٨٢/١)

فائدة: التعبير عن الأم بالعجوز يبدو من السياق أنه ليس من العقوق، بل هو مما جرت به عادتهم من غير نكير. وفي الصحيحين أن أنسًا قال: صففتُ أنا، واليتيم وراءَه، والعجوزُ من ورائنا (يقصد جدته مُليكة).

(٤) معجم السفر (ص: ١٤٧)

للميداني، و«المصادر» للزوزني، و«غريب القرآن» للعزيزي، و«إصلاح المنطق»، و«المنتحل» للميكالي، وأشعار المتنبي، والحماسة، والسبعيات، و«التلخيص» في النحو[١]. فهذه عشرة كتب، يزيد مجموع صفحاتها على ثلاثة آلاف صفحة، يحفظها صبي عبقري عن ظهر قلب! وليس يقرؤها فحسب. فيا للهِ العَجَب على أولئك الصبيان النابهين، المُلْهَمين، الملتهِمين للعلم بنَهَم.

٦١. المقرىء أبو العلاء الهمذاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٩هـ) كان كثير الحفظ للعلوم. قال: حفظتُ «الجمل» في النحو في يوم واحد، من الغداة الى وقت العصر، وحفظت يومًا ثلاثين ورقة من القراءة. وحفظ «الجمهرة» لابن دريد و «المجمل» لابن فارس و «النسب» لابن بكار[٢].

٦٢. محمد بن عبد الكريم الرافعي القزويني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٠هـ) قال ابنه لما ترجَمَ له: سمعته -رحمه الله- صبيحة يوم كان قد سهِر ليلتَها يقول: كنت أريد أن أُشغل نفسي عما كان يُسهرني، فتذكرت ما يَعْلَق بحفظي من الأشعار، فبلغ كذا ألف بيت[٣].

٦٣. عبد الله بن عمر بن أبي بكر المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٦هـ) كان فيه من الذكاء والفطنة ما يُدْهِش أهل زمانه، وكان يحفظ درس الشيخ إذا ألقي عليه مرة أو مرتين. وكان نظراؤه يتعبون حتى يحفظوه[٤].

٦٤. ابن الفخار الأندلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٠هـ) من شدة ضبطه لصحيح مسلم قال بعض أصحابه: لو أضيف هذا الكتاب إليه، فقيل: كتاب ابن الفخار، لكان أحق بالإضافة إليه من مسلم. بل قال ابن الفخار نفسه: ثلاثة

---

(١) معجم الأدباء (١٧٦٠/٤)
(٢) المصدر السابق (٨٢٥/٢)
(٣) التدوين في أخبار قزوين (٣٣٥/١)
(٤) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٤٠/٤١) وذيل طبقات الحنابلة (٣٨١/٢)

كتب هي عندي كسُورة من القرآن؛ «كتاب مسلم، ومقدمة ابن رشد» (٣ مجلدات) و«التقصِّي»[(١)].

٦٥. ظهير الدين النعماني الفارسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٨هـ) وصَفُوه فقالوا: يَسرُد كتابين كما يسرد الفاتحة. وهما «لباب التفسير» للكرماني و«جمهرة ابن دريد». وقال عن نفسه: كتبتُها وحفظتُها في مدة أربع عشر سنة[(٢)].

٦٦. النحوي الطبيب الأديب عبد اللطيف ابن اللبَّاد (ت ٦٢٩هـ) حفظ «اللُّمَع» في ثمانية أشهر، وقرأ كل ما وجد من شروحها. قال عن نفسه: حفظت «أدب الكاتب» لابن قتيبة حفظًا متقنًا في شهور.. ثم حفظت «مشكل القرآن» له و«غريب القرآن» له وكل ذلك في مدة يسيرة، ثم «الإيضاح» لأبي علي الفاسي، حفظته في شهور كثيرة. وأما «التكملة» فحفظتها في أيام يسيرة، كل يوم كراسًا، و«ديوان المتنبي»[(٣)].

٦٧. الأديب الحافظ الهيثم بن أحمد بن أبي غالب بن الهيثم -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٠هـ) كان أعجوبة دهره، ومن أعجب عجائبه أنه كان يُملي على شخص شعرًا، وعلى ثانٍ موشحة، وعلى ثالث زَجَلًا، وكل ذلك ارتجال دون توقف[(٤)].

وحضر ليلة عند أحد رؤساء إشبيلية، فقال لهم: إن شئتم تختبروني أجبتكم، اختاروا أي قافية شئتم لا أخرج عنها. فتعجبوا، واختاروا القاف، فابتدأ من أول الليل إلى أن طلع الفجر، وهو ينشد على وزن:

أرَق على أرقٍ ومثلي يأرق

---

(١) انظر: التكملة لكتاب الصلة (٦٩/٢) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢٤٢/٢١)
(٢) أعيان العصر وأعوان النصر (٢٥/٣)
(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٦٨٤) وتاريخ الإسلام ت تدمري (٣٥٥/٤٥) والوافي بالوفيات (٧٥/١٩)
(٤) المغرب في حلى المغرب (٢٦٣/١)

وسُمَّاره قد نام بعض، وملَّ بعض، وهو ما فارق قافية القاف.

ومن المواقف المُبْهرة: أن ابن الهيثم كان حوله أدباء، ينظرون في «ديوان ذي الرمة»، فمدَّ الهيثم يده إلى الديوان المذكور، فمنعه منه أحد الأدباء، فقال: أيَمنعه مني وما يحفظ منه بيتًا، وأنا أحفظه؟! فأكذبَتْه الجماعة، فقال: اسمعوني وأمسِكوه. فابتدأ من أوله حتى قارَب نصفه، فأقسَموا عليه أن يكُفَّ، وشهدوا له بالحفظ(١).

٦٨. المقرئ علي الأبْلَه -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٧هـ) كان آية في حفظ القرآن وجودة أدائه، وكان يقرأ السورة معكوسة الآيات، كأسرع ما يكون، وكان فيه بَلَهٌ في حديثه وحركاته(٢).

٦٩. ضياء الدين ابن الأثير -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٧هـ) قال: حفظت من الأشعار القديمة والمحدثة ما لا أحصيه كثيرة، ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائيين: أبي تمام، والبحتري، والمتنبي، فحفظت هذه الدواوين الثلاثة، وكنت أكرر عليها بالدرس مدة سنين(٣).

٧٠. الفقيه الشاعر الصرصري -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٦هـ) كان يحفظ «صحاح الجوهري» بكامله. وكان يتوقد ذكاءً(٤).

٧١. الفقيه أبو عبد الله اليونيني الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٨هـ) يحفظ «الجمع بين الصحيحين» بالفاء والواو ومسلم، وغالب «مسند أحمد». وحفِظ «صحيح مسلم» في أربعة أشهر. وكان يحفظ في الجلسة الواحدة ما يزيد

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس (٣٧٧/٣)
(٢) الوافي بالوفيات (١٧٩/٢٠) وتاريخ الإسلام ت تدمري (٣٣٨/٤٦)
(٣) وفيات الأعيان (٣٨٩/٥)
(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٣٢/٤)

على سبعين حديثًا. وحفظ سورة الأنعام في يوم واحد، وحفظ ثلاث مقامات من «الحريرية» في بعض يوم(١).

٧٢. علي بن عبد الله المتيوي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٩هـ) عرض «المدونة» [٤ مجلدات] يومًا واحدًا عن ظهر قلب، ثم صار يُلقي من حفظه(٢).

٧٣. يوسف بن يحيى القرشي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٥هـ) كان سريع الحفظ، فكان يحفظ الورقتين والثلاثة للدرس من نظرة واحدة، ويورِد الدرس في غاية الجزالة، وكان يذكر في اليوم عدة دروس. توفي عن خمس وأربعين سنة(٣).

٧٤. ابن مُسدي الأندلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٠هـ) يقول عن نفسه: أعرف «البخاري ومسلمًا» بالفاء والواو(٤).

٧٥. الزاهد أبو القاسم بن منصور القباري -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٢هـ) كان يحفظ من زمن الصبا «الجمع بين الصحيحين» إلى منتهى العبادات، باختلاف الطرق والألفاظ، وبالفاء والواو(٥).

٧٦. ابن رزين الحموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٠هـ) حفظ «التنبيه» في صِغره، ثم «الوسيط والمفصل»، و«المستصفى» للغزالي، وكتابَي ابن الحاجب في الأصول والنحو، وتصدَّر للإفتاء والإقراء وعمره ثماني عشرة سنة(٦).

٧٧. ابن توهيت القرشي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٦هـ) كان في الحفظ

---

(١) قرئ عليه مسند الإمام أحمد، فكان يُعلِّم على أحاديث تمر به، فلما انتهى سئل عن ذلك فقال: هذه لا أحفظها، فأنا أعلِمها؛ لأحفظها. فاعتبروها، فكانت مقدارَ مُجيليد صغير. انظر: ذيل مرآة الزمان (٣٨/٢) والبداية والنهاية ط هجر (٤١٦/١٧) وذيل طبقات الحنابلة (٦٦/٤)

(٢) انظر: نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٣٢٣)

(٣) طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٢٠٥/٢)

(٤) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (٤٣٦/٢)

(٥) تاريخ الإسلام للذهبي (١٣٣/٤٩)

(٦) الوافي بالوفيات (١٦/٣)

آية، وكان يقعد يوم الجمعة تحت الخطيب، فيحفظ الخطبة من إنشاء الخطيب في مرة واحدة، ويُمليها بعد ذلك(١).

٧٨. نجم الدين ابن مليّ -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٩هـ) يتوقّد ذكاء، كشُعلة نار، وكان يقول في الدرس: عيِّنوا آية؛ لنتكلّم عليها. فإذا عيّنوها تكلّم بعبارة فصيحة، وعلم غزير، كأنما يقرأ من كتاب. وكان قويُّ الحافظة؛ تُقرأ عليه الأوراق مرة واحدة، فيعيدها بأكثر لفظها. وإذا حضر عند أحد درسًا، يُورِد جميع ما قاله المدرِّس، ثم يأخذ في الاعتراض والبحث(٢).

٧٩. المقرئ ابن الطيب القيسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠١هـ) كان أعجوبةً في الحفظ، أمَره أمير سِبتة أن يقرأ السيرة النبوية في رمضان، فكان يَدرُس كل يوم جزءًا، فيصبح فيُورِدُه حفظًا بصوت طيب، إلى أن حفِظها كلها(٣).

٨٠. الفقيه الشافعي علي بن هبة الله الأسنائي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٧هـ) غاب سبعين يومًا، فحفظ فيها «المنتخب في الأصول» للرازي. وكان يحفظ «مختصر مسلم» للمنذري(٤).

٨١. العلامة المتفنن ضياء الدين القِرْمي العفيفي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٨هـ) لازَمَ الاشتغال والإفادة؛ حتى في حال مشيه وركوبه، وحفِظ «الكشاف» و«الحاوي»(٥).

٨٢. العلامة ابن المرحل (ت ٧١٦هـ) حفظ كتبًا كثيرة؛ حتى إنه إذا وضع

---

(١) نكت الهميان في نكت العميان (ص: ٦٦)
(٢) المقفى الكبير (١/٣٤٩)
(٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٥/٢٥٧)
(٤) المصدر السابق (٤/١٦١)
(٥) بغية الوعاة (٢/١٣)

بعضها على بعض كانت طول قامته. وقد حفظ ديوان المتنبي في جُمعة. وحفظ «المفصل» في مئة يوم و«المقامات» في خمسين يومًا[١].

٨٣. ابن أبي مهدي القهري البَستي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٩هـ) كان سريع الحفظ، يعمل مجلس الوعظ في شهر رجب وشعبان ورمضان في كل سبت، فيرتبه، ويكتبه نحوًا من سبع مئة سطر، وينظر فيه في يوم ترتيبه يوم الأربعاء، ثم يكرر عليه في يوم الخميس والجمعة، ثم يُمليه من صدره في يوم السبت[٢].

٨٤. القاضي علي الزرويلي الصغير -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٩هـ) حفظ كتاب «الفصيح» في ليلة واحدة؛ بسبب أنه رُدُّ عليه كلمة ملحونة، وبعد أن افترق المجلس قال لأصحابه: بمَ يدرك هذا؟ فقيل له: بمعرفة كتاب «الفصيح» لثعلب، فحفِظه في تلك الليلة، وعدد صفحاته قرابة الخمسين[٣].

٨٥. ابن الخطيب الأربلي -رحمه الله تعالى- (بعد ٧٢٠هـ) كان ذكيًا سريع الحفظ، وقد حفظ «الحاوي» في ستين يومًا، و«الشمسية» في المنطق في يوم واحد[٤].

٨٦. أما ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) فاعجبْ لموهبة الله التي وهبها إياه، فقد كان يمرُّ بالكتاب، فيُطالعه مرة، فيَنْتَقِش في ذهنه، فيذاكِر به، ويَنقُله في مصنفاته بلفظه ومعناه. حتى قال غير واحد: إنه لم يكن يحفظ شيئًا فينساه. وكان إذا نظر في الكتاب وضع يده على الصفحة المقدَّمة، يقول: أخاف أن يسبق بصري إليها، فأحفظها قبل التي قبلها.

---

(١) طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٢/٢٣٣) والدارس في تاريخ المدارس (١/٢٢) والبدر الطالع للشوكاني (٢/٢٣٤)
(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٤/١١٠)
(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة (٤/١٥٨) وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية (١/٣٠٩ و ٣١٥)
(٤) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٥/٣٠٨)

ومرةً سألوه أهله أَن يروح معهم في نزهة، فهرب منهم، فلما عادوا آخر النهار لامُوه على تخلُّفِه، فقال: حفظتُ في غَيبتكم هذا المجلّد. وكان ذلك الكتاب «جَنّة النَّاظر وجُنّة المُناظر».

قيل له: يقال: إنك تحفظ «البخاري ومسلمًا»، فقال: الكتب الستة مطروقة، كل أحد يحفظها! وقد حفظ «رياض الصالحين» في مجلس.

وقد كان يحفظ «المحلى» لابن حزم، وأول محفوظاته «الجمع بين الصحيحين» للحميدي.

ولما كان معتقَلًا بالإسكندرية، الْتَمَس منه صاحب سِبتة أن يجيز له بعض مروياته، فكتب له جملة من ذلك في عشرة أوراق، بأسانيده من حفظه! قال ابن حجر منبهرًا: يعجز أن يعمل بعضه أكبر من يكون[١].

٨٧. أحمد بن إبراهيم القنائي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) كان ذكيًا، حتى إنه ليحفظ أربع مئة سطر في يوم واحد[٢].

٨٨. أبو بكر الزريراتي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٩هـ) طالَع «المغني» لابن قدامة ثلاثًا وعشرين مرة، وكان يستحضر أكثره[٣].

٨٩. ابن أبي السري الدجيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٢هـ) حفظ البقرة في يومين[٤].

٩٠. محمد بن عبد الوهاب الأقفهسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤١هـ) كان قوي الحافظة، فقد حفظ «المحرر» في ستة وثلاثين يومًا، ومات شابًا[٥].

---

(١) الرد الوافر (ص: ١٣٣) وذيل طبقات الحنابلة (٤/٤٩٥)وأعيان العصر وأعوان النصر (١/٢٣٦) والدرر الكامنة (١/١٨٥) وتذكرة الحفاظ وتبصرة الأيقاظ لابن المِبرد (ص: ٣٣)

(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١/٩٥)

(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٥/٢)

(٤) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٢/١٥٩)

(٥) الوفيات لابن رافع (١/٣٨٣)

٩١. ابن القمَّاح المصري الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤١هـ) كان متى سئل عن آية ذكر ما قبلها! ولعل بعضنا ما يقدر يفعل هذا في الفاتحة. وكذلك كان يصنع في «مسائل التنبيه».

٩٢. أبو المفاخر ابن أنو شروان الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٥هـ) كان يحفظ في كل يوم من أيام الدروس ثلاث مئة سطر(١).

٩٣. ابن لاجين الأغَري -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ) قال للعراقي: أريد أن أحفظ «الحاوي» في شهر! فقال: لا يمكن! قال ابن لاجين: فشرعتُ في درسه، فحفظتُ النصف في اثني عشر يومًا(٢).

٩٤. الفخر المصري ابن كاتب قطلبك -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) كان في الذكاء والحفظ آية، فقد حفظ «المختصر الأصلي» لابن الحاجب، في تسعة عشر يومًا، وكان يحفظ من «المنتقى» كل يوم خمس مئة سطر، وكان يسرد من الأحاديث الطوال مِن حفظه، لا يَتعلثم(٣).

٩٥. علي بن عبد الكافي السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٦هـ) كان في الغالب ينقل عبارة «المهذب» [٣ مجلدات] و«الوسيط» [٧مجلدات] بالفاء والواو(٤).

٩٦. جمال الدين ابن هشام النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦١هـ) تفقه للشافعي، ثم تحنبل، فحفظ «مختصر الخرقي» في دون أربعة أشهر(٥).

٩٧. بدر الدين محمد بن الشريشي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٠هـ) حضر أمام جماعة من العلماء، كابن كثير والصفدي وابن العز، وأحضروا نيفًا وأربعين

(١) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٣٦/١)
(٢) المصدر السابق (٨٦/١)
(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك (١٣٢/٤) والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٣٠٢/٥)
(٤) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٩٩/١٠)
(٥) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٩٣/٣)

مجلدًا من كتاب «المنتهى في اللغة» للتميمي البرمكي، وأخذ كل منهم مجلدا، ثم أخذوا يسألونه عن بيوت الشعر المستشهد عليها بها، فيجيب، فجزم الحاضرون والسامعون أنه يحفظ جميع شواهد اللغة، ولا يشذ عنه منها إلا القليل الشاذ! وهذا من أعجب العجائب[١].

٩٨. ابن قاضي الجبل المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧١هـ) قال لصاحب له: كم تقول إني أحفظ بيت شعر؟ فقال الصاحب: عشرة آلاف. فقال: بل ضِعْفها، وشرع يعدِّد قصائد للعرب، وكان آية في حِفظ سرْد مذاهب العلماء[٢].

٩٩. شاب عجمي من بلاد خراسان قال عنه الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٣هـ): حضر وهو يزعم أنه يحفظ «البخاري» و«مسلمًا»، و«جامع المسانيد»، و«الكشاف للزمخشري»، في فنون أُخَر، وقرأ من أول «صحيح البخاري»، إلى أثناء كتاب العلم منه من حفظه، وأنا أقابل عليه من نسخة بيدي، فأدى جيدًا، غير أنه يُصحِّف بعضًا من الكلمات؛ لعَجَم فيه، وربما لحَنَ، واجتمع خلق كثير من العامة والخاصة، فأعجب ذلك جماعة كثيرين، وفرح بكتابتي له بالسماع على الإجازة، وقال: أنا ما خرجت من بلادي إلا إلى القصد إليك، وأن تجيزني، وذِكرُك في بلادنا مشهور. وقد كارَمه القضاة والأعيان بشيء من الدراهم، يقارب الألف[٣].

١٠٠. الشاعر المكي المعروف بالمبشّر الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٢هـ) كان شديد الذكاء. حفظ «التنبيه» في أربعة أشهر[٤].

---

(١) البداية والنهاية ط هجر (٦٦٢/١٨)
(٢) ذيل طبقات الحنابلة (١٨٠/٥)
(٣) البداية والنهاية (٣٣٦/١٤)
(٤) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (٢٣١/٦)

١٠١. ابن الشيخ الدمنهوري -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٧هـ) كان موصوفًا بالذكاء، وكان لا يسمع شعرًا ولا حكاية إلا أخبر بعدد حروف ذلك، فلا يخطىء[١].

١٠٢. سليمان بن يوسف الياسوفي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٩هـ) كان يتوقد ذكاءً، فكان يحفظ من «مختصر ابن الحاجب» في كل يوم مئتي سطر، إلى أن ختمه[٢].

١٠٣. علاء الدين ابن العطار -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٥هـ) كان يتوقد ذكاء، فقد حفظ رُبع «ألفية العراقي» في يوم، ولو عُمِّر لفاقَ الأقران، لكن مات عن نيِّف وثلاثين سنة[٣].

١٠٤. ابن الأقرع البعلبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٠هـ) حفظ كتبًا عديدة، وعرض «مختصر مسلم» للمنذري و«المنتقى» لابن تيمية عن ظهر قلب، وتعجب الناس من ذلك[٤].

١٠٥. البُلْقَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) حفظ قصيدةً مِن مرةٍ واحدة! وهذا نادر جدًّا[٥].

١٠٦. أبو الفضل العراقي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٦هـ) له ذكاء مُفْرِط، وسرعة حافظة، حفظ «التنبيه» وأكثر «الحاوي»، وكان رامَ حفظ جميعه في شهر.. وحفظ «الإلمام» لابن دقيق العيد، وكان ربما حفظ منه في اليوم أربع مئة سطر، وحفظ نصف «الحاوي الصغير» في الفقه في اثني عشر يومًا[٦].

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٢٢٨/١)
(٢) المصدر السابق (٣١١/٢)
(٣) الدرر الكامنة (١٥١/٤) وإنباء الغمر بأبناء العمر (٤٦٢/١)
(٤) المقصد الأرشد (٤٣١/٢)
(٥) الجواهر والدرر للسخاوي (٨٥/١)
(٦) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس (١٧٩/٢) ولحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ (ص: ١٤٨)

١٠٧. قال ابن خلدون -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٨هـ): حفظتُ كتب الأشعار الستة، و«الحماسة»، وشعر حبيب، وطائفة من شعر المتنبي، ومن أشعار كتاب «الأغاني». وكتاب «مسلم بن الحجّاج» إلا فوتًا يسيرًا من كتاب الصيد، و«الموطأ» من أوله إلى آخره، وبعضًا من الأمهات الخمس[(١)].

١٠٨. ابن هبة الله البارزي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٣هـ) حفظ «الحاوي الصغير»، وتخرَّج في مدة يسيرة، ويُنشِد القصيدة الطويلة التي حَفِظها من عشرين سنة؛ لا يتلعثم فيها[(٢)].

١٠٩. ابن المُغْلِي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٨هـ) كان يحفظ لكل مذهب وفن مَتنًا، ومن مَحافيظه في الحديث «المحرر» لابن عبد الهادي، وفي فروع الحنابلة أكثر «الفروع» لابن مفلح، وفي فروع الحنفية «مجمع البحرين»، وفي فروع الشافعية «التمييز» للبارزي. ولما اشتغل بالفقه هرب أهل بلده إلى النحو، فراحَ يحفظ فيه كتابًا كبيرًا، فهرب أهل بلده إلى الطب، فذهب يحفظ «القانون»[(٣)]. فكان سريع الحفظ إلى الغاية، ويحكى عنه في ذلك غرائب، منها ما حكى بعض الفقهاء قال: استعار منّي أوراقًا نحو عشرة كراريس، فرجعت إليه بعد ساعة هنيّة، وقلت: أريد أنظر في الكراريس نظرة، ثم خذها ثانيًا، فقال: ما بقي لي فيها حاجة، قد حفظتُها. ثم سرَدَها من حِفظه[(٤)].

١١٠. محمد بن عطاء الله الهروي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٩هـ) تولَّع

---

(١) تاريخ ابن خلدون (٥١٢/٧)
(٢) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (١٠٨/٤)
(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٣٤/٦) والجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب أحمد (٩١/١)
(٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٢٦٨/٩)

بالحفظ، فحفظ تفسير الزهراوين من «الكشاف»، و«صحيح مسلم»، وكثيرًا من «البخاري»[١].

١١١. علي بن محمد بن عمر الخولاني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٢هـ) قرأ «منهاج النووي» فسأله والده عما قرأ من الكتب، فقال له: قرأت «منهاج النووي»، فأنكر عليه، وقال له: عليك بـ«الروضة»، فقرأه حتى أتقنه، فامتحنوه على الكتاب بحضرة الناس بعد الجمعة، فكان يجيب عن كل مسألة بفرع من «الروضة» حتى جاء على أربعين مسألة، فأذن المؤذن للعصر[٢].

١١٢. ابن عديس النحراري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٠هـ) حفظ تنقيح القرافي. قال: حفظت بمكة «عمدة الأحكام»، «والرسالة الفرعية»، و«ألفية ابن مالك» في نحو عشرة أشهر، وكنت إذا عسر علَيَّ الحفظ شربت من ماء زمزم، وتوضأت وصليت في الملتزم، ودعوت، فأحفظ[٣].

١١٣. ابن تقي الدميري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٢هـ) كان في صِباه آية في سرعة الحفظ، بحيث إنه كان يحفظ الورقة الواحدة من «مختصر ابن الحاجب»، من مرتين أو ثلاثة بغير درس، على جاري عادة الأذكياء، وحفظ سورة النساء في يومين، والعمدة في ستة أيام، و«الألفية» في أسبوع، وأنشد رجل قصيدة مطولة من إنشائه، وكررها مرة أو مرتين، فأحب إخجاله فقال له: أنها قديمة! فأنكر السراج ذلك، فبادر ابن تقي وسرَدَها حفظًا.

وسأله بعض شيوخه في ليلة عيد، استنابتَه في خطبة العيد، فقال: إن كان عندك نسخة خطبة فأرِنيها؛ حتى أمر عليها. فأخرج له خطبة في كراسة بأحاديثها ومواعظها. فتأملها في دون ساعة، ثم خطب بها[٤].

---

(١) رفع الإصر عن قضاة مصر (ص: ٣٩٢)
(٢) انظر: قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (٣٩٥/٦)
(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٣٢٢/٥)
(٤) إنباء الغمر بأبناء العمر (١٢١/٤) والضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٧٩/٢)

١١٤. علاء الدين ابن الصَّيْرَفِي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٤هـ) يأتي على «الروضة» وأصلها سردًا، و«الأصفهاني» بحروفه، و«القوت» للأذرعي. وأما صحيح البخاري فيستظهره بُرُمَّته(١).

١١٥. ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) كان في صغره يحفظ كلَّ يومٍ نصف حزب، وبلغ من أمره في ذلك أنه حفظ سورة مريم في يوم واحد، ولم يكن حفظه بالدرس على طريقة الأطفال، بل كان حفظه تأمُّلًا. كما أملى ما يُنيف على ألف مجلس من حِفظه(٢).

١١٦. سبط ابن أبي جحرة -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٧هـ) كان يتوقد ذكاء، مع الحفظ والإتقان، فكان يُملي في آنٍ واحد على ثلاثة، في مسطورات مختلفات، ولا يجِفُّ لواحد منهم قلم! بل يُقال: إنه كان يُملي في وقت واحد على سبعة أنفُس من إنشائه بأمور مختلفة!! وهذا غاية ما يكون من البراعة، يكاد ألا يَقبله العقل(٣).

١١٧. ابن الديري النابلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٦٧هـ) كان سريع الحفظ، مفرط الذكاء، فحفظ كتبًا، منها «الكنز» وجميع «مختصر ابن الحاجب الأصلي»، وحفظ «المشارق» [مجلدين] في اثني عشر يومًا(٤).

١١٨. أبو العباس القدسي الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٠هـ) يحكي عن نفسه: أنه حفظ نحو خمسين سطرًا من «صحاح الجوهري» من مرتين أو ثلاث(٥).

١١٩. ابن المناوي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٧هـ) عُرف بفرط الذكاء،

---

(١) بهجة الناظرين إلى تراجم المتأخرين من الشافعية البارعين (ص: ٢٣٤)
(٢) الجواهر والدرر للسخاوي (١٢٣/١) والضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٣٩/٢)
(٣) المصدر السابق (٢٨/٧) وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية (٣٧٠/١)
(٤) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٢٤٩/٣)
(٥) المصدر السابق (٣٦٥/١)

بحيث أنه كان يحفظ في كل يوم مئة سطر، وأما «البردة» و«بانت سعاد» فحفظهما في ثلاثة أيام، وأعطاه والده لذلك بندقتين ذهبًا[١].

١٢٠. المحب ابن الشحنة الحلبي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٠هـ) كان آية في سرعة الحفظ، بحيث إنه حفظ «ألفية الحديث» في عشرة أيام، ورامَ فعل ذلك في «ألفية النحو»، فقرأ نصفها في نصف المدة[٢].

١٢١. محمد الرمكي الأيسي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٨١هـ) حفظ «ألفية ابن مالك» في يومين![٣].

١٢٢. الأديب ابن السمان الدمشقي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٨٧هـ) كان يحفظ من أشعار العرب شيئًا كثيرًا، فربما يسرد بالمجلس من أشعارهم ألف بيت، أو أكثر[٤].

١٢٣. المسنِد المعمَّر ابن سِنَّة -رحمه الله تعالى- (ت ١١٨٥هـ) يحفظ «رسالة ابن أبي زيد» بشرحها « تحقيق المباني » عن ظهر قلب كالفاتحة، وذلك بعد ما بلغ من العمر مئة وأربعين سنة[٥].

١٢٤. قال الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ) عن تلميذه الشاب الأمير اليمني اللوذعي، القاسم ابن المتوكل على الله حفظ «بلوغ المرام» من أوله إلى آخره، عن ظهر قلب. قال الشوكاني عنه: وأسمعَه علَيَّ من حفظه، من أوله إلى آخره، والكتاب بيدي -فسبحان الفاتح المانح- وهو الآن يُسَمِّع علَيَّ «صحيح البخاري ومسلم»، ويواظب على ذلك مواظبة عظيمة، ويفهم فهمًا جيدًا.. وله بالسنة المطهرة شغَف عظيم، ومحبة زائدة[٦].

---

(١) المصدر السابق (١٦٩/٥)
(٢) المصدر السابق (٢٩٦/٩)
(٣) درة الحجال في أسماء الرجال (٥١/٢)
(٤) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢٧٠/٢)
(٥) فهرس الفهارس (١٠٢٦/٢)
(٦) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٤٠/٢)

١٢٥. الشيخ بَشِير الغَزِّي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٩هـ) كان آيةً في الحفظ، ومن محفوظاته «الأمالي» للقالي [٤ مجلدات] و«الكامل» للمبرد [٤ مجلدات][(١)].

١٢٦. عم الشيخ حماد الأنصاري، الملقب بالبحر -رحمه الله تعالى- (بعد ١٣٥٠هـ) كان يسرد «صحيح البخاري» كالفاتحة، وعمره خمس وتسعون سنة[(٢)].

١٢٧. بدر الدين الحَسَني -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٤هـ) حفظ الصحيحين بأسانيدهما، ونحو عشرين ألف بيت، من متون العلوم المختلفة[(٣)].

١٢٨. الشيخ عبد العزيز بن أحمد بن رشيد البداح، الكويتي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٧هـ) كان يحفظ أكثر كتاب «دائرة المعارف» لفريد وجدي؛ لانكبابه على مطالعته، وعدد مجلداته عشرة، كما أنه يستحضر أكثر عبارات «دائرة المعارف» للبستاني، وتقع في أحد عشر مجلدًا[(٤)].

١٢٩. الأديب إبراهيم المازِني -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٦٨هـ) حفِظ في صِباه «الكامل» للمبرد غَيبًا[(٥)].

١٣٠. الشيخ سيدي المختار بن الشيخ سيدي الشنقيطي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٧هـ) يحفظ «الإتقان» للزركشي، و«فتح الباري» لابن حجر[(٦)].

١٣١. الشيخ عبد الرحمن الدوسري -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٩هـ) يقول عن نفسه: إنه حفِظ القرآن في شهرين عن ظهر قلب! بحيث انقطع عن المجالس في تلك المدة القليلة، حتَّى حذق القرآن حفظًا[(٧)].

---

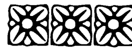
(١) الأعلام للزركلي (٥٣/٦)
(٢) المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ حماد الأنصاري (٣٩٨/١)
(٣) الأعلام للزركلي (١٥٧/٧)
(٤) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (١٨٠٩/٣)
(٥) الأعلام للزركلي (٧٢/١)
(٦) بلاد شنقيط المنارة والرباط - الخليل النحوي (ص: ٢٣٢)
(٧) تذكرة أولي النهى والعرفان لابن عُبيد (٤٩/٧)

١٣٢. الشيخ المحدث عبد الله الدويش -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٨هـ) يعتبر من الأمثلة العجيبة المعاصرة، لمن يحفظون فوق المتون كُتبًا، وهذه الكتب تُقرأ قراءةً، ولكنهم حوَّلوها محفوظات، فمن الكتب التي يحفظها -وقد سمَّعها عن ظهر قلب-: الروح لابن القيم - رياض الصالحين للنووي - فتح المجيد لعبد الرحمن بن حسن - المنتقى للمجد - الإقناع للحجاوي - مسند أحمد[١].

١٣٣. الأديب محمود شاكر -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٨هـ) قال عن نفسه: حفظتُ «ديوان المتنبي» وأنا في الرابعة الابتدائية، من أول حرف فيه إلى آخره[٢].

١٣٤. المثال الرابع والثلاثون بعد المئة: هو موجود في زمننا وبيننا، فإن ثمَّت فِتيةً آمنوا بربهم، وزادهم الله هدى، حين اتصل شرفهم في الحفظ بالغابرين. وما حلقات حفظ السُّنة في الحرمين عنا ببعيد، فإن فيهم صبيانًا ووِلدانًا أو ناهَزوا الحُلُم، وهم يحفظون آلاف الأحاديث خلال بضعة أسابيع.

وبعد: فهذا عرْض منتقىً، وبَرَضٌ من عِدّ[٣]. آثرتُ أن تكون مسرودة، وإلا لو استرسلتُ لأسهبتُ، فكل قرن تجده حافلًا بحفاظه المبدعين، وعباقرته الموهوبين.



(١) المحدث الشيخ عبد الله الدويش - نواف الرعوجي (ص ٧١ - ٧٣)
(٢) ظل النديم - جواد العلي (ص: ٩٩)
(٣) أي قليل من كثير. انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب (٢٧٨/١)

١١. الإبداع الاجتهادي
في الفقه الافتراضي وفقه النوازل

الفقه الافتراضي يقوم على طرح مسائل فقهية متخيلة في الذهن، ولم تقع بعد في الواقع، ولكنها متصورة الوقوع، فتكون براعة الإجابة عنها من خلال إجالة النظر، والإبداع في قياس المسألة على نظيرها، أو ما يقاربها. وهو خيال علمي فائق المستوى، يدل على استعداد لتخريج الفتوى وصلاحيتها لكل زمان ومكان، وتمكن من ملكة الاجتهاد الفقهي، واستشراف للتكييف الشرعي مستجدات المستقبل ببدائل معقولة.

قال محمد بن عبد الحكم -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٨هـ): ليس بفقيه من يجمع أقاويل الناس، ويختار لنفسه منها قولًا. قيل: فمن الفقيه؟! قال: الذي يستنبط أصلًا من كتاب أو سنة لم يُسبق إليه، ثم يُشَعِّبُ من ذلك الأصل مئة شعبة. قيل: ومن يقوَى على هذا؟! قال: الشافعي(١).

ويبلغ الإبداع جمالَه، إذا كان الفقيه ذكيًا ألمعيًا، فحينَها لا يَفرِي فَرْيه أحد، ولا يُوثِقُ وثاقَه للعلم أحد.

ومن جميل الأوصاف: ما وُصِف به الفقيه أبو حفص عمر بن أبي نصر

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (المقدمة/٢٦). والعجيب ابن عبد الحكم كان مالكيًا ثم شافعيًا ثم مالكيًا، وألَّف كتاب: (الرد على الشافعيّ فيما خالف فيه الكتاب والسنة)!! قال طاش كبرى زاده - وقد صدق-: وهو اسم قبيح!. انظر: الأعلام للزركلي (٦/٢٢٣)

السرخسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٢٩هـ) فقد كانوا يقولون عنه: لو فُصِد عمر السرخسي لجرى منه الفقه مكان الدم[١].

ويصِل الإبداع الفقهي منتهاه، إذا انضاف إليه إعمال الذهن، وابتكار العقل.

قال الشيخ محمد الخضر حسين -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٧هـ): والعبقري يَلَذُّ العلم أكثر مما يَلَذه الناقلون، وإنا لنرى الرجل يرتاح للعلم، ينحدر من سماء فكره أكثر مما يرتاح للعلم الذي ينساق إليه من فِكر غيره، ولا يزيد هو على أن يُوْدِعَه حافظته[٢].

وهذا الإبداع الفقهي تراه كثيرًا في مدرسة الرأي، التي يتزعمها الإمام أبو حنيفة، وهو أقل في المذاهب الثلاثة الأخرى.

وقد عُرفت مدرسة أبي حنيفة بمدرسة «الأرَأَيْتِيِّينَ» أي: الذين يفترضون الوقائع بقولهم: أرأيتَ لو حصل كذا؟ أرأيتَ لو كان كذا؟[٣].

وقد كان العلماء من قبله يكرهون ذلك، ويرَوْن فيه تشتيتًا للعقل، وتفتيتًا للعلم بالآراء، وخوفًا من الانجرار للتقوُّل على الله بلا علم -ولكلِ رأيٍ وَجَاهته-.

أما العبقري المبدع أبو حنيفة ومن حذا حذوه؛ فكانوا يرون غير ذلك. وهذا يدل على سعة أفق أولئك الجهابذة، الذين أطلقوا لعقولهم الثاقبة وتفكيرهم الصافي العنان، وفق أصول وقواعد الشريعة، ويدلنا -أيضًا- على تمكنهم من فهم خطاب الشارع.

قال عبد الوهاب خلاف -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٥هـ): الاستنباط فيما لا نص فيه هو لُبُّ العلم وروحه[٤].

---

(١) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١١٨٦)
(٢) موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين (٢٧٠/١/٥)
(٣) السنة ومكانتها للسباعي ط المكتب الإسلامي (٤٠٣/١)
(٤) علم أصول الفقه ط مكتبة الدعوة (ص: ٩)

وقد حفظت لنا كتب الفقه عن جهابذة الفقهاء، عددًا من المسائل التي كانت مستبعدة في عصرهم، ثم وقعت في الأزمنة المتأخرة.

وإليك رؤوس أقلام لجملة من المسائل الافتراضية المستبعَدة في عصرهم، ولكن قد وقع نظيرها في عصرنا:

١. القسطرة البولية = ولو حمل قارورة فيها نجاسة.. [١].

٢. قطع الأعضاء في الحدود والقصاص = من قُطع منه عضو من الجسد، فله أن يعيده مكانه[٢].

٣. نقل الأعضاء = وإن رَقَع عظمه بعظم إنسان.. [٣].

٤. بنوك الحليب =وإن ثابَ لامرأة لبن من غير حمل نشر الحُرمة، ولو حُلب بعد الموت[٤]. أو اختلط بلبن أخرى، فهل تثبت حرمة الرضاع؟!![٥].

٥. السعي أو الوقوف بعرفة بالطائرة = إذا ركب على طير طائر في هواء عرفات، أو ركب على السحاب، أو سعى طائرًا أو طاف طائرًا.. [٦].

٦. عمليات تحويل الأنثى إلى ذكر = ولا يصح نكاح خُنْثَى مُشْكِل حتى يتَّضِحَ[٧].

---

(١) الحاوي الكبير (٢/٢٦٥) والمجموع شرح المهذب (٢/٥٩٧)

(٢) مسائل الإمام أحمد رواية ابنه أبي الفضل صالح (٣/٧٤) والمسائل الفقهية من كتاب الروايتين والوجهين (١/٢٠٢)

(٣) الأم للشافعي (١/٧١) وفتاوى الرملي (١/١٧٥)

(٤) الكافي في فقه الإمام أحمد (٣/٢٢٢) وملتقى الأبحر (ص: ٥٥٥) ومجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر (١/٣٧٨) والبحر الرائق (٣/٢٤٥)

(٥) المبسوط للسرخسي (٥/١٤٠) والأشباه والنظائر لابن نجيم (ص: ٩٦) وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (٤/١٠)

(٦) تحفة الحبيب على شرح الخطيب (٢/٤٤١)

(٧) عمدة الطالب لنيل المآرب (١/١٩١) والفروع وتصحيح الفروع (٨/٢٥٨) وزاد المستقنع في اختصار المقنع (ص: ١٦٥)

٧. عمليات فصل السيامي وأحكامه[١] = بحَثَها الإمام الشافعي والشافعية، من حيث وُضوئها، وزواجها، والقصاص منها، والجناية عليها. ومن ألفاظهم: امرأة خُلقت من سُرَّتها إلى أسفلَ خِلْقةَ امرأة واحدة، وإلى فوقَ خِلقةَ امرأتين[٢].

٨. سفر المرأة بالطائرة = لو علَّق على مستحيل، وقال: أنت طالق إن طرت، أو صعدت إلى السماء[٣].

٩. الصائم يرى الشمس بعد الغروب وهو في الطائرة = من صعد على منارة الإسكندرية، فيرى الشمس بزمان طويل، بعدما غربت عندهم في البلد؛ أيحل له أن يفطر[٤].

١٠. الإحرام بالطائرة عند محاذاة الميقات = ومنهم من يطير بهم الجِني إلى مكة، ولا يُحرم إذا حاذى الميقات[٥].

١١. السفر بالطائرة = مسافة السفر يومان قاصدان، ولو قطعها في ساعة[٦].

١٢. التحاميل والمنظار الشرجي للصائم= لو أدخل الصائم في فرجه دواء، فهل يفطر؟![٧].

---

(١) أول عملية فِصل سيامي برويها الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) حيث يقول: رأيت إنسانًا بأربع أيْدٍ ورأسين ووجهين، وهما يتلاطمان ويصطلحان ويأكلان ويشربان، ثم توفي أحد الجسدين، وربط من أسفله بحبل وثيق، وترك حتى ذبل، ثم قطع ودفن، فعهدي بالجسد الآخر في السوق ذاهبًا وجائيًا. انظر: حلية الأولياء (١٢٧/٩) وزبد العلوم (٦٨٧/٢)

(٢) انظر: الأم للشافعي (١١٩/٦) ومواهب الجليل (١٩٤/١) والفروق (٤٥١/٣) والدر الثمين (ص: ١٥٧)وكفاية النبيه (٩٢/١٦)وروضة الطالبين (٣٦٨/٩)

(٣) المهذب في فقه الإمام الشافعي للشيرازي (٣٨/٣) والكافي في فقه الإمام أحمد (١٤١/٣) وزاد المستقنع في اختصار المقنع (ص: ١٨١)

(٤) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشلبي (٣٢١/١)

(٥) مجموع الفتاوى (١٧٤/١) و (٣٦٤/١) و (٢٨٦/١١) و (٤٥٩/١٧) والنبوات (٩٩٩/٢) وجامع المسائل ط عالم الفوائد (٢١١/١)

(٦) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف ت التركي (٣٨/٥) ومنتهى الإرادات (٣٢٨/١)

(٧) الأصل للشيباني ط قطر (١٥٦/٢) وفتح القدير للكمال ابن الهمام (٣٤٤/٢) وشرح مختصر الطحاوي للجصاص (٤٦٢/٢)

١٣. العمليات القيصرية= لو كان ببطنها جرح فانشقت وخرج الولد منها، فهل تكون نفساء وتنقضي به العدة؟![١].

١٤. التلقيح الصناعي = المطلقة ثلاثًا إذا استدخلت ماءه، فهل تحل للزوج الأول؟![٢].

فقه النوازل:

في حياتنا المعاصرة بطبيعتها المتطورة، تستجد مسائلُ متشابكة، وتنزل بالناس نوازلُ مُعَقَّدَةٍ، تستدعي بذلَ جهدٍ بحثي فقهي متخصص، في تأصيل أحكام تلك النوازل، وضبط منهج الاستدلال لها، والوصول إلى الحكم الشرعي فيها، من قِبل الراسخين في العلم.

ومن أمثلة النوازل المعاصرة التي جرى طرحها وبحثها، وإصدار فتاوى بشأنها:

١. خطاب الضمان البنكي.
٢. جهاز الإنعاش وعلامة الوفاة.
٣. طفل الأنابيب[٣].
٤. انقلابُ الأعيان النجسة إلى أعيان أخرى في الأغذية والأدوية.
٥. قِصر الليل أو النهار قِصَرًا مفرطًا.
٦. الزواج من الكتابيات الحربيات.
٧. التجنُّس بجنسية دولة غير مسلمة[٤].

---

(١) النهر الفائق شرح كنز الدقائق (١٤٠/١) والدر المختار (ص: ٤٥)
(٢) كتاب الفروق (٢٨٢/٣)
(٣) انظر بسط هذه الثلاث في: فقه النوازل للشيخ د. بكر أبو زيد (٥/١)
(٤) انظر بسط هذه الأربع في: فقه النوازل للأقليات المسلمة «تأصيلا وتطبيقا» للدكتور محمد يسري إبراهيم (١١٦٠/٢)

٨. إثبات رؤية الهلال بالمنظار.
٩. جريان الربا في الأوراق النقدية.
١٠. بدل الخُلُوِّ.
١١. إجراء العقود بوسائل الاتصال الحديثة.
١٢. حكم بيع أعضاء الإنسان.
١٣. بيع الاسم التجاري.
١٤. حكم التشريح.
١٥. جراحة التجميل.
١٦. استعمال أدوية منع الحيض والحمل.

صياغة وحل الألغاز الفقهية

الألغاز الفقهية هي: ما يتطارحه الفقهاء في المجالسات والمناقشات من المسائل، بشكل يخفى فيه الجواب على البديهة، ويتوقف على الذكاء والنباهة الفقهية، بطرح سؤالات تشويقية إبداعية، بطريقة تستحسنها الأذهان الذكية.

وهذا النوع يسميه النحاة المُعمَّى، والفقهاء الألغاز، وأهل الفرائض المُعاياة، واللغويون الأحاجي[(١)].

والألغاز الفقهية، وإن كانت من الترف الفقهي، والمُلَح التي قد لا تستحسن عند البعض، إلا أن لها أثرًا في تنمية الملكة الفقهية، وتدريب القريحة، والتسلية العلمية الهادفة، خاصة وأنها كثيرًا ما تصاغ في أبيات شعرية طريفة مخفية.

وهذه طريقة الأذكياء، فإنهم يحبون مسالك العلم الخفية الدقيقة، ولذا قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): وبعض الناس يكون كلما كان الطريق

(١) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (٣٩٢/٥) والمذهب الحنبلي دراسة في تاريخه وسماته للتركي (٤١٣/١)

أدق وأخفى، وأكثر مقدمات وأطول كان أنفع له؛ لأن نفسه اعتادت النظر في الأمور الدقيقة.. ولهذا يرغب كثير من علماء السنة في النظر في العلوم الصادقة الدقيقة، كالجبر والمقابلة، وعويص الفرائض، والوصايا[١].

ومن لطيف التراجم أن ابن مرتضى البلبيسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ) كان مولعًا بالألغاز الفقهية، وكانت دروسه لا تُمل؛ لكثرة تفنُّنه[٢].

وأما المؤلفات في هذا الفن الممتع الدقيق؛ فقد كثرت قديمًا وحديثًا.

قال التاج السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧١هـ): صنف فيه الفقهاء فأكثروا[٣].

وإليك قائمة من الكتب المصنفة في الألغاز الفقهية، باختلاف مذاهب الفقهاء:

(١) «المعاياة» في الفقه، لأبي العباس الجرجاني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٢هـ)[٤].

(٢) «مسائل الامتحان» لعبد الواحد الشيرازي الدمشقي (٤٨٦ هـ)[٥].

(٣) «حيرة الفقهاء في المسائل التي تحيَّر فهمَها العلماء» لأبي المفاخر الكَرْدَري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٢هـ)[٦].

(٤) «المعاياة» قصيدة للتاج السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧١هـ)[٧].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢١٣/٩)
(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١١٧/٥)
(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢٠٣/٢)
(٤) المصدر السابق (٧٤/٤)
(٥) المذهب الحنبلي دراسة في تاريخه وسماته (٤١٣/١)
(٦) هدية العارفين للباباني (٥٨٧/١) والأعلام للزركلي (٣٢/٤)
(٧) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١١٦/٩)

(٥) «الألغاز الفقهية» للجمال عبد الرحيم الأسنوي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٢هـ).

(٦) «محاضرة خواص البرية في الألغاز الفقهية» ليوسف بن خلد البساطي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٩هـ) وله أيضًا «القصيدة الفلكية في الألغاز الفرضية»[١].

(٧) «الألغاز الفقهية» للشريف عز الدين حمزة الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٤هـ).

(٨) « حلية الطراز في حل مسائل الألغاز» لأب بكر بن زيد الجراعي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٣هـ)[٢].

(٩) «الذخائر الأشرفية في الألغاز الحنفية» للقاضي عبد البر ابن الشحنة -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢١هـ)[٣].

(١٠) «حور العين منظومة في الألغاز الفقهية» للبصير الحاكمي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٩٠هـ) اشتمل على ألف سؤال وأجوبتها[٤].

(١١) «اللطائف الذوقية في الألغاز الفقهية» لأحمد النجيرمي الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٩٧هـ)[٥].

(١٢) «الألغاز الفقهية» لعبد الله بن فايز أبا الخيل -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥١هـ)[٦].

---

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٣١٢/١٠)
(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٥٠٥/٩) وتسهيل السابلة (١٤٠٩/٣)
(٣) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٢٢٠/١)
(٤) هدية العارفين (٧٦٢/١)
(٥) المصدر السابق (١٨٠/١)
(٦) المذهب الحنبلي دراسة في تاريخه وسماته (٤١٣/١)

(١٣) «الألغاز الفقهية» للأديب الفقيه النحوي ذهني الرومي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٢٩هـ)[١].

أمثلة عجيبة ومُبْهرة لحل العلماء للألغاز الفقهية:

هذا الألغاز الفقهية الخفية أكثرها افتراضي، وبعضها واقعي، لكن لا يتمكن من فكّ رموزها إلا من رزقه الله ذكاء وزكاء، فالذكاء موهبة تُكتسب بالممارسة، والزكاء رفعة واجتباء من الله -تعالى-. وإليك سبعة أمثلة منتقاة، وإلا فالأمثلة كثيرة جدًا:

١. سئل الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) عن خمسة زنَوا بامرأة، فوجب على واحد القتل، والآخر الرجم، والثالث الجَلد، والرابع نصف الحد، ولم يجب على الخامس شيء!.

فقال الشافعي: الأول ذِمِّيٌ زَنَى بمسلمة، فانتقض عهده، فيُقتل، والثاني زانٍ محصَن، والثالث بِكر حر، والرابع عبد، والخامس مجنون[٢].

٢. ومن أمثلة الألغاز ما سئل عنه الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) في رجل يضع في فمه ثمرة، فيقول لامرأته: أنت طالق إن أكلتُها أو طرحتُها. فقال الشافعي: يأكل نصفها، ويطرح نصفها[٣].

٣. أفتى الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): أن المرأة إذا ادَّعت أن زوجها عِنّين، وأنكر ذلك وهي ثيِّب، فإنه يُخلى معها في بيت، ويقال له: أخرج ماءك على شيء، فإن ادّعت أنه ليس بمني، جُعل على النار، فإن ذاب فهو مني،

---

(١) هدية العارفين (٢/٤٠٠)
(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢/٢٠٣)
(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/١٤٣)

وبطل قولها، فإن المني إذا جُعل على النار ذاب واضمحل، وإن كان بياض بيض تجمَّع ويبس[١].

٤. كان أحد أمراء أبي جعفر المنصور يحب زوجته حبًا شديدًا، فقال لها يومًا: أنتِ طالق ثلاثًا، إن لم تكوني أحسن من القمر. فاحتجبَتْ عنه، وقالت: طلُقْتُ. فبات ببلية عظيمة، فأخبر الخليفة المنصور بذلك، فأحضر الفقهاء وسألهم؟ فأجاب كل منهم بالطلاق، إلا واحدًا منهم، فقال: لا تطلق؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] فلا شيء أحسن من الإنسان[٢].

٥. جرى بين هارون الرشيد وبين زوجته زبيدة ملاحاة، فقال هارون: أنتِ طالق إن لم أكن من أهل الجنة. ثم إنه ندم واغتما جميعًا بهذه اليمين، فجمع فقهاء بغداد، وسألهم فلم يجد منها مخرجًا، ثم كتب أن يحمل إليه الفقهاء من بلدانهم، فأجابوه بأجوبة مختلفة، ولكنَّ أحسنَها جوابُ الليث بن سعد -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٥هـ) حيث استحلفه الليث ثلاثًا: أنه يخاف الله، فحلف له، فقال له الليث: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] فسمعوا التصفيق والفرح من خلف الستر، فأقطعه قطائع بمصر كثيرة، وأمرت زبيدة له بضِعف ما أمر به الرشيد[٣].

٦. من مُعاياة فقهاء الأحناف قولهم: لو قال لامرأته: إن لم أَعرج إلى السماء هذه الليلة فأنتِ كذا! فيقال له: ينصِب سُلمًا، ثم يعرج إلى سماء البيت؛ لقوله -تعالى- ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥] أي سماء البيت[٤].

---

(١) الطرق الحكمية لابن القيم (ص: ٤٤)
(٢) الفرج بعد الشدة للتنوخي (٣٧٧/٤) وحياة الحيوان الكبرى للدميري (٥٦/١)
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٢٨/٥٠)
(٤) الدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) (٧٩٠/٣)

٧. كان السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) يدعوه السلطان لمجلسه، بل يفتقده إذا تخلَّف، وفي إحدى المرات وجَّه السلطان مسألة للسيوطي، عن سُنة سَنَّها النبي ﷺ ولم يفعلها، فسكت السيوطي ولم يُجِبْ، ثم أجاب بعد ذلك في رسالة مفردة، وجوابها هو الأذان، وأضاف إليه ذِكر سنن أخرى، سَنَّها الرسول ولم يفعلها[١].



(١) جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره وجهوده في الدرس اللغوي (ص: ١٢٥)

١٢. الإبداع في البحث والتنقيب عن المسائل المعضلات، وتحرير عويص الترجيحات

قوة الفهم درجات، لكن نوادر من العلماء قد نالوا أعلى درجاته، بحيث يميلون إلى التدقيق في طرح المسائل الدقيقة. والتدقيق -كما قال العلماء-: إمعان النظر، والغوص على غوامض العلم[١].

قال الإسماعيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٦هـ) عن أمِّنا عائشة -رضي الله عنها-: كان عندها من الفهم، والذكاء، وكثرة الرواية، والغَوص على غوامض العلم ما لا مزيد عليه[٢].

إذا المشكلات تصدّينَ لي كشفتُ غوامضَها بِالنظرْ[٣]

وقد أوغل العلماء المبدعون في التنقيب والبحث، وتقصَّوا في التدقيق والتحقيق، فاستبطَنوا دخائل العلم، واستجلَوا غوامضه، وأحصَوا دقائقه، واستخرجوا مخبآته.

ومن الأمثلة على غوامض أبواب العلم «العلل في الحديث» والعلة الحديثية عبارة عن سبب خفي غامض، طرأ على الحديث، فأثَّرت فيه، وقدحت.

---

(١) حاشيتا قليوبي وعميرة (١٠/١)

(٢) فتح الباري لابن حجر (٣٠٤/٧)

(٣) معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار (ص: ١٤١) وريحانة الكتاب ونجعة المنتاب (٣٠٤/٢) وكلاهما مؤلفهما لسان الدين ابن الخطيب الأندلسي (المتوفى: ٧٧٦هـ)

قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ): وهذا الفن أغمضُ أنواع الحديث، وأدقُّها مسلكًا، ولا يقوم به إلا من منحه الله -تعالى- فهمًا غايِصًا، واطّلاعًا حاويًا.. ولهذا لم يتكلم فيه إلا أفراد أئمة هذا الشأن وحذاقهم[١].

إذا انتضيتُ بناني عن غوامضهِ   حسرتُ عنها قناع اللّبس فانحسرا[٢]

ومن لطيف التآليف في الفقه الحنبلي كتاب «المنتهَى في معرفة الفقه والفرائض والاطلاع على غوامضهما» وقد اشترك في تأليفه الشيخان غنام بن محمد النجدي - (ت ١٢٣٧هـ) ومصطفى بن سعد الرحيباني (ت ١٢٤٠هـ) -رحمهما الله تعالى-[٣].

ومن الجوانب الإبداعية المرهقة الممتعة معًا: أن تجِد العالِم إذا صنَّف كتابًا فإنما يُنقِّب في كل ما يقدر عليه من المراجع العلمية المتصلة بموضوع كتابه، ثم يُعمِل فِكره في تنسيقه وتنميقه.

وقد تتجاوز مراجعه عدد صفحاته؛ طلبًا للاستقصاء، وليس لهوًا بتكاثر المراجع.

وخذ هذا المثال للسهيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨١هـ) في «الروض الأُنُف» حيث يحكي لنا فضلَ الله عليه، من خلال جُهده في كتابه، فيقول: وهو مستخرج من نيِّفٍ على خمس مئة كتاب، سوى ما أنتجه صدري، ونتجه نظري، ولقَّنتُه عن مشيختي، من نُكت علمية لم أُسبق إليها، ولم أُزْحَم عليها، كل ذلك بيُمن الله[٤].

---

(١) النكت على كتاب ابن الصلاح لابن حجر (٢/٧١١)
(٢) تاريخ بغداد ت بشار (١٠/٤٩١)
(٣) المدخل المفصل لمذهب الإمام أحمد (٢/١٠٣٨)
(٤) الروض الأنف ت الوكيل (١/٣٥)

أَلَا إن هؤلاء المبدعين قناصون، وطموحون لا قَنوعين، وجمَّاعون لكن منفِقون:

اليوم شيءٌ وَغدًا مثله مِنْ نُخَبِ العلم التي تُلْتَقَطْ
يُحصِّل المرء بها حِكْمَةً وإنما السَّيْل اجْتِمَاع النُّقَطْ[1]

وإنهم لمتفننون بالتقاط الفوائد، غير منحصرين على فن واحد، بل يضربون من كل غنيمة بسهم، وتجري خيول فِكرهم في مضمار العلم النافع.

قال بعض الحكماء: من أخذ من العلوم نُتَفَها، ومن الحِكَم طَرَفَها، فقد أحرز عيونَها، وحاز مَكنونها[2].

وإن هؤلاء المبدعين؛ تراهم من إبداعهم لا يلتقطون من الجواهر إلا أنفَسها، ولا من الدُّرر إلا أغلاها وأعلاها:

تجِد غُررًا حَوَتْ دُرَرًا عليها تُكثر الغَوْصَ[3]

وإنهم من إبداعهم ليتألَّقون بالاستنباط، ويَفُوقون بالاستخراج، فتراهم -مثلًا- يتأملون نصًا من الوحي، فيُفيدون منه أضعافًا مضاعفة مما يُفيد منه غيرهم.

أخرجتَ دُرّ البحر من أصدافهِ ونظمتَه في كل معنىً مبدعِ[4]

وخذ الآن خمسة وأربعين من الأمثلة البديعة، والسيَرِ الرفيعة، وحالهم حين يعثر الواحد منهم على الفائدة النفيسة، التي أتعب بصره في التنقيب عنها، وعصر فيها ذهنه، حتى تفتَّقت بعجائب الفرائد، و«بدائع الفوائد»، التي كأنها «نظم اللآلئ»، أو «فنون الأفنان»:

---

(١) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي (٣٠٥/٢) وبغية الوعاة للسيوطي (١٤/١)
(٢) الأمالي الشجرية (٤٥/١)
(٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٢١٥/٣)
(٤) تراجم المؤلفين التونسيين (٣٩٧/٣)

١. قال الأصمعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٦هـ): سألت أبا عمرو بن العلاء عن ألف مسألة، فأجابني فيها بألف حجّة[١].

٢. محمد بن الحسن -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٩هـ) جمع سبعًا وعشرين ألف مسألة قياسية عقلية، في الحلال والحرام[٢].

٣. قال يحيى بن معين -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٣هـ): لو لم نكتب الحديث من مئة وجه؛ ما وقعنا على الصواب[٣].

٤. قال إبراهيم بن سعيد الجوهري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٠هـ): كل حديث لم يكن عندي من مئة وجه فأنا فيه يتيم[٤].

٥. قال أبو حاتم الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٧هـ) لخلائق مجتمعين من أصحابه في طلب العلم: مَن أغربَ عليَّ حديثًا غريبًا مسندًا صحيحًا لم أسمع به، فله عليَّ درهم يَتصدق به. قال: وكان مُرادي أن أستخرج منهم ما ليس عندي، فأذهب فأسمع، فما تهيَّأ لأحد منهم أن يُغْرِبَ عليَّ حديثًا[٥].

٦. قال ابن حبان -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٤هـ): في أربع ركعات يصليها الإنسان ست مئة سُنة، عن النبي ﷺ أخرجناها بفصولها في كتاب صفة الصلاة[٦].

٧. قال القاضي الحسين المروذي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٢هـ): أشكلت علَيَّ مسألة نقض الاجتهاد بالاجتهاد، منذ نيِّف وعشرين سنة.. ثم استقر رأيي على أنه لا ينقض[٧].

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة (١٣٣/٤)
(٢) تاريخ بغداد ت بشار (٥٦١/٢)
(٣) الإرشاد في معرفة علماء الحديث للخليلي (٥٩٥/٢)
(٤) تاريخ بغداد ت بشار (٦١٨/٦)
(٥) المصدر السابق (٤١٤/٢)
(٦) صحيح ابن حبان (١٨٤/٥)
(٧) المنثور في القواعد الفقهية (٩٦/١)

٨. مسألة عويصة قال عنها الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ): غلِط فيها أربع مئة قاض، فضلًا عن غيرهم[١].

٩. قال ابن العربي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٣هـ): قصة نوح في خمس وعشرين آية، أملينا عليكم فيها خمس مئة مسألة، وقصة موسى في تسع آيات، أملينا عليكم فيها ثمان مئة مسألة، وسورة يوسف أملينا عليكم فيها ألف مسألة[٢].

١٠. وقال - أيضًا- عند قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]: هذه أربع كلمات، وستة عشرة حرفًا، تتضمَّن ما ينيِّف على ألف ألف مسألة[٣] قد تصدَّى لبيانها علماء الشريعة، وفقهاء الإسلام في مصنفاتهم؛ حتى بلغوا أُلوفًا من المجلدات، ولم يبلغوا بعدُ كُنهَها وغايتَها[٤].

١١. وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾[المائدة: ٦] قال بعض العِلْماء: إن فيها ألف مسألة. واجتمع أصحابنا بمدينة السلام، فتتبعوها، فبلَّغوها ثمان مئة مسألة[٥].

١٢. قاضي زبيد علي بن الحسين السَّيَري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٩هـ) كان ممن أجمع على فضله الموافق والمخالف، وقد أجاب عن ألف مسألة؛ امتحنه بها أهل زبيد[٦].

١٣. قال السهيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨١هـ) عند قول الله -تعالى-:

---

(١) الوسيط في المذهب (٤٨٨/٧)
(٢) العواصم من القواصم (ص: ٢٣٥)
(٣) مبالغة لا تَخفى! ولعل الرقم غير مقصود لذاته.
(٤) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٦٩/١)
(٥) أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٤٧/٢)
(٦) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤٣٩/٦)

﴿لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾ [الكهف: ١٢]: قد أملينا في إعراب هذه الآية نحوًا من كراسة[1].

١٤. والسهيلي -أيضًا- لما توصَّل لمسألة حسابية عجيبة قال: ولو لم يكن في هذا المختصر إلا هذه الفائدة، لكانت تساوي رحلة، فالحمد لله الذي وفق إليها، وأعان عليها بعد قرعٍ طويل لِبابها[2]

١٥. الفخر الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ) فسَّر الفاتحة في مجلد كامل! وقال: اعلم أنه مر على لساني في بعض الأوقات، أن سورة الفاتحة يمكن أن يُستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحُساد.. فلما شرعت في تصنيف هذا الكتاب، قدَّمتُ هذه المقدمة؛ لتصير كالتنبيه على أن ما ذكرناه، أمر ممكن الحصول، قريب الوصول.

ثم قال عن مباحث قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]: هذه المباحث لا تتم إلا بما يقرب من خمس مئة مسألة، من المباحث الدقيقة العقلية[3].

١٦. علي الحرالي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٧هـ) ألقى دروسًا في تفسير الفاتحة في نحو ستة أشهر[4].

١٧. قال أبو عمرو بن الصلاح -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٣هـ) عن لفظة فارسية؛ تعِبَ بعضهم في طلبها من كتب اللغة، ولم يجِدْها، وهي «البَرْتَاب» ومعناها: الإبعاد في الرمي. وهذه اللفظة قد أشكلت على من لا يعرف الفارسية[5].

(١) الروض الأنف ت السلامي (٧٨/٣)
(٢) الفرائض وشرح آيات الوصية (ص: ٨٨)
(٣) تفسير الرازي أو التفسير الكبير (٢١/١) و (٢٥/١)
(٤) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٣١٨)
(٥) شرح مشكل الوسيط (٢٥٨/٤)

١٨. كان التاج الأرموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٥هـ) يحفظ ألف نكتة في الجدل، وكان أستاذه الفخر الرازي يحفظ عشرة آلاف نكتة في الجدل[١].

١٩. ابن دقيق العيد -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٧هـ) شرح حديث البَراء بن عازِب: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع، واشتمل الشرح على أربع مئة فائدة[٢].

٢٠. و-أيضًا- استنبط ابن دقيق العيد من قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة: ٢٦٦] أربعة وعشرين وجهًا من المبالغة[٣].

٢١. عبد الله المغربي الشارمساحي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٩هـ) ألقى عليه بعض العلماء مسألة بيوع الآجال، فقال: أَذكرُ فيها ثمانين ألف وجه![٤] فاستغرب الفقهاء من ذلك، فشرع يَسردها عليهم، إلى أن انتهى إلى مِئَتي وجهٍ، فاستطالوها، وأضربوا عن سماعها، واعترفوا بسعة علمه[٥].

٢٢. قال النووي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ): مسألة نفيسة! وقد تطلَّبتُها سنين حتى وجدتُها، ولله الحمد[٦].

٢٣. قال العبقري القرافي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٤هـ): أقمتُ نحو ثمان سنين، أطلب الفرق بين الشهادة والرواية، وأسأل الفضلاء عن الفرق بينهما، فلم أظفر به[٧].

---

(١) المنثور في القواعد الفقهية (٤٠٦/٣)
(٢) رفع الإصر عن قضاة مصر (ص: ٣٩٥)
(٣) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٢٣١/٢)
(٤) مبالغة ظاهرة! ولعله يقصد: ثمان مئة.
(٥) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (٤٤٨/١)
(٦) كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار (٢٠٦/١)
(٧) الفروق للقرافي (٤/١)

٢٤. والقرافي أورَدَ إشكالًا لُغويًا قال عنه: إشكال عظيم صعب لي نحو عشرين سنة، أُورده على الفضلاء والعلماء بالأصول والنحو، فلم أجد له جوابًا يُرضيني، وإلى الآن لم أجِدْه، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فقالوا: كيف جمع بين لفظ الثلاثة التي هي دون العشرة، وبين لفظ القُرء، الذي هو من جموع الكثرة. وقال بعد ست صفحات من طرح جوابات لم تُقنعه: فيبقى الإشكال على حاله[1].

٢٥. والقرافي -أيضًا- أورَدَ مسألة، قال: إنها أشكلت على جماعة من الفقهاء -رحمهم الله تعالى- في أخوين ماتا عند الزوال، أحدهما بالمشرق، والآخر بالمغرب؛ أيهما يرث صاحبه؟! فأفتى الفضلاء من الفقهاء بأن: المغربي يرث المشرقي؛ لأن زوال المشرق قبل زوال المغرب[2].

٢٦. ثم القرافي -أيضًا - استنبط شيئًا يبهر العقول، من بيت أنشده بعض الأفاضل، وهو:

ما يقول الفقيه أيده اللـ ـه ولا زال عنده إحسان
في فتى علق الطلاق بشهر قبلَ ما قبلَ قبلَه رمضان

فقال العبقري القرافي: والبيت الثاني -وإن كان بيتًا واحدًا إلا أنه- من نوادر الأبيات.. فيكون مشتملًا على سبع مئة وعشرين مسألة من المسائل الفقهية!![3]

أما كيف ذلك؛ فاسأل القرافي، ولا تسألني!

٢٧. وخامسة للقرافي، حيث قال: أقمتُ أطلب الفرق بين الشهادة والرواية نحو ثمان سنين، فلم أظفر به، وأسأل الفضلاء عن الفرق بينهما[4].

---

(١) العقد المنظوم في الخصوص والعموم (٢/٦٩ - ٧٥)
(٢) الفروق للقرافي (٢/١٨٢)
(٣) المصدر السابق (١/٦٢) وقد ذكر ابن القيم بعض تلك المسائل، كما في بدائع الفوائد (٣/٢٤٤)
(٤) الفروق للقرافي (١/٤)

٢٨. عبد العزيز الهكاري ابن الخطيب -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٧هـ) له تصنيف في مجلدين، على حديث المُجامِع في رمضان؛ استنبط فيه ألف فائدة وواحدة (١٠٠١)(١).

٢٩. حديث: «**ركعتان بالسواك خيرٌ من سبعين ركعة بلا سواك**» استخرجوا منه مئة فائدة(٢).

٣٠. ابن الصباغ الخزرجي المكناسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٠هـ) أملى في درسه على حديث «**يا أبا عُمير ما فعل النُّغَير**» أربع مئة فائدة. فبلغ ذلك أبا الحسن ابن منون -رحمه الله تعالى- (بعد ٨٧٠هـ) فقال: وكنت تأملت هذا الحديث، فانقدح لي زُهاء مئتين وخمسين من الفوائد(٣).

٣١. ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) ذكر بيتًا من الشعر، لزين الدين المِقَّري، وقال: إنه يشتمل على أربعين ألف وثلاث مئة وعشرين بيتًا من الشعر! والبيت هو:

لقلبي حبيب مليح ظريف   بديع جميل رشيق لطيف(٤)

٣٢. وابن القيم -أيضًا- ذكر أمثلة كثيرة، في قوى الأغذية والأدوية المدركة بالحِس. ثم قال: تزيد على الألف.. ولولا الإطالة لكتبنا منها ما يبلغ ألف مثال(٥).

٣٣. علي بن عبد الكافي السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٦هـ) قال في مقدمة كتابه «الإبهاج»: وأنا إن شاء الله -تعالى- أستخرج من هذه الآية - دون

---

(١) البداية والنهاية ط هجر (٢٨٥/١٨) وفتح الباري لابن حجر (١٧٣/٤) والبلدانيات للسخاوي (ص: ٢٥٤) وإرشاد الساري للقسطلاني (٣٧٩/٣)

(٢) الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري (٤٠١/١). والحديث رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧٥/٦) وضعفه البيهقي في السنن الكبرى (٦٢/١) وابن القيم في المنار المنيف (ص: ٢٣)

(٣) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (٦٧١/٣) والتراتيب الإدارية (٩٨/٢)

(٤) بدائع الفوائد (٢٤٤/٣)

(٥) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١٠٣/٢)

ما قبلها وما بعدها - من فنون الفوائد في أنواع العلوم، ما يزيد على مئة وعشرين فائدة في أصول الدين، وأصول الفقه، والحديث، والتفسير والطب.. وشرطي في ذلك على نفسي: أن لا أذكر شيئًا أَعْلَمُ أني سُبقت إليه[١].

٣٤. قال الصفدي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٤هـ): والذي وقفت عليه في «مجموعٍ»: للأسد خمس مئة اسم، ولولده الشبل ثلاث مئة اسم؛ الجملة ثمان مئة اسم[٢].

٣٥. قال ابن الملقن -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٤هـ): وهذا الأثر لم أظفر به إلا بعد عشرين سنة، من تبييض هذا الكتاب، فاستفِده -ولله الحمد-[٣].

٣٦. قال الدَّمِيري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٨هـ) وهو يذكر فائدة حسابية عجيبة جدًا: وكنت قد بخلت بهذه الفائدة أن أُوْدِعَها هذا الكتاب، ثم رأيت إثباتها فيه[٤].

٣٧. ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) شرح حديث حادثة الإفك في أربع وثلاثين صفحة، واستخرج منه قرابة ثلاث مئة فائدة[٥].

٣٨. قال الحافظ السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) عن مسألة مفارقة الروح للبدن: والذي ظهر لي بعد النظر ثلاثين سنة، أن يجاب بأحد أمرين.. [٦]

٣٩. وقال السيوطي: استخرجت من آية واحدة مئة وعشرين نوعًا من أنواع البلاغة، وهي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧][٧].

---

(١) الإبهاج في شرح المنهاج ط دبي (١٩٣/١)
(٢) أعيان العصر وأعوان النصر (١٧/٥)
(٣) البدر المنير (٢٦٢/٨)
(٤) شرح لامية العجم للدميري (ص: ٧٧) وحياة الحيوان الكبرى (٤٨٢/٢)
(٥) فتح الباري (٤٨٩/٨،٤٥٥)
(٦) شرح السيوطي على مسلم (١١/٣)
(٧) الخصائص الكبرى (١٩٧/١)

٤٠. ابن نجيم الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٩٨هـ) قال: أَلَّفْتُ الفوائد على سبيل التعداد، حتى وصلت إلى خمس مئة فائدة، ولم أجعل لها أبوابًا، ثم رأيت أن أرتبها أبوابًا على طريق كتب الفقه[1].

٤١. فوائد «حديث بَريرة» بلَّغوها مئة. وكتب فيه الطبري ستة أجزاء، بل قال الصنعاني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٨٢هـ): فيه فوائد تزيد على أربع مئة[2].

٤٢. أبو البركات السويدي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٧٤هـ) في مباحثة علمية يقول: وهذه العبارة، ما رأيت أحدًا أجاب عنها، بل غالبهم يقول: إنها سهو، ولما فتح الله لي بحلها سجدتُ لله شكرًا[3].

٤٣. الأديب المؤرخ أحمد بن الأمين الشّنْقِيطي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣١هـ) كتَبَ كتابه الحافل: «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط» كتبه وأملاه من ذاكرته، وهو يقارب ست مئة صفحة. والكتاب يتضمن قرابة ٤٥٠٠ بيت من الشعر، ومع ذلك فهو يقول في ختامه: لم أُترجم في هذا الكتاب، إلا من رَوَيتُ له من الشعراء الأموات[4].

٤٤. صُلاَّحي بن المامي -رحمه الله تعالى- (بعد ١٣٠٣هـ) كان مُولَعًا بتحرير المسائل، وكان له طبل يحمله معه أينما توجه، فإذا عنَّت مسألة عويصة وفُهمت، ضرب ذلك الطبل[5].

٤٥. محمد أنور شاه الكشميري -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٣هـ) قال عن

---

(١) الأشباه والنظائر لابن نجيم (ص: ١٣٧)
(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (١١٠/٥) والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣١٨/٤) والتنوير شرح الجامع الصغير (١٧٤/٤)
(٣) النفحة المسكية في الرحلة المكية (ص: ١٤٢)
(٤) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (ص: ٥٧٨)
(٥) المصدر السابق (ص: ٢٢٢)

العمرة للمكي في أشهر الحج: ثم ظهر لي بعد نحو ثلاثين عامًا من كتابة هذا الكتاب، أنَّ الوجه منعُها[(١)].

٤٦. قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٧هـ): لم أقف على اسم «الداخلي» ولا ترجمته، وقد بحثتُ عنه منذ أكثر من ثلاثين سنة، فما تركتُ كتابًا وصل إلى يدي، وظننتُ أن فيه احتمالَ وجوده فيه، إلا تصفحته وفحصتُه[(٢)].

٤٧. قال المحدث الألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ): وأما الحسَن بن ثواب؛ فقد أضناني البحث عنه حتى وجدته، فسجدت لله؛ شكرًا على توفيقه - فأساله المزيد من فضله-[(٣)].

٤٨. شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) استخرج من آية الدَّين سبعًا وخمسين فائدة[(٤)].

٤٩. مفتي اليمن محمد بن إسماعيل العمراني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٤٢هـ) مكث أربعين سنة يبحث عن اسم المدينة الحبشية، التي هاجر إليها الصحابة، وراسَل مراكز متخصصة بأوروبا وأمريكا، فلم يظفَر بجواب، حتى هداه الله إلى موضعها، وأنها في أرتيريا، وليست في الحبشة؛ لأن أرتيريا كانت جزءًا من الحبشة، واسم المدينة: «مِنْكَل العلّامة» بمقاطعة «تيجري»[(٥)].

٥٠. الشيخان سليم الهلالي ومحمد نصر؛ لما وقفا على قول ابن القيم: وفي قصة يوسف من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على الألف فائدة، لعلنا إن

---

(١) فيض الباري على صحيح البخاري (٣/٢٠٥)
(٢) تحقيق اسمَي الصحيحين واسم جامع الترمذي - عبد الفتاح أبو غدة (ص: ١٤)
(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٧/١٠٠٥)
(٤) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/٤٢٣)
(٥) من مقطع مرئي للشيخ نفسه.

وفق الله أن نفردها في مصنف مستقل[1]. فقاما بالبحث والتأليف، فأخرجا كتاب «إتحاف الإلف في ذكر الفوائد الألف ونيف من سورة يوسف»، فكان مجموع الفوائد ١٢٢٤ فائدة.

عشر متمّمات للستين:

وبعد هذه الخمسين اللاتي مضَين؛ فذلك كَيل يسير، بعشر راجحات متمِّمات للستين، لكنها من إبداع عالِم واحد فحسب؛ ألا وهو المبدع ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) لتقيس كم طُول باعِهِ بالعلم، ولتعرف حجم موسوعيتِه المُبْهِرة، وقوة حجته الناتجة عن فَطانة، وما كان هذا الثراء المعرفي الضخم ليتحصَّل لمن يجمع فُتات العلم، أو مُلَحِه، وفي كلٍ خير، ولكنه التحصيل والتأصيل، والهمة، والدأَب.

فتأمل هذا الجدول المُبهِر المختصَر، المختصِر للأرقام التي حققها ابن القيم رحمه الله:

المسألة المطروحة	عدد الأوجه أو الأمثلة أو الفوائد = المصدر
١. فوائد قصة يوسف	١٠٠٠ (لم يذكرها) = الجواب الكافي
٢. رد المجاز في القرآن	٢٤١ وجهًا = الصواعق
٣. فضائل العلم وأهله	٢٠٠ دليل = طريق الهجرتين
٤. تفضيل العلم على المال	١٥٣ وجهًا = مفتاح دار السعادة

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص: ٢١٠)

المسألة المطروحة	عدد الأوجه أو الأمثلة أو الفوائد = المصدر
٥. أمثلة لأنواع الحِيَل	١١٧ مثالًا = الإعلام والإغاثة
٦. الإنسان روح وبدن معًا	١١٦ وجهًا = الروح
٧. فوائد المرض	**١٠٠ فائدة = شفاء العليل**
٨. أمثلة على سد الذرائع	٩٩ مثالًا = إعلام الموقعين
٩. الاتباع ونبذ التقليد	٨٠ وجهًا = إعلام الموقعين
١٠. فوائد ذكر الله	٧٩ فائدة = الوابل

مُحصّل ما في هذا الاستقصاء فائدتان:

- إبداع العالِم الموسوعي والاستنباطي
- التمكن القوي، والتنوع العلمي

فيالَه، ويالَهم من مكافحين في سبيل العلم! ويا للعقلية العبقرية!! لكن ذلك ما حصل براحة، ولكن بكد وتعب، وحُقَّ لكل واحد من أولئك أن ينشد قائلًا للقاعدين والنائمين:

سهَري لتنقيح العلوم ألذُّ لي ... من وَصْل غانيةٍ وطِيب عِناق
وتَمَايُلى طرَبًا لحل عَويصةٍ ... أشهى وأحلى من مُدامة ساقي
أأبيتُ سهران الدُّجى وتبيتُه ... نومًا وتَبغي بعد ذاك لحاقي؟![1]

(١) غرائب الاغتراب للألوسي (ص ٢٩)

إلماعة:

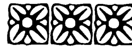
فعلًا؛ العلماء قنَّاصون ماهرون في صيد شرائد الفوائد، وثاقبو النظر عند استنباط المسائل والتفريع عليها. وبداهةً؛ فالمبتدئ في الاقتناص ليس كالقناص الماهر.

وما أجمل ما حكاه الذهبي عن نفسه فقال: كل من يكون مبتدئًا لا يحسن الانتخاب، فعلنا نحو هذا، وندمنا بعد(١).

سِحْرٌ من الفكر لو دارْت سُلافَتُه   على الزمانِ تمشَّى مِشية الثَّمِلِ(٢)

ولكن لا يغِبْ عن بالك أن الفائدة التي يحتفي بها عالِم ما قد لا تكون ذات شأن عند عالِم آخر.

والأمر كما قال ياقوت الحموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ): ربّ راغبٍ عن كلمة غيره متهالكٍ عليها، وزاهدٍ عن نكتة غيرُه مَشعوفٍ بها(٣).



(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٩٠/١١)
(٢) المحمدون من الشعراء (ص: ٤٠)
(٣) معجم البلدان (١٤/١)

١٣. الإبداع في خوض المناظرات، والدمغ بالحجة البالغة المرتجَلة:

منشأ الإبداع في المناظرات إذا تولاها العلماء الأذكياء، وكانوا بالحجة أقوياء، وبسرعة الرد خبراء.

وليس كل عالم يقدر أن يتصدى للمخالفين بالمناظرة، وبقوة الحجة في الرد المفحم، وبسرعة البديهة في التخلص من مضايق الشبهات، وطول النفَس في المجادلات، والفطنة في فهم نقاط ضعف الخصم. وهذه مواهب ليس أكثر العلماء يؤتَونها.

ومما يوصَف به الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) أنهم قالوا عنه: لو احتجَّ الشافعي على هذا العمود لقصَمَه[١].

ويقول مترجِمو ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): لا يُعرف أنه نَاظَر أحدًا، فانقطع معه[٢].

حتى إنه من شَغَفه بالمناظرات، وقوة سلطانه، لَيقول عن نفسه: وعندي من الرغبة في طلب العلم.. ما أوجب أني كنت أرى في منامي ابن سينا وأنا أناظره[٣].

وخائض المناظرة كخائض الحرب الكاسرة، فربما تكون رابحة أو خاسرة.

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٢٩/٩)

(٢) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: ٢٣)

(٣) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٢٦٣/٥)

قال ابن القيم: فالمناظرة في العلم؛ لنصر الحق، وكسر الباطل، تشبه الجهاد وقتال الكفار[١].

فإذا كان العالِم المناظِر ضعيف السلاح، بطيء الرد والمصاوَلة فليحذر المناظرة، فليست مجاله.

قال ابن تيمية: وقد يَنْهَون عن المجادلة والمناظرة، إذا كان المُناظِر ضعيف العلم بالحجة، وجواب الشبهة.. كما يُنهَى الضعيف في المقاتلة أن يقاتل عِلْجًا قويًا من عُلوج الكفار؛ فإن ذلك يضره، ويضر المسلمين بلا منفعة[٢].

وإليك عشرة مختارات، لمناظرات جرت من الأئمة المبدعين، مع المعاندين أو المعادين، فأبكَتُوهم وأسكتوهم.

١. مناظرة ربيعة بن أبي عبد الرحمن -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٦هـ) لغَيلان، حين قال له غيلان: نشدتُك اللهَ؛ أتَرى الله يحب أن يُعصَى؟ فقال: نشدتُك الله! أترى الله يُعصَى قَسرًا؟! يعني: قهرًا.

النتيجة: كأنما ألقَمَه حجرًا[٣].

٢. المناظرة الحاسمة الدامغة من الأوزاعي -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٧هـ) في مسائل في القدَر، لمبتدع مغرور متعالِم، بمشهد من الخليفة هشام بن عبد الملك، وقد كانت التحدي مصيريًا، فإن خصم الأوزاعي قال واثقًا: إن هو غلَبني بالحجة فاضرب عنقي!

النتيجة: ضُربَتْ عنق الرجل من بعد الحُجة الثالثة! وقد بقيتْ حجةٌ رابعة، ألقاها الأوزاعي لهشام بعد ضرب عنق الرجل![٤].

---

(١) مستفاد من الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (١٢٧٥/٤) والفروسية (ص: ١٨٥)
(٢) درء تعارض العقل والنقل (١٧٣/٧)
(٣) الصواعق المرسلة (١٤٠/١٨)
(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٧٩٤/٤)

٣. مناظرة عبد العزيز الكناني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٠هـ) لبشر المريسي، بحضرة المأمون. وقد أثبتها الكناني في كتابه: «الحَيْدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن».

النتيجة: فَسُرَّ المسلمون جميعًا بما وهبه الله لهم من إظهار الحق، وقمع الباطل(١).

٤. مناظرة الإمام أحمد-رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ) في محنة القول بخلق القرآن، وقد مرت أطوارها على أربعة من خلفاء الدولة العباسية، وعلى مدى تسع عشرة سنة (٢١٨ - ٢٣٧هـ)(٢).

النتيجة: انتصر الحق، وظهرت السنة على يد إمام السنة.

٥. المناظرة العجيبة بين القاضي الباقلاني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٣هـ) وراهب النصارى بالقسطنطينية. فقد بعثه سلطان المسلمين برسالة إلى ملك الروم، وعرَّف الملكَ محله من العلم، فنتجتْ للسلطان فِكرة أن يدخله من باب قصير، لا يدخله إلا راكعًا، فلما رآه فطِن بالقصة، فأدار ظهره، ودخل وهو يمشي إلى خلفه! فعجب من فطنته، فلما دخل إليه وجد عنده راهبًا، فقال له مستهزئًا به: كيف الأهل والأولاد؟ فغضب الرومي منه، وقال له: أما علمت أنا ننزِّه هؤلاء عن الأهل والأولاد؟! فقال القاضي أبو بكر: أنتم لا تنزهون الله ﷻ عن الأهل والأولاد، وتنزهونهم؟! فكان هؤلاء عندكم أقدس من الله!. فوقعت هيبته في نفس طاغية الروم، فقصد توبيخه، فقال له: أخبرني عن قصة عائشة زوج نبيكم، وما قيل فيها. فقال له القاضي: هما اثنتان، فأما زوج نبينا فلم تلِدْ، وأما مريم بنت عمران فجاءت بولد تحمله على كتفها، وكلٌّ قد برَّأها الله مما رُمِيَتْ به!

---

(١) الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن (ص: ١٣)
(٢) مجموع الفتاوى (١٥٩/١٧)

النتيجة: فأُبهِت النصارى، وانقطع الطاغية، ولم يحِرْ جوابًا[١].

٦. مناظرة ابن تيمية المَهيبة، بعد كتابته للعقيدة الواسطية: فهذا الإمام المَهيب قد ناظَر المبتدعين الذين آذوه بعد كتابته للعقيدة الواسطية، وقد كتبها كما يقول: «وأنا قاعد بعد العصر»[٢]. **والنتيجة**: أسكتهم، حتى إنه لَيقول: قد قلتُ لهم غيرَ مرة: أنا أُمْهِلُ من يُخالفني ثلاث سنين، إن جاء بحرف واحد عن أحد من أئمة القرون الثلاثة، يُخالف ما قلته، فأنا أقرُّ بذلك[٣].

٧. مناظرته **ابن القيم** -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) مع أحد أكابر متعصبة المذاهب.

النتيجة: وضع إصبعه على فيه، وبقيَ باهِتًا متحيرًا، وما نطق بكلمة[٤].

٨. مفتي القدس محمد بن الطيب التافلاتي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٩١هـ) ناظَرَتْه رهبان النصارى مناظرة واسعة، يوم كان عمره تسع عشرة سنة. وكانت مدة المناظرة ثمانية أيام.

النتيجة: أخرسَهم الله وأكبَتهم، ووقعوا في حَيص بَيص، وأُلجِموا بلجام الإلزام[٥]

٩. مناظرة بين الشيخ أحمد بن عيسى -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٢٧هـ) -وهو شارح نونية ابن القيم- جرت بينه وبين أشعريٍ تاجرٍ من جدة، واسمه إسماعيل التلمساني، وكانت المناظرة حول عقيدة المجدد محمد بن عبد الوهاب. وقد دامت المناظرة خمسة عشر يومًا.

---

(١) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري (ص: ٢١٨) ومنهاج السنة النبوية (٥٦/٢)
(٢) مجموع الفتاوى (١٦٤/٣)
(٣) انظر بسط ماجِريات المناظرة في قرابة سبعين صفحة، كما في مجموع الفتاوى (١٦٠/٣ - ٢٢٩) وجامع المسائل - ج. الثامنة (ص١٨١ - ١٩٨)
(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣٦٦/٢)
(٥) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (١٠٣/٤)

النتيجة: اقتنع التلمساني -رحمه الله تعالى-، وصار من دعاة العقيدة السلفية، وطَبع على نفقته كتبًا كثيرة، ووزعها مجانًا[١].

١٠. قال الألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ): جرى بيني وبين بعض أتباع القادياني مناظرة شفهية، في جلسات تبلغ العشر، **كان نتيجتها** أن انسحب منها مذمومًا مدحورًا. وانهزموا شر هزيمة، بعد أن امتنعوا امتناعًا باتًا من المناظرة الشفهية[٢].

فهذه عشر مناظرات متنوعةً، متسلسلة عبر القرون، وتَكمُن قوَّتها في نصر الحق، وإزهاق الباطل، وزوال اللَّبس، وظهور سلطان العلم، وفرح العالِم بأن كان ظهور الحق على يده، ثم تمكُّنه بعد النصر من النشر، ومن آثارها اشتهارُه وزيادة أعداد طلابه، لا تكثُّرًا، ولا فخرًا! حاشا وكلا! بل انتفاعًا وارتفاعًا[٣].



(١) مشاهير علماء نجد وغيرهم (٧٨/٢)

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٥٢/٤) وأصل صفة صلاة النبي ﷺ (١٠٠٥/٣) كلاهما للألباني.

(٣) قد بسطت -بحمد الله- القول في إيراد ثلاثين مناظرة؛ انظرها في كتابي الأم « المتلذذون بالعلم».

١٤. نبأ علماء قضَوا دهرًا في علمٍ أقل نفعًا، ثم انتقلوا لعلم برَعُوا فيه:

العلوم في تفاضلها وتفضيلها ليست على مرتبة واحدة، والعلماء فيها على درجات، ومن العلماء مَن قضَى دهرًا مُنكبًّا في علمٍ أقل نفعًا، أو ربما ضَرُّه أقرب من نفعه، ثم استقرَّ به النوى في علم برَع فيه واستوى.

ومنهم أناس كانوا في علم أقل نفعًا، ثم تعانَوا النُقْلة إلى العلم الأنفع، ووجدوا منه تأبِّيًا، فروَّضوا أنفسهم عليه، حتى انقاد لهم عِنانه.

قال ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) مَن شَغل نفسه بأدنى العلوم، وترك أعلاها وهو قادر عليه، كان كزارعِ الذُّرة في الأرض التي يَجود فيها البُرُّ[١].

وقد يكون انتقاله لفن آخر، له أسباب ظاهرة، وقد تكون خفية، بل قد يتنبأ المحيطون بالعالِم نبوغه في فن معين، ثم يتقدم الزمن، فيَنبُغ في غير ما تنبؤوا فيه. وهذا بحث طريف لطيف، يستدعي جمعًا واستقصاءًا للعلماء الذين تنقَّلوا بين العلوم.

ومن الأمثلة الطريفة العجيبة هذان المثالان:

• قال الدارَقطني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٥هـ): كنتُ أنا والكتاني نسمع الحديث، فكانوا يقولون: يَخرج الكتاني محدِّثَ البلد، ويَخرج الدارقطني مقرئَ البلد. فخرجتُ أنا محدثًا، والكتاني مقرئًا![٢].

---

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم (ص: ٢٢)
(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٤/٣٨٠)

• أبو الفضل ابن ناصر السلامي (ت ٥٥٠هـ) صاحَب في سماع الحديث أبا منصور بن الجواليقي. وكان في أول الأمر أبو الفضل أَمْيَل إلى الأدب، وابن الجواليقي أَمْيَل إلى الحديث. وكان الناس يقولون: يخرج ابن ناصر لغوي بغداد، وابن الجواليقي محدثها. فانعكس الأمر، فصار ابن ناصر محدث بغداد، وابن الجواليقي لغويَّها(١).

عشرة أمثلة على المنتقلين لعلم برعوا فيه

قد يكون سبب انتقال العالِم لفن آخر من العلم، أو تفنُّنه في سائر العلوم: مشورة شيخ ناصح، أو صديق صادق. وإليك عشرة أمثلة:

١. قال أبو حنيفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ): كنت أنظر في الكلام، حتى بلغت فيه مبلغًا يشار إليَّ فيه بالأصابع، وكنا نجلس بالقربِ من حلقة حماد بن أبي سليمان، فجاءتني امرأة يومًا، فقالت لي: رجل له امرأة أَمَة، أراد أن يطلقها للسنة؛ كم يطلقها؟ فلم أدرِ ما أقول، فأمرتُها أن تسأل حمادًا، ثم ترجع فتخبرني، فسألَتْ حمادًا، فقال: يطلِّقها وهي طاهر من الحيض والجماع تطليقة، ثم يتركها حتى تحيض حيضتين، فإذا اغتسلتْ فقد حلَّتْ للأزواج. فرجعَتْ فأخبرَتْني، فقلت: لا حاجة لي في الكلام. وأخذتُ نعلي، فجلست إلى حماد، فصحبتُه عشر سنين(٢).

٢. كان الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) يسافر لأجل الشعر واللغة، حتى قال له حَجَبيٌّ: تفقَّهْ يرفعْك الله، وينفعك. قال: فنفعني الله بكلام ذلك الحجَبي(٣)، فرجعت إلى مكة، فكتبتُ العلم(٤)

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٥٤)
(٢) تاريخ بغداد ت بشار (١٥/٤٥٦)
(٣) منسوب إلى وظيفة حِجابة الكعبة، بفَتحها، وغَلقها، وخِدمتها. انظر: مجمع بحار الأنوار للفَتَّني (١/٤٥٠)
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥١/٢٩٠)

٣. قُنْبُل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩١هـ) يَلِي الشرطة بمكة، وكان لا يَلِيها إلا أهل العلم والفضل؛ لتقوم بواجباتها(١).

٤. قال الفقيه سليم بن أيوب الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٧هـ): كنت آتي شيخًا لطلب اللغة، فبكّرتُ يومًا إليه، فقيل لي: هو في الحمام. فعبرت في طريقي على أبي حامد الإسفراييني وهو يُملي، فجلست مع الطلبة، فوجدته في كتاب الصيام، في مسألة: «إذا أولَج، ثم أحسَّ بالفجر، فنَزَع». فاستحسنت ذلك، وعلقت الدرس على ظهر جزء معي، فلما عدت إلى منزلي جعلت أعِيد الدرس، فحلَا لي، وقلت: أُتم كتاب الصيام، ولزمُت الشيخ أبا حامد لسنوات(٢).

وفي هذا الموقف الارتجالي الفذِّ فائدة جليلة، ألا وهي: أن الله قد يَسوقك إلى باب رفيع من العلم، وأنت لا تريده ابتداءً! فلا تَكْرَه أقدار الله.

٥. المفسر أبو الحسن الواحدي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٨هـ) قال عن شيخه أبي الفضل العروضي: وكنت قد لازمتُه سنين، ولم أغِبَّ زيارته يومًا من الأيام، إلى أن حال بيننا قَدَرُ الحُمَام، أدخل عليه عند طلوع الشمس، وأخرج لغروبها، حتى عاتبني شيخي.. وقال: إنك لم تُبْقِ ديوانًا من الشعر إلا قضيتَ حقه، أما آن لك أن تتفرغ لتفسير كتاب الله العزيز؟!.. يأتيه البُعَداء من أقاصي البلاد، وتتركه أنت على قُرب ما بيننا من الجوار! فقلت: يا أبتِ إنما أتدرج بهذا إلى ذلك الذي تريد، وإذا لم أُحكِم الأدب بجد وتعب، لم أرِمْ في غرَض التفسير عن كثَب(٣).

٦. قال ابن عقيل الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٣هـ): كان أصحابنا الحنابلة يريدون مني هجران جماعة من العلماء، وكان ذلك يَحرِمني علمًا نافعًا..

---

(١) معجم الأدباء (٥/٢٢٣٨)
(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٢/٦٩)
(٣) التفسير البسيط (١/٤١٧)

ومع ذلك فإني أستغفر الله -تعالى- وأتوب إليه، من مخالطة المعتزلة والمبتدعة[١].

٧. الوزير العادل، والعالم العامل ابن هبيرة -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٠هـ) كان يتأسف على ما مضى من زمانه، ويندم على ما دخل فيه، ثم صار عالمًا جليلًا، ومؤلفًا متفننًا، ومُكرِمًا لأهل العلم، ويُقرأ عنده الحديث، ويُجرى من البحث والفوائد[٢].

٨. الحافظ المقرئ ابن الجزري الدمشقي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٣هـ) سبب اشتغاله بالحديث، بعد أن كان مكبًا على علم القراءات؛ أن بعض أشياخه قال له ذات يوم: إن عِلم القراءات كثير التعب، قليل الجدوى، وأنت فَهمك فائق، فعليك بعلم الحديث. فاجتهَدَ فيه، حتى حفظ مئة ألف حديث بأسانيدها، وألَّف في مصطلح الحديث أرجوزة من خمس مئة بيت[٣].

٩. قال رجل للحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) -إذْ رآه حريصًا على الحديث: اصرف بعض هذه الهمة إلى الفقه؛ فإنني أرى بطريق الفراسة أن العلماء سيَنقرضون، ويُحتاج إليك. فكان كذلك. قال ابن حجر: فنفعَتْني كلمته، ولا أزال أترحَّم عليه بهذا السبب[٤].

ولقد كان ابن حجر في مقتبل عمره منهمِكًا بالأدب والشعر والعروض، وله في شبابه رسالة في العروض. والأعجب من هذا أن ألَّف زمن الشباب كتابًا ضخمًا في أربعين مجلدًا، سماه: «مُسامِر الساهر ومُساهِر السامِر» وسلك فيه طريقة أهل الأدب، في حكاية الغَثَّ والسمين[٥].

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (١/٣٢٠ و ٣٢٣)

(٢) المقصد الارشد (٣/١٠٦)

(٣) فهرس الفهارس (١/٣٠٤)

(٤) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١/١٧٤)

(٥) المصدر السابق (٢/٦٩٣ و ٦٩٤)

١٠. الأديب الشهاب الحجازي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٥هـ) لم يَزَلْ متقدمًا في سرعة الحفظ، إلى أن تعاطَى حب البَلاذِر (الكاجو) وأكثَرَ منه. قال: ومن ثم صرتُ لا أحفظ إلا بتكلف زائد. فأقبل على فن الأدب، وهجَر ما عداه، حتى فاق فيه(١).

التنقل المذهبي الفقهي، والتنقل العلمي الفني:

بقيتْ قضية متكررة في سِيَر العلماء، ألا وهي أن العلماء الأذكياء خصوصًا قد يتنقلون من مذهب فقهي إلى آخر -ولا ضَير- أو من فن شرعي إلى آخر مثله - ولا عَتَب- والأمثلة في هذا كثيرة.

قال المناوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٣٠هـ): وقد انتقل جماعة من المذاهب الأربعة من مذهبه لغيره.

ثم ذكر المناوي أعدادًا من العلماء، وسأكتفي بثمانيةٍ؛ ممن ذكرهم من المشهورين فقط. فقال: أبو ثور من مذهب الحنفي إلى مذهب الشافعي، والطحاوي من الشافعي إلى الحنفي، والسمعاني من الحنفي إلى الشافعي، والخطيب البغدادي والآمدي إلى الشافعي، وابن فارس صاحب المجمل من الشافعي للمالكي، وابن دقيق العيد من المالكي للشافعي، وأبو حيان من الظاهري للشافعي(٢).

ومن نوادر الأمثلة وعجائبها: أن محمد البندنيجي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٨هـ) يلقَّب بـ: حَنْفَش؛ لأنه كان حنبليًا، فحنفيًا، فشافعيًا(٣).

---

(١) الضوء اللامع (٣٥٥/١)

(٢) فيض القدير (٢١١/١) وانظر جزءًا في «التحول المذهبي» للشيخ بكر أبو زيد -رحمه الله تعالى-، فقد أحصى جملة وافرة من الفقهاء المتحوِّلين. وقد فاتَه جملة أخرى، ولي بحث قيَّدتُ فيه من الفائت بقَدر الضِعف -بفضل الله تعالى-. ولعل الله ييسر طبعه.

(٣) تبصير المنتبه بتحرير المشتبه (٥٤١/٢)

وهذا التنقل؛ لا يلزم منه أن يكون مؤشِّر تراجع تحصيلي، أو ترَف علمي، بل هو تنوع محمود، وتوسُّع إيجابي.

كما أنه بوابة؛ ليَدلُف منها للفقه المقارَن، وليترقَّ للمُنحنى الاجتهادي لمن بلغ رتبته.



١٥. مبدعون انشغلوا عن العلم، فلما تفرغوا أبدعوا:

العلم محبوب للنفوس، والجهل مكروه إليها، حتى إن الجاهل ليأنَفُ ويكره أن يوصَف بالجهل، ويَفرح ويحب أن يوصَف بالعلم.

وهذه المحبة لا تعني أن يُحمل الناس كافةً على الاشتغال بالعلم، ولكن ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤] وكيف تستقيم الحياة، وتقوم المعايِش لو أن كل الناس اشتغلوا بالعلم فحسب؟! لكن من وُهِبَ العلم فقد وُهِبَ خير موهوب، فليَلْهَج شكرًا للوهاب، وليستثمر علمه؛ ليكون نافعًا، وللمعالي رافعًا.

والعلماء بَشَرٌ، يَعتريهم ما يَعتري سائر البشر. فمنهم من شَغَله طلب المعيشة، أو التزود من الدنيا عن حلقات العلم. ثم مَنَّ الله عليه، فعاد لحياضها، ومشى في رياضها، فانقلب من جاهل إلى عالم. وإليك نماذج مختارة، لا على سبيل الإحصاء:

١. كان الإمام مالك -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ) مع أخيه يبيع البَزَّ، ثم طلب العلم. قال مالك: كان لي أخ، فألقى أبي يومًا علينا مسألة، فأصاب أخي وأخطأتُ، فقال لي أبي: ألهتْكَ الحمَام عن طلب العلم. فغضبتُ، وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين[1].

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١/١٢٤) و (١/١٣١)

٢. الحافظ هارون الحمال -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٣هـ) كان حمَّالًا، ثم عالمًا[١].

٣. الفقيه الحنبلي الأعزّ البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٩هـ) كان مغنِّيًا ثم تاب، وأقبل على العلم، وحفظ «مختصر الخرقي»[٢].

٤. مجير الدين ابن بقيرة -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٢هـ) كان خياطًا، ثم عالِمًا[٣].

٥. الفقيه النحوي عز الدين القوّاس -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٦هـ) كان يعمل صنعة القِسِيّ، ثم اشتغل، وحصّل على كِبر سِنِّه[٤].

٦. يحيى بن زعيب الرحبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٤هـ) كان تاجرًا، فلما كبر دفع ماله لولده، وأقبل على الإسماع، وكان يُقصَد لسماع الصحيح، وله به نسخة قد أتقنها[٥].

٧. القاضي شمس الدين النابلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) كان خياطًا، ثم عالمًا[٦].

٨. ابن زكنون الحنبليّ -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٧هـ) كان جمّالًا، ثم عالمًا، وقد شرح «مسند أحمد» ورتّبه على أبواب البخاري في مئة وعشرين مجلدًا[٧].

٩. القاضي ابن الجليس الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٤هـ) كان في ابتداء أمره يتَّجر، ثم أحب العلم، وحفظ «مختصر الخرقي»[٨].

---

(١) المقصد الارشد (٧٢/٣)
(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٣٨٦/٦)
(٣) مجمع الآداب في معجم الألقاب (٥٨٣/٤)
(٤) المصدر السابق (٢٢٨/١)
(٥) إنباء الغمر بأبناء العمر (٤٤٩/١)
(٦) تاريخ ابن حجي (٥٥٤/٢)
(٧) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٢١٤/٥) ونيل الأمل في ذيل الدول (٣٤٩/٤)
(٨) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٥٣٦/٩)

١٠. أحمد بن زكري التلمساني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٩هـ) كان حائكًا، فدفع له شيخه ابن زاغو غزلًا ينسجه له، وأعجبه ذكاؤه، وقال له: مثلك يشتغل بالعلم لا بالحياكة. ثم ذهب إلى أمه، فسأله عن وليّ أمره، فقال: أمي. فذهب إليها، وتعهد بأن يعطيها في كل شهر نصف دينار، وأن يفقّه ولدها ويؤدبه، فرضيَتْ، واستمر إلى أن نبغ واشتهر[١].

١١. الواعظ المحدّث ابن الكيّال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢٩هـ) كان تاجرًا، ثم ركِبَتْه ديون كثيرة، ولازَمَ العلم والعلماء[٢].

١٢. محمد ميرزا السروجي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٨٨هـ) كان يبيع السروج ثم عالِمًا[٣].

١٣. أبو عبد الله محمّد كمّون -رحمه الله تعالى- (ت ١١٧٣هـ) كان أول حياته من صيادي السّمك، فمنّ الله عليه بالعلم في كِبَر سنّه[٤].

١٤. الشيخ علي بن محمد طامِش الصنعاني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٨٩هـ) اشتغل بادئ أمره بالتجارة، ثم انكسر عليه مال، فمالَ إلى الاشتغال بالعلم[٥].

وهذا الاستعراض فيه مَسْلاة للمرء في نفسه أن في العمر فسحة للتعلم، بل للتقدم في العلم، والإمامة فيه.

كما أن فيه مَسْلاةً للأب، ألا يَيْأس من ولده الزاهد بالعلم، وتحفيزًا للعالِم مع تلميذه العازب عن الفهم أو الحفظ: أن الله قد يتفضل بعد زمان، فيقذِف في

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ١٢٩) والأعلام للزركلي (٢٣١/١)
(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٢٢٧/١٠)
(٣) المصدر السابق (٢٠٢/٤)
(٤) نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار (٣٧٦/٢)
(٥) الملحق التابع للبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع - محمد بن يحيى زبارة الصنعاني (ت ١٣٨١هـ) (١٧٥/٢)

قلب هذا العازب همةً وقَّادة، ونية صادقة، فيلحق بركب العلماء الذين سبَقوه، بل يسبقهم سَبْقًا بعيدًا.



١٦. علماء كبار ومبدعون لم يُفتح عليهم في علوم معينة:

العلم مواهب وفتوحات من الوهاب الفتاح العليم. و ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]

قال الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ): إنما العلم مواهب، يؤتيه الله من أحب من خلقه، وليس يناله أحد بالحسَب، ولو كان لعِلّة الحسَب لكان أولى الناس به أهل بيت النبي ﷺ[١].

قال الأديب الرافعي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٦هـ): قد يتأتّى جنس من العلوم لطالبه ويَسهل، ويمتنع عليه جنس آخر ويتعذر؛ لأن كل امرئ إنما يتيسر له ما في طبعه قبوله، وما في طاقته فعلُه[٢].

ولذلك قد يُفتح على عالِم في علم معين ما لا يُفتح على عالِم آخر، وقد يُغلَق عنه في علم قد تيسّر لمن هو دونه، بل قد يُفتح للفُطناء في بعض العلوم إلهامًا، فتراه يتقن بعضها سَليقةً لا تلقِّيًا:

فلا عَروضٌ ولا نحوٌ ولا لغةٌ ... قل لي: فمن أين هذا الفضل والأدبُ؟

فقلت قول امرئ صحَّتْ قريحته: ... إن القريحة علمٌ ليس يُكتسبُ[٣]

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٩٣/٤٠) وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (٣٢٣/١) و (٧٤/١)

(٢) تحت راية القرآن (ص: ١٩٤)

(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤٨٠/١٩)

فالبعض -مثلًا- لا يَلحن سَليقيةً، وإنما يُعرِب بما سمح به الطبع، وسهل على اللسان، من غير أن يتفهم إعرابه، مصداقًا لقول الشاعر:

ولست بنحوي يَلُوك لسانه ... ولكن سَليقيٌّ أقول فأُعرِبُ

والسَّليقية تُذم مرة، وتمدح أخرى، فإذا ذُمت فلعدم الإعراب، وإذا مُدحت فللدراية والفصاحة[1].

والعلماءُ الكُمَّل هم الذين اتسعت مداركهم، لأنْ يجمعوا بين العلوم الفاضلة، فينالوا من كل غنيمة بسهم، مع الإتقان والضبط، والإيغال برفق في الأهم أكثر من المهم.

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) وجمْعُ العلوم ممدوح، إلا أن أقوامًا أذهبوا الأعمار في حفظ النحو واللغة، وإنما يُعرف بها غريب القرآن والحديث، وما يَفْضل عن ذلك ليس بمذموم، غير أن غيره أهم منه.. ولو اتسع العمر لأمرتُك باستقصاء كل علم، إذ الكل ممدوح، فلما قصُر العمر وجب تقديم المهم والأفضل[2].

وهذا لا يعني أن العالِم محيط بكل العلوم؛ لأن نوابغ العلماء وأذكياءهم نادرون عبر القرون، وهؤلاء الأذكياء النادِرون تجِدُ في تراجمهم مثل هذه العبارة: «ما سألتُه عن شيء من العلوم إلا وظننتُه لا يُحسن سواه» أو عبارة: هو في كل علمٍ إمام.

ولكن اقتضت حكمة الله وعلمه أن يبرز علماء بكل علم؛ ليحصل التكامل والتوازن، والله هو الوهاب الفتّاح العليم.

قال الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ): كم من إمام في فنٍ مقصرٌ عن غيره، كسيبويه مثلًا إمام في النحو، ولا يدري ما الحديث، ووكيع إمام في

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٥/١٩٥)

(٢) الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ لابن الجوزي (ص: ٤٧)

الحديث، ولا يعرف العربية.. وكمحمد بن الحسن رأس في الفقه، ولا يدري ما القراءات، وكحفص إمام في القراءة، تالِفٌ في الحديث.. وأما اليوم فما بقي من العلوم القليلة إلا القليل، في أناس قليل، ما أقلَّ من يعمل منهم بذلك القليل، فحسبنا الله ونعم الوكيل(١).

كما أن هذا فيه دعوة للأكثرين إلى التخصص، لا التفنُّن في العلم.

قال أبو عبيد القاسم بن سلّام -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٤هـ): ما ناظَرَني رجل قَط، وكان مُتفننًا في العلوم إلا غلبتُه، ولا ناظَرَني رجل ذو فن واحد إلا غلبَني في علمه ذلك(٢).

والتخصص له ضريبته الحتمية، وهي ما أشار إليها ابن خلدون -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٨هـ) بقوله: مَن حصَّل مِن أهل العلم على مَلَكة علم من العلوم، وأجادها في الغاية: فقَلّ أن يُجيد ملَكة علم آخر على نسبته، بل يكون مقصّرًا فيه إنْ طلَبه، إلا في الأقل النادر من الأحوال، ومبنى سببه على الاستعداد، وتلوينه بلون الملَكة الحاصلة في النفس(٣).

وقد يَستعصي عِلمٌ أو باب من الفقه على صاحبه، ثم لا يستسلم لهذا الاستعصاء، بل تجده يثابِر ويصابر حتى يكون في هذا العلم إمامًا. وخذ على ذلك سبعة أمثلة:

أ. كان سيبويه -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٠هـ) يَستملي من حماد بن سلمة يومًا: قال رسول الله ﷺ: «**ما أحدٌ من أصحابي إلا وقد أخذتُ عليه، ليس أبا الدرداء**». فقال سيبويه: «ليس أبو الدرداء»، فقال: لحنتَ يا سيبويه، فقال

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي (٣/١٥٧)
(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/٥٢٣)
(٣) تاريخ ابن خلدون (١/٥٠٨)

سيبويه: لا جرم! لأطلبن علمًا لا تُلحِّنني فيه أبدًا. فطلب النحو، فصار إمامَ النحو، وكتابه إمامَ كتب النحو(١).

ب. الكسائي النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٩هـ) تعلم النحو على كِبَر سِنِّه؛ وسببه أنه مشى يومًا حتى أعيا، فجلس وقال: عَيِيْتُ. فقيل له: لحنتَ! قال: كيف؟! قيل: إن كنت أردت التعب فقُلْ: أعيَيْتُ، وإن كنت أردت انقطاع الحيلة فقُل: عَيِيْتُ. فأنِفَ من قولهم: لحنتَ! واشتغل بالنحو حتى مَهَر، وصار إمام وقته(٢).

ت. كان أبو جعفر الطحاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢١هـ) يقرأ على خاله المزني، فمرت مسألة دقيقة، فلم يفهمها أبو جعفر، فبالغ المزني في تقريبها له، فلم يتفق ذلك، فغضب المزني متضجرًا، فقال: والله لا جاء منك شيء، فقام أبو جعفر من عنده، وتحول إلى قاضي الديار المصرية بعد القاضي بكار، فتفقه عنده ولازَمه، إلى أن صار منه ما صار، حتى إنه لما صنف مختصره في الفقه قال: رحم الله المزني؛ لو كان حيًا لكفَّر عن يمينه(٣).

ث. أبو بكر الأنباري-رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٨هـ) مر معنا أنه سئل عن تعبير رؤيا، فقال: أنا حاقن. فمضى، فحفظ كتاب الكرماني في التعبير، وجاء من الغد وقد صار معبرًا للرؤيا(٤).

ج. المقرئ المحدث عبد الله بن الحسن الأنصاري القرطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٦١١هـ) من أخباره في العلم والذكاء: أنه قرىء عليه -يومًا- باب من علم العروض، وكان في الحاضرين مَن أحسنَ صناعتَه، فجاذَبه في المباحَثة، حتى أحسَّ الشيخ من نفسه التقصير، فكف عن الخوض في المسألة، وانصرف إلى منزله، وعكف سائر اليوم على تصفح علم العروض،

(١) والحديث ضعيف معضل. وقد رواه الزجاجي في مجالس العلماء (ص: ١١٨) ورواه الخطيب البغدادي بسنده في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٦٧)

(٢) نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص: ٥٩)

(٣) لسان الميزان (١/٢٧٥)

(٤) المصدر السابق (٢/٦٥٥)

حتى فهم أغراضه، وجاء به من الغد، معجزًا من رآه، فبُهت الحاضرون من نفوذ فهمه، وسموِّ هِمته[١].

ح. من الطرائف أن الحافظ النووي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ) قال عن نفسه: لما قرأت: «يجب الغسل من إيلاج الحشفة في الفرج» بقيتُ أكثر من شهرين أعتقد أن ذلك قرقرة البطن! وكنت أستحم بالماء البارد كلما قرقر بطني![٢].

خ. قال محمد رشيد رضا -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٤هـ) وقد وقع لي أني مكثتُ سنة ونصف سنة، لا أفهم شيئًا من «شرح الكفراوي على الآجرومية»، فحمَلني عدم الفهم على الهرب من طلب العلم؛ لتَمَكُّن اليأس من نفسي، ولكن لأمرٍ أراده الله قهَرني والدي على الرجوع إلى الطلب، فهربتُ في الطريق، ولكني صادفتُ في مَهربي مَن علَّمني كيف أطلب العلم من أقرب وُجوهه، فذُقت لذته، واستمررْتُ في طلبه[٣]. وفي موضع آخر قال: ومما وقع لي في الصغر: أنني هربتُ مَرة من الكُتَّاب، واختبأتُ في بستان لجدتي أم والدتي[٤].

فهؤلاء علماء نوابغ، مرَّت عليهم فترات استعصى عليهم فيها علوم أو أبواب، ثم لم تلبَث أنِ انفتحت.

بل بعض المبدعين ربما عجز عن بلوغ ذلكم العلم، ولكنه يتحدث بنعمة الله عليه، أنْ قد أجاد في ناحية منه، تُثريه، أو تُعزِّزه.

قال القرافي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٤هـ): ما لا أعرفه وعجزت قدرتي عنه، فحظِّيْ منه معرفة إشكاله؛ فإن معرفة الإشكال علم في نفسه؛ وفتح من الله

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة (٣/٣١٠)
(٢) طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٢/١٥٣) والمنهل العذب الروي للسخاوي (ص: ٣)
(٣) مجلة المنار (٦/٦٢١)
(٤) المصدر السابق (١٩/٢٧٦)

-تعالى-[١].

قال العلماء: الاستشكال علم[٢].

ثم -يا طالب العلم- لا تكن ممن إذا استعصى عليه عِلمٌ، أجلَبَ عليه بخيله ورَجِله، عائبًا أهله، مزهِّدًا في كتبه، بل جاوِزه إلى ما تستطيع، ولن يُعاتِبَك أحد على المجاوَزة، وارضَ بقسمة الله، فكلٌ مُيسَّر لما خُلق له.

قال ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ): العلوم الغامضة كالدواء القوي، يُصلح الأجساد القوية، ويُهلك الأجساد الضعيفة[٣].

ويسليك ويطمئنك ابن تيمية قائلًا: وما اشتبه عليه وكَلَه إلى الله، لَيَتفقهن فيه فِقهًا ما فَقِهه قوم قط، حتى لو أن أحدهم مكث عشرين سنة، فلَيَبعثن الله له من يُبين له الآية التي أشكلت عليه، أو يُفهمه إياها من قِبل نفسه[٤].

ثم لا تتكلف، ولا تدَّعِ أنك تُحسن فنًا من العلم معينًا، مع أنت جاهلٌ فيه، فتكون شماتةً عليك.

قال صَعْصَعَةُ بن صُوحانَ ﷺ (ت ٥٦هـ): «إن من العلم جهلًا»: فيتكلّفُ العالِمُ إلى عِلْمِه ما لا يعلمُ، فيُجَهِّلُه ذلك[٥].

فيا طالب العلم السائح، السائر في طريق الإبداع:

لا تيأس إذا تعسَّر عليك هضْم بعض فنون العلم، ولا تتراجع إذا رأيت من يَفوقك حفظًا وفهمًا، فالنيات والعزائم خافضة رافعة. بل ربما يفوقك أصغر تلاميذك في علم أنت لم تُتقنه.

قال أبو حيان التوحيدي -رحمه الله تعالى- (بعد ٤٠٠هـ): لا نَجحد أن

(١) الفروق للقرافي (١/١٢١)

(٢) التاج والإكليل لمختصر خليل (٦/٢٦١)

(٣) الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم (ص: ٢٣)

(٤) مجموع الفتاوى (١٧/٣٩٤)

(٥) سنن أبي داود ت الأرناؤوط (٥٠١٢)

تكون النَّجَابة في بعض الخاملِين، والفَسَالة في بعض المُشرِفين.. ولكنَّ الأَولى بالقياس على عادة الناس تقديم مَن له قديم[١].

وهذا الشيخ بكر أبو زيد -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٩هـ) يُهدِّئ من رَوعك يا طالب العلم، فيقول: لا تَفْزَع إذا لم يُفتح لك في علم من العلوم، فقد تعاصَتْ بعض العلوم على بعض الأعلام المشاهير، ومنهم من صرَّح بذلك.. فيا أيها الطالب! ضاعِف الرغبة، وأفزَعْ إلى الله في الدعاء واللجوء إليه، والانكسار بين يديه[٢].

ثم ذكر الشيخ بكرٌ عشرةَ نماذج فقط، وزِدْتُ عليه -بفتحٍ وفضل من الله- بسبعين، فصار المجموع ثمانين نموذجًا، لعلماء تعسَّرت عليهم علوم معينة، لم يُحصِّلوها.

فإليك سَرْدَ أسمائهم، وأسماء العلوم المتعسِّرة عليهم:

النحو واللغة:

إتقان اللغة العربية شرف وعزة، لكن الله أبى الكمال النسبي إلا لمن اصطفاهم. فاللغة بحر لا ساحل له، والنحو صعب وطويل سُلَّمه.

وقد كانوا يَتَعانَوْنَ هذا العلم، ويبذلون لتحصيله أموالًا كثيرة. وخذ هذين المثالين:

١. قال محمد بن الحسن -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٩هـ): خلَّف أبي ثلاثين ألف درهم، فأنفقتُ نصفها على النحو، وأنفقتُ الباقي على الفقه[٣].

٢. قال خلف البزاز -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٩هـ): أشْكَلَ عليَّ باب من

---

(١) البصائر والذخائر (١٧٦/٩)

(٢) حلية طالب العلم (ص: ١٨٠). وهذا النقل الرصين للشيخ بكر -رحمه الله تعالى- هو السبب الذي جعلني أجمع هذه الأسماء عبر القرون، وأحاول استقصاءها. والحمد لله على توفيقه.

(٣) تاريخ بغداد ت بشار (٥٦١/٢)

النحو، فأنفقتُ ثمانين ألف درهم، حتى حَذِقْتُهُ. وليس الشأن في اللحن العابر والطارئ، ولا الواقع من عوام الناس، وإنما يُعابُ إذا كثُر وتكرر، وكان وقوعه من الخواص، كالعلماء.

وقد اعتذر ابن حجر عما نُسب لبعض أئمة المحدثين والفقهاء من وقوعهم باللحن، بأن ذلك بالنسبة للخليل وسيبويه ونحوهما، دون خلوِّهم أصلًا منه(١).

وقد أُلِّف في لحن الخاصة مؤلفات؛ فمنها:

أ- عمر بن شبَّة -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٢هـ) صنَّف كتابًا بعنوان: من كان يَلحن من النحويين(٢).

ب- للمبرِّد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٦هـ) كتاب « اللُّحَنة» في ذِكر من لحن من خاصة العلماء.

ت- الدارقطني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٥هـ) أَلَّف في تصحيف المحدثين كتابًا مفيدًا(٣).

ث- عقد المعافَى بن زكريا -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٠هـ) بابًا بعنوان: «اللحَّانون من الخاصة»(٤).

ولذلك قرر طائفة من العلماء أن: كل عالم في أيّ علم، لا يكون متمكنًا في هذا العصر من علم النحو - بحيث لا تخفَى عليه الدقائق - فليس عندهم بمستحق للتمييز، ولا سالم من الازدراء(٥).

بل قال ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ): من وَسَم اسمه باسم العلم

---

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٦/٨)
(٢) الفهرست (ص: ١٤٢)
(٣) فهرسة ابن خير الإشبيلي (ص: ١٨)
(٤) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي (ص: ١٥٤)
(٥) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس (٢٢١/١)

والفقه، وهو جاهل للنحو واللغة، فحرامٌ عليه أن يفتي في دين الله بكلمة، وحرام على المسلمين أن يَستفتوه[١].

النحو يَبسط من لسان الألْكَنِ   والمرء تُعْظِمُه إذا لم يَلْحنِ[٢]

وأما فقه اللغة؛ فقد ذكر ابن خلدون -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٨هـ) أنه أشدّ من اللّحن في الإعراب وأفحش[٣].

ومَكمن الأهمية: أن هذا العلم متعلق بعلوم الشريعة تعلقًا وثيقًا. ولذا فقد قال الثعالبي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٩هـ): على اللغة العربية يُعوِّل أهل الفتيا[٤].

ولذلك؛ فإن بعض علماء الفقه كانوا يلجؤون إلى طائفة من علماء النحو؛ ليضبطوا لهم بعض مسائلهم الفقهية[٥].

وإليك الآن ستة وعشرين عالِـمًا أخفَقوا في بعض اللغة والنحو، أو كثر لَحنُهم، وربما تستغرب ورود بعض الأسماء، لكن التراجم وثَّقت ذلك، والاعتذار عنهم يكون بما اعتذر به ابن حجر آنفًا:

١. القاسم بن محمد -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٦هـ) كان رجلًا لحَّانة، وكان لأم ولد، وقد دخل ذات مرة هو وابن أبي عتيق عند عمتهما عائشة -رضي الله عنها-، فقالت له عائشة: ما لَك لا تُحدِّث كما يتحدث ابن أخي هذا؟ أمَا إني قد علمتُ من أين أُتيتَ؛ هذا أدَّبتْه أمه، وأنت أدَّبتْك أمك[٦].

---

(١) رسائل ابن حزم (١٦٢/٣)
(٢) تاريخ بغداد ت بشار (٢٠/٥)
(٣) تاريخ ابن خلدون (٧٥٨/١)
(٤) الصاحبي لابن فارس (ص: ١١)
(٥) من الكتب التي تَربط الفقه بالنحو كتاب: «الكوكب الدري في تخريج الفروع الفقهية على المسائل النحوية» لجمال الدين الإِسنوي. وأيضًا كتاب: زينة العرائس من الطُرَف والنفائس فيما يتخرّج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية، لابن المِبْرد.
(٦) صحيح مسلم (٥٦٠)

٢. ربيعة الرأي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٦هـ) كان لحَّانًا[١].

٣. الإمام أبو حنيفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ) تكلم في الفقه، وصار يَلْحَن، فأُعجب أبو عمرو بن العلاء بكلامه، واستَقبح لحنَه، فقال لأبي حنيفة: إنك أحوج إلى إصلاح لسانك من جميع الناس[٢]. قال ابن خلكان -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨١هـ): ولم يكن يُعاب بشيء سوى قلة العربية[٣].

ولذا كان أبو حنيفة إذا سئل عن شيء من اللغة يقول: إنها ليست من شأني. ويتمثل بهذا البيت:

مــن تحلــى بغيــر ما هــو فيــهِ   فضحَتْــه شــواهد الإمتحــانِ[٤]

٤. الإمام مالك بن أنس -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ) كان لحانًا. ذكره المعافى (ت ٣٩٠هـ) تحت مبحث: «اللحّانون من الخاصة»[٥].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٧٩/٦٣) والجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي (ص: ١٥٤)

(٢) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي (ص: ١٥٤)

(٣) وفيات الأعيان (٤١٣/٥)

(٤) الطيوريات (٥٨١/٢)

فائدة: هذى الدعوى على أبي حنيفة يردُّها النعماني في كتابه مكانة الإمام أبي حنيفة في الحديث (ص: ١٤٦) في كلام طويل، ومنه قوله: إن كثيرًا من علماء العربية يتكلم بلسان العامة ويتعمد النطق باللحن، بل قد يتكلم العربي بالعَجَمية ولا يقدح ذلك في عربيته. وقال الغزي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠١٠هـ) معقِّبًا على كلام ابن خلكان بقوله: الجواب لا يخلو من شائبة التعصب، حيث جزم بأن الإمام -رضي الله تعالى عنه- كان قليل العربية، بمجرد كلمة صدرت منه على لغة أهل بلده، واستعملها غير واحد ممن يحتج بقوله في شعره. أ. هـ من الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص: ٣٧). وثمت كتاب مطبوع بعنوان: «فصاحة أبي حنيفة» تأليف أ. د. محمد أحمد الوليد، وفيه رد الدعوى في ضد ذلك.

(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٧٩/٦٣) والجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي (ص: ١٥٤)

٥. أبو شيبة -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٩هـ) جد ابن أبي شيبة صاحب المصنف. كان لحانًا، حتى قيل له: لو كان لَحْنُك من الذنوب كان من الكبائر![١].

٦. هُشيم بن بشير -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٣هـ) كان لحَّانًا[٢].

٧. عبد العزيز الدرَاوَرْدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٧هـ) كان رديء اللسان، يَلحن لحنًا قبيحًا[٣].

٨. بِشر الحافي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٧هـ) قال له أحد تلاميذه: يا أبا نصر! أنت رجل قد قرأتَ القرآن، وكتبتَ الحديث، فلِمَ لا تتعلم من العربية ما تعرف به اللحن حتى لا تلحن؟! قال: ومن يعلمني؟ قال: أنا. قال: فافعل. قال: قل: «ضرب زيد عمروًا» فقال له بِشر: يا أخي! ولِمَ ضربه؟ قال: ما ضرَبه، وإنما هذا أصل وضع. فقال بشر: هذا أوله كذب؛ لا حاجة لي فيه![٤].

٩. أبو ثور الكلبي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٠هـ) وقد سئل أحمد بن حنبل عن مسألة فقال: سلِ الفقهاء، سل أبا ثور. وقد وصفه الإمام الشافعي بأنه أعرابي يَلحن[٥].

١٠. يعقوب بن السِّكِّيت -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٣هـ) كان في صناعة النحو ذا بضاعة مُزجاة نَزْرة، وإن كان إمامًا عالمًا في اللغة[٦].

١١. أبو العباس الأحول -رحمه الله تعالى- (بعد ٢٥٩هـ) كان غزير العلم. قال نفطويه: كان لحّانًا[٧].

---

(١) أخبار القضاة (٣/٣٠٨)
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٣/٢٩٤) والجليس الصالح الكافي للمعافى (ص: ٣٨٣)
(٣) تاريخ ابن أبي خيثمة (٢/٣٥٦) والإرشاد في معرفة علماء الحديث للخليلي (١/٣٠٢)
(٤) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص: ٩٤)
(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥/٢٧٢)
(٦) الجليس الصالح الكافي للمعافى (ص: ٤١٠) وتاريخ دمشق لابن عساكر (٧٤/١٥٥)
(٧) معجم الأدباء (٦/٢٤٨٩)

١٢. جناد بن واصل الكوفي -رحمه الله تعالى- (بعد ٤٣٨هـ) كان أعلم الناس بأشعار العرب وأيامها، إلا أنه لم يكن له علم بالنحو، وكان يَلحن كثيرًا(١).

١٣. أبو حامد الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ) كان جامعًا للفنون، إلا النحو(٢).

١٤. ابن طاهر القيسراني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٧هـ) ولكنه كان لُحْنَة، يقرأ ويلحن(٣).

١٥. أبو بكر الدينوري الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٢هـ) كان لحّانًا لا يعرف النحو(٤).

١٦. قاضي المارستان محمد بن عبد الباقي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٥هـ) كان يقول: ما مِن عِلم إلا وقد نظرتُ فيه، وحصلتُ منه كله أو بعضه، إلا هذا النحو؛ فإني قليل البضاعة فيه(٥).

١٧. طاهر النجار -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٥هـ) قال عن نفسه: حظيت من علم النحو بتلويحات لا تقنع، ونتيفات لا تشبع(٦).

١٨. أبو الحسن القطيعي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٤هـ) يقرأ الحديث، ولا يُحسن أن يقرأ حديثًا واحدًا صحيحًا(٧).

١٩. المقرئ شمس الدين أبو عبد الله الحلبي -رحمه الله تعالى-

---

(١) الفهرست (ص: ١٢٠)
(٢) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (١٢٦/٦) والعقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ١١٧)
(٣) تاريخ الإسلام (١٧٥/٣٥)
(٤) المصدر السابق (٢٦٨/٣٦)
(٥) المصدر السابق (٣٩٢/٣٦) وذيل طبقات الحنابلة (٤٣٤/١)
(٦) التدوين في أخبار قزوين (٩٧/٣)
(٧) تاريخ الإسلام (٢١٣/٤٦)

(ت ٧٠٠هـ) قرأ العربية على ابن مالك صاحب الألفية، ولازَمَه مدة، ولكن لم يَبرعِ في العربية[١].

٢٠. يحيى الغماري التونسي النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٤هـ) ومع ذلك فذكروا أن بضاعته في النحو مزجاة![٢].

٢١. ابن الظهير الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ) فقيه الديار المصرية وعالِمها، إلّا أنه لا يعرف النحو، فكان يَلحن كثيرًا[٣].

٢٢. عماد الدين الأسنائي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٤هـ) ولم يُفتح عليه في العربية[٤].

٢٣. ابن الفرات الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٧هـ) كان لِهجًا بالتاريخ، ولكنه لم يكن يُحسن الإعراب، ولذا يقع في اللحن الفاحش[٥].

٢٤. ابن النحاس -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٤هـ) اشتغل في النحو، فلم يُفتح عليه فيه بشيء[٦].

٢٥. أبو الفتح الكلوتاتي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٥هـ) أكثرَ من الاشتغال بالعربية، ولم يَمْهُر فيها[٧].

٢٦. ابن فهد المكي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧١هـ) كان محدثًا حافظًا، غير أنه لا يعرف النحو[٨].

---

(١) معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار (ص: ٣٨١)
(٢) بغية الوعاة (٣٣١/٢)
(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٢٧٢/٨)
(٤) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٦١/٥)
(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٥١/٨)
(٦) المصدر السابق (٢٠٣/١)
(٧) المصدر السابق (٣٧٩/١)
(٨) المصدر السابق (١٣٠/٦)

العَروض ونظم الشعر:

٢٧. إمام اللغة، أبو عبيدة معمر بن المثنى -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٨هـ) كان -مع إمامته- إذا قرأ البيت لم يُقِمْ إعرابه، ويُنشده مختلف العَروض[١].

٢٨. الأصمعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٦هـ) أراد أن يقرأ العروض على الخليل بن أحمد، وشرع في تعلمه، فتعذر ذلك عليه، فيئس الخليل منه، فقال له: يا أبا سعيد، كيف تُقَطِّع قول الشاعر:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

ففَهِم الأصمعي أنه هو المراد، فلم يُعاوِدْه فيه[٢].

٢٩. وقيل إن القصة السالفة إنما وقعت ليونس النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ)[٣].

٣٠. أبو القاسم ابن الإفليلي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤١هـ) فريد أهل زمانه بقرطبة في علم اللسان العربي، لكنه يجهل علم العَروض[٤].

٣١. ابن صاحب ألفية النحو، الشيخ جمال الدين ابنُ ابنِ مالك -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٦هـ) له معرفة تامة بالعلوم الأدبية، ومع ذلك لم يَقدر على نظم بيت واحد[٥].

علم الصرف

٣٢. أبو مسلم النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٧هـ) لم يُحسن علم التصريف، وأنكره، بل هجا أصحابه[٦].

---

(١) معجم الأدباء (٢٧٠٥/٦)
(٢) نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص: ٩٢)
(٣) التذكرة الحمدونية (٣١٢/٨)
(٤) معجم الأدباء (١٢٤/١)
(٥) المقفى الكبير (١٩/٧)
(٦) إنباه الرواة على أنباه النحاة (١٦٩/٤)

علم الخط:

حسن الخط لسان اليد، وسفير العقول[١]. وهو موهبة ربانية، وفي آية: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١] أن الخط الحَسَن منها[٢]. ولكن هذه الموهبة يمكن أن تكون مهارة، تُكتسب بالمِران والدَّرَبة. وقد قالوا: جَودة الخط مما يُثبِت الحق[٣]. وقالوا: جودة الخط بلاغة اليد[٤].

وقد وصَفوا رَداءة الخط بأنها قذىً في عين القارئ[٥].

ويقولون للرديء الخط: خطُّه كخَط الملائكة؛ لأن خَطهم غير بيّن[٦].

اعـذر أخـاك علـى رَداءة خطـه   واغفـر رداءَتـه لجَـودة ضبطـه[٧]

ومن العجيب أنه قد قيل: من سعادة المرء أن يكون رديء الخط؛ لأن الزمان الذي يُفنيه بالكتابة يشغله بالحفظ والنظر[٨].

لكن من ساء خطه فله عزاء وتسلية من الحافظ الماوردي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٠هـ) حيث يقول: وليست رداءة الخط هي السعادة، وإنما السعادة أن لا يكون له صارف عن العلم، وعادة ذي الخط الحسن أن يتشاغل بتحسين خطه عن العلم، فمن هذا الوجه صار برداءة خطه سعيدًا، وإن لم تكن رَداءة الخط سعادة.

بل الماوَردي ينحو منحى أقوى، فيقول: العلماء اطَّرحوا صرف الهمة إلى

(١) البحر المحيط في التفسير (١٢/٩)
(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب (١٣/٧)
(٣) رياضة المتعلمين لابن السني - تحقيق نظام يعقوبي (ص٣٢٢)
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣١٧/٣٣)
(٥) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٤٩٦/١)
(٦) مفيد العلوم ومبيد الهموم (ص: ٤٨٥)
(٧) يتيمة الدهر (٥٢٢/١)
(٨) النكت على مقدمة ابن الصلاح للزركشي (٣/ ٥٦٦).

تحسين الخط؛ لأنه يشغلهم عن العلم، ويقطعهم عن التوفر عليه. ولذلك تجد خطوط العلماء في الأغلب رديئة، لا يخط إلا من أسعده القضاء[١].

وفي آخر كلام الماوردي بعض النظر! فمنهم خطاط، ومنهم سَيء الخط، ومنهم بين ذلك، وهم الأكثرون.

وإليك هذين المثالين الجميلين لعالِمين خطهما حسن:

• كان الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) خطاطًا، ويحكي عن نفسه موقفًا له مع شيخه البرزالي. قال الذهبي: وهو الذي حبَّب إليَّ طلب الحديث، قال لي: خطُك يُشبه خط المحدثين، فأثَّر قوله فيَّ[٢].

• قال شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ): كان خطي جميلًا في الأول، ثم من محبتي للشيخ عبد الرحمن السعدي صرت أقلده؛ يعني: جعلتُ خطي غير واضح؛ تقليدًا له، ومحبة له، ثم لما رأيت أن الناس لا يستطيعون قراءة خطي قلدتُ الخط الحسن[٣].

والآن إليك أربعةً وعشرين مثالًا، لعلماء طابت علومهم، ولكن ساءت خطوطهم:

٣٣. سفيان الثوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٦١هـ) قال عن خَطِّه عبد الرحمن بن مهدي: خط سفيان خط سيئ[٤]. وقال الفضل بن دُكين: كان خطه خِرْباشًا[٥].

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص: ٦٢)
(٢) ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام (ص: ٤٠)
(٣) شرح صحيح مسلم للشيخ ابن عثيمين (كتاب الأشربة - رقم الحديث ٢٠٤١)
(٤) الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي (٦/٤٧٩)
(٥) الثقات لابن حبان (٩/١٢٤). والخرباش: ما كُتب منه بطريقة سيّئة. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١/٦٢٤)

٣٤. أبو سهل الحلواني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٣هـ) من العلماء، إلا أن خطه في نهاية القبح[١].

٣٥. شيخ الشافعية أبو إسحاق الشيرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٦هـ) كان خطه في غاية الرداءة[٢].

٣٦. القاضي الفقيه أبو منصور الصباغ -رحمه الله تعالى- (ت ٤٩٤هـ) كان خطه رديئًا[٣]

٣٧. الحافظ ابن ماهويه الطبسي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٩٤هـ) كان رديء الكتابة[٤].

٣٨. عبد الله بن مرزوق الهروي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٧هـ) سمع الكثير، وكان موصوفًا بالحفظ والمعرفة، وكان خطه رديئًا[٥].

٣٩. ابن خذاذاد الحداد -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٢هـ) كان فقيهًا مناظرًا أصوليًا، وكان خطه رديئًا[٦].

٤٠. ابن اليتيم الأندرشي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨١هـ) كان من أئمة أهل القرآن والتجويد والنحو. كتب الكثير على رَداءة خطه[٧].

٤١. المقرئ ابن الخُلوف الحِمْيَرِي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٤هـ) وكان له حظ من العربية، ورواية الحديث، لكنه رديء الخط[٨].

---

(١) معجم الأدباء (١/٤٥٤)
(٢) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣٢/١٥٦)
(٣) الوافي بالوفيات (٨/٧٩)
(٤) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣٤/١٨٤)
(٥) الوافي بالوفيات (١٧/٣٢٢) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٩/٣٠٠)
(٦) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٦٥)
(٧) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (١/٦١٣)
(٨) التكملة لكتاب الصلة (٣/١٢٦)

٤٢. المقرئ ابن سكر الصدفي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٦هـ) كان خطه ضعيفًا[1].

٤٣. أبو العباس الحربي الملقب بالسكر -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٠هـ) كان عالمًا بالتفسير والقراءات، كتب الكثير بخطه، وكان خطه رديئًا[2].

٤٤. عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلاني -رحمهما الله تعالى- (ت ٦٠٥هـ) كان فقيهًا حافظًا، وكان خطه رديئًا[3].

٤٥. المحدث عبد القادر الرهاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٢هـ) كثير التصنيف، إلا أنه كان رديء الكتابة، لم يتقن وضع الخط[4].

٤٦. أبو العباس ابن العشاب -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٧هـ) كان كثير الشغف بالعلم، ومداومة سهر الليل من أجله، على إفراطِ رداءةِ خطه[5].

٤٧. المحدِّث ابن الخباز الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٣هـ) خرَّج لنفسه «مشيخة» عن أكثر من ألفي شيخ، وخطه سقيم[6].

٤٨. أبو إسحاق إبراهيم الجزْري -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٩هـ) العالم المتفنن، ذو التصانيف الكثيرة، غير أنه لم يُخْرِجها من مُسَوَّداتها؛ ولرَدَاءة خطه ودقته لم يخرجها غيره منها[7].

٤٩. صفي الدين الهندي الأرموي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٥هـ) كان خطه في غاية الرداءة، حتى أنه قال: وجدت في سوق الكتب كتابًا بخط ظننته أقبح

---

(١) المصدر السابق (١٣٧/٤)
(٢) بغية الطلب في تاريخ حلب (٧٦٤/٢)
(٣) تاريخ الإسلام ت تدمري (١١٩/٤٣)
(٤) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٧١/٢٢)
(٥) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٦٨٨/١)
(٦) سلم الوصول إلى طبقات الفحول (٣٠٦/١)
(٧) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (٢٧٨/١)

من خطي، فغالَيت في ثمنه واشتريته؛ لأحتج به على من يدَّعي أن خطي أقبح الخطوط، فلما عُدت إلى البيت وجدته بخطي القديم[١].

٥٠. كان رجل فقيه لم يُسمَّ، وكان خطه في غاية الرَّداءة، فكان الفُكَهاء يَعيبونه بخطه، ويقولون: لا يكون خط أردأ من خطك! فيضجر من عَيبهم إياه! فمر يومًا بمجلد يُباع، فيه خط أردأ من خطه، فبالَغ في ثمنه، وجاء به؛ ليَحتجَّ عليهم، فتصفَحوه، وإذا في آخره اسمه، وأنه كتبه في شبابه! فخجل من ذلك[٢].

٥١. ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) كان خطه في غاية التعليق والإغلاق، وكان ابن رُشَيِّق إذا عزَب شيء من الخط على الشيخ نفسِه استخرجه ابن رُشَيِّق[٣].

٥٢. العلامة الأديب المؤرخ الطبيب ابن الأكفاني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ) قال عنه تلميذه الصفدي: لم أرَ شيئًا يُعوِزه من كمال أدواته، إلا أن عربيته كانت ضعيفة، وخطه أضعف من مرضى مارِسْتانه[٤].

٥٣. ابن بهادر الزّركشي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٤هـ) كان خطّه ضعيفًا جدًا، قلّ من يُحسن استخراجه[٥].

٥٤. المحدث ابن مُثَبِّت الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٣هـ) وكان خطه ردِيًا[٦].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٦٣/٩) والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٢٦٢/٥)
(٢) الأذكياء (ص: ١١٣). لم يُسمِّه ابن الجوزي. وهذه القصة متوافقة مع التي قبلها، وهي سابقة لها بأكثر من مئة وعشرين سنة!
(٣) البداية والنهاية ط هجر (٥١٠/١٨) وتاريخ ابن الوردي (٢٧٧/٢). وانظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص: ٢٣)
(٤) أعيان العصر وأعوان النصر (٢٢٩/٤). والمارِستان هو: المستشفى.
(٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٥٧٢/٨)
(٦) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٥١/٢)

٥٥. الحجيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٦هـ) الملقب بالقطعة، كان من أكبر الحنفية معرفة باستحضار الفروع، وكان خطه رديئًا إلى الغاية، بحيث أنه إذا أراد أن يكتب يُنقط له رسم الكتابة(١).

٥٦. ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) قلمه لا يتوقف، فتكاد كلماته تتشابك. ويصِف ابن حجر بنفسه خطَّه قائلًا: خطي تعسُرُ القراءة منه غالبًا على مَنْ لم يكن مِنْ أهل الحديث(٢).

٥٧. الأديب مصطفى صادق الرافعي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٦هـ) كان خطه سيئًا لا يُقرأ، حتى قال تلميذه العريان: وإن خَطَّه لأَرْدَأُ خط رأيتُ في العربية(٣).

علم الحديث والرواية

٥٨. حماد بن أبي سليمان -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٠هـ) كان الغالب عليه الفقه، ولم يُرزق حفظ الآثار(٤).

٥٩. حَفْص بن سليمان -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٠هـ) قارئ أهل الكوفة، وكان أعلم أصحاب عاصم بقراءته. قال الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ): وكان ثبْتًا في القراءة واهيًا في الحديث؛ لأنه كان لا يتقن الحديث، ويتقن القرآن ويجوِّده(٥).

---

(١) إنباء الغمر بأبناء العمر (٣١/٣) والدارس في تاريخ المدارس (٤٠٥/١)
(٢) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١٠١٩/٣) وانظر تجربة أحد النُّسَّاخ في مقالات الطناحي (٧٢/١)
(٣) حياة الرافعي للعريان (ص٢٨)
(٤) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١٣٧/١)
(٥) ميزان الاعتدال (٥٥٨/١)

٦٠. البويطي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣١هـ) قال عنه الإمام أحمد: ما أذكى البويطي، ولكن ليس له علم بالحديث[١].

٦١. أبو حامد الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ) كان يقول: بضاعتي من الحديث مُزجاة[٢].

٦٢. الحافظ أبو جعفر الهمذاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣١هـ) قال عنه ابن السمعاني: ما أعرف أن في عصره أحدًا سمع أكثر منه، وما كان له كبير معرفة بالحديث[٣].

٦٣. ابن نعمان النسفي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٧هـ) أحب الحديث وطلبه، ولم يرزق فهمه. وقد صنف قريبًا من مئة مصنف، ولكن فيها أوهام كثيرة خارجة عن الحد[٤].

٦٤. الزمخشري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٨هـ) قال عن نفسه: العلم مدينة؛ أحد بابيها الدراية، والثاني الرواية، وأنا في كلا البابين ذو بضاعة مزجاة، ظلّي فيه أقلص من ظلّ حصاة[٥]. ولما ردَّ حديثًا صحيحًا قال عنه الحافظ ابن حجر: هذا إفراط منه في الجهل بالمنقول[٦].

٦٥. البيضاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩١هـ) مع علمه بالنحو والصرف، واللغة، والفقه الشافعي، والأصول، إلا أنه مُزجى البضاعة في علم الحديث[٧].

---

(١) طبقات الفقهاء الشافعية (٦٨٤/٢)
(٢) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (١٢٦/٦) والعقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ١١٧)
(٣) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٥٢/٣٦)
(٤) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١١٨٠)
(٥) معجم الأدباء (٢٦٩١/٦)
(٦) الكافي الشاف لابن حجر (ص ١٤٤ - ١٤٥)
(٧) تقويم اللسانين - تقي الدين الهلالي (ص: ٢٥)

٦٦. ابن أبي الحمراء الكتاني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٨هـ) درّس الحديث، فصار صغار الطلبة يُحْصُون تصحيفاته وأوهامه. وكان يقول: ولَّوْنا ما يَضحك فيه الصبيان منا -يعني درس الحديث- ومنَعُونا ما نَضحك فيه على الأشياخ -يعني درْس الفقه-؛ لأنه كان فيه ماهرًا(١).

٦٧. السراج ابن الملقن -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٤هـ) قال عنه تلميذه ابن حجر -والتلميذ أعرف بشيخه-: ولم يكن في الحديث بالمُتقن، ولا له ذوق أهل الفن(٢).

علم القراءات

٦٨. المقرئ الدارَقَزّي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٨هـ) أسنَدُ مَن بقي في القراءات، ومع ذلك فلم يكن ماهرًا بها(٣).

٦٩. ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) كتب بخطّه ما نصُّه: وبضاعتي في هذا الفنِّ مُزْجَاة(٤).

علم الفقه

من جميل العبارات قولهم: العلوم كلها أبازِيْرُ للفقه(٥).

ولذا قال أبو المظفر السمعاني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٩هـ): الفقه صعب

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٩٠/٤)

(٢) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس (٣١٥/٢) وقد تعقب الشوكانيُ ابنَ حجر، فقال: وفي هذا الكلام من التحامُل ما لا يخفى على منصف؛ فكُتُبه شاهدة بخلاف ذلك. انظر: البدر الطالع (٥١٠/١)

(٣) العبر في خبر من غبر (٥٤/٣)

(٤) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٩٥٤/٢)

(٥) نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف (ص: ١٩٦)

مَرامه، شديد مِراسه.. وعندي أن الفقه أولى بهذا النظر من النحو، حيث قال قائلهم: «النحو صعب وطويل سُلَّمه»(١).

٧٠. المحدث ابن شاهين -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٥هـ) صنّف ثلاث مئة وثلاثين مصنّفًا، ولكنه كان لا يَعرف الفقه(٢).

٧١. عز الدين ابن جماعة -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٧هـ) بلغ شيوخه ألفًا وثلاث مئة نفس، ولكنه كان قصير الباع في الفقه(٣).

علم الفرائض

هذا العلم يعتبر بابًا من أبواب الفقه.

قال الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ): الفرَضيون داخلون في الفقهاء، إذ هو كتاب من كتب الفقه(٤).

ولكن لصعوبته أفردوه بمصنفات، واختص به أقوام من العلماء، ووصفوه بـ: جوهر العلم، وبـ: نصف العلم.

قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): عِلم الفرائض مِن عِلم الخاصة، حتى أن كثيرًا من الفقهاء لا يعرفه(٥).

وقال المرعشي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤٥هـ): وهو أصعب أبواب الفقه، وصعوبته أحد وجوه تسميته نصفَ العلم(٦).

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣٤٥/٥)
(٢) تاريخ بغداد ت بشار (١٣٣/١٣) وتاريخ دمشق لابن عساكر (٥٣٧/٤٣)
(٣) طبقات الحفاظ للسيوطي (ص: ٥٣٦)
(٤) زغل العلم (ص: ٤٥)
(٥) الاستقامة (٥٨/١)
(٦) ترتيب العلوم للمرعشي (ص: ١٦٢)

وفي هذا عزاء لمن أخفق فيها، وأعياه ذهنه عن إتقانها؛ لأن في الفرائض مسائل عجيبة لطيفة، وأجوبة غريبة، يُشكِل على المعلمين الصعود على أعلى معارجها[١].

بل قال المرعشي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤٥هـ): وهو أصعب أبواب الفقه.. والماهر في هذا الفن يُعظِّمه الناس ويرغبون فيه، وإن خلا عن معرفة سائر الفنون[٢].

كما أنه عِلم ينسَى سريعًا. والمسائل الرقمية تحتاج مراجعة دائمة، ولذلك صار يعدل نصف العلم؛ لمشقة ضبطه، ودوام إتقانه.

قال ابن خلدون -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٨هـ) عن عائدة هذا العلم المتفرِع من الفقه: وهو وإن لم يكن متداوَلًا بين النّاس، ولا يفيد فيما يتداولونه من وِراثتهم؛ لغرابته وقلّة وقوعه، فهو يفيد المِران، وتحصيل الملَكة[٣].

وإليك موقفًا عجيبًا، في تلك المسألة التي استعصَتْ على المحدَّث المُلْهَم عمر بن الخطاب ﷺ (ت ٢٣هـ) ألا وهي مسألة الكَلالة في المواريث. فقد خطب يوم الجمعة، فقال: إني لا أدَع بعدي شيئًا أهمَّ عندي من الكَلالة، ما راجعتُ رسول الله ﷺ في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلَظَ لي في شيء ما أغلظَ لي فيه، حتى طعن بإصبعه في صدري، فقال: «**يا عمر! ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء؟**»[٤]

والأعجب أنه لم يكتفِ بذلك، بل مِن حرصه أمر أخته حفصة -رضي الله عنها- أن تسأل النبي ﷺ عنها.. فقال لها: «**عمر أمركِ بهذا؟ ما أظنه أن يفهمها**»[٥].

(١) دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (١٦/٣)
(٢) ترتيب العلوم للمرعشي (ص: ١٦٢)
(٣) تاريخ ابن خلدون (٥٧٢/١)
(٤) صحيح مسلم (٥٦٧)
(٥) مصنف عبد الرزاق الصنعاني (١٩١٩٤)

ومن تخصص في علم الفرائض: أبو تمام كامل بن ثابت الفرضي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٨هـ) فله في الفرائض تصانيف، وله في جامع عمرو حلقة؛ لإقراء الفرائض، وكان يقول: أنا أدرِّس الفرائض والحساب من ستين سنة(١).

ومن استعصى عليه علم الفرائض:

٧٢. محمد بن يوسف الفريابي -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٢هـ) رأى رؤيا، ففُسرت أنه يُصيب من العلم كله غير الفرائض؛ فإنها جوهر العلم. فكان الفريابي كذلك؛ لم يُجِدِ النظر في الفرائض(٢).

٧٣. الألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) قال عنه مؤلف كتاب «تذكرة أولي النُّهى»: جرى في الحديث معه، أن أبديتُ أَسَفي في كون بعض المشكلات في قسمة المواريث، ترِد من سوريا إليَّ. فذكر -رحمه الله- أنه لم يتبحر في علم الفرائض والمواريث(٣).

علم الحساب والرياضيات

٧٤. السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) قال عن نفسه: وأما علم الحساب؛ فهو أعسرُ شيء عليَّ، وأبعَدُه عن ذهني، وإذا نظرتُ إلى مسألة تتعلق به، فكأنما أحاول جبلًا أحمله(٤).

فعلَّق الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ) قائلًا: ما اعترف به من صعوبة علم الحساب عليه، لا يدل على عدم الذكاء؛ فإن هذا الفن لا يُفتح فيه على ذكي إلا نادرًا(٥).

---

(١) معجم السفر (ص: ٣٤٢)
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٢٧/٥٦)
(٣) تذكرة أولي النهى والعرفان - إبراهيم بن عبيد (٣٣٠/٨)
(٤) تاريخ الخلفاء (ص: ٧) وحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (٣٣٩/١)
(٥) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٣٣٢/١)

٧٥. الأديب الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) قال عن نفسه: وجدتُ في الرياضيات مصيبة تهون معها المصائب، وتُستسهَل المصاعب؛ هي الجذر التكعيبي. ولقد مرضتُ بعد ذلك حتى أشرفتُ على الموت.. وغرقتُ في البحر حتى عاينُت الهلاك.. وظُلمتُ وأوذيتُ ومرّت بِيَ الأهوال، ولكني لم أجد أشدّ ولا أصعب من «الجذر التكعيبي» الذي يصل الآن التلميذ إلى جوابه، بكبسة من إصبعه على زرٍ في علبة![1]

علم المنطق

هذا العلم حرّمه أعيان الأجلّاء، كابن الصلاح، والنووي، والسيوطي، وابن نجيم، وابن تيمية، وتلميذه ابن القيّم[2].

أَقَـرّرُ فيـه النهـيَ عَـنْ عِلـمِ منطـقِ   لمـا قالـه الأعـلامُ مـن ذم شـكلِهِ[3]

قال الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) والمنطق نفعه قليل، وضرره وَبيل، وما هو من علوم الإسلام.. وأما الثواب فأيِّس منه، ولا تأمن العقاب[4].

٧٦. أبو عمرو ابن الصلاح -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٣هـ) سأل شيخًا له أن يقرأ عليه شيئًا من المنطق، فأجابه إلى ذلك، وتردَّد إليه مدة، فلم يُفتح عليه فيه بشيء[5].

٧٧. السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) قال عن نفسه: إن بضاعتي في علم الكلام مزجاة[6].

---

(١) ذكريات - علي الطنطاوي (٣٤٤/٢)
(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٢١٥/٤)
(٣) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٥٧٩)
(٤) زغل العلم (ص: ٤٣)
(٥) وفيات الأعيان (٣١٤/٥)
(٦) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٦٨/٤)

وقال: كنتُ في مبادئ الطلب قرأتُ شيئًا في علم المنطق، ثم ألقى الله كراهته في قلبي. وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه، فتركته لذلك، فعوضني الله -تعالى- عنه علم الحديث(١).

إيقاظة:

بقيَتْ ثلاثة علوم، أحسبُها مستعصية على السابقين واللاحقين، ولكني لم أجد في تراجم الرجال من نصَّ على استعصائها عليه، لكن الواقع يُثبِتُ ذلك، والعلوم هي:

أ. أصول الفقه.

ب. علم العِلل في الحديث.

ت. ثلاثة أبواب في الفقه: الحيض، والربا، والمعاملات المعاصرة، ونوازلها المستجدة.

فأما الحيض؛ فيكفيك أن الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ) قد قال عنه: كنت في كتاب الحيض تسع سنين حتى فهمته(٢).

وهذا دَيدنه وسائر الأئمة الربانيين؛ الأناة والمصابرة في فهم عسير مسائل الفقه. ولذا قال أحمد: رُبما مكثتُ في المسألة ثلاث سنين، قبل أن أعتقد منها شيئًا(٣).

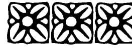
وكذا قال النووي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ): واعلم أن باب الحيض من الأبواب العويصة(٤).

---

(١) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (٣٣٩/١)
(٢) طبقات الحنابلة (٢٦٨/١)
(٣) مناقب الإمام أحمد (ص: ٣٥٩)
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (٧٨/٣)

وأما الربا؛ فيكفيك أن في قصة عمر رضي الله عنه بشأن الكلالة، أنه قال: «ثلاث لأنْ يكون رسول الله ﷺ بيَّنهن أحب إليَّ من الدنيا وما فيها؛ الكلالة، والربا، والخلافة»(١).

وأما نوازل المعاملات؛ فقد استعصى بعضها على كثير من علماء عصرنا، وأتقنها أفراد من طلبة العلم المتمكنين الجامِعين بين الفقه الشرعي والاقتصادي. و ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].



(١) سنن ابن ماجه ت الأرناؤوط (٢٧٢٧)

١٧. التخصص غير الشرعي

هل يمنع من التوسع في العلم الشرعي؟! (نماذج إبداعية)

لا واللهِ لا يَمنع، بل هذا هو الكمال، فالعلم رحِمٌ بين أهله، وهم بين مفيد ومستفيد، وكلهم للحق مُريد. ومن يَطمح للأعلى فهو في العلو يرقى، و ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٤].

قال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): والناس في العلم طبقات، موقعُهم من العلم بقدْر درجاتهم في العلم به. فحُقَّ على طلبة العلم بلوغُ غاية جهدِهم في الاستكثار من علمه، والصبرُ على كل عارض دون طَلَبِه[١].

بل إن المرء النهِمَ يُفيد من كل أحد، حتى ولو كان عاميًا.

وتأمل موقف ابن عباس -رضي الله عنهما- حيث يحكي عن نفسه قائلًا: كنتُ لا أدري ما ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ حتى أتاني أعرابيان، يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فَطَرْتُها، يقول: أنا ابتدأتُها[٢].

وسمع أعرابيّ ابن عباس وهو يقرأ: ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] فقال: والله ما أنقذهم منها وهو يريد أن يدخلهم فيها؛ فقال ابن عباس: خُذْها من غير فقيه[٣].

---

(١) الرسالة للشافعي (١٩/١)

(٢) فضائل القرآن للقاسم بن سلام (ص: ٣٤٥)

(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة (١٤٩/٢)

لكنَّ ثَمَّت سَمتًا غير مجحود، بل هو موجود، ألا وهو أن التخصص هو الغالب على العلماء، بل إنك واجِدٌ من لا يُحسِن إلا فنًا واحدًا، ولا عيب، ولا ضيرَ.

وفي ترجمة النحوي ابن عصفور الإشبيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٣هـ) قالوا: لم يكن عنده ما يؤخذ عنه غير النحو[١].

وهذا يوافق مقولة ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ): من مَالَ بطبعِه إلى علمٍ ما -وإن كان أدنى من غيره- فلا يُشغلها بسواه[٢].

فلا بد -إذًا- من التنوع في العلم، مع التخصص الشخصي الأغلب.

وقد مرَّ آنفًا الكلام الصريح اللطيف لأديب الكبير ياقوت الحموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ) ومما قاله-: ولو اشتغل الناس كلهم بنوع من العلم واحد لضاع باقيه، ودرَس الذي يليه[٣].

وانظر إلى حمّاد بن سلمة -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٧هـ) حيث كان عالمًا بالنحو، فجاءه سيبويه؛ ليكتب عنه الحديث، فكان فيما كتبه: صعِد النبي ﷺ الصفاء. فقال حماد: يا فارسي لا تقل الصفاء؛ لأن الصفا مقصور. فلما فرغ من مجلسه كسر القلم، وقال: لا أكتب شيئًا حتى أُحكِمَ العربية![٤].

ولربما كان هذا المشتغل بعلوم الآلة - مثلًا- أنفع ممن يُغرِق بعلوم ولو كانت شرعية، بل إنه - أعني الأول- لو اشتغل بغيرها لما نفع.

ومن دُرَر أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) قوله: قد يكون الرجل عاجزًا عن الأفضل، فيكون ما يقدر عليه في حقه أفضل له[٥].

وقال - وما أحسن ما قال-: مِن الناس مَن يرى أن العمل إذا كان أفضل في حقه

---

(١) بغية الوعاة (٢/٢١٠) والوافي بالوفيات (٢٢/١٦٥)

(٢) الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم (ص: ٢٢)

(٣) معجم الأدباء (١/٩)

(٤) المعارف (١/٥٠٣) ومجالس العلماء للزجاجي (ص: ١١٨)

(٥) مجموع الفتاوى (٢٣/٦٣)

لمناسبته له، ولكونه أنفع لقلبه، وأطوع لربه: يريد أن يجعله أفضل لجميع الناس، ويأمرهم بمثل ذلك[١].

ثم وضع قاعدة متينة مفيدة، فقال: خير الأعمال ما كان لله أطوع، ولصاحبه أنفع[٢].

وإنك لَوَاجِدٌ طبيبًا له حضور لدروس العلم، أو شُرَطيًا له مكتبة بالعلوم عامرة، أو مهندسًا له في البحث والإفادة باع وإمتاع. و«ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا».

وفي ترجمة ابن النَّفيس الطبيب الأشهر -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٧هـ) أنه كان فقيهًا على مذهب الشافعي، وصنف شرحًا على التنبيه. وصنَّف في أصول الفقه، وعلم الحديث، والنحو، وعلم البيان[٣].

ومنهم من لم يَزَل مُكبًا على الكتب التاريخية، صارفًا في عكاظ المطارَحات نقدَ عمره، بينما تجده مُهتبِلًا سحابة أيامه؛ للنَّهْل من سائر علوم الشريعة؛ لِيَعبُدَ الله على بصيرة.

فليحذر المتخصص في غير الشريعة أن يكون جاهلًا بأحكام دينه.

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): ومنهم من يتشاغَل بالنحو وعِلَلِه فحسب.. وقد رأينا في مشايخنا المحدثين من كان يُسأل عن مسألة في الصلاة، فلا يَدري ما يقول! وكذلك القراء! وكذلك أهل اللغة والنحو![٤]

تساؤل وجوابه:

أيهما المقدَّم؛ المتخصِّص أم المتفنِّن؟!

---

(١) السابق (١٠/٤٢٨)

(٢) الجواب الصحيح (٢/٣٧٤) ومجموع الفتاوى (٢٢/٣١٣) و (٢٥/٢٨٢)

(٣) تاريخ الإسلام ت بشار (١٥/٥٩٧) وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨/٣٠٥)

(٤) صيد الخاطر (ص: ٣٢٢)

خذ الجواب المحكم من إمام اللغة الخليل بن أحمد الفراهيدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٠هـ) حيث يقول: إذا أردت أن تُعلم العلم لنفسك، فاجمع من كل شيء شيئًا، وإذا أردت أن تكون رأسًا في العلم، فعليك بطريق واحد، ولذلك قال الشعبي: ما غلبَني إلا ذو فن[1].

وعزِز الجواب بما قاله أبو حيان النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٥هـ): وأما صاحب تَنَاتيف، وينظر في علوم كثيرة، فهذا لا يمكن أن يَبلغ الإمامة في شيء منها. وقد قال العقلاء: ازدحام العلوم مضلة للفُهوم، ولذلك تجد من بلغ الإمامة من المتقدمين في علم من العلوم، لا يكاد يشتغل بغيره[2].

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): أما العالِم، فلا أقول له: اشبعْ من العلم، ولا اقتصِرْ على بعضه، بل أقول له: قدِّم المهم.. فإن وصل، فقد أعَّد لكل مرحلة زادًا، وإن مات قبل الوصول، فنيَّته تسلك به[3].

وهذا ابن الجوزي الذي يوصيك بالتفنن لا التخصص؛ هو مطبِّق لما يقول، وانظر ماذا يقول عن نفسه: فإني - بحمد الله - لما كان أكثر اشتغالي بعلوم الحديث لم يكَدْ يُذكر لي حديث إلا ويمكنني أن أقول: صحيح أو حسن أو مُحال، ولي في كتبي الوعظية - بحمد الله - أعمال عجز عنها مَن تقدَّم. وإنما أُحدِّث بهذه النعم شكرًا، لا عُجبًا[4].

ولكن اعلم أن التفنن يكون على ثلاث مراحل؛ فصَّلها الغزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٥هـ) وما أجمل ما فصَّل! حيث قال: ما من عِلم إلا وله اقتصار، واقتصاد، واستقصاء. فالاقتصار في الحديث؛ فليس يلزمك حفظ

---

(١) معجم الأدباء (٢/١)
(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية (١٢٥/٢)
(٣) صيد الخاطر (ص: ١٨٣)
(٤) القُصَّاص والمذكِّرين (ص: ٣٧٣)

متون الصحيحين، ولكن تُحصله تحصيلًا؛ تقدر منه على طلب ما تحتاج إليه عند الحاجة.

وأما الاقتصاد فيه؛ فأن تضيف إليهما ما خرج عنهما، مما ورد في المسنَدات الصحيحة.

وأما الاستقصاء؛ فما وراء ذلك، إلى استيعاب كل ما نُقل من الضعيف والقوي، والصحيح والسقيم، مع معرفة الطرق الكثيرة في النقل، ومعرفة أحوال الرجال وأسمائهم وأوصافهم(١).

نماذج لعلماء وطلبة علم معاصرين كانوا في تخصص غير شرعي:

هل يوجد علماء أو طلبة علم معاصرين، كانوا في تخصص غير شرعي، ثم توجهوا للعلم الشرعي، فبرَّزوا، واشتهروا بالعلم؟

الجواب: نعم؛ وهم كثير - بحمد الله- وخذ منهم أُولاءِ:

١. الأديب الشيخ علي الطنطاوي = قانون.

٢. معالي الشيخ صالح آل الشيخ = أمضى سنوات في الهندسة، ثم في أصول الدين.

٣. معالي الشيخ صالح بن حميد = درس الطب في إيران، وقطع الدراسة وعاد.

٤. إمام الحرم المكي د. ماهر المعيقلي = رياضيات.

٥. إمام الحرم المدني د. عبدالباري الثبيتي = فيزياء.

٦. المحدث يحيى بن عبد العزيز اليحيى = فيزياء، ثم الشريعة انتسابًا.

٧. محمد إسماعيل المقدم = طب.

---

(١) إحياء علوم الدين (٤٠/١)

٨. المقرئ د. عبدالله الجارالله = طبيب.

٩. د. حسام سالم: مبرمِج المكتبة الشاملة = دكتوراه في الطب.



١٨. التخصص الشرعي هل يمنع من التوسع في غير العلم الشرعي؟! (نماذج إبداعية)

لا واللهِ! ولا هذا يَمنع، بل يَرفع.

ولكن أين تجد عالِمًا قد ضرب في كل فن من العلم سهمًا؟!

قد لا تجد هذا الصنف النادر إلا في كتاب، أو قد وَارَاهُ التراب.

وقد مر بك في ثنايا هذا الكتاب سيَر عطرة، ونماذج نضِرة، تحفِّز الصاعدين لسُلَّم الإبداع. فقد أتاك -مثلًا-:

- العلماء الأذكياء الذين أبدعوا، فأتقنوا علومًا كثيرة.
- علماء بالشريعة يتقنون لغات أعجمية.
- علماء بالشريعة مخترِعون.

وقد كان الدارقطني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٥هـ) إذا ذُوكِرَ أيَّ نوعِ من العلم، وُجد عنده منه نصيب وافر. وقد دُعي ليلةً لوليمة، فجرى شيء من ذكر الأَكَلة، فاندفع يورِد أخبارهم ونوادرهم، حتى قطع أكثر ليلته بذلك[١].

وهذا أبو الزناد -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠هـ) إذا دخل مسجد رسول الله ﷺ يكون معه الأتْباع مثل ما مع السلطان، بين سائل عن حديث، وبين سائل عن فقه، وبين سائل عن فريضة، وبين سائل عن شعر أو نحو[٢].

(١) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٣٥/١٢)

(٢) مسند الموطأ للجوهري (ص: ٤٣٤)

وهذا فخر الدين ابن محبوب -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٢هـ) سمع من ابن تيمية، وكان ذكيًا يَتعانَى كل شيء يراه، حتى الخياطة والنجارة والبناء(١).

فالكمال إنما هو بالضرب من كل غنيمة بسهم تفنُّنًا بالعلوم، وتحصيل العُلوم تكاملي، فالعالم بالشريعة محتاج لعلوم الآلة.

قال حماد بن سلمة -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٧هـ): مَثل الذي يطلب الحديث، ولا يعرف النحو، مَثل الحمار عليه مِخلاة بلا شعير(٢).

وإنك كلما استعرضت كتب التراجم وجدتَ العلماء قاطبةً يأخذون من كل غنيمةِ علمٍ بسهم، حتى إن العالِم تجد له مؤلفات في بضعة فنون، بل تراهم يقولون عن بعض الأئمة الفطاحلة العباقرة: إذا تكلم في فن ظننتَ أنه لا يُحسِن غيره!.

ومن جميل السيَر أنهم قالوا عن عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى- (ت ١٠١هـ): ما زال يتعلم مقادير الشمس وهو خليفة، حتى مات(٣).

فإذا أوتي المرء ذكاءً وشغفًا، فلا يُقعِده كسله عن المضي في شتى العلوم، ولا يمكث في علم أدنى، وقُدراته تؤهله للأعلى، بل يطمح ويطمع، ولا يَخْنَع ويَقْنَع.

ولذا قال ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) مَن شَغل نفسه بأدنى العلوم، وترك أعلاها وهو قادر عليه، كان كزارِع الذُّرة في الأرض التي يَجود فيها البُرُّ(٤).

وقد استعاذ أبو عمرو الداني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٤هـ) من هذه الحال

---

(١) إنباء الغمر بأبناء العمر (٤٠٧/١)
(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢٦/٢)
(٣) مشيخة الآبنوسي (١٥٧/٢)
(٤) الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم (ص: ٢٢)

فقال: أعاذنا الله وإياكم من القنوع في العلم بالتقصير، والرِّضى فيه بترك الجد والتشمير(١).



(١) التحديد في الإتقان والتجويد لأبي عمرو الداني (ص: ١٧٨)

١٩. إحصائية لمن أبدعوا حين رحلوا وجمعوا عن ألف شيخ فأكثر

إذا كثرت شيوخ العالِم كثُرت رحلاته، وليس مَن شيوخه مئةٌ كمَنْ شيوخه ألف.

وإليك الآن تعدادًا لخمسين من العلماء الذين بلغ مشايخهم ألف شيخ فما فوق:

الرقم	اسم الشيخ العالِم	عدد شيوخه
١.	عبد الكريم السمعاني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٢هـ)(١)	٧٠٠٠
٢.	أبو الفضل السُّلاميّ -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٠هـ)(٢)	٤٠٠٠
٣.	زنجويه السّمّان -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٥هـ)(٣)	٤٠٠٠
٤.	أبو الفتيان دهستان الرواسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٣هـ)(٤)	٣٦٠٠

(١) تاريخ الإسلام ت تدمري (١٢١/٣٩)

(٢) المصدر السابق (٤٠٧/٣٧)

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢١/٩)

(٤) تذكرة الحفاظ للذهبي (٢٤/٤)

عدد شيوخه	اسم الشيخ العالِم	الرقم
٣٤٠٠	ابن النّجّار البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٣هـ)(١)	٥.
٣٠٠٠	ابن الخفاف -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٣هـ)(٢)	٦.
٢٠٠٠	الحاكم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٥هـ)(٣)	٧.
٢٠٠٠	ابن حِبّان -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٤هـ)(٤)	٨.
٢٠٠٠	البرزالي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٩هـ)(٥)	٩.
١٧٠٠	أبو عبد الله ابن مَنْده -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٥هـ)(٦)	١٠.
١٧٠٠	أبو مسعود الرازيّ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٠هـ)(٧)	١١.
١٦٠٠	عبد الله بن المبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ)(٨)	١٢.
١٣٢٥	الطبراني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٠هـ)(٩)	١٣.

(١) تاريخ الإسلام (٢١٩/٤٧) ولكن في الدر الثمين في أسماء المصنفين (ص: ١٥٥) أن عددهم ١٠٠٠٠ (!)
(٢) مجمع الآداب في معجم الألقاب (٣٧٨/١)
(٣) المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور (ص ١٦) وتاريخ الإسلام (١٢٣/٢٨)
(٤) فهرس الفهارس (١١٢٧/٢)
(٥) البداية والنهاية ط هجر (٤١٢/١٨)
(٦) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٦/١٧)
(٧) تاريخ الإسلام ت تدمري (٥١/١٩)
(٨) الإرشاد في معرفة علماء الحديث للخليلي (٢٧٢/١)
(٩) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٣١٠/٤)

الرقم	اسم الشيخ العالِم	عدد شيوخه
١٤.	ابن عساكر -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧١هـ)(١)	١٣٠٠
١٥.	القطب الحلبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٥هـ)	١٣٠٠
١٦.	عبد العزيز بن جماعة -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٧هـ)(٢)	١٣٠٠
١٧.	الدِّمْيَاطِيُّ -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٥هـ)(٣)	١٣٠٠
١٨.	القرّاب -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٩هـ)(٤)	١٢٠٠
١٩.	أبو عمر الطلمنكي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٩هـ)(٥)	١٢٠٠
٢٠.	الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ)(٦)	١٢٠٠
٢١.	عمر بن الحاجب -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٠هـ)(٧)	١١٨٠
٢٢.	محمد بن يونس الكديمي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٦هـ)(٨)	١١٦٠

(١) تاريخ الإسلام ت تدمري (٧٢/٤٠)
(٢) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٣٥٩/١)
(٣) طبقات علماء الحديث (٢٦٢/٤)
(٤) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (٤٠/٣)
(٥) العبر في خبر من غبر (٢٦٠/٢)
(٦) المعجم المختص بالمحدثين (ص: ٣٠٩)
(٧) فهرس الفهارس (١١٢٧/٢) وفي طبقات الحفاظ للسيوطي (ص: ٥٠٩):ولم يبلغ أربعين! فيا لله العجب!
(٨) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٠٢/١٣)

الرقم	اسم الشيخ العالِم	عدد شيوخه
٢٣.	يونس بن محمد المؤدب[(١)]	١٠٦٠
٢٤.	مسلم بنُ إبراهيم الأزديُّ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٢هـ)[(٢)]	١٠٠٠
٢٥.	أبو الحجاج المِزي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٢هـ)[(٣)]	١٠٠٠
٢٦.	صاحب (الكامل) ابن عدي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٥هـ)[(٤)]	١٠٠٠
٢٧.	ابن تهيون الفارسيّ (بلبل) -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٥هـ)[(٥)]	١٠٠٠
٢٨.	ابن مرزوق العجيسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨١هـ)[(٦)]	١٠٠٠
٢٩.	أحمد بن جعفر الوكيعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٤هـ)[(٧)]	١٠٠٠

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/٢٢١)
(٢) من عجائب هذا الرجل ما قاله فيه أبو داود: ما رحل مسلم إلى أحد، وكتب عن قريب من ألف شيخ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/٣١٥)
(٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٢/١٣٣)
(٤) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٦/١٥٤)
(٥) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣٠/٣٧٥)
(٦) إنباء الغمر بأبناء العمر (١/٢٠٦) والمجمع المؤسس للمعجم المفهرس (٢/٦٣٨)
(٧) طبقات علماء الحديث (٣/٢٣٣)

الرقم	اسم الشيخ العالِم	عدد شيوخه
٣٠.	أبو صالح المؤذِّن -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٠هـ)(١)	١٠٠٠
٣١.	الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ)(٢)	١٠٠٠
٣٢.	سفيان الثوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٦١هـ)	١٠٠٠
٣٣.	ابن أبي دبار الغمري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٢هـ)(٣)	١٠٠٠
٣٤.	أبو داود الطيالسي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ)(٤)	١٠٠٠
٣٥.	ابن المحب السعدي الصالحي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٧هـ)(٥)	١٠٠٠
٣٦.	يزيد بن هارون -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٦هـ)(٦)	١٠٠٠
٣٧.	المرار بن حمويه -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٤هـ)(٧)	١٠٠٠

(١) البداية والنهاية ط هجر (٦٧/١٦)
فائدة: من إبداع أبي صالح المؤذن أنه جمع لنفسه «الأحاديث الألف» عن ألف شيخ. انظر المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور (ص: ١١٣)
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٨/٥٢)
(٣) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٦٠٧) ومرآة الجنان وعبرة اليقظان (٣٣٥/٢)
(٤) طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها (٥٠/٢)
(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٦٧/٥)
(٦) أخبار أبي حنيفة وأصحابه (ص: ٤٥)
(٧) الإرشاد في معرفة علماء الحديث للخليلي (٦٤٦/٢)

الرقم	اسم الشيخ العالِم	عدد شيوخه
٣٨.	أَبُو القاسم الأصبهاني البقّال -رحمه الله تعالى- (ت ٤٣٤هـ)[١]	١٠٠٠
٣٩.	محمد بن عبد الواحد الدقاق -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٦هـ)[٢]	١٠٠٠
٤٠.	ابن سيِّد الناس اليعمري -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٤هـ)[٣]	١٠٠٠
٤١.	فخر الدين عثمان التوزري -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٣هـ)[٤]	١٠٠٠
٤٢.	عبد المهيمن الحضرمي السبتي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ)[٥]	١٠٠٠
٤٣.	يعقوب بن سفيان الفَسَوي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٧هـ)[٦]	١٠٠٠

(١) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤٠٢/٢٩)
(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤٧٤/١٩)
(٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٤٧٧/٥)
(٤) تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ للذهبي (١٩٧/٤)
(٥) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (٣١٧/١) ودرة الحجال فى أسماء الرجال (١٧٣/٣)
(٦) البداية والنهاية ط هجر (٦٣٠/١٤). قال يعقوب عن نفسه: كتبت عن ألف شيخ وكسر. لكن قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٦٢/١٢): في صحة هذا نظر؛ فإن يعقوب ما كتب عن ألف شيخ، ولا شطر ذلك، وهذه مشيخته موجودة في مجلد لطيف.

الرقم	اسم الشيخ العالِم	عدد شيوخه
٤٤.	قطب الدين ابن القسطلاني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٧هـ)(١)	١٠٠٠
٤٥.	أبو الحسن الزوزني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥١هـ)(٢)	١٠٠٠
٤٦.	أبو علي الحنبلي الصوفي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ)(٣)	١٠٠٠
٤٧.	ابن المحبّ الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٧هـ)(٤)	١٠٠٠
٤٨.	رافع بن هجرس السلّامي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٤هـ)(٥)	١٠٠٠
٤٩.	ابن فهد المكّي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢١هـ)(٦)	١٠٠٠
٥٠.	عبد الله بن صالح العبيد -حفظه الله تعالى-(٧)	١٠٠٠

أرأيت كيف الهمم تكون؟! أرأيت كيف يقطعون أعمارَهم ليَحفظوا وليَحمُوا حمى دين ربهم؟!

والحمد لله أن رزقني هذا الإحصاء؛ ليكون دافعًا ورافعًا من الله لمن شاء.

---

(١) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (١٥٢/٤)

(٢) المصدر السابق (١٠٢/١٩) والبداية والنهاية ط هجر (٧٧٥/١٥)

(٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٣٣/٢)

(٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٢٠١/٨)

(٥) الدارس في تاريخ المدارس (٧٠/١)

(٦) المصدر السابق (١٤٥/١٠)

(٧) وهذا الأخير أعجبُهم عندي؛ لأنه معاصر، وليس بمعمَّر -بورك في عمره-. وقد أخبر هو عن نفسه في مقطع مرئي، وأنه رحل كثيرًا؛ لطلب الأشياخ من الهند حتى المغرب.

تنبيه:

ومع ذلك، فالأمر كما قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ): إذا جئنا إلى من زاد عدد شيوخهم على الألف، فأردنا استيعاب ذلك تعذّر علينا غاية التعذر، فإن اقتصرنا على الأكثر والأشهر بطل ادعاء الاستيعاب[١].

ويضيف الكتاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٢هـ) قائلًا: لكن ضعف الحال في القرن التاسع، وانقطع أو كاد في العاشر، وكل شيء إلى الله راجع[٢].

وقد كان للعلماء سياحات، ورحلات في شاسع المسافات؛ لتحصيل العلم الفائت، وانظر لذلك الشاب الذي يخاطب والدته، حين عزم على الارتحال في طلب العلم:

أقول لها والعيس تحدج للنوى أعِدِّي لفقدي ما استطعت من الصبر
سأنفق ريعان الشبيبة آنفًا على طلب العلياء أو طلب الأجر[٣]

وأما الآن فقد زال كثير من ذلك التنافس والتقاحُم في طلبه، ونُسي بعض هذا التزاحُم في نيل رُتَبه، وتقاعدت عنه الهمم إلى الغاية، فأخلدت إلى أرض شهواتها عن طلب الدراية والرواية، إلا ما رحم ربي:

كأن لم يكن بين الحجون وبالصفا أنيس ولم يسمُر بمكة سامرُ

لكن لا زال في الأمة خير كثير كالغيث العميم، وارجع للرقم (٤٠) في الجدول، لتجِدَه شاهدًا حاضرًا مشرِّفًا، ونموذجًا يكون قدوةً.

كما أنه بفضل الله -تعالى- ثم تيسيره هذه المواصلات، وهذه التقنيات، فقد تيسر تحصيل العلم تيسُّرًا فائقًا متسارِعًا، وما لم يُدرَك في أزمانٍ سلَفَتْ صار

---

(١) تهذيب التهذيب (٤/١)
(٢) فهرس الفهارس (١١٢٧/٢)
(٣) السلوك في طبقات العلماء والملوك (١٥٧/١)

يدرَك بلحظات، وهذه التقنيات والمخترعات نفعت، وعوّضت كثيرًا، فالحمد لله على فضله، ومزيد إنعامه.

المكثرون من الرحلة لعدد من البلدان ومُدَد رحلاتهم في تحصيل العلم:

١. المحدث الرحَّالة ابن المقرئ -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨١هـ) رحل إلى عشرين بلدًا[١].

٢. أبو عبد الله بن مَنْدَة -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٥هـ) بدأ رحلاته العلمية وعمره تسع عشرة سنة، وقد رحل إلى قرابة عشرين بلدًا متباعدة جدًا. قال الذهبي: ولم أعلم أحدًا كان أوسع رحلة منه[٢].

٣. ابن طاهر القيسراني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٧هـ) بلغ عدد البلدان التي رحل إليها؛ لتحصيل العلم اثنتان وأربعون بلدًا، أدناها مصر، وأقصاها أفغانستان، مرورًا بالعراق وإيران[٣].

٤. سعد الخير الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤١هـ) سار في أطول رحلة للعلم، ابتدأها من الأندلس إلى إقليم الصين، فتراه يكتب: سعد الخير الأندلسي الصيني[٤].

٥. إليك نماذج عجيبة لأطولِ مُدَدٍ أمضَوها، ومسافات قطعوها في رحلاتهم العلمية:

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٦/٣٩٨)
(٢) المصدر السابق (١٧/٢٩)
(٣) انظر: المصدر السابق (١٩/٣٦١)
(٤) المصدر السابق (٢٠/١٥٨)

مدة الرحلة	اسم العالِم المرتحِل
٤٠ عامًا	أبو عبد الله بن مَنْدَة -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٥هـ)[١]
٣٠ عامًا	الفسوي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٧هـ)[٢]
٢٧ عامًا	ابن النجار البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٣هـ)[٣]
١٦ عامًا	الطبراني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٠هـ)[٤]



(١) العبر في خبر من غبر (٢/١٨٧)
(٢) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٠/٤٩٤) وسير أعلام النبلاء (٢١/١٦)
(٣) تذكرة الحفاظ للذهبي (٤/١٤٨)
(٤) سير أعلام النبلاء (١٦/١١٩)

٢٠. إحصائية لأطول مُدَدٍ لشرح الكتب في الدروس العلمية

عجيبة أحوال هؤلاء العلماء المبدعين! ومن سار مع سِيَرِهم سُرَّ بهم. طريقهم وإن طال لا يُستطال، وطعامهم الروحي يُستطاب.

يا عجبًا لهم! يَمكثون في شرح كتاب سنوات، ويُعيدون الكتاب الواحد مرّات عديدة!

ودونَك مثالين:

- عليِ بن عبد الله بن أبي الحسن الأردبيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٦هـ) أقرأ «الحاوي» من أوله إلى آخره في شهر واحد تسع مرات[١].
- أبو البقاء ابن تمام -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٧هـ) يقول: أقرأتُ «الكشاف» بعدد شَعر رأسي! فعلّق السبكي قائلًا: هذه مبالغة[٢].

ومن عجيب الوقائع؛ أنهم قد يمكثون في تفسير الآية الواحدة شهورًا، أو حولًا كاملًا. وإليك خمسة أمثلة:

١. النحوي أبو الحسن العطار الفاسي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٦هـ) كان

---

(١) أعيان العصر وأعوان النصر (٣/٤٠٩)
(٢) طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٣/١٢٩)

يُذكِّر الناس يومي الخميس والجمعة. وقد أقام سنة كاملة في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣][(١)].

٢. قال أبو عثمان الصابوني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٩هـ): يا أهل سِلماس، لي عندكم أشهُر أعِظ، وأنا في تفسير آية، ولو بقيت عندكم تمام سنة، لما تعرضت لغيرها[(٢)].

٣. الفقيه المفسر الهرغي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٩هـ) لربما فسَّر الآية الواحدة ثلاثة أشهر[(٣)].

٤. شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) بقيَ أزْيَدَ من سَنةٍ يفسِّر في سورة نوح[(٤)].

٥. المفسر محمد الزاهد البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٢هـ) بقي مدةً من عمره على تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] ثم التُمِس منه الانتقال إلى غيرها، فانتقل[(٥)].

أيها القارئ الكريم: قد تعترِض، فتقول: هذه الطريقة غير مَرْضية، بل هي مَرَضية، تُخترم دونها المنايا، ويتفرق الطلبة معها شذَر مذَر، ويتعاقب أجيال تلو أجيال، والشيخ ثاوٍ في كرسيه، يشرح سطرًا في جلسة، وصفحة في شهر.

فيقال: انظر لها بمنظارَين متقابلَين، ولا يجْرِمنَّك استنكارُها ألا تعدِلَ، اعدِل هو أقرب للتقوى:

المنظار الأول: أنها قاطعة عن التعلم والمرابطة، لا سيما مع حالنا في

(١) بغية الطلب في تاريخ حلب (١٦٧٧/٤)
(٢) بغية الوعاة (٢٠٣/٢)
(٣) الوافي بالوفيات (٣٢٠/١٧)
(٤) تاريخ الإسلام للذهبي (١٦٤/٧)
(٥) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (١٤٠/٢)

عصرنا المزدحم بالمشغلات، ثم في الدراسة النظامية المحددة بستة عشر عامًا، ثم التخرج، ثم التوظف!

المنظار الثاني: أنها نموذج للشيخ الصابر المثابِر، المؤصِّل للمسائل، المكتنِز بالعلم، العازم على إخراج درسه في مصنف موسوعي محقق!

ثم اعلم أن إلقاء الدروس فنٌّ وإبداع، قد لا يجيده الأكثرون، وأسلوب قد لا يُتقنه إلا الأقلون.

قال التقي السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٦هـ): اعلم أن المدرسين -وإنْ تباينت مراتبهم في العلم، وتفاوتت منازلهم في الفهم- أصناف ثلاثة لا رابع لهم:

الأول: مَن إذا دَرَّس اقتصر على المنقول. وهذا لا حظَّ له عند المحققين، ولا نصيب له بين فرسان الكلام.

والثاني: مَن يأخذ في وجوه الاستنباط، ويَستعمل فِكره بمقدار ما آتاه الله من الفهم، ولا يشتغل بأقوال السابقين، وتصرفات الماضين، علمًا منه أن ذلك أمرٌ موجود في بطون الأوراق، ولا معنى لإعادته.

والثالث: مَن يرى الجمع بين الأمرَيْن، والتحلي بالوصفَيْن، ولا يخفى أنه أرفع الأوصاف[1].

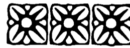
---

(١) الإبهاج في شرح المنهاج ط دبي (١/١٩٣)

نماذج لأطول مُدَدٍ لشرح الدروس العلمية لبعض المشايخ المعاصرين

اسم الشارح	اسم الكتاب المشروح	بداية إلقائه	مدة إلقائه
١. الشيخ صالح بن حميد	نيل الأوطار للشوكاني	١٤٠٦ هـ	٣٤ عامًا
٢. الشيخ صالح بن حميد	منتقى الأخبار للمجد	١٤٠٦ هـ	٣٤ عامًا
٣. الشيخ عبد الكريم الخضير	شرح الخِرَقي	١٤٢٦هـ	١٣ عامًا
٤. الشيخ عبد الكريم الخضير	شرح تفسير القرطبي	١٤١١هـ	٢٢ عامًا
٥. الشيخ عبد الكريم الخضير	شرح الموافقات	١٤٢٣ هـ	١٣ عامًا
٦. الشيخ عبد الكريم الخضير	المحرر- ابن عبد الهادي	١٤٢٦ هـ	١٤ عامًا
٧. الشيخ سعد الخثلان	شرح دليل الطالب	١٤١٢	٣٠ عامًا
٨. الشيخ عبد المحسن القاسم	زاد المستقنع	١٤٢٤هـ	١٢ عامًا

اسم الشارح	اسم الكتاب المشروح	بداية إلقائه	مدة إلقائه
٩. الشيخ محمد الطاهر آيت الجزائري	موطأ مالك	١٤١٤هـ	٢٥ عامًا
١٠. الشيخ عبد العزيز الراجحي	صحيح البخاري	؟	١٠ أعوام
١١. الشيخ سعد الحجري	زاد المستقنع	١٤١٦ هـ	٢٠ عامًا
١٢. الشيخ عبد الوهاب العمري	بلوغ المرام	١٤٢٩ هـ	١٢ عامًا
١٣. الشيخ عبد المحسن الزامل	شرح عمدة الفقه	١٤١٢هـ	١١عامًا
١٤. الشيخ عبد المحسن الزامل	سنن أبي داود	١٤١٢هـ	٢٣ عامًا



٢١. إحصائية لأطول مُدَدٍ في التدريس من لَدُن العلماء الكبار المعاصرين والسابقين

لا نظام للتقاعد في تدريس العلم الشرعي في المساجد! وكيف يتقاعَدون وهم بالعلم يبدعون، ومنه يعيشون، وينتعِشون؟!

ولذلك جلسوا للتدريس وهم صغار، بل ربما لم ينبت الشعر في وجوههم، وجلس بين أيديهم الأشياخ الذين شابت لحاهم.

وهل للتحديث والتدريس سنٌّ معينة؟!

قال ابن مفلح الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٣هـ): والأَولى لا يُحدِّث حتى أن يتم له أربعون سنة، إلا أن يُحتاج إليه[1]. وهذا قَيْدٌ جيِّد.

والآن إليك جدولين، أحدهما لعشرة من الحاضرين، والآخر لعشرة من الغابرين الذين طالت مدة تدريسهم، حيث بكَّر بهم العلم منذ صغرهم، فاحتيج إليهم؛ لنبوغهم.

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (١٣٧/٢)

جدول لعشرة من العلماء الكبار المعاصرين وبيان طول مدد تدريسهم

اسم العالم المعاصر	مدة التدريس التي قضاها
١. عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت ١٣٧٦هـ)	٤٦ عامًا (من ١٣٣٠ هـ)(١)
٢. محمد بن إبراهيم آل الشيخ (ت ١٣٨٩هـ)	٥٠ عامًا (من ١٣٣٩ هـ)
٣. عبد الله بن محمد القرعاوي (ت ١٣٨٩هـ)	٤١ عامًا (من ١٣٤٦هـ)
٤. محمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ)	٤٣ عامًا (من١٣٥٥ هـ تقريبًا)
٥. عبد الله بن محمد بن حميد (ت ١٤٠٢ هـ)	٤٦ عامًا (من ١٣٥٦ هـ)
٦. حماد بن محمد الأنصاري (ت ١٤١٨هـ)	٤٢ عامًا (من ١٣٧٦ هـ)(٢)
٧. عبد العزيز بن عبد الله بن باز (ت ١٤٢٠هـ)	٦٣ عامًا (من ١٣٥٧ هـ)
٨. محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)	٤٩ عامًا (من ١٣٧٢هـ)
٩. محمد بن صالح العثيمين (ت ١٤٢١هـ)	٤٧ عامًا (من ١٣٧٤ هـ)
١٠. عبد الله بن عبد العزيز العقيل (ت ١٤٣٢هـ)	٧٤ عامًا (من ١٣٥٨ هـ)

---

(١) قال تلميذه الشيخ عبد الله البسام: ولما بلغ ٤٣ عامًا انتهت إليه رئاسة العلم في القصيم. انظر: مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص: ٢٥٧)

(٢) يقول عن نفسه: لي في التدريس ٤٢ سنة ما غبت عنه يومًا واحدًا. انظر: المجموع في ترجمة المحدث الشيخ حماد الأنصاري (١/٤٠٧)

مختارات لثلاثين من العلماء السابقين، ومدة جلوسهم للتدريس:

١. عطاء الخراساني -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥هـ) = أكثر من سبعين سنة[١].

٢. الأعمش -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٨هـ) = أكثر من ستين سنة[٢].

٣. المقرئ نافع -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٥هـ) = أقرأ بالمدينة أكثر من سبعين سنة[٣].

٤. ابن عيينة -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٨هـ) = أكثر من ستين سنة[٤].

٥. الحافظ محمد بن بشار بُندار-رحمه الله تعالى- (ت٢٥٢هـ) = ست وأربعون سنة[٥].

٦. الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) = خمس وأربعون سنة[٦].

٧. النحوي القاسم الديمرتي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٥هـ) = أربعون سنة[٧].

٨. الفقيه المالكي أبو بكر الأبهري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٥هـ) = ستون سنة[٨].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٢٩/٤٠)
(٢) وفيات الأعيان (٤٠١/٢)
(٣) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (٦٤٨/١)
(٤) جامع بيان العلم وفضله (٧٥٠/١)
(٥) تاريخ بغداد ت بشار (٤٥٨/٢). وفيه يقول بُندار: سألوني الحديث، وأنا ابن ثمان عشرة، فاستحييتُ أن أحدثهم في المدينة- لوجود شيخه-، فأخرجتُهم إلى البستان، وأطعمتُهم الرُّطب، وحدثتهم.
(٦) تاريخ بغداد ت بشار (٣٣٤/٢)
(٧) بغية الوعاة (٢٦٣/٢)
(٨) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١٨٦/٦)

٩. المقرئ الحسين بن مبشر المزكي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٣هـ) أقرأ خمسين سنة(١).

١٠. الإمام أبو المعالي الجويني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٨هـ)= تسع وثلاثون سنة(٢).

١١. أبو تمام الصوري الفرضي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٨هـ) يُدرِّس الفرائض ستين سنة(٣).

١٢. أحمد بن عبد الله الأزدي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٦هـ) كان يُقرئ القرآن ستين سنة(٤).

١٣. المقرئ أبو الحسن البلنسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٤هـ) أقرأَ وحدَّث ستين سنة(٥).

١٤. الحافظ السِّلَفي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٦هـ) = خمس وسبعون سنة(٦).

١٥. محمد بن خلف اللخمي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٥هـ) أقرأ خمسين سنة(٧).

١٦. أبو شجاع اللوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) أقرأَ كتاب الله ستين سنة(٨).

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٢٨/١٤)
(٢) الوفيات لابن قنفذ (ص: ٢٥٨)
(٣) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤٢٧/٣٥)
(٤) التكملة لكتاب الصلة (٤٥/١)
(٥) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٠٠/٣٩)
(٦) تذكرة الحفاظ للذهبي (٦٤/٤). وفيه قال السِّلَفي: كتبوا عني وأنا ابن سبع عشرة سنة أو نحوها، ليس في وجهي شعرة!
(٧) التكملة لكتاب الصلة (٦١/٢)
(٨) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣٢٤/٤٢)

١٧. مسنِد العراق، عبد العزيز الجنابذي -رحمه الله تعالى- (ت ٦١١هـ) = ستون سنة[١].

١٨. أبو علي الشَّلُوبِين -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٥هـ) أقام على تدريس النحو ستين سنة[٢].

١٩. علي بن جابر اللخمي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٦هـ) = خمسون سنة[٣].

٢٠. المقرئ أبو بكر المقصاتي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٣هـ) أقرأ القراءات خمسين سنة[٤].

٢١. الشيخ تقي الدين الموصلي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٦هـ) أقرأ القراءات خمسين سنة[٥].

٢٢. عفيف الدين الدلاصي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢١هـ) أقام في الحرم المكي أزيد من ستين سنة، يُقرئ الناس القرآن احتسابًا[٦].

٢٣. ابن مقبل الدقوقي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٣هـ) = أكثر من خمسين سنة[٧].

٢٤. ابن قوالح الحلبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٨هـ) درّس في العربية أكثر من ستين سنة[٨].

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٧/٨٥)
(٢) التكملة لكتاب الصلة (٣/١٥٩)
(٣) المصدر السابق (٣/٢٤٠)
(٤) البداية والنهاية ط هجر (١٨/١٣٣)
(٥) المصدر السابق (١٨/١٥٩)
(٦) المصدر السابق (١٨/٢١١)
(٧) المصدر السابق (١٨/٣٥٦)
(٨) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٨/٤٤٥)

٢٥. ابن أميلة المراغي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٨هـ) = أكثر من خمسين سنة[١].

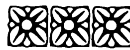
٢٦. صلاح الدين ابن قدامة المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٠هـ) = أكثر من خمسين سنة[٢].

٢٧. الشيخ أحمد النارنولي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢٧هـ) = خمس وسبعون سنة[٣].

٢٨. الحافظ ابن علان الصدِّيقي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥٧هـ) = ثلاث وأربعون سنة[٤].

٢٩. الشيخ عبد الرحمن الكزبري -رحمه الله تعالى- (ت ١١٦٢هـ)= اثنتان وأربعون سنة[٥].

٣٠. الفقيه محمد بيرم الثاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤٧هـ) = أربع وستون سنة[٦].



(١) إنباء الغمر بأبناء العمر (١/١٤٢)

(٢) المصدر السابق (١/١٨٦)

(٣) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٤/٣٠٦)

(٤) مشيخة أبي المواهب الحنبلي (ص: ١٧)

(٥) انظر: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (ص: ١٥٢) و (ص: ١٥٣) و (ص: ١٥٩) و (ص: ١٦٥)

(٦) مسامرات الظريف بحسن التعريف للسنوسي (ص: ١٦٧)

٢٢. الذين كرَّروا تدريس كتاب معيَّن

بالرغم من أن النفوس مجبولة على مُعاداة المُعادات، لكنهم يرَوْن ما لا نرى، ويَستلِذُّون ما الناس يَستثقِلون، كما أن التكرار يعين على الحفظ والضبط.

قال الإسنوي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٢هـ): حكى بعض شيوخنا عن بعض شيوخه: أنه كان يُدرِّس «الوسيط» كل سنة، ولا يتعرض لفرع زائد، ويقول: يَقبح لمن يتصدى للإفتاء والتدريس، أن يكون عهده بباب من أبواب الفقه أكثر من عام[١].

نعم؛ لقد كانوا يُكررون تدريس أمهات المتون، ويُعيدون فيها ويُبدِئون، وكان دأبهم التكرار حتى تفنى الأعمار، والتكرار وليس شيء غير التكرار.

وخذ هذه الأقاويل العجيبة، الشاهدة لهذا الباب:

• عباس بن الوليد الفارسي -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٨هـ) ربما وجدوا في آخر بعض كتبه: دَرَسْتُه ألف مرة[٢].

• أبو إسحاق الشيرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٦هـ) كان يعيد الدروس بعدما يُحضِّرها مئة مرة[٣].

---

(١) المهمات في شرح الروضة والرافعي للإسنوي (٩٨/١)
(٢) طبقات علماء إفريقية (ص: ٢٥٤) وربما تُضبط الكلمة بتشديد الراء: «درَّسته».
(٣) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٣٧٧/١٩)

• قال الحسن بن ذي النون -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٥هـ): الشيء إذا لم يُعَدْ سبعين مرة لا يَستقر[١].

• سئل شيخ الحنفية العلامة بكر البخاري الزرنجري -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٢هـ) عن مسألة فقال: هذه المسألة أعدْتُها في حصن بخارى أربع مئة مرة[٢].

• ابن هشام النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦١هـ) خُتِمَتْ عليه ألفية ابن مالك ألف مرة، فقال له بعض مَن سمعه: وكم قرأتَها؟ قال: أما المئة فجُزْتُها[٣].

جدول لمن كرروا تدريس كتب معينة:

وأما الآن؛ فهذا مغتسل بارد وشراب، وجدول سلسال، يدعوك تأمله، وتفحُّصه إلى أمور منها:

١. علو همم أولئك القوم، وشدة نهَمِهم في تذوق العلم.

٢. احتذاؤنا بهم، حذو القُذَّة بالقُذَّة.

٣. الاعتبار بأن تكرار تدريس الكتب ترسيخ، وتفخيم لشأن الكتاب المكرر.

٤. مزيد الاعتناء بأصول العلم، وأمهات الكتب، ومتونه المتينة الرصينة.

فانطلق الآن، وتأمل في هذا الجدول، الذي أخذ مني تجميعه وتصنيفه شهورًا؛ جَرْدًا، وجَهْدًا:

---

(١) لسان الميزان (٢٠٥/٢)

(٢) الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ (ص: ٦١)

(٣) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ١٦٠) وحلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (ص: ١٤٠٦)

الكتاب المكرّر	العالِم الذي كرّر تدريسه	عدد التكرار
١. القرآن الكريم بقراءة نافع على شيخ واحد	ابن مجاهد	٢٠
١. القرآن الكريم بقراءة حمزة الزيات	خلف بن هشام	١٠
٢. صحيح البخاري (إقراء سنوي رمضاني)	الشاطبي	كل رمضان
٣. رواية «صحيح البخاري»	السخاوي (ت ٩٠٢هـ)	١٢٠ نفْسًا
٤. سماع «جزء الحسن بن عرفة»	ابن تيمية	٤٠
٥. سماع «نسخة أبي مسهر»		١٣
سماع «جزء ابن فيل»[(١)]		١١
٢. كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب	محمد بن إبراهيم آل الشيخ	١٤
٣. الواسطية لابن تيمية		١٤[(٢)]
٤. كشف الشبهات		٦
٥. العمدة لابن قدامة	عبد الله الطيار	٥

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (المقدمة/٣٣)

(٢) قرأ منها ثمان مرات الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم -رحمه الله-، كما ذُكر في ترجمته التي أفردها ابنه الشيخ عبد الملك (ص٢٢)

الكتاب المكرّر	العالِم الذي كرّر تدريسه	عدد التكرار
٦. كتاب المعاملات من العمدة لابن قدامة	عبد الله الطيار	٣٨
٧. كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب	صالح بن عبد الله العصيمي	٣٠
٨. الأصول الثلاثة	صالح بن عبد الله العصيمي	٤٠
٩. الروض المربع	عبد الله أبا بطين	١٦
١٠. الروض المربع للبهوتي	ابن عثيمين	٧
١١. الأصول الثلاثة	ابن باز	فوق ١٠٠
١٢. كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب		٥٠
١٣. أعلام الموقعين لابن القيم		٤٠
١٤. صحيح البخاري	محمد بن عبد العلي الأعظمي	٢٨
١٥. صحيح مسلم		٤
١٦. سنن الترمذي		٥
١٧. مشكاة المصابيح للتبريزي		٣

الكتاب المكرّر	العالِم الذي كرّر تدريسه	عدد التكرار
١٨. مشكاة المصابيح للتبريزي	عبدالمجيد اللُّدهانوي	٥٣
١٩. «الوسيط» للغزالي[٧ مجلدات]	شهاب الدين الصفار (٦١٨هـ)	٤٠
٢٠. جامع الترمذي	عبد الملك الكروخي	عدة مرات
٦. « المقنع» قرأه وأقرأه	سليمان بن حمزة المقدسي	مرات كثيرة
٧. زاد المستقنع	ابن عثيمين	٨
٨. زاد المستقنع = قراءةً على العنقري	حمود التويجري	٣٠
٩. الروض المربع	عبد الله الخليفي	٤٣
١٠. كتاب سيبويه	ابن هشام	٥
١١. صحيح البخاري	الحجّار	٧٠
١٢. صحيح البخاري	شرف الدين اليونيني (٧٠١هـ)	١١
١٣. الكافي لابن عبد البر	عبد الله الجِذْمِيوي	٥

الكتاب المكرّر	العالِم الذي كرّر تدريسه	عدد التكرار
١٤. مختصر خليل	أحمد بابا التنبكتي	١٠
١٥. المدونة	موسى العبدوسي (ت ٧٧٦هـ)	٤٠ سنة
١٦. المدونة بشرح المحلي	أحمد بابا التنبكتي	٣
١٧. جامع الترمذي	حماد الأنصاري	٣
١٨. سمع سنن أبي داود بقراءته	ابن اللبان الدينوري	٦
١٩. صحيح مسلم (كتبه بيده)	ابن الخاضبة (ت ٤٨٩هـ)	٧
٢٠. الحاوي للماوردي (في شهر واحد)	تاج الدين التبريزي	٧
٢١. الحاوي	محمد السكاكيني (٨٣٨ هـ)	٣٠
٢٢. الحاوي (في شهر واحد)	علي الأردبيلي (ت ٧٤٦هـ)	٩
٢٣. المقنع لابن قدامة	إسماعيل ابن الفراء (٧٢٩هـ)	١٠٠
٢٤. العضد في الأصول	محمد الرومي الفَنَري (٨٣٤هـ)	٢٠

الكتاب المكرّر	العالِم الذي كرّر تدريسه	عدد التكرار
٢٥. تكرار تفسير القرآن خلال ٢٣ سنة	محمد الخضر الحراني (٦٢٢)	٥
٢٦. مختصر الفرائض للحوفي المالكي (٥٨٨ هـ)	عيسى الرتيمي (نحو٧٥٠هـ)	٢٤
٢٧. عيادة المرضى- تحريم الغيبة لابن المجاور	ابن المجاور (ت ٧٧٢هـ)	مرات
٢٨. الغرر البهية في شرح البهجة الوردية	زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ)	٥٧
٢٩. ألفية ابن مالك على شيخه السوسي	الونشريسي (ت ٩٥٥هـ)	١١
٣٠. ألفية ابن مالك ٣١. مختصر خليل ٣٢. الأجرومية	ابن سودة التاودي (ت ١٢٣١هـ)	شهريًا ٣٠ كثيرًا جدًا
٣٣. الكشاف للزمخشري	أبو البقاء ابن تمام السبكي(١)	كثيرًا جدًا
٣٤. جزء يحيى بن معين	ابن أبي الأشعث (ت ٥٣٦هـ)	١٢

(١) طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (١٢٩/٣) وفيه يقول أبو البقاء: أقرأتُ الكشاف بعدد شعر رأسي! فعلّق ابن قاضي شهبة قائلًا: هذه مبالغة!

الكتاب المكرّر	العالِم الذي كرّر تدريسه	عدد التكرار
٣٥. اختصار المدونة	ابن واجب القيسي	١٤
٣٦. كتب ابن المبارك	أبو عبد الرحمن العبدي	١٤
٣٧. الهداية في الفقه الحنفي	ابن الهُمَام الحنفي (ت ٨٦١هـ)	١٨

جدول لقائمة علماء لُقِّبوا بأسماءكتب حفظوها وأتقنوها

العالِم	اللقب والكتاب
١. مُصْلح الدين الأماسي (ت ٩٣٦هـ)	اشتهر بلقب «حافظ الكتب»[١]
٢. محمدبن علي الحاتِمِي القُشَيْري	لإكبابه على قراءة «رسالة القُشيري»[٢]
٣. الحارث بن سريج النقال (٢٣٦هـ)	لأنه نقل رسالة الشافعي إلى ابن مهدي[٣]
٤. الإمام الزركشي (٧٩٥) المنهاجي	لعنايته بمنهاج الطالبين للنووي
٥. علي بن دقيق المحبِّري	لحفظه كتاب «المحبِّر»[٤]
٦. أحمد الواسطي الوجيزي (٧٢٩هـ)	لحفظه كتاب «الوجيز »[٥]
٧. ابن الصارم الوجيزي (٦٦٧هـ)	لحفظه كتاب « الوجيز »[٦]

(١) الأعلام للزركلي (٣٢٩/٧)
(٢) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٥٣٩/٤)
(٣) تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٥٠١/١٤)
(٤) سلم الوصول إلى طبقات الفحول (٢٨٣/٥)
(٥) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٢٨٨/١)
(٦) تاريخ الإسلام ت بشار (١٤٩/١٥)

اللقب والكتاب	العالِم
لحفظه كتاب الوجيز	٨. الأشمومي الوجيزي (٧٢٩)
لحفظه كتاب «الآدمي» في النحو[(١)]	٩. محمد البقال الآدمي
لحفظ كتاب المقترح في المصطلح[(٢)]	١٠. مظفر بن الحسين المقترح
لأنه كتب كتاب أخلاق علائي في ٤٠ مجلدًا[(٣)]	١١. الملا محمد الأخلاقي (ت ١٠٢١هـ)
الشهير بقارئ الهداية[(٤)]	١٢. ابن فارس الحنفي (ت ٨٢٦هـ)
الفصيحي؛ لكثرة إعادته «الفصيح»[(٥)]	١٣. النحوي علي بن أبي زيد
لكثرة اشتغاله بـ«الكافية» في النحو[(٦)]	١٤. محمد الرومي الكافيجي

(١) تاج التراجم لابن قطلوبغا (ص: ٢٧١)
(٢) تاريخ الإسلام ت تدمري (١٢٨/٤٤)
(٣) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢٩٤/٤)
(٤) سلم الوصول إلى طبقات الفحول (٤١٩/٢)
(٥) نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص: ٢٧٤) المقتبس من أنباء الأندلس (ص: ١٧٢)
(٦) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤٨٨/٩)

العالِم	اللقب والكتاب
١٥. علاء الدين التعجيزي (٧٦٤هـ)	لأنه حفظ التعجيز لابن يونس[١]
١٦. محمد المغربي (١١٤٠هـ)=قارئ الدرر	لأنه مَهَرَ في أبحاثها[٢]



(١) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٠٨/٤)

(٢) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (١٢٣/٣)

٢٣. الإبداع والإمتاع في تكرار قراءة نفائس الكتب

تكرار الشيء ممل غالبًا، لكن ما كان موصوفًا بالإبداع فإنه ممتع غير ممل بحسبه.

قال ابن شرف القيرواني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٠هـ) المكرر مملول بالإجماع.. إلا أن الابتداع والاختراع عليهما باب، بينه وبين الاستطاعة حجاب[١].

يكررون من وَلَهِهِم، ولكن هذا الوَلَهُ لا ينطبق على كل الكتب ولا أكثرها، ولكن الكتب كالناس، منهم من تريد أن تراه كل يوم مرات، ومنهم من لا تريد أن تراه إلا لِمامًا، ومنهم من لا تودُّ أن تراه بعد أول رؤية.

وكذلك الكتاب المحبوب المَشُوق أحرى أن تعاوِد النظر إليه كرَّة بعد أخرى. وما دون ذلك فبحسبه، حتى تنتهي إلى كتاب تقرؤه مرة واحدة، ويبقى حبيس الأرفف، وربما يُهدد بالطرد!

أما الكتب الأمهات فحقُّهن كالأمهات، لا تقطعهن، بل تبرُّهن وتصاحبهن دهرَك.

فهذا علي بن اللبان -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٩هـ) سمع سنن أبي داود بقراءته ست مرات[٢].

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (١٧٩/٧)
(٢) التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد (ص: ٤١٥)

وقال النحوي أبو الفضل الرِّياشي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٧هـ): حفظتُ كتب الأصمعي؛ لكثرة ما كانت تتردَّد على سمعي[١].

وقال شيخ البلاغيين في عصرنا محمد أبو موسى -حفظه الله تعالى-: لا تسألني: كم مرة قرأت كتاب إعجاز البلاغة للجرجاني، ولكن قل: كم نسخة تلِفَت بيدك!.

وفي تكرار قراءة الكتب الأمهات مَيزة تَرُوقك، ففيها مزيد تفتق للأذهان بفُهوم جديدة.

قال الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): ما نظرتُ في موطأ مالك، إلا ازددتُ فهمًا[٢].

كـرِّر علـيّ حديـث البـان والسـمَرِ إن الحديـث عن أهـل الحمى سَـمَري[٣]

وليُعلم أن من الكتب ما يُقرأ فحسب، ومنها ما يكفي أن يُفهم فَحواه، ولو قُفزت بعض مَقاطِعه، ومنها ما لابد له من استظهار صفحاته، وعليه -إذًا- أن يكرر قراءته كلما أبطأ عنه، وإن كتابًا كهذا تُعيد قراءته مرتين أنفع لك من قراءة كتابين مرة واحدة.

وتأمل حال أحمد بن الطيب الطبَنْداوي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤٨هـ) فإنه يحفظ كتاب «الإرشاد» ومع ذلك يقول: قرأته سبع مرات، وما صحَّ لي إلا في المرة السابعة[٤].

والسؤال المتبادِر يقول: لماذا هم يُكرِّرون؟

والجواب المتسارِع أن يُقال: يكرِّرون لأمور ستة بإيجاز:

---

(١) طبقات النحويين واللغويين (ص: ٩٧)
(٢) معجم ابن المقرئ (ص: ٤٠٩)
(٣) ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني (ص: ٤٢)
(٤) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ٢٠٧). ولم أتبين ما المقصود بكتاب الإرشاد!

١. تثبيت العلم واستذكاره.
٢. تحصيل بركة المجلس وتعطيره.
٣. استثمار الوقت وحفظه.
٤. إتقان المكتوب ومقابلتُه.
٥. نَفاسَة الكتاب المقروء، وكثرة ثمراته.
٦. التلذذ بالعلم بترديده:

قالوا تكرّر فيه   قلت المكرّر أحلى[١]

وبعض القراء يتضايق، ويشتكي أنه يقرأ كثيرًا، ولم يثبت معه من معلومات الكتاب إلا القليل، فيقال له: إن تكرار قراءة الكتاب الواحد مرات هي الحل المضمون.

فهذا ابن فرحون اليعمري -رحمه الله تعالى- (٧٦٩هـ) يقول: لازمتُ تفسير ابن عطية [١٠ مجلدات] حتى كدتُ أحفظه![٢]

ويقال أيضًا: إن المدارك تختلف، وثبات فهم المقروء تتفاوت. ولذا قال الإمام النحوي أبو علي الفارسي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٧هـ): الذكاء على أربع طبقات؛ فأولها الذكاء الكبريتي؛ فإنه يفهم سريعًا، وينسى ذريعًا[٣]، وثانيها: طبقة أهل العلم، وهم يفهمون على بطءٍ ما، ولا يكادون ينسون سريعًا، وثالثها: الذي يفهم سريعًا ولا ينسى، ورابعها: الذي لا يكاد يفهم إلا بعيدًا، وينسى قريبًا[٤].

أقول لهم كُرُّوا الحديث الذي مضى   وذِكراك من بين الأنام أريدُ
أناشده إلا أعاد حديثه   كأني بطيء الفهم حين يُعيدُ[٥]

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠/٣٦٣)
(٢) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (١/٤٥٥)
(٣) أي: كثيرًا.
(٤) شذرات من كتب مفقودة في التاريخ (٢/٢٩٥) والأعلام للزركلي (٢/١٧٩)
(٥) المنتحل للثعالبي (ص: ٢١١)

والعَجب أن الواحد منا قد يطالع الكتاب مرة أخرى، وقد قيَّد عليه بخطه الفوائد النفسية على عادته، ثم يقف عليه بعد دهر، فيعيد نظره فيه؛ لظنه أنه ما رآه قبل، فيزداد شوقًا لإعادة قراءته.

والطريف أنه إذا طال العهد، فربما توهم طالب العلم، أن تعليقاته على كتاب له ليست بخطه، بل بخط غيره.

وقد وقع مثل ذلك لابن حجر؛ فإن أحد تلاميذه أوقفَه على كتاب غريب، فأخذه منه، واستغربه. قال التلميذ: فصرت في نفسي مسرورًا؛ من أجل أنني أوقفتُه على كتاب لم يقِف عليه، وهو يبالغ في تصفُّحه وتأمُّله، فلم ألبثْ أن قال: وهذا خطِّي عليه![1].

مئة وخمسة وعشرون نموذجًا، للعلماء الذين كرَّروا قراءة كتاب معين[2]

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرّره	كم مرة كرره؟
١. الرسالة للشافعي = ١	المزني	٧٠
٢. الرسالة للشافعي	الربيع بن سليمان	نيف و ٣٠
٣. الرسالة للشافعي	عبد الغني عبد الخالق	٥٠

(١) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٣٧٦/١)

(٢) ثمت كتب فلسفية فيها خطورة، لم أذكرها. وقد كرر قراءتَها المهتمون بها كثيرًا. وعلى سبيل المثال إليك هذين: أدب النفس لأرسطو، كرَّره الفارابي مئة مرة. وأيضًا كتاب ما وراء الطبيعة لأرسطو، كرَّره ابن سينا أربعين مرّة.

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرّره	كم مرة كرره؟
٤. الوسيط للغزالي = ٧	النووي	٤٠٠
٥. الوسيط للغزالي = (كتابة بيده)	ابن عساكر القوصي	٤٨
٦. كتاب سيبويه=٣	ابن عيسى الأندلسي	٢٤
٧. الموطأ لمالك =٢	أبو بكر الأبهري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٥هـ)	٤٥
٨. مختصر ابن عبد الحكم		٥٠٠
٩. الأسدية		٧٥
١٠. التوضيح	ابن محرز الأبناسي	٧٠
١١. الجامع الكبير لمحمد بن الحسن	أبو سعيد البردعي	٤٠٠
١٢. جزء البانياسي	ابن البطّيّ البغداديّ	٢٠٠
١٣. الكافي للصردفي	ابن عطيف (ت ٨٨٦هـ)	٨٠
١٤. المغني لابن قدامة = ١٠	فقيه العراق الزريراني	٢٣ (١)
١٥. شرح صحيح مسلم للنووي= ٩	ابن باز	٦٠

(١) وفي كل مرة يكتب حاشية عليها، فصار له على المغني ثلاث وعشرون حاشية. انظر: ذيل طبقات الحنابلة (٥/٢)

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرّره	كم مرة كرره؟
١٦. إحياء علوم الدين للغزالي	سالم بن شيخان (١٠٤٦هـ)	٣
١٧. إحياء علوم الدين للغزالي	أحمد بن محمد الهادي (١٠٤٥هـ)	١٤
١٨. إحياء علوم الدين للغزالي	عبد الرحمن العيدروس (٩٢٣هـ)	٤٠
١٩. إحياء علوم الدين للغزالي	علي بن عبد الرحمن الحسيني	٥٠
٢٠. إحياء علوم الدين للغزالي	عبد الرحمن بن علي الحسيني	٢٥
٢١. الروض المربع = ١	علي السالم آل جليدان	٤٠
٢٢. البداية والنهاية = ١٥	قاضي المويه=إبراهيم الهويش	٣
٢٣. البداية والنهاية = ١٥	عبد الله بن سعدان	٧
٢٤. مسند الإمام أحمد	الألباني	٦
٢٥. كتاب الإرشاد	الطبَنْداوي (ت ٩٤٨هـ)	٧

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرّره	كم مرة كرره؟
٢٦. المهذب للشيرازي = ٣	محمد الغيثي التباعي	٩
٢٧. المهذب للشيرازي = ٣	ابن العجمي الكلبي	٢٥
٢٨. تفسير ابن كثير = ٨	عبد العزيز بن مقيرن	١٠
٢٩. الروض المربع = ١	وليد السعيدان	٤٩
٣٠. مختصر خليل	محمد الجمني (١١٧٠هـ)	٦٠
٣١. مختصر خليل	الجمّوسي (بعد ١١٤٠هـ)	١٧
٣٢. تفسير القرطبي = ١٠	عبد الرحمن بن معاضة الشهري	٥
٣٣. فتح الباري لابن حجر = ١٣	أحمد معبد	١٨
٣٤. سير أعلام النبلاء للذهبي = ٢٣	أبو إسحاق الحويني	٢٤
٣٥. التنكيل للمعلمي = ١	أبو إسحاق الحويني[١]	٧٠
٣٦. العلل لابن أبي حاتم = ٧	أبو إسحاق الحويني	١٠٠

(١) وأخبر الحويني عن نفسه في مقطع مرئي: أنه نَسخ التنكيل بيده كاملاً! فيا لله ما أعظم تلك الهمم! وما أجلّه من جَلَد!

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرّره	كم مرة كرره؟
٣٧. مذكرات الشاذلي في حرب أكتوبر	أبو إسحاق الحويني	٩٠
٣٨. الأعلام للزركلي	أحمد العلاونة	١٠٠
٣٩. تفسير الإيجي = ١	عبد الله بن عقيل	١٠٠
٤٠. البداية والنهاية لابن كثير= ١٥	ابن باز	٧
٤١. البداية والنهاية لابن كثير= ١٥	عبد العزيز العويّد	٣
٤٢. سير أعلام النبلاء للذهبي = ٢٣	عبد العزيز العويّد	٥
٤٣. علماء نجد للبسام	عبد العزيز العويّد	٣
٤٤. لسان العرب	عبد العزيز العويّد	٣
٤٥. تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون	عبد الله اللغبي العبدلي(١)	٥٠
٤٦. ألفية ابن مالك	ابن هشام	١٠٠٠
٤٧. ألفية ابن مالك	ابن سودة	١٠٠

(١) هذا الشيخ النهِم المعاصر يُخبر عن نفسه أنه: قرأ مسند الإمام أحمد في مجلس سماع، وكانت مدة القراءة ١٧ يومًا، بواقع ١٤ ساعة يوميًا! ويُخبر أنه اشترى المسند وهو في الصف السادس الابتدائي!

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرّره	كم مرة كرره؟
٤٨. الأغاني للأصفهاني = ٢٤	المستشرق البلجيكي لامنس	١٧
٤٩. الأغاني للأصفهاني = ٢٤	معالي الشيخ صالح اللحيدان	٧
٥٠. الأغاني للأصفهاني = ٢٤	الأديب علي الطنطاوي	٣
٥١. الأغاني للأصفهاني = ٢٤	شكيب أرسلان	٥
٥٢. الفرج بعد الشدة = ٥	علي الطنطاوي	٣٠
٥٣. المغني لابن قدامة = ١٠	أحمد حطيبة	٨
٥٤. منار السبيل = ٢	أحمد حطيبة	١٢
٥٥. لسان العرب = ١٥	محمود شاكر	٣
٥٦. فتح الباري لابن حجر = ١٣	حماد الأنصاري	٢٠
٥٧. تهذيب الكمال للمزي	المزي نفسه	٥
٥٨. سنن أبي داود	علي بن اللبان الدينوري	٦

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرّره	كم مرة كرره؟
٥٩. فتح الباري لابن حجر = ١٣	محمد الغلاوي	٣
٦٠. ميزان الاعتدال للذهبي = ٤	حماد الأنصاري	١٠٠
٦١. الحيوان للجاحظ = ٧	عبد السلام هارون	٧
٦٢. مجموع فتاوى ابن تيمية = ٣٥	عبد الله العجيري	٢
٦٣. درء التعارض لابن تيمية = ١٠	عبد الله العجيري	٣
٦٤. الإعلام للزركلي = ٨	بكر أبو زيد	٥
٦٥. معجم البلدان للحموي	بكر أبو زيد	٤
٦٦. آثار البشير الإبراهيمي	بكر أبو زيد	٥
٦٧. مجموع فتاوى ابن تيمية	بكر أبو زيد	٢
٦٨. أعلام الموقعين لابن القيم	ابن باز	٤٠
٦٩. أعلام الموقعين لابن القيم	مشهور حسن سلمان	٣٠ [١]
٧٠. الأيام - طه حسين	عبد الكريم الخضير	٥

(١) وسبب تحقيق الشيخ مشهور للكتاب كلمة مباركة، نقلها له الشيخ بكر أبو زيد، عن الشيخ ابن باز أنه قال: كتاب الإسلام إعلام الموقعين! قال ابن باز: قد درّسْته أربعين مرة! فمن أي الثلاثة تَعجَب؟! (من مقطع مرئي للشيخ مشهور في اليوتيوب)

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرّره	كم مرة كرره؟
٧١. حياتي لأحمد أمين	عبد الكريم الخضير	٦
٧٢. النظرات للمنفلوطي	علي الطنطاوي	٣٠
٧٣. مقامات الحريري	أبو سعيد الحلي	٦٠
٧٤. جزء ابن عرفة	ابن الرفاء الشافعي	٦٠
٧٥. الكافي للصروفي	علي الكريدي (٨٨٦هـ)	٨٠
٧٦. متن الحوفية في الفرائض	الفرضي ابن السطي (٧٥٠هـ)	٨
٧٧. تفسير الكشاف	ابن السراج السجلماسي (١٠٥٧هـ)	٣٠
٧٨. الهداية = مجلدان	المَرْغِيناني (٥٩٣ هـ)	١٨
٧٩. صحيح البخاري (كتابةً بيده)	ابن طاهر القيسراني	٧
٨٠. صحيح مسلم (كتابةً بيده)	ابن طاهر القيسراني	٧
٨١. سنن أبي داود (كتابةً بيده)	ابن طاهر القيسراني	٧
٨٢. سنن ابن ماجه (كتابةً بيده)	ابن طاهر القيسراني	١٠

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرّره	كم مرة كرره؟
٨٣. الكتب الستة	عبد المنان الوزير آبادي	٣٥
٨٤. الكتب الستة	الشيخ عابد السندي	ختمة شهرية
٨٥. ألفية ابن مالك ومختصر خليل	أحد شناقطة المدينة	ختمة أسبوعية
٨٦. البيقونية والرحبية وبلوغ المرام	أحد شناقطة المدينة	ختمة شهرية
٨٧. موطأ مالك	يحيى بن بكير (٢٣١هـ)	١٧ من مالك
٨٨. سنن أبي داود	اللؤلؤي قرأه على أبي داود	عشرين سنة
٨٩. صحيح البخاري = ٥	أسعد الشيرازي	٢٠
٩٠. صحيح البخاري	محمد يونس الجونفوري (١٤٣٧)	٥٠
٩١. صحيح البخاري	سليمان العلوي اليمني	٢٨٠

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرّره	كم مرة كرره؟
٩٢. صحيح البخاري	محمد بن مقبل التاجر	٩٥
٩٣. صحيح البخاري	ابن الشحنة	٦٠
٩٤. صحيح البخاري	أصيل الدين الهروي	١٢٠
٩٥. صحيح البخاري	برهان الدين الحلبي	٦٠
٩٦. صحيح البخاري	الفخر عثمان التّوْزَري	٣٠
٩٧. صحيح البخاري	ابن الكلوتاتي (٨٣٥هـ)	٦٠
٩٨. صحيح البخاري	أبو محمد الهاشمي القصار	٣٦
٩٩. صحيح البخاري	الحجّار ابن الشحنة	بضع و٧٠
١٠٠. صحيح البخاري	عناية الله الكشميري	٣٦
١٠١. صحيح البخاري	المقّري	٧
١٠٢. صحيح البخاري	أحمد الدرعي (ت ١٣١٣هـ)	١٠

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرّره	كم مرة كرره؟
١٠٣. صحيح البخاري	محمد الغلاوي	١٧
١٠٤. صحيح البخاري	الكرماني	٦٠
١٠٥. صحيح البخاري	المسنِد / مساعد بشير	١٣٠
١٠٦. صحيح البخاري	سبط ابن العجمي	٦٠
١٠٧. صحيح البخاري	زين الدين التاجر	٩٥
١٠٨. صحيح البخاري	شعيب الشيرازي (٨٠٣هـ)	٢١
١٠٩. صحيح البخاري	نفيس الدين الزبيدي (٨٣٥هـ)	٥٠
١١٠. صحيح البخاري	يونس الهاشمي القصار (٦٠٨هـ)	٣٦
١١١. صحيح البخاري	عناية الله الكشميري (١١٢٥هـ)	٣٦
١١٢. صحيح البخاري	أبو عبد الله اليونيني (٧٠١هـ)	١١ في سنة

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرّره	كم مرة كرره؟
١١٣. صحيح البخاري	ابن السراج السجلماسي (١٠٥٧هـ)	١٧
١١٤. صحيح البخاري	نفيس الدين العلوي (٨٢٥هـ)	١٥٠
١١٥. صحيح البخاري	ابن دلهاث الدلاتي (٤٧٨هـ)	٧
١١٦. صحيح البخاري	أبوبكر بن محمد عواد (١٢٩٦)	١٠
١١٧. صحيح مسلم = ٥	الحسن بن أحمد السمرقندي	٣١
١١٨. صحيح مسلم	سبط ابن العجمي	٢٠
١١٩. صحيح مسلم	برهان الدين الحلبي	٢٠
١٢٠. صحيح مسلم	إبراهيم الحلبي	٢٠
١٢١. صحيح مسلم	محمد الغلاوي (١٤٠٨)	٢٠
١٢٢. صحيح مسلم	أبو سعيد البحيري (٥٠١هـ)	٢١

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرّره	كم مرة كرره؟
١٢٣. صحيح مسلم	عبد الرزاق الطبسي (٥٣٧هـ)	١٨
١٢٤. صحيح البخاري	موسى بن سعادة (٥١٤هـ)	٦٠
١٢٥. صحيح مسلم	موسى بن سعادة (٥١٤هـ)	٦٠

وبعد؛ فاعلم وتأمل -وقد انبهرتَ بهذه الأرقام-:

- أن الكتب المتميزة لا تكفيها قراءة لمرة واحدة، فكرِّر لتُقرِّر.
- أن هذا يُحدوكَ لتسير على طريقتهم وطريقهم، ومن سار على الدرب وصل.
- انظر إلى أواخر هذا الجدول الحافل، في كثرة تكريرهم لقراءة الصحاح والصحيحين خصوصًا؛ لأنهما أفضل وأصح الكتب بعد القرآن. ولكن اعلم أن حُفاظ الصحيحين في زماننا من طلبة علم قد كرروا أحاديث الصحيحين مئات المرات؛ لأجل الحفظ والمراجعة، بل ربما آلاف المرات. وقُل مثل هذا في شأن من يحفظون مَتنًا، ثم تَراهم يُحفِّظونها لطلابهم ويُسمِّعونها منهم، فيَتضاعَفُ العدد! ومثله من يُحقق كتابًا؛ فإنه سيقرؤه -حتمًا- عدة مرات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

حفاوة بعض الأدباء والخلفاء والعلماء بكتاب الأغاني للأصفهاني- رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٦هـ):

قال ياقوت الحموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ) عن كتاب الأغاني للأصفهاني: ولَعَمري! إن هذا الكتاب لَجليل القدر، جَمُّ الفوائد، عظيم العلم، جامع بين الجِد البحْت، والهزل النحْت، وقد تأملتُ هذا الكتاب، وعَنِيتُ به، وطالعتُه مرارًا، وكتبتُ منه نسخة بخطِّي في عشر مجلدات[١].

بل قال ابن خَلكان -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨١هـ): وقَعَ الاتفاق على أنه لم يُعمل في بابه مثله. وقد جمَعَه في خمسين سنة[٢].

لكن من المهم أن يُعلم أن مؤلفه عليه ملحوظات فظيعة! وفي الكتاب تجاوزات شرعية شنيعة. وهي لا تخفى على فطنة القارئ المتمكن.

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) عن الأصفهاني: وكان يتشيَّع، ومثله لا يوثق بروايته، فإنه يصرح في كتبه بما يوجب عليه الفسق، ويهوِّن شرب الخمر، وربما حكى ذلك عن نفسه. ومن تأمل كتاب «الأغاني» رأى كل قبيح ومنكر[٣].

عشر نقولات لحفاوتهم بكتاب الأغاني:

١. كتاب «الأغاني» حمَلَه مؤلفه إلى سيف الدولة -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٦هـ)، فأعطاه ألف دينار[٤]. وبلغ ذلك الصاحب أبا القاسم بن عباد فقال: لقد قصّر سيف الدولة وإنه يستأهل أضعافها.

---

(١) معجم الأدباء (١٧٠٨/٤)
(٢) وفيات الأعيان (٣٠٧/٣)
(٣) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٨٥/١٤)
(٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٢٩٣/٤)

٢. الخليفة الحكم المستنصر الأندلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٦هـ): بعث في طلب كتاب «الأغاني» إلى مصنفه قبل أن يُخرجه، وأرسل إليه فيه ألف دينار من الذهب(١).

٣. الأمير أبو تغلب -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٩هـ) اشترى «كتاب الأغاني» للأصبهاني بعشرة آلاف درهم، وقال: إنه لَيساوي عندي عشرة آلاف دينار(٢).

٤. لم يكن كتاب «الأغاني» يفارق عضد الدولة -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٢هـ) في سفره ولا حضَره. وإنه كان جليسه الذي يأنس إليه، وخَدينه الذي يرتاح نحوه(٣).

٥. كان الصاحب بن عباد -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٥هـ): لما وصل إليه كتاب « الأغاني» لم يكن يَستصحِب سواه، استغناءً به عنها. ووصف الكتاب فأطنب، وقال: لقد اشتملت خزائني على مئتين وستة آلاف مجلد، ما منها ما هو سَميري غيره، ولا راقَني منها سواه(٤).

٦. الكاتب الشاعر أبو الحسين ابن دينار -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٩هـ) قال: قرأتُ على أبي الفرج جميع «كتاب الأغاني»(٥).

٧. أديب الأندلس في عصره ابن عَبْدُون -رحمه الله تعالى- (ت ٥٢٩هـ) من محفوظاته كتاب «الأغاني»، لا يخطئ فيه واوًا ولا فاءً(٦).

---

(١) المغرب في حلى المغرب (١٨٦/١) ونفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (٣٨٦/١) وقصة الحضارة (٢٨٥/١٣)

(٢) معجم الأدباء (١٧١٩/٤)

(٣) المصدر السابق (١٧٠٨/٤)

(٤) المصدر السابق (١٧٠٨/٤) ووفيات الأعيان (٣٠٧/٣) ومعجم الأدباء (١٧٠٨/٤)

(٥) معجم الأدباء (١٩٢٢/٥)

(٦) الأعلام للزركلي (١٤٩/٤)

٨. قال المؤرخ ابن تغري بردى -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٤هـ): كتاب «الأغاني» في غاية الحُسن(١).

٩. السلطان سيدي محمد المراكشي (ت ١٢٠٤هـ) يكاد يحفظ ما في كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني(٢).

١٠. -وأيضًا- قد مرَّ بك آنفًا جدول طويل، فيمن كرر كتابًا واحدًا، وكان من ضمنه هذه السطور الأربعة، والخامس يحفظه:

الكتاب ومؤلِّفه وعدد مجلداته	العالِم الذي كرّره	كم مرة كرر؟
الأغاني للأصفهاني = ٢٤	المستشرق البلجيكي لامنس	١٧
الأغاني للأصفهاني	الشيخ صالح بن محمد اللحيدان	٧
الأغاني للأصفهاني	الأديب شَكيب أرْسَلان	٥
الأغاني للأصفهاني	الأديب علي الطنطاوي	٣
الأغاني للأصفهاني	ابن عَبْدُون الأندلسي	لا يخطئ فيه واوًا ولا فاءً(٣)



(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٥/٤)
(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٦٦/٣)
(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: ٦٩)

٢٤. المبدعون من كاتبي ومصححي الكُتُب، وناسخي وجامعي المخطوطات:

هؤلاء الطائفة المبدعة مجهولة القدر، ويصح أن يقال عنهم: « الجنود المجهولون» فلا تكاد ترى أحدًا يَذكرهم أو يشكرهم.

ولقد سهَّل الله العلم على أيدي هؤلاء الكاتبين المتمكنين، والناسخين المبدعين، والمصححين المتقِنين، ومثلهم الورّاقون الّذين يعانون صناعة انتساخ الكتب، وتجليدها، وتصميمها، ومراقبتها، وطباعتها، ونشرها.

وقد كان طالب العلم قبل ظهور نعمة المطابع، إذا أراد أن يحصل «فتح الباري» مثلًا، ولا يملك أموالًا؛ ليشتري الكتاب، فكان ينسخه جزءًا جزءًا، أو يستأجر من ينسخه له! وهذا يدلُّك على أن هؤلاء العلماء نالوا العلم بتعب مضاعَف. كما أن لهم النُّسَّاخ مزيد مزية وفضل؛ لأنهم أعانوا على نشر العلم. فيقال لأمثالهم:

وإذا الصوارم والأسنّة أرهفتْ ... فابن الدواةِ حسامُه وسِنانُه
وإذا ثلاثُ بَنانه ارتحلته في ... طِرْس أتى بالسحر منه بنانُه[1]

ويحدِّث الشيخ الحفيد عبد الرحمن بن حسن -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٨٥هـ) عن جَدِّه المجدد الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى-

(١) بغية الطلب في تاريخ حلب (٢٦٧٧/٦)

(ت ١٢٠٦هـ) فيقول: كتب كتاب الهدي [زاد المعاد] لابن القيم بيده، وكتب متن البخاري(١).

ثم تطور الأمر، وظهرت المطابع الحديثة، التي تطبع ألف نسخة في ساعة. وقد قيل أولَ ما ظهرت الطباعة: «القاهرة تكتب، وبيروت تطبع، وبغداد تقرأ».

وأما اليوم، وما أدراك ما اليوم؟! ففي بغداد يبيع المثقف مكتبته متحسرًا؛ لكي يعيش! والدنيا دول، والله المستعان.

وكاتبو النسخ مشارب متنوعون: فمنهم من ينسخ؛ ليبيعَ، ومنهم من ينسخ بأجرة، ومنهم من ينسخ؛ ليمتلك فيقرأ. ومنهم عالِم مؤلف، فهو يكتب ويؤلف في آن واحد.

وكل أولئك بحسب درجاتهم مأجورون -إن شاء الله- إنْ هم احتسبوا أجرهم في كتابة العلم، حتى ولو أخذوا أُجرتهم؛ لقوله ﷺ: إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله إلا من ثلاث؛ علم ينتفع به.. الحديث رواه مسلم(٢).

قال المنذري -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٦هـ) تعليقًا: وناسخ العلم النافع له أجره، وأجر من قرأه، أو نسخه، أو عمل به من بعده، ما بقي خطه، والعمل به(٣).

ولا يَغِب عن بالِك فضل الله على كُتَّاب الوحي من الصحابة، وقد أوصل عددهم العلماء إلى أكثر من أربعين كاتبًا.

ومن أقوى العبارات للتحفيز على كتابة العلم ما قاله شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ): فكُتَّاب الوحي يُشْبِههم من بعض الوجوه كُتَّاب العِلم في هذا الزمان(٤).

---

(١) مقامات عبد الرحمن بن حسن (ص: ٧)
(٢) صحيح مسلم (١٦٣١)
(٣) الترغيب والترهيب للمنذري (١/٦٢)
(٤) جامع المسائل لابن تيمية ط عالم الفوائد - المجموعة السابعة (١/٢٤١)

وهل يدخل في الأجور أولئك الذين يراجعون كتب العلماء قبل إخراجها؛ لأجل إتقانها؟

خذ الجواب المبشِّر من الصنعاني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٨٢هـ) حيث يقول: وتعليم العلم يشمل التأليف، والتدريس، والنسخ، وتصحيح كتب أهل الإسلام[١].

ما الناس إلا الكتَبَة حديثهم ما أعجبه
هم حرّروا دينكم بقطعة من قَصَبة[٢]

إبداعات الكاتبين والناسخين

نسخ الكتب مهنة شريفة، قد امتهنها طائفة من العلماء، إما تقوُّتًا، أو طلبًا للإتقان والضبط.

وقد قال أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ) لتلميذه عبد الوهاب الوراق: ما صنْعَتك؟ قال: الوُرَاقة. قال: كسبٌ طيب، ولو كنتُ صانعًا بيدي لصنعتُ صنْعَتك[٣].

ويحكي المحقق محمود الطناحي-رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٩هـ) عن أحد أصدقائه، فيقول: أصبح قادرًا على تمييز خطوط العلماء، وكان يفخر بنسخ الكتب، ويقول له: إنه مهنة العلماء، كياقوت الحموي[٤].

كما أن التجربة أثبتتْ أن مُعاناة نسخ الكتاب بخط اليد أفضل من قراءته عشر مرات، ومن جرَّب عرَف. وهذا يحتاج لدَرَبة منذ الصغر، وجرْدٍ كبير، حتى ولو لم يَصحبه فهم تام.

(١) التنوير شرح الجامع الصغير (٢/٢٧٤)
(٢) درة الحجال في أسماء الرجال (٢/١٨١)
(٣) إحياء علوم الدين (٢/٨٤)
(٤) مقالات الطناحي (صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب) (١/٧٢)

وهذا الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ) يخبر عن نفسه أنه انتفع بطريقة عالِم، يقول عنه: كنت أعجَبُ من سرعة ما يتحصل له، مع شغله بالتدريس، فسألته عن هذا، فقال: إنه لا يترك النسخ يومًا واحدًا، وإذا عرض ما يمنع فعل من النسخ شيئًا يسيرًا، ولو سطرًا أو سطرين. فلزمتُ قاعدته هذه، فرأيتُ في ذلك منفعةً عظيمة(١).

ومن العجائب النادرة أن المحدث أبا بكر الإسماعيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧١هـ) نسخ كتابًا بيده وهو طفل. يقول: كتبتُه إملاءً بخطي، وأنا يومئذ ابن ست سنين(٢).

وقد تجد الناسخ يدرِّب أهل بيته على النسخ وضبطه، فينشأ البيت على العلم والتكسب.

ومن اللطائف المُبْهِرة: أن المقرئ الناسخ ابن الحطيئة الفاسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٠هـ) علَّم زوجته وبنته الخط كأحسن ما يكون، فكان هو وبنته وزوجته ينسخون في الكتاب الواحد، فلا يفرِّق أحد بين خطوطهم(٣).

وقد كان بعض الناسخين المبدعين من مهارته، وقوة همته يكتب الشيء الكثير في الزمن اليسير، أو يكتب القدر الكثير، مقارنة بالعمر القصير. وخذ على ذلك أمثلة ثمانية عجيبة، وإنجازات كتابية بديعة:

١. أبو إسحاق الجرجاني -رحمه الله تعالى- (قبل ٤٠٠هـ) كان يكتب في

---

(١) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٤٢٠/١) والتاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٣٨٧)
(٢) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤٩٢/٢٦)
(٣) معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار (ص: ٢٨٨)

الليلة تسعين ورقة، بخط دقيق[١]. فعلق الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) قائلًا: هذا كان يمكنه أن يكتب صحيح مسلم في أسبوع[٢].

٢. النحوي أبو محمد الأرزني -رحمه الله تعالى- (ت ٤١٥هـ) كان يخرج في وقت العصر إلى سوق الكتب ببغداد، فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب «الفصيح» لثعلب، ويبيعه بنصف دينار، ويشتري نبيذًا ولحمًا وفاكهة، ولا يبيت حتى ينفق ما معه منه[٣].

٣. الناسخ الفقيه أبو علي العكبري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٨هـ) قال: كتبتُ ديوان المتنبي في ثلاث ليال[٤].

٤. عبد الجبار الخواري البيهقي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٦هـ) تفقّه على أبي المعالي الجويني، ونسخ بخطه «نهاية المطلب» للجويني أكثر من عشرين مرة، وعدد مجلداته تسعة عشر، وكان يكتبه ويبيعه[٥].

٥. أبو محمّد المنتجب النّيسابوريّ -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٢هـ) كتب زُهاء ثلاث مئة مصحف كريم[٦].

٦. أبو علي القيلوي خازن الكتب -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٣هـ) كَتب «صحاح الجوهري» ست نُسخ، وقال: كتبتُ ألفي مجلدة[٧].

٧. أحمد بن عبد الدائم -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٨هـ) من شيوخ النووي

---

(١) وفي تاريخ جرجان (ص: ١٤٣): سبعين ورقة.
(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٥٤/١٣)
(٣) معجم الأدباء (٢٨٣٠/٦)
(٤) تاريخ بغداد ت بشار (٢٩٨/٨)
(٥) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١٠٣٤)
(٦) مجمع الآداب في معجم الألقاب (٥٢٧/٦)
(٧) الوافي بالوفيات (١٣٧/١٢)

وابن دقيق وابن تيمية: كتب «الخرقي» في يوم وليلة، وكتب بخطه «تاريخ دمشق» مرتين، و«المغني» للموفق مرات. وذكر أنه كتب بيده ألفي مجلدة[١].

٨. عبد الغني فكري بك -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٧هـ) بذل مالًا كثيرًا لعدة نُساخ؛ لينسخوا له ديوان البحتري في وقت قياسي، فلم يمضِ يومٌ وليلةٌ حتى تمت النسخة المخطوطة للديوان بمجلدة تامة![٢].

ومن إبداعات النسَّاخ أن يَختزل أحدهم الكتاب الكبير، فيهذبه ويقرِّبه.

فهذا ابن سليمان الأندلسي الفاسي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٤١هـ) من براعته في نسْخ الكتب؛ أنه نسَخ نسخةً من فتح الباري لابن حجر في سِفر واحد. قال الكتاني: ولا زال عند حَفَدته إلى الآن[٣].

وقد يكون المؤلف والعالِم ناسخًا ماهرًا، فيُبدع ويَغلب النُّساخ رغم مهارتهم.

فهذا الحافظ الماسَرْجِسيُّ -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٥هـ) كتب بخطه مسند أبي بكر الصديق، في بضعة عشر جزءًا، فكتبه النُّسَّاخ في نيِّف وستين جُزْءًا[٤].

كتابة الكتب والمتون للضبط والحفظ والتقوُّت

هؤلاء الكاتبون والناسخون؛ لهم مقاصدهم، فمنهم من يكتب أمهات الكتب، أو متون العلم، وقصدُه أن يضبطها ويحفظها لنفسه، إضافة إلى التقوُّت من وراء ذلك. وخذ على هذا ثلاثة عشر مثالًا، كلها مشرقة مشْرِّفة:

---

(١) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤٩/٢٥٥)
(٢) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث - أحمد تيمور باشا (ص١٣٣)
(٣) فهرس الفهارس (٢/١٠٢٤)
(٤) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٦/٢٨٩) وطبقات علماء الحديث (٣/١٤٧)

١. الورَّاق يحيى بن عدي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٤هـ) عوتِب على ملازمة النَّسْخ والقعود له، فقال: من أي شيء تعجب؟ أمن صبري وقعودي؟! لقد نسختُ بخطي نسختين من «التفسير» للطبري، وحملتهما إلى ملوك الأطراف.. ولَعَهدي بنفسي وأنا أكتب في اليوم والليلة مئة ورقة(١).

٢. الناسخ ابن الخاضبة -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٩هـ) يقول: كنت أنسخ، وأنفق على أهلي، وقد كتبتُ «صحيح مسلم» في سَنةٍ سبع مرات(٢).

٣. ابن الأُخُوَّة اللؤلؤي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٨هـ) كان سريع القراءة والكتابة، فقد كتب بخطه «التنبيه» لأبي إسحاق، كتبه في يوم واحد، وصفحاته تقارب الثلاث مئة صفحة(٣).

٤. أبو الفضل الصنهاجي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٩هـ) كتب بخطه «الموطأ» لمالك، و«صحيح البخاري»، و«صحيح مسلم»، و«سنن أبي داود»، وغيرها(٤).

٥. الفقيه الشافعي علي بن هبة الله الأسنائي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٧هـ) كتب «الروضة» للنووي بِخَطِّهِ، وهي في اثني عشر مجلدًا، وكان يستحضر غالبها(٥).

٦. الفقيه ابن عمران الشهابي المنبهي -رحمه الله تعالى- (ت ٧١٤هـ) نسخ «المهذب» في أربعة مجلدات، وهو يدرِّس القرآن! وهذا أمر غريب؛ لأن الناسخ لا يستطيع عمل شيء آخر مع النِّسَاخة(٦).

---

(١) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقِفطي (ص ٢٧٠) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٣١٨)
(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي (١٨/٤)
(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢٨١/٢٠)
(٤) معجم السفر (ص: ٣٦)
(٥) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٦١/٤)
(٦) العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية (٣٣٩/١)

٧. عبد الغفار السعدي المصري -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٢هـ) كان يقول في أواخر عمره: كتبت بخطي ما يزيد على خمس مئة مجلد، ما بين فقه وحديث وغيرهما[١].

٨. الكاتب أحمد بن يحيى السُّهْرَوَرْدي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤١هـ) كتب بخطه ثمانية وسبعين مصحفًا. وكتب «إحياء العلوم» للغزالي، و«عوارف المعارف» لجد أبيه ثلاث نسخ، و«نهج البلاغة» أربع نسخ[٢].

٩. العَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٥هـ) كتابته حسنة مع السرعة، حتى استُفيض عنه أنه كتَبَ متن «القدوري» [٢٤٠ صفحة] في ليلة، وكتَبَ «الحاوي الصغير» [٣٠٠ صفحة] في ليلة[٣].

١٠. ابن بريطع الغزي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٤هـ) كتب بخطه الكثير «كالصحيحين والاستيعاب والكشاف» وأكثر من مئة مجلد[٤].

١١. حفيدٌ للسراج البُلْقَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٢هـ) كَتَبَ «فتح الباري» لابن حجر مرتين[٥].

١٢. عبد القادر الفاسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٩١هـ) كان يتعيش من الوراقة، وأكثر نسخه «صحيح البخاري ومسلم»، مع إدمان قراءتهما ونسخهما، لا يَعزب عنه منهما حرف، ولا حركة، ولا راوٍ[٦].

١٣. و-أيضًا- خبر الشوكاني الآنِف، في انتفاعه بطريقة العالِم الذي لا يترك النَّسْخ يومًا واحدًا، ولو سطرًا أو سطرين. فلزم قاعدته، فانتفع منفعةً عظيمة.

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٨٥/٣)
(٢) أعيان العصر وأعوان النصر (٤١٤/١)
(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٣١/١٠)
(٤) المصدر السابق (٢٨٩/٧)
(٥) المصدر السابق (٧١/٧)
(٦) فهرس الفهارس (٧٦٦/٢)

الناسخون والكاتبون الضابطون الأمناء

ومنهم من يمتلك القدرة التمحيصية للمقارنة والمقابلة، إضافة إلى التمكن الكتابي، كالناسخ عبد اللطيف بن محمد السكري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥١هـ) فقد كان من أكثر الكُتُبيين كُتُبًا، وفي كُتبه الكثير من الكراريس الملفَّقة، والأجزاء المخرومة التي كان يأخذها من التُرك، ثم يسهر الليالي المتوالية على الشمع ونحوه؛ ليُكمل بعضها من بعض[١].

ومن بركات الله على هذه الأمة أن أجرى الله خيرًا كبيرًا، على يد كثير من النُّساخ الضابطين الأمناء، فحفِظ الله على أيديهم جملة من تراث الأمة.

وإليك ثلاث نماذج إبداعية لهؤلاء الضابطين الأُمناء:

١. أبو عبد الله ابن رُشَيِّق -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ) كان كاتب مصنفات ابن تيمية، وكان خط ابن تيمية في غاية التعليق والإغلاق، وكان أبصرَ بخط الشيخ منه، فإذا عزَب شيء منه على الشيخ نفسِه استخرجه ابن رُشَيِّق. وكان مكثرًا من كتابة كلامه، لا يختلف عليه أصحاب الشيخ أنفُسُهم في هذه الأمور[٢].

وهذا أحد رفقائه يخاطب طلاب ابن تيمية قائلًا: فاحتفظوا بالشيخ أبي عبد الله - أيده الله - وبما عنده من الذخائر والنفائس؛.. لأنه قد بقي في فَنِّه فريدًا، ولا يقوم مقامه غيره من سائر الجماعة على الإطلاق.. فاحتسبوا مساعدته عند الله -تعالى-، وانهضوا بمجموع كلفته، فاكتبوا ما عنده، وليَكتب ما عندكم[٣].

---

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٣٣٨/٤)

(٢) البداية والنهاية ط هجر (٥١٠/١٨) وتاريخ ابن الوردي (٢٧٧/٢). وانظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص: ٢٣)

فائدة: ابن رشيِّق هو صاحب رسالة «مؤلفات شيخ الإسلام» وكانت الرسالة تُعزى خطأً لابن القيّم.

(٣) الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية (ص: ١٥٢) والقائل هو ابن مرِّي -رحمه الله تعالى- المتوفى بعد ٧٢٨ هـ.

٢. ابن مرّي -رحمه الله تعالى- (بعد ٧٢٨ هـ) أحد طلاب وكُتَّاب إملاءات ابن تيمية. وتأمله حيث يوصي زملاءَه بعد وفاة شيخهم، فيقول: وإنَّ مما أحث هِمَمَكم الصالحة عليه، تحصيل كراريس «الرد على عقائد الفلاسفة» لأنَّهُ ليس في الوجود بهذا المؤلَّف نسخة كاملة، غير النسخة التي بخطي.. وقد بقي من آخر نسختي أقل من ورقة.. وكمِّلوها؛ لأنه مؤلَّف لا نظير له، ولا يَكسر الفلاسفة مثله(١).

٣. الشيخ الأصولي عيسى منّون -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٧هـ) فقد كان السبب في نشر وطبع تلك الموسوعة الفقهية «المجموع» للنووي، حيث وَجد عند بائع كتب متجول كراسات مخطوطة قديمة يبيعها، فقام مع لجنة بالتصحيح والمقابلة والتحقيق، لهذا الكنز الفقهي المذهبي الضخم، وأخرَجُوه للأمة.

أغلى النُّسَخ لمشاهير النُّسَّاخ

وقديمًا: يَتغالَى مشتَرُو النُّسخ التي يكتبها خطاطون مَهَرة. فمثلًا إذا كان ثمت مزاد علني في سوق الكتب، وقال المنادي: كتاب كذا بخط الخطاط اللغوي النجيرمي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٣هـ) رُفعت نحوه الأعناق(٢).

وإنْ أمرّ على رَقٍ أنامِلُهُ   أقرَّ بالرِّق كُتَّاب الأنام لهُ(٣)

وبعده بقرن؛ كان النحوي الأديب الخطاط ابن الخشاب -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٧هـ) إذا كتب كتابًا بخطه يُشترَى بالمئين، وتتنافس عليه بواعث المستفيدين(٤).

---

(١) الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص: ١٥٣)
(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٧٣/٤)
(٣) تاريخ البريهي (ص: ٢٤٣)
(٤) المصدر السابق (١٠٢/٢)

وبعده بقرْنَين: الكاتب الخطاط ياقوت الموصلي -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٩هـ) الذي كان مُغرَمًا بنقل «الصحاح» للجوهري، وكتب منها نُسَخًا كثيرة، كل نسخة تباع بمئة دينار(١).

وبعد الموصلي بقرن جاء المؤرخ الفقيه أبو العباس النّويري -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٣هـ) فكتب «صحيح البخاري» ثمانيَ مرات، وكان يبيع كل نسخة من «البخاري» بخطه بألف درهم(٢).

وفي المعاصرين نماذج كثيرة منِ العلماء، ومن الكُتبيين، والمصممين المبدعين والأمناء الفضلاء. فليحتسبوا أجرهم، وإن قبضوا أُجرتهم؛ ليكونوا كأم موسى، تُرضع ابنها وتتقاضَى أجرًا.

عقبات ومَتاعب النُسَّاخ والكُتَّاب

من العقبات والمفسدات: دخول الغش والتدليس في بيع المخطوطات، وانتحالها! ولذا قالوا: من آفات العلم خيانة الورَّاقين(٣).

ومن آفات بعض النُّسَّاخ المسخ والسلخ، بأن يغيروا ألفاظ المصنفين، وكان الواجب تَبْقِيَةُ صورة خط المصنِّف على حالها(٤).

ومن المتاعب والمصاعب صعوبة قراءة المخطوطات، وانغلاق بعض كلماتها، مع قلة الإمكانات.

ولا تحسبن أن قراءة الورقة الواحدة من مخطوط بالأمر السهل، بل يحتاج لتركيز، وربط، وضبط، ودَرَبة، ومعايشة للمؤلف، وما يطرحه، ويصحبه كَلال البصر، وإرهاق بالسهر.

---

(١) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (٤/٣٥)
(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٩/٢٩٩)
(٣) يتيمة الدهر (٤/٢٣٣)
(٤) أشار لهذا السبكي في طبقاته (٦/٧٦)

• قال الناسخ ابن الخاضبة -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٩هـ): رأيت كأن القيامة قامت، ومنادٍ ينادي: أين ابن الخاضبة؟ فأُحضرتُ، فقيل لي: ادخل الجنة، فلما صرت من داخل استلقيت على قفاي، ووضعت إحدى رجلي على الأخرى، وقلت: استرحتُ واللهِ من النسخ!.. فلما أصبحت نُعي إلينا الشريف[1]. أي: مات الذي كان يكتب عنده أجيرًا.

وقال الشيخ حماد الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٨هـ): مكثت مرة شهرًا لا أبصر بعيني، وأظن أن السبب قراءة المخطوط[2].

وكانوا قبل الكهرباء يتحرون الليالي القمرية؛ ليكتبوا ويقرؤوا فيها. وخذ مثالين:

• قال فتح بن شَخْرَف -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٣هـ): عندي قلم كتبت به أربعين سنة، كنت أكتب به بالنهار، وأكتب به بالليل في القمر حتى يرتفع[3].

• محمد بن قرقماس الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٢هـ) لازَم الكتابة، بحيث إن أكثرَ رزقه منها، وأكثرُ كتابته في الليل، حتى إنه يكتب في ضوء القمر[4].

بذل الأثرياء الأسخياء أموالًا طائلة للنُسَّاخ وللمؤلفين:

من العقبات إعواز النفقة على النُّسَخ والنُّسَّاخ، وقد كان الأثرياء الأسخياء، يبذلون للنُسَّاخ وللمؤلفين الموفقين أموالًا طائلة. وكأن الواحد منهم ينادي على نفسه قائلًا: يوم أن فاتَني إدراك العلم فلا يَفُتْنِي دعمُه. ودونك عشرة أمثلة للباذلين المذلِّلين للعلم والمضَحِّين:

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي (١٨/٤)
(٢) المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري (٤٢٥/١)
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٣٢/٤٨)
(٤) الضوء اللامع (٢٥٥/٤)

١. الفراء -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٧هـ) ما تمكَّن من تأليف «أصول النحو»، إلا بتوفيق الله، ثم بأمرٍ ودعمٍ من الخليفة المأمون، حيث وكَّل به جواري وخدمًا، يقومون بما يحتاج إليه، فكان يُملي والوَرَّاقون يكتبون، فانتهى منه في سنتين(١).

٢. الحافظ الفقيه ابن شِيرويه -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٥هـ) أكثَرَ عن بُندار، فقال له: يا ابن شيرويه! أَفْلَسْتَني، وأَفْلَسَك الورَّاقون(٢).

٣. الخليفة الحكم بن عبد الرحمن المُسْتَنْصر بالله -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٦هـ) كان له وَرَّاقون بأقطار البلاد، ينتخبون له غرائب الكتب، ويُنقِّبون له نفائس التواليف(٣).

٤. الوزير ابن خِنزابة -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩١هـ) كان يُعمل له الكاغد بسمرقند، ويُحمل إليه إلى مصر، وكان له عدة ورَّاقين(٤).

٥. الأمير خلف بن أحمد السِّجزي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٩هـ) حفيد ملك سجستان، جمع هو وثلة من العلماء تفسيرًا ضخمًا جدًا، يبلغ مئة مجلد، فأنفق على العلماء والنُّسَّاخ عشرين ألف دينار، مدةَ اشتغالهم بمعونته على جمعه، وتصنيفه(٥).

٦. التاجر أبو المطرِّف ابن فطيس -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٢هـ) كان له ستة ورّاقين، يَنسخون له دائمًا، وكان قد رتَّب لهم على ذلك راتبًا معلومًا(٦).

---

(١) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (١٤/١٥٥)
(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي (٢/١٩٨) وطبقات علماء الحديث (٢/٤٢٧)
(٣) الحلة السيراء (١/٢٠٠)
(٤) معجم الأدباء (٢/٧٨٧)
(٥) سير أعلام النبلاء (١٧/١١٧)
(٦) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٢٩٩)

٧. موفق الدين بن المطران -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٧هـ) مات وفي خزانته من الكتب عشرة آلاف مجلد، وكان في خدمته ثلاثة نُسَّاخ يكتبون له أبدًا[١].

٨. البكري المحتسب -رحمه الله تعالى- (بعد ٦٢٤هـ) أحضر العلماء والنُّسَّاخ، وقرر معهم أن يرتبوا «مسند أحمد» على الأبواب، وقرر لهم في الشهر ستين درهمًا، وبذل لهم الورق وأجرة النُّساخ[٢].

٩. الوزير الصاحب أمين الدولة -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٨هـ) كانت النُّسَّاخ أبدًا يكتبون له، ومن علو همته أنه استأجرهم؛ لنسخ «تاريخ دمشق» للحافظ ابن عساكر، وهو بالخط الدقيق ثمانون مجلدًا. ففرَّقه على عشرة نُسَّاخ، لكل واحد منهم ثمان مجلدات، فكتبوه في نحو سنتين، وصار الكتاب بكماله عنده[٣].

١٠. الملك المؤيد هزبر الدين داود -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢١هـ) كان محبًا للعلوم والكتب، مقربًا لأهلها، وكان عنده زيادة على عشرة نُساخ، ينسخون الكتب، وترفع إلى خزانته بعد مقابلتها وتحريرها[٤].

ومن العقبات التي اجتازها النُّسَّاخ بهِمَمِهِم: الإعاقة البدنية، التي قد يقدِّرها الله على بعضهم.

ومن عجائب الأمثلة - ما مرَّ معك من قصة- الناسخ ابن فطيمة البيهقي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٦هـ) فقد كان مقطوع أصابع يديه العشر؛ لِعِلَّةٍ

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٦٥٥)
(٢) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤٥/٢٣)
(٣) المصدر السابق (ص: ٧٢٥)
(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب (٣٣/١٦٣)

لحِقَتْها، فكان يأخذ القلم بكفيه، ويترك الورق تحت رجليه، ويكتب بكفيه خطًا مليحًا، من أسرع ما يكون، وكان يكتب كل يوم خطًا واسعًا مقروءًا[١].



(١) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣٦/٤١٠) وطبقات الشافعيين (ص: ٥٩٥)

٢٥. الإبداع في التأليف

التأليف لا يخلو من إبداع في حدِّ ذاته، فإذا صاحَبه شغَفٌ وعلم فقد تم الإبداع. ولن تزال هذه الأمة مع قِصَر أعمارها في ازدياد وتَرَقٍ في المواهب.

إذا أخـذ القرطـاس ظلّـت يمينـه ... تَفَتّـح نَـورًا أو تُنظّـم جوهـرا[١]

قال الخطيب -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ): ينبغي أن يُفرِّغ المصنِّف للتصنيف قلبه، ويُجْمِع له هَمَّه، ويصرف إليه شُغله، ويقطع به وقته. وكان بعض شيوخنا يقول: من أراد الفائدة فليَكسر قلم النسخ، وليأخذ قلم التخريج[٢].

وهذه العبارة عميقة نفيسة! تدعوك للإبداع والتفاني، ولو مع العَنَت والتعاني، وتحفزك للاختراع وافتراع المعاني، لا لتكرار الجهود والمباني.

وانظر -مثلًا- لكتابين كلاهما أولٌ في فنِّهما: «صحيح البخاري» في الحديث، و«كتاب سيبويه» في النحو، كيف أن الإبداع الكامن فيهما، وقبْله القبول من الله؛ جعلهما أمهاتٍ مقدَّمات في فنهما، مهما تقادمت القرون، وتعاقبت الأجيال.

حكى ابن المنَيِّر (ت ٦٨٣هـ) عن جَده -رحمهما الله تعالى- قال: كتابان فِقههما في تراجمهما؛ «كتاب البخاري» في الحديث، و«كتاب سيبويه» في النحو[٣].

بدائـع الحسـن فيـه مفترقـهْ ... وأعيـن النـاس فيـه متّفِقـهْ[٤]

---

(١) معجم الأدباء (١٥٢٣/٤)
(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢٨٢/٢)
(٣) المتواري على أبواب البخاري (ص: ٣٧)
(٤) مجلة المقتبس (٢٢/٢)

فيا أيها العلماء المؤلِّفون والمبدعون في تعليم العلم: تداركوا أعمارهم، وضاعِفوا جهودكم في التدريس والتأليف، فما أعظم أثركم على الناس، وما أبرك عملكم، وعلى قدر بركته يمتد نفعه، وما أجلَّ سعيَكم في بناء معالم الشرع وحمايته. فأنتم بُناة ومؤسسون، ودعاة متخصصون، فاعتلُوا مجدًا سامقًا، واكتبوا علمًا ساميًا، وليكن لسان حالكم ومقالكم ينادي قائلًا:

وما أنا راضٍ أنني واطىءُ الثرى ... ولي همة لا ترتضي الأفْق مَقعدا
ولي قلم في أنمُلي لو هززْتُه ... فما ضرّني ألا أهزّ المهندا[1]

وقد قال بعض العلماء: إن قوله ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به..** » يدخل فيه الانتفاع بالتأليف؛ لأنه مظنة عدم انقطاع الانتفاع[2].

قال بدر الدين الزركشي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٤هـ): من فروض الكفايات: تصنيف كتب العلم لمن منحه الله -تعالى- فهمًا واطلاعًا. فلو تُرك التصنيف لضُيِّع العلم على الناس[3].

ومن لطيف المَرائي المحفِّزة للتدريس والتأليف: أنه رئي سحنون -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) في النوم كأنه يبني الكعبة، فغدا الرائي إليه، فوجده يقرأ للناس «مناسك الحج» الذي جمعه[4].

ولذا تجد المؤلفين المبدعين، يَعتبرون مؤلفاتهم في عِداد أولادهم مِن صُلبهم.

---

(١) معجم الأدباء (٢٧٦٧/٦)
(٢) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (١٢/١) والحديث رواه مسلم (٤٣١٠)
(٣) المنثور في القواعد الفقهية (٣٥/٣)
(٤) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٨٦/٤)

قال أبو الفضل عبد الرحمن الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٤هـ) إن هذه الأوراق تَحُلُّ منا مَحَلَّ الأولاد(١).

ومن حرصهم على استثمار الوقت بالتأليف: أنهم كانوا يوصون مُريد التأليف بأن يجعل له سنام وقته لا ذنَبه، ويبذل له عصارة فكره لا زَبَده.

قال الخطيب -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ): ينبغي أن يُفرِّغ المصنِّف للتصنيف قلبه، ويُجْمِع له هَمَّه، ويصرف إليه شُغله، ويقطع به وقته. وكان بعض شيوخنا يقول: من أراد الفائدة فليَكسر قلم النسخ، وليأخذ قلم التخريج(٢).

وهذه العبارة الآنفة عميقة نفيسة! تدعوك للاجتهاد والتعاني، والاختراع وافتراع المعاني، لا لتكرار الجهود والمباني.

وعلى هذا؛ فلا غرابة أن تجد المؤلف العالم يُكثر من التأليف، حتى يطغى على عامة عمره.

قال التاج عبد الوهاب السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧١هـ): سُهِّل لكثير من العلماء من التصانيف في الزمن اليسير، بحيث وُزِّع زمان تصنيفهم على زمان اشتغالهم بالعلم، إلى أن ماتوا، فوجد لا يفِي به نَسخًا، فضلًا عن التصنيف.. واتفق النقَلة على أن عُمُر الشافعي -رحمه الله- لا يفِي بعُشر ما أبرزه من التصانيف مع.. الأمراض التي كانت تعتَوِرُه، بحيث ربما اجتمع فيه ثلاثون مرضًا. فسبحان من يبارك لهم، ويطوِي لهم(٣).

وهذا التاج السبكي، قد توفي وعمره أربع وأربعون سنة، وقد طبق على نفسه كلامه الآنف الذكر؛ لأنه وجد بالتأليف بُغيته، وقضى به نَهمته، ولذا تراه يوصِي مَن بعده بالتأليف قائلًا: فإن العالِم وإن امتدَّ باعُه، واشتد في ميادين الجدال

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٩٨/٥٢)
(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢٨٢/٢)
(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣٤٢/٢)

دفاعه، واستدَّ ساعده.. فنفْعُه قاصر على مدة حياته، ما لم يُصنِّف كتابًا يخلَّد بعده، أو يورِّث علمًا ينقله عنه تلميذ.. ولَعَمري إن التصنيف لأَرفعها مكانًا؛ لأنه أطوَلها زمانًا، وأدْوَمها إذا مات أحيانًا، ولذلك لا يخلو لنا وقت يمر بنا خاليًا عن التصنيف، ولا يخلو لنا زمن إلا وتقلَّد عِقْدُه جواهر التأليف، ولا يخلو علينا ساعة إلا ويُعمِل فيها القلم بالترتيب والترصيف[١].

من أجل هذا؛ يرى جمع من العلماء أن نفع التأليف لا يُعادِلُه نفع.

ولذا قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) الذي نيَّفت مؤلفاته على المئتين: رأيت من الرأي القويم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة؛ لأني أُشافِهُ في عمري عددًا من المتعلمين، وأُشافِه بتصنيفي خلقًا لا تحصى ما خلقوا بعد، ودليل هذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدون من مشايخهم.. وليس كل من صنّف صنّف، وليس المقصود جمع شيء كيف كان، وإنما هي أسرار يُطْلِع الله عَزَّوَجَلَّ عليها من شاء من عباده، ويوفقه لكشفها، فيجمع ما فُرّق، أو يُرتِّب ما شُتِّت، أو يشرح ما أُهمل، هذا هو التصنيف المفيد[٢].

بل إن القاسمي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٢هـ) يرى أن التأليف أنفع من الرحلات الدعوية الخطابية، حيث يقول: طَبْع كتاب خير من ألف داعٍ يتفرقون في الأقطار؛ لأن الكتاب يأخذه الموافِق والمُخالِف، والداعي يجد من العوائق ما لا يُظفِره بأمنيته[٣].

وهذا الذي جعل الأديب محمد كرد علي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٢هـ) يندم في آخر حياته ويقول: ولو كنت خصصتُ أوقاتي كلها للتأليف، ولم أصرف

(١) مقدمة جمع الجوامع للتاج ابن السبكي (ص٣٨)
(٢) صيد الخاطر (ص: ٢٤١)
(٣) الرسائل المتبادلة بين القاسمي والألوسي - محمد العجمي (ص: ٥٦)

أعوامًا في السياسة، لكانت مجموعة ما كتبتُ أكثر، ولو كنت أُحسن الدعاية لتآليفي لصادفَتْ رَواجًا أكثر مما صادفت..

ثم يعزّي نفسه قائلًا: وربما كانت شهرتها بعد مؤلفها أكثر من شهرتها في حياته، وبعد ذهاب المؤلف من الأرض يُقدَّر بقيمته الحقيقية(١).

ومن الحرمان أن يموت عالم متفنن، وليس له مؤلَّف يبقَى من بعده.

فهذا ابن المُغْلِي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٨هـ) كان غاية في الذكاء، وسرعة الحفظ، وجودة الفهم، وله تقدُّم في العلوم، ولكنه لم يشتغل بالتصنيف. قال عنه ابن حجر: وكنت أحرِّضه على ذلك؛ لما فيه من بقاء الذِّكر، فلم يوفَّق لذلك(٢).

كـن للعلـوم مصنِّفًا أو جامعًا ... يبقـى لـك الذكـر الجميـل مخلَّـدا
يُنسـى الأواخـر والأوائـل كلهـم ... إلا أخـا العلـم الـذي حـاز المـدى(٣)

ولكن يبقى أن التأليف مواهب من الوهاب -سبحانه-، حتى إن بعض المبدعين يوهَب في التأليف ما لا يوهَب في التدريس أو الإلقاء.

وتأمل في سيرة المازري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٦هـ) شارح «صحيح مسلم»، وصفُوه بأن: قلمه أبلغ من لسانه، وكذا النحوي الشَّلوبيني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٥هـ)، قالوا: إن قلمه في التصنيف أجود من عبارته(٤). ومثلهما قيل في الشيخ بكر أبو زيد -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٩هـ).

ومن فَتَح الله عليه بالتأليف، وحسن السبك للعبارات، وربط المباحث ببعضها، وتوظيف المعلومة، ونفاسة الجمع، وتلمُّس حاجة القراء؛ فهذه سعادة

(١) المذكرات لمحمد كرد علي (٣٢٠/١)
(٢) إنباء الغمر بأبناء العمر (٣٥٧/٣)
(٣) معجم الأدباء (٩/١)
(٤) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٣٣٣/٢) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٠٦/٢٠)

وتوفيق من الله، والموصوف بهذا الفتح يُعتبر حاطب نهار ماهر، فسيوقِد من حطبه خير نار عندها خير مُوقِد، أما حاطبو الليل فما أكثرهم!

واعلم أن المؤلفين المعتبرة تصانيفهم فريقان، قسَّمهم حاجي خليفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٦٧هـ) فقال: الأول مَن له في العلم ملَكة تامة، ودَرَبة كافية، فتصانيفهم عن قوة تبصرة، ونفاذ فكر، يجمع إلى تحرير المعاني تهذيب الألفاظ، وهؤلاء أحسنوا إلى الناس، كما أحسن الله ﷻ إليهم، وهذه لا يَستغني عنها أحد.

والثاني: من له ذهن ثاقب، وعبارة طلقة، طالع الكتب فاستخرج دُرَرها، وأحسن نظمها، وهذه ينتفع بها المبتدئون والمتوسطون، ومنهم: من جمع وصنف للاستفادة، لا للإفادة، فلا حَجْر عليه، بل يُرْغَب إليه إذا تأهَّل.. ثم إذا تمَّ لا يُخرج ما صنفه إلى الناس، ولا يدَعُه عن يده، إلا بعد تهذيبه، وتنقيحه، وتحريره، وإعادة مطالعته(١).

علامة الإبداع في كتاب انتشاره:

ثمَّت عبارة تدل على هذا المعنى، يتداولها بعض أهل التراجم، فيصِفُون عالِمًا بأنه: «رُزِق القبول أو السعادة في مصنفاته»، فإن كانت الأخرى فقد يقولون عكسها.

وإليك خمسةَ أمثلة على المِنوال الأول- جعلنا الله من أهله -، **وهم من رُزقوا قبولًا وسعادة في مصنفاتهم:**

١. البيهقي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٨هـ): ودائرته في الحديث ليست كبيرة، بل بورِك له في مرويّاته، وحسن تصرُّفه فيها؛ لحذقه وخبرته بالأبواب والرِّجال(٢).

---

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٣٨/١)

(٢) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤٤٠/٣٠)

٢. الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ) قال ابن الجوزي عنه: من نظر في مصنَّفاته عَرف قَدْرَ الرجل، وما هُيِّئ له مما لا يتهيَّأ لمن كان أحفظَ منه، كالدارقطني[١].

٣. القاضي عياض -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٤هـ) فقد رُزقت مصنفاته من الحظوة، وحسن القَبول، والتلقِّي ما لم يُرزقه مؤلف مغربي آخر. ومما يشيع على ألسنة المغاربة قولهم: «لولا عياض لما ذُكر المغرب»[٢].

٤. الفخر الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ) قالوا عنه: ورُزق سعادة في مصنفاته، وانتشرت في الآفاق[٣].

٥. ابن نُجَيْم الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٧هـ) مات وعمره أربع وأربعون سنة، ومع ذلك فقد رُزق السعادة في مؤلفاته، فما كتب ورقة إلا واجتهد الناس في تحصيلها بالجاه والوَرِقِ[٤].

ثم خذ خمسةً أخرى، تنطبق على مَن وصَفُوه بأنه **لم يُرزَقوا سعادة في مصنفاتهم** - عافاني الله وإياك من ذاك- ولكن لا يجوز القدح بنياتهم، لكنها مواهب من الوهاب:

١. محمد بن عثمان بن أبي شيبة -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٧هـ) قال عنه الذهبي: وكان من أوعية العلم، وجمع وصنف، وله «تاريخ» كبير، ولم يرزق حظًا، بل نالوا منه[٥].

٢. أبو حيان التوحيديُّ -رحمه الله تعالى- (ت بعد ٤٠٠هـ) له كتاب: «مناقب

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٣٠/١٦) ومرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢٤٢/١٩)
(٢) مقالات الطناحي (٩٤/١)
(٣) طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٦٥/٢) والرازي هذا؛ قيل: إنه ندم على دخوله في علم الكلام، وسمعوه مرتين يبكي ويقول: يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام!
(٤) سلم الوصول إلى طبقات الفحول (١١٩/٢)
(٥) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢١/١٤)

الوزيرَين» ضمَّنه معايب وزيرَين في زمانه، وبالَغ في سبِّهما وسلبِهما ما استقر عنهما من الفضائل.

قال ابن خَلكان: وهذا الكتاب ما مَلَكه أحد إلا وانعكست أحوالُه. ولقد جربتُ ذلك، وجرَّبه غيري[١].

٣. أبو حامد الموصلي الإربلي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٨هـ) قال ابن خَلكان: ولم يُرزق سعادة في مصنفاته؛ فإنها ليست على قدر فضائله[٢].

٤. عز الدين ابن جماعة -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٩هـ) قال عنه تلميذه ابن حجر -رحمه الله تعالى-: صنَّف التصانيف الكثيرة المنتشرة.. ولم يُرزق سعادة في حسن التصنيف، بل بين لسانه وقلمه، كما بيْنه هو وآحاد طَلَبته[٣].

٥. وبنحو هذه العبارة عبَّر ابن حجر عن حال مؤلفات شيخه الآخر البُلقَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٥هـ) فقد قال: وكان -مع سعة علمه- لم يُرزق حسن ملَكة في التصنيف[٤].

نموذج لأحد العلماء المبدعين بالتأليف، والشغوفين بالبحث:

إنك لتجد المبدعين مكثرين من المؤلفات، وشغوفين بالكتابة، حتى يقول قائلهم: لعلي أكتب في ذلك كتابًا، أو يقول: وهذا يستدعي سِفْرًا، لعلنا نفرده. ثم قد يَفعل، والغالب أنه لا يُمهِلُه الموت، فالعمر قصير.

وخذ أمثلةً لعالِم واحد فقط، وهو ابن القيم -رحمه الله تعالى- فحسب! فقد تمنى أماني علمية، لكن لم يُمهِله الأجل! ولنلتقط تلك الأماني من ثنايا كتبه. وخذ اثني عشر مثالًا:

(١) وفيات الأعيان (١١٣/٥) وعنه العليمي في: التاريخ المعتبر في أنباء من غبر (٢١٣/٣)
(٢) العقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ١٥٠)
(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر (١١٥/٣)
(٤) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس (٣٠٠/٢)

١. قال في تحريم نكاح المحلِّل وبطلانه: يستدعي سِفْرًا ضخمًا[١].

٢. ما يخفى على الصحابة مما قضى الله ورسوله به، قال عنه: لو تتبعناه لجاء سِفرًا كبيرًا[٢]

٣. قال في آية المُدَايَنة: تستدعي سِفرًا وحدها[٣].

٤. عن شبهات أهل البدع على أهل السُّنَّة قال: يَستدعي أسفارًا لا سِفرًا واحدًا[٤].

٥. أدلة المعاد في القرآن: وإنْ ساعَد التوفيق كتبتُ في ذلك سِفرًا كبيرًا[٥].

٦. إثبات الصفات والأفعال للرب -سبحانه-: لو أعطينا هذا الموضع حقَّه -وهيهات أن يصل إلى ذلك علمنا أو قدرتنا - لكتبنا فيه عدة أسفار[٦].

٧. علو الرب -تعالى- واستوائه على عرشه: لو تتبعناه لكان بمقدار هذا الكتاب مرارًا[٧]

٨. أمثلة في قوى الأغذية والأدوية المدركة بالحس. قال: تزيد على الألف.. ولولا الإطالة لكتبنا منها ما يبلغ ألف مثال[٨].

٩. قال عن تفضيل هذه الأمة وخصائصها: يستدعي سِفرًا، بل أسفارًا[٩].

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤٤/٣)
(٢) المصدر السابق (١٩٢/٢)
(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣٧٩)
(٤) المصدر السابق (ص: ٢٣٨)
(٥) الرسالة التبوكية = زاد المهاجر إلى ربه (ص: ٧٠)
(٦) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٩١٧/٣)
(٧) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٤١٦)
(٨) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١٠٣/٢)
(٩) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٤٢٩/٢)

١٠. قال: وقائع فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - تستدعي سِفرًا ضخمًا[١].

١١. مسألة «سلام عليكم». قال: فلولا قصد الاختصار لجاءت مجلدًا ضخمًا[٢].

١٢. مسألة الجهر بالبسملة في الصلاة. قال: يستدعي مجلدًا ضخمًا[٣].

فيا لله! لهذا القلم السيال، وهذه النفس الشغوفة بالعلم، والمبدعة بالتأليف:

إذا أخذ القرطاس ظلّت يمينهُ ... تَفَتّح نورًا أو تُنَظّم جوهرا[٤]

ويمتد شغفهم بالإبداع التأليفي، لِيمتد حتى بعد مغادرة الدنيا.

وقد رُئي الحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٤٠٩هـ) في المنام بعد وفاته، فقال مُوصِيًا: خرِّج وصنِّف قبل أن يُحال بينك وبينه؛ هذا أنا تراني قد حِيل بيني وبين ذلك[٥].

يَتواصَون بالإبداع التأليفي:

لا زالت وصايا المؤلفين المبدعين، تنادي أصحاب الأقلام الواعدة المغمَدة: أن هلموا، وسُلُّوا أقلامكم، واطعنوا فيها حتى يسيل المداد! واستلهموا التجربة ممن سبقكم.

ذلك أن التأليف ليس مجرد ملء الزبُر، وتسويد الورق، بل لصيد ما شرد، واقتناص ما انفرد. ولذا قال الحكماء: إنفاق الفضة على كتب الآداب يَخْلُف عليك ذهب الألباب.. وهذه الآداب شوارد، فاجعلوا الكتب لها أزمة[٦].

---

(١) المصدر السابق (٤٥٨/٢)
(٢) بدائع الفوائد (١٩٧/٢)
(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢٠٠/١)
(٤) معجم الأدباء (١٥٢٣/٤)
(٥) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢٨٣/٢)
(٦) التمثيل والمحاضرة (ص: ١٦٠)

ولأجل هذا كانوا يَتواصَون، بألا يكرر المؤلف جهد مَن سبقه، وأن يقدم المضمون والمظهر بما هو جاذب ومشوق.

قال ابن العربي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٣هـ): لا ينبغي لحصيف يتصدى لتصنيف، أن يَعدل عن غرضين: إمّا أن يخترع معنى، وإمّا أن يبتدع وضعًا ومبنى، وما سوى هذين الوجهين فهو تسويد الوَرَق، والتحلي بحلية السَرَق[١].

ويبسط القولَ النوويُ -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ) فيقول: وينبغي أن يكون اعتناؤه من التصنيف بما لم يُسبق إليه أكثرَ، والمراد بهذا ألا يكون هناك مصنف يغني عن مصنفه في جميع أساليبه، فإن أغنى عن بعضها، فليصنف من جنسه ما يزيد زيادات يحتفل بها، مع ضمِّ ما فاته من الأساليب[٢].

ويزيده إيضاحًا قول ابن عرفة المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٣هـ): إنما تدخل التآليف في العلم الذي يُنتفع به: إذا اشتملت على فوائد زائدة على ما في الكتب السابقة عليه، أما إن لم يشتمل التأليف إلا على نقل ما في الكتب فهو تخسيرٌ للكاغد[٣].

وجماع هذه المقاصد التأكيد على الإتيان بالجديد، والحرص على الإبداع والابتكار، وإذا لم تكن الفكرة جديدة، فليكن التجديد في أسلوب العرض والاستنباط والتحليل.

ويمكن تلخيص الإبداع بالتأليف بما قاله العلماء: شرط المؤلِّف أن يخترع معنىً، أو يبتكر مبنىً[٤].

سبقتَ بأفراد المعاني وألّفَتْ   خواطرُك الألفاظ بعد شِرادها[٥]

---

(١) عارضة الأحوذي (٤/١) ونسبه السيوطي للأزدي، كما في التعريف بآداب التأليف (ص٢٨)
(٢) المجموع شرح المهذب (٣٠/١)
(٣) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٤٦٥) وأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (٣٣/٣)
(٤) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤١/٤)
(٥) معجم الأدباء (١٨٠٤/٤)

إيماضةٌ:

اعلم أن التأليف على سبعة أقسام، مندرج تحت سبع كلمات: اختراع، أو تتميم أو شرح أو اختصار أو جمع أو ترتيب أو إصلاح(١).

ومن الإيماضات في التفريق بين المؤلِّف والمصنِّف والمحقق: أن المؤلِّف مَن يجمع كلام غيره، والمصنِّف من يجمع مبتكرات أفكاره.

وأما المحقق؛ فمن اللفتات العميقة واللطيفة في هذا المقام؛ ما قاله الشيخ المؤرخ محمود شاكر -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٨هـ): أنا لا أحب أن أُسَمَّى محققًا، وإنما أنا قارئ كتب، ولذلك لا أكتب على كتبي «حققه» فلان بل أكتب «قرأه» فلان؛ لأن المطلوب من نشر الكتب هو أن يكون الكتاب مقروءًا حسب موضوعه، يهتدي الإنسان في قراءته إلى المعنى الذي أراده مؤلفه(٢).

ما أبدعوا إلا حين تعبوا:

ليُعلم أن هؤلاء المؤلفين المبدعين، ليسوا يبلغون إبداعهم دون مصاعب ومتاعب، بل يُعانُون لكن يُعانُون، ويَتعانَون، مع أنهم يَتمتعون! ويَتعبون، ولا يمَلُّون! فانقلب تعبهم إلى لذةٍ أحلى من الشَّهْد، واستحالتْ سهراتهم الليلية إلى مشاعل نور بعد وفاتهم، فورَّثوا لهم إبداعات سجَّلها لهم التاريخ، وشهد بها الناس جيلًا بعد جيل.

وتأمل ما قاله الجاحظ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ) وهو الخِرِّيت الخبير الذي سقطت عليه مكتبته فمات: وتصنيف الكتب أشد تقييدًا للمآثر -على ممر الأيام والدهور- من البنيان؛ لأن البناء -لا محالة- يَدْرُس، وتَعْفَى رُسومه،

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٣٨/١)
(٢) انظر: حاشية رد المحتار (٣٢/١) وجمهرة مقالات محمود شاكر (١٢٣٠/٢)

والكتاب باقٍ يقع من قرن إلى قرن، ومن أمة إلى أمة، فهو أبدًا جديد، والناظر فيه مستفيد[١].

والشجاع ينصَب في الوغى؛ لنيل وسام الشجاعة، والكريم قد يَفتقر؛ ليتبوأ بعد نصَبٍ منصب الكرم، ولكن النصَب في ابتغاء العلم أشهى، والفقر في طِلاب الحق أحلى.

لا تطلبِ المجد إن المجد سُلّمُهُ صعب وعش مستريحًا ناعم البالِ[٢]

قال أبو هلال العسكري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٠هـ): اجتهِد في تحصيل العلم لياليَ قلائل، ثم تذوَّق حلاوة الكرامة مدة عمرك.. واستبق لنفسك الذكر به بعد وفاتك[٣].

واعتبر بالمفسر الشهير الواحدي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٨هـ) حيث يقول في ختام تفسيره: وقد كنتُ تعبتُ دهرًا طويلًا من عُنفوان صباي، إلى أن تَناهَى أيام شبيبتي في إحكام مقدمات هذا العلم.. فحقق الله بفضله ذلك الرجاء، وأتمَّ بإتمامه عليَّ النعماء[٤].

وهذا الشيخ محمد بن طاهر الكردي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٠هـ) يشرح لك جانبًا من التعب التأليفي، حيث يقول: إنني لم أجد أصعبَ، ولا أتعبَ، ولا أشغلَ للإنسان من تأليف الكتب، مهما تنوعت واختلفت. ولئن كان شيء يسرع في ضعف الإنسان وهرَمه؛ فذلك الشيء إنما هو الاشتغال بالتأليف وحده.. تجده يبحث عن مسألة إذا به يعثر على أخرى ولمَّا يكمل الأولى بعد، تراه يحقق في بحث إذا به يصل إلى غيره؛ لتشعُّب الكلام، وارتباط بعضه ببعض..

---

(١) المحاسن والأضداد (ص: ١٩)
(٢) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع لأحمد الهاشمي (ص: ٧٧)
(٣) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه للعسكري (ص٥)
(٤) التفسير البسيط (٤٧٥/٢٤)

مسكين المؤلف، يشغل حواسه الخمس، ويصل يومه بالأمس؛ ليريح طلاب العلم والفنون[١].

وجانب آخر من تعب المؤلفين، يطرحه لك كبير الأدباء الجاحظ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ) حيث يقول عن حجم معاناته في مراجعة الكتب: ولربّما أراد مؤلّف الكتاب أن يُصلح تصحيفًا، أو كلمةً ساقطةً، فيكون إنشاء عشر ورقات من حُرّ اللفظ، وشريف المعاني، أيسر عليه من إتمام ذلك النقص[٢].

وهذا مؤلف مشهور، جاوزَتْ مؤلفاته السبعين، ألا وهو الأديب علي الطنطاوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) يقول: وإن سألتموني ما هي متاعب الكتابة والنشر - وأنا مبتلى بهما من ستين سنة، أو هما المبتلَيان بي - لقلتُ لكم إنها التطبيعات.. وفيها ما يُحرَّف ويُصحَّف.. حتى تجيء كلمة جديدة لا يَدري حتى كاتبها -الذي هو أنا- ماذا كان أصلها![٣].

فهذا الإبداع في التأليف؛ لا تحسبه تمرًا أنت آكله، بل يصحبه من الكبَد والنصَب والوصَب الشيء الكثير، كالمراجعة والمقابلة، والتصويب المتكرر. فهؤلاء المبدعون قد:

كابَدوا المجد حتى ملّ أكثرهم ... وعانَق المجد من أوفَى ومن صبَرا
لا تحسبِ المجد تمرًا أنت آكلُه ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبِرا[٤]

ومن متاعب المؤلفين المبدعين محاولة اتقاء نقد الناقدين، والناظرين بعين العداوة، وفي النهاية لن يقدر على كل هذا الاتقاء، فليوطِّن نفسه، وليتسع

---

(١) مقام إبراهيم (ص: ٢٦١)
(٢) الحيوان (١/٥٥)
(٣) ذكريات للطنطاوي (٨/٦٥)
(٤) أمالي القالي (١/١١٣) والصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٦٢١)

صدره للنقد، وليجعل من هذا النقد والعداء سلمًا يرتقي به للكمالات، فإن كان من مُغرِض فليقُل بلسان الحال والمقال:

يُولُونَنـي شَـزْر العيـون لأننـي غلّسـتُ فـي طلـب العـلا وتصبّحـوا

قال العتابي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٠هـ): من صنع كتابًا فقد استشرف للمدح والذم، فإن أحسن فقد استُهدف للحسد والغيبة، وإن أساء فقد تعرض للشتم، واستُقذف بكل لسان[1].

فيا مبدعًا في تأليفه: إذا أتقنتَ المحتوى، وسبكتَ الشكل، فامضِ ولا تلتفت للوراء، واستفد من النقد، ولا تجزع، فأيُّ الرجال المهذب؟!

قال أبو عمرو بن العلاء -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٤هـ): الإنسان في فسحة من عقله، وفي سلامة من أفواه الناس، ما لم يَضَعْ كتابًا، أو يقُلْ شعرًا[2].

إذًا: فالمؤلِّف الناجح يلجأ لمولاه في السداد والمقارَبة لمؤلَّفه، ثم يقاوم التثبيط، ليقدِّم مشروعًا علميًا يتَّسم بثلاث صفات: الجِدَّة، والجودة، والجدية بين الكاتب والقارئ؛ ليمتدَّ أثره إلى الأجيال القادمة، وليراه في ميزان حسناته يوم موافاته.

قصص مُعاناة المؤلفين المبدعين

إن قصص مُعاناة أولئك المؤلفين الطامحين للوصول إلى قمة الإبداع متكاثرة، وأقوالهم فيها متوافرة؛ لأنهم تيقَّنوا أنه لا يتأتى الإبداع إلا بعد عبور جسر الأتعاب:

بصُـرتَ بالراحـة الكبـرى فلـم تَرَهـا تُنـال إلّا علـى جسـر مـن التعـبِ[3]

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/٢٨٣)

(٢) المصدر السابق (٢/٢٨٣)

(٣) أخبار أبي تمام (ص ١٠)

وأضع بين يديك نماذج إبداعية لمؤلفين، تبعث على الفخر، وتدعو للقدوة الحسنة:

١. مالك بن أنس -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ) عزم على تصنيف «الموطأ»، فعمِل مَن كان بالمدينة يومئذ من العلماء الموطآت، فقيل لمالك: شغلتَ نفسك بهذا الكتاب، وقد شاركك فيه الناس، وعملوا أمثاله. فقال: ائتوني بها. فنظر فيها، ثم نبذها، وقال: إن مدَّ بك العمر، فسترى ما يُراد به الله. قال الراوي: فكأنما أُلقيتْ تلك الكتب في الآبار، ما سُمع منها شيء بعد ذلك[1].

٢. قيل للشافعي-رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): إنك تتعنّى في تأليف الكتب وتصنيفها، والناس لا يلتفتون إلى كُتبك ولا إلى تصنيفك. فقال: يا بنيّ، إن هذا هو الحق، والحق لا يضيع. وقال: لولا أن نطوِّل على الناس، لوضعتُ في كل مسألة جُزْءَ حُجَجٍ وبيان[2].

رصّعتُه من بدائع الربيع وأنـ ... ـواع البديع بكل رائق حسنِ[3]

٣. الشاعر المشهور أبو تمام -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٨هـ) حبسه هطول الثلج وهو بهمذان وقطع الطرق، فأبرَّه رئيس همذان وأكرمه، وقال له: أقم عندنا حتى يذهب الشتاء. وأحضرَ إليه خزائن الكتب يطالعها، وصنف فيها كتاب، «الحماسة» و«الوحشيات». وكان العلماء يَرَون أن اختياره «الحماسة» أحسن من شعره. فلما ارتفع الثلج سأله المقام، فأبى وشكره وارتحل[4].

وكل أبيٍ باسلٌ غير أنني ... إذا عرضَتْ أولى الطرائدِ أبسَلُ[5]

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٢/٧٦)
(٢) مناقب الشافعي للبيهقي (١/١٧٨) والمقفى الكبير (٥/٢٠٧)
(٣) تاج المفرق في تحلية علماء المشرق (ص: ١٤٧)
(٤) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (١٤/٤٣٥)
(٥) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٢/١٠٦)

٤. من العجائب النادرة اشتراك أخوين بالتأليف لبضعة كتب، فهذا الأديب الشاعر سعيد الخالِدي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧١هـ) اشتهر هو وأخوه محمد بالخالديَّين، واشتركا في تصنيف كتب، منها «حماسة الخالديّين» و«أخبار أبي تمام ومحاسن شعره» و «أخبار الموصل» و«اختيار شعر ابن الرومي» و «اختيار شعر البحتري»[١].

٥. مهدي بن علي بن المشطبي -رحمه الله تعالى- (بعد ٥١٠هـ) لما سمع رجلًا يذم العلوم عند عميد الملك أبي نصر، صنف كتابًا سماه «الفتاوى العميدية» ذكر فيه مئة مسألة، كل عشرة في نوع من العلوم، فتعجبوا منه[٢].

٦. ابن بَني عبد الله القرطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٦١١هـ) تكلم على مسألة عَروضية، وكان في الحاضرين مَن أحكم صناعة العروض، فجاذَبه في المباحثة، حتى أحسَّ الأستاذ من نفسه التقصير، فكف عن الخوض في تلك المسألة، وهَمَّه ذلك، واشتد عليه، فانصرف إلى منزله، وعكف سائر يومه على تصفح علم العروض، حتى فهمه وهضمه، وصنف فيه مختصرًا أبدع فيه، وجاء به الغد معجِزًا، فبُهِت الحاضرون، وقضَوا العجب من ذكائه، وسُمو هِمته[٣].

٧. التيفاشيّ القفصيّ -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥١هـ) انزوَى في كسر بيته، على جمع التصانيف في مختلفات الفنون، حتّى كمل له ما قصر عنه المصنّفون، وأعظمها تصنيفه الذي سمّاه بـ «فصل الخطاب، في تدبير الطعام والشراب». قال عنه المقريزي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٥هـ): وأنا أقول قول منصف غير جاحد للحقّ: إنّه ما ألّف في معناه مثل كتابه هذا.. وله في تصنيفه نحو من ثلاثين سنة، لا تشغله عنه يقظة ولا سِنة[٤].

---

(١) الأعلام للزركلي (١٠٣/٣)

(٢) معجم السفر (ص: ٣٩٨) والمنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١٧٨٣)

(٣) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (١٨٠/٢) والإحاطة في أخبار غرناطة (٣١٠/٣)

(٤) المقفى الكبير (٤٥٥/١)

٨. النووي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ) كان يكتب حتى تَكَلَّ يده، فيضع القلم ثم يُنشد:

لئن كان هـذا الدمـع يجـري صبابةً   علـى غيـر ليلـى فهـو دمـع مضيـع[١]

٩. ابن منظور صاحب «لسان العرب» -رحمه الله تعالى- (ت ٧١١هـ) كان مغرىً باختصار الكتب المطولة، حتى قال الصفدي: لا أعرف في الأدب وغيره كتابًا مطولًا إلا وقد اختصره. وأخبرني ولده أنه ترك بخطه خمس مئة مجلدة[٢]. وكأنما هو القائل:

لخَّصـتُ كتْـب الأوّليـن بجمعهـا   وأتيـتُ أوّلهـا بمـا قـد أغفلـوا
وألَنْـتُ حُوشـيّ الـكلام كأنّمـا   سـرْد اللغـات بهـا لنطقـي ذُلّـلُ[٣]

١٠. ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) عمره سبعة وستون سنة، وقد ألَّف ثلاث مئة كتاب خلال ثلاثين سنة، بمعدل عشرة كتب سنويًا، أي كل أربعين يومًا تقريبًا يؤلِّف كتابًا! وهذا باستثناء الفتاوى والرسائل والأجزاء والقواعد، والتي تبلغ بالعدد إلى الألف!

١١. استقر الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) في قرية «كفر بطنا» بدمشق، خطيبًا في مسجدها، وغدت إقامته وعزلته في تلك القرية الهادئة خمسة عشر عامًا، فكانت فرصة مواتية لإنجاز مؤلفاته[٤].

---

(١) المنهل العذب الروي (ص: ١٥)
(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٥/٦)
فائدة: عند الإحالة إلى «لسان العرب»؛ لا تقل: قال ابن منظور في «لسان العرب» كذا، وإنما الأدق أن تقول: نقل ابن منظر في لسان العرب كذا. لأنه جمع فيه بين «التهذيب، والمحكم، والصحاح، والجمهرة، والنهاية، وحاشية الصحاح».
(٣) تاريخ ابن خلدون (٦٤٥/٧)
(٤) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (المقدمة/٤١)

١٢. ابن مسعود الكازروني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٢هـ) صنف «شرح صحيح البخاري»، وتعب فيه، حتى قال: إنه استمدَّ فيه من ثلاث مئة شرحٍ عليه[١].

١٣. شمس الدين الفناري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٤هـ) من تصانيفه «أنموذج العلوم» جمع فيه مئة مسألة في مئة فن[٢].

١٤. قال البرهان البقاعي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٥هـ) واصفًا مقدار تعبه في «مصاعد النظر» بأسلوب بلاغي شائق: ركبت إلى بيدائه، وفسيح أرجائه وفنائه، مطايا ليال حالفت فيها السهاد، وخالفت وطِيءَ المهاد، وشهي الاضطجاع والرقاد، أدرس مسائل العلوم، وأسرد وسائل الفنون والرسوم، وأمنع جلائل الهموم، وأمعن النظر في دقائق الفهوم.. حتى انجاب عن قلبي دَيجور الشكوك.. ففاضت عليَّ جواهر المعاني[٣].

١٥. الفقيه المالكي الصوفي الشهير بـ«زَرُّوق» -رحمه الله تعالى- (ت ٨٩٩هـ) له أربعة وعشرون شرحًا على «الحِكم العطائية» في التصوف[٤].

١٦. ابن المِبْرَد-رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٩هـ) معظم مؤلفاته بخط يده، ولذلك قال واصفًا مقدار تأثير القلم والحِبرِ على يده:

لقد سوّد الحِبر الأصابعَ من يدي لكثرة ما أعتاده بالكتابةِ[٥]

١٧. قال السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) وهو يكتب «معترك

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٢١/١٠)
(٢) هدية العارفين (١٨٨/٢)
(٣) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (١٠٢/١)
(٤) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ١٣١)
(٥) العقد الغالي في النظم العالي لابن طولون (ص ١٠١) ومحض الصواب في فضائل عمر بن الخطاب لابن عبد الهادي ابن المِبرد (٣٧/١)

الأقران»: ولَعمري لو علم ما أنا فيه من شغل البال، وتغيّر البلبال لالْتَمس لي عُذْرًا، وصفح عما يرى فيه من التقصير سترًا[١].

١٨. قال المؤرخ طاشْكُبْري زَادَهْ -رحمه الله تعالى- (ت ٩٦٨هـ) وقعتْ لي عارِضة الرمَد، ودام ذلك شهورًا، وأضرَّت بذلك عيناي.. ثم إن الله -سبحانه- مَنَّ عليَّ بحل بعض المباحث الغامضة، وتحقيق المطالب العالية، وكتبت لكل منها رسالة، ومجموعها يُنِيف على ثلاثين.. فليكن هذا آخر الكتاب، وقد أمليتُه على بعض من الأصحاب، مع كَلال البصر، وكمال الحصَر، وقلة الفِطَن، وضِيق العَطَن، ووقوعي في زاوية الخمول والنسيان، والانقطاع عن الإخوان والخِلان، والحمد لله على كل حال[٢].

١٩. الأمير الفقيه الزيدي الحسين بن القاسم اليَمَني -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٥٠هـ) من عجيب أمره أنه صنف كتبه، وهو يتنقل في ميادين القتال[٣].

٢٠. قال الحَصْكَفي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٨٨هـ) مؤلف «الدر المختار»: قد بيَّضْته وفي قلبي من نار البِعاد، عن البلاد والأولاد، والإخوان والأحفاد، ما يفتت الأكباد[٤].

٢١. قال السفاريني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٨٨هـ) لما ختم شرح «ثلاثيات أحمد»: وهذا آخر ما قصدنا إيراده مع اشتغال البال بالبلبال، وتكدر الأحوال بالأحوال، وفقد المَواد، وعزة الخل المُواد.. فلو سافرت في تحصيله لأرض خراسان، لكانت سفرتك الرابحة، ولو بذلت في حفظه وإتقانه وتعليله أعز من العمر المُنصانِ، لكانت صفقتك الراجحة[٥].

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (٣/٥٢٢)
(٢) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ٣٣٠)
(٣) الأعلام للزركلي (٢/٢٥٢)
(٤) الدر المختار للحصفكي (٦/٨١٢)
(٥) شرح ثلاثيات مسند أحمد - للسفاريني (٢/٩٣٤)

٢٢. الشيخ المؤرخ صالح العثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٠هـ) كان يعاني الضيق في المعاش، فسافر لعُمان، والإمارات، والكويت، والهند، فكان يطلب العلم، ويباشر الغَوص؛ لسداد العيش. ثم بمكة باشر مهنته، وهي إصلاح الساعات. وقال عن كتابه الفذ «تسهيل السابلة»: ولقد أسهرتُ بهذا العمل لَيلِي والناس نيام، وإني في وقت تأليفه كنت مجاورًا بمكة المكرمة، غريبًا نائيًا عن الوطن، ويتعذر عليَّ وجود آلة الكتب.. لتشتُّت البال من همِّ العيال، وكسب المعيشة التي هيجت أليم البِلْبال[1].



(١) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (مقدمة/٤) و(٦/١)

٢٦. الأوائل السابقون في صنوف العلم وتصنيف الكتب، ونشر العلم:

هذا المبحث لطيف وطريف، وهو مملوء بإبداعات العلماء الأجلاء، وابتداءات المؤلفين والمصنفين الفضلاء.

ويمكن يصاغ عليه سؤال من جنسه، فيقال: مَن أول مَن أَلَّف في الأوائل؟!

والجواب هو: ابن قتيبة أول من كَتب في «الأوائل»، وأما العسكري فهو أول من أَلَّف فيه كتابًا خاصًا.

ومن عناوين الكتب التي هي في عداد المفقود «الخبر المعلوم في كل من اخترع نوعًا من أنواع العلوم» للمؤرخ الجزائري أبي رأس المعسكَري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٣٨هـ)(١).

وهؤلاء الأوائل في العلم والتأليف يحملون صفة المبادرة، ويُعتبرون أصحاب إنجازات وامتيازات، حيث حملوا على عواتقهم المسارعة إلى تبليغ العلم ونشره، والإبداع في أساليب تجديده وتجويده:

١. أول من جمع القرآن مكتوبًا: أبو بكر رضي الله عنه (ت ١١هـ)(٢).

---

(١) فهرس الفهارس للكتاني (١/١٥٠) والأعلام للزركلي (١٨/٦)

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (١٤٤/٣) وتاريخ دمشق لابن عساكر (٣٨٠/٣٠) والمجتبى من المجتنى (ص: ٨٦). قال علي رضي الله عنه: «إن أعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكر رضي الله عنه، كان أول من جمع القرآن بين اللوحين». قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (راشدون/١٥): إسناده حسن.

٢. أول من وضع التأريخ الهجري: عمر بن الخطاب ﷺ (ت ٢٣هـ)[١].

٣. أول من وضع الإعراب والنحو: أبو الأسود الدؤلي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩هـ)[٢].

٤. أول من صنَّف في المغازي: عروة بن الزبير -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤هـ)[٣].

٥. أول من ذَكَر الخلفاء الراشدين الأربعة على المنبر: عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى- (ت ١٠١هـ)[٤].

٦. أول من وضع للناس الأحاديث: ابن شهاب الزهري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤هـ)[٥].

٧. أول من ألَّف في «الأنساب عند العرب»: الزهري أيضًا[٦].

٨. أول من نقط المصحف: يحيى بن يَعْمَر -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٩هـ)[٧].

٩. أول من ألَّف في «الوُقوف»: المقرئ شيبة بن نصاح -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠هـ)[٨].

١٠. أول من صنف الكتب: ابن جريج -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ)[٩].

---

(١) الأوائل لأبي عروبة الحراني (ص: ١٤٧)

(٢) الأوائل للعسكري (ص: ٣٧١) قال المبرد - كما في وفيات الأعيان (٣٩٢/٦)-: أجمعت العلماء باللغة، أن أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي، وأنه لُقِّن ذلك عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-.

(٣) الوافي بالوفيات (٢٨/١)

(٤) منهاج السنة النبوية (١٦٤/٤)

(٥) المعرفة والتاريخ (٦٣٣/١)

(٦) طبقات النسابين (ص: ٣٠)

(٧) المجتبى من المجتنى (ص: ٨٦). وقيل أبو الأسود الدؤلي. انظر: الأعلام للزركلي (٢٣٧/٣)

(٨) غاية النهاية في طبقات القراء (٣٢٩/١)

(٩) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١٨٤/١) والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب (٢٨١/٢)

١١. أول من وضع «كتاب الفرائض»: أبو حنيفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ)[١].

١٢. وهو -أيضًا- أول من أرسى مدرسة الرأي والقياس، وقد ابتدأها شيوخه حماد بن أبي سليمان، وإبراهيم النخعي. وقد رأى أبو حنيفة في النوم، كأنه ينبش قبر النبي ﷺ فبعث من سأل له محمد بن سيرين، فقال: صاحب هذه الرؤيا يثوِّر علمًا، لم يسبقه إليه أحد قبله[٢].

١٣. أول من صنف تواريخ الإسلام: محمد بن إسحاق -رحمه الله تعالى- (ت ١٥١هـ)[٣].

١٤. أول من جمع أشعار العرب: حماد الراوية -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٥هـ)[٤].

١٥. أول من وسَّع الكلام في الجرح والتعديل، ونقَّب عن دقائق علم العلل: الشعبي رحمه الله تعالى- (ت ١٦٠هـ)[٥].

١٦. أول من أدخل علم مالك إلى مصر: عبد الرحيم الجمحي -رحمه الله تعالى- (ت ١٦٣هـ) وقد مات شابًا، وكان الإمام مالك معجبًا به وبفهمه[٦].

١٧. أول من أدخل مذهب أبي حنيفة إلى مصر: ابن اليَسَع الكوفي الحنفي -رحمه الله تعالى- (بعد ١٦٧هـ)[٧].

---

(١) كنوز الذهب في تاريخ حلب (٩١/٢)
(٢) تاريخ بغداد ت بشار (٤٥٩/١٥)
(٣) تاريخ بيهق/تعريب (ص: ١٠٩)
(٤) طبقات فحول الشعراء (٤٨/١)
(٥) شرح علل الترمذي (٤٤٨/١)
(٦) الوافي بالوفيات (١٩٧/١٨) وتاريخ الإسلام ت تدمري (٣٢٣/١٠)
(٧) الأعلام للزركلي (٣٢٩/١)

١٨. أول من عمل العَروض: الخليل بن أحمد الفراهيدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٠هـ)[١].

١٩. أول من جمع حروف المعجم في بيت واحد: هو الخليل. والبيت هو:

صِفْ خَلْق خَودٍ كمِثل الشمس إذ بزَغَتْ   يَحْظَى الضَّجِيع بها نَجلاءُ مِعْطارُ[٢]

٢٠. أبو عصمة الجامع -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٣هـ) قيل: لُقِّب بذلك؛ لأنه أول من جمع فقه أبي حنيفة[٣].

٢١. أول من صنف في الفقه: مالك بن أنس -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ)[٤].

٢٢. أول من كتب في أصول الفقه: أبو يوسف -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٢هـ)[٥].

٢٣. أول من جرَّد الكلام في «أصول الفقه»: الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ)[٦].

---

(١) الأوائل للعسكري (ص: ٣٧٧). وقصة ابتدائه هذا العلم: أنه دعا بمكة أن يُرزق علمًا لم يَسبقه إليه أحد، ولا يؤخذ إلا عنه، فرجع من حجّة، ففُتح عليه بالعروض. انظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة (٣٧٧/١)

(٢) الوافي بالوفيات (٢٤٢/١٣) وبعده بقرون جاء قاسم الحضرمي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٠هـ) فأنشد بيتًا يحتوي على حروف المعجم، وهو:

قد ظن نصر وشكا بثّه
مذ سخطت عضّ على الإبط

وجاء بعدهما ابن عربشاه -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٤هـ) فنظم بيتًا جمع فيه حروف الهجاء وهو:

خض بحر لفظ حديثه تغش العلا
واجزم بصدقك ناطقا إذ تسند

انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة (٢٢٤/٤) والضوء اللامع (١٢٨/٢)

(٣) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (١٧٦/١)

(٤) الأوائل للعسكري (ص: ٣٧٣)

(٥) مغاني الأخيار في شرح أسامي رجال معاني الآثار (٢٥٢/٣)

(٦) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٨٨/٧) و (٤٠٣/٢٠)

٢٤. أول من أدخل « موطأ » الإمام مالك للمغرب: ابن زياد العبسيّ التونسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٣هـ)[١].

٢٥. أول من وضع التصريف: معاذ بن مسلم الهراء -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٧هـ)[٢].

٢٦. أول من أدخل علم الحديث إلى الأندلس: صعصعة بن سلام الدمشقي -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٢هـ)[٣].

٢٧. أول من أدخل كتاب الكسائي إلى المغرب: جودي بن عثمان العنبسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٣هـ)[٤].

٢٨. أول من أدخل علم الفقه إلى الأندلس: زياد القرطبي الملقب بـ«شبطون»-رحمه الله تعالى- (ت ١٩٣هـ)[٥].

٢٩. أول من أدخل قراءة نافع و «موطأ مالك» إلى الأندلس: الغازي بن قيس الأندلسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٩٩هـ)[٦].

٣٠. أول من صنف «المسند» على ترتيب الصحابة من البصريين: أبو داود الطيالسي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ)[٧].

٣١. أول من صنف «المسند» على ترتيب الصحابة بالكوفة: عبيد الله بن موسى العبسي -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٣هـ)[٨].

---

(١) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية (٢٣٤/١)
(٢) بغية الوعاة (٢٩١/٢)
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٩/٢٤)
(٤) معجم الأدباء (٨٠٢/٢)
(٥) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١١٧/٣)
(٦) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٢٢/٩)
(٧) الإرشاد في معرفة علماء الحديث للخليلي (٥١٢/٢)
(٨) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٥٥٤/٩)

٣٢. أول من صنف في «غريب القرآن» القاسم بن سلّام -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٤هـ)[١].

٣٣. أول من صنف مسندًا وتتبعه: نُعيم بن حَمَّاد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٨هـ)[٢].

٣٤. أول من جمع « مسند الصحابة » أبو جعفر البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٩هـ) وقد لُقِّب بالمُسندي؛ لأجل هذا[٣].

٣٥. أول من صنف في «أسباب النزول»: ابن المديني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٤هـ)[٤].

٣٦. أول من أدخل «المدونة» إلى الأندلس: ابن أبي الصلت القرطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٦هـ)[٥].

٣٧. أول من جمع فقه أحمد، وأول من تَرجم لأصحابه: الخلّال -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٧هـ)[٦].

٣٨. أول من صنف في الحديث الصحيح: البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ)[٧].

٣٩. أول من أدخل تصانيف القاسم بن سلّام للأندلس: وهب بن نافع الأسدي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٣هـ)[٨].

---

(١) الأوائل للعسكري (ص: ٣٨١)
(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/٢٩٠)
(٣) تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١٦/٥٩)
(٤) طبقات المفسرين للأدنه وي (ص: ٤٣٧) وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/١)
(٥) تاريخ الإسلام ت تدمري (١٨/٣٤٩)
(٦) الجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب أحمد (مقدمة/٤٨)
(٧) مقدمة ابن الصلاح (ص: ١٧)
(٨) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٠/٤٨٨)

٤٠. أول من صنف في «السنن» أبو داود -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٥هـ)(١).

٤١. أول من اخترع «علم البديع»: عبد الله بن المعتز -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٦هـ)(٢).

٤٢. أول من قسَّم الأحاديث إلى صحيح وحسن وضعيف: الترمذي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٧هـ)(٣).

٤٣. أول من أدخل مذهب الشافعي لدمشق: أبو زرعة الثقفي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٢هـ)(٤).

٤٤. أول من أدخل كتاب « العين » إلى الأندلس: قاسم بن ثابت السرقسطي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٢هـ)(٥).

٤٥. أول من أدخل قراءة نافع، وبعض كتب داود الظاهري إلى القيروان: ابن خيرون المعافري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٦هـ)(٦).

٤٦. أول من أدخل إسفرايين مذهب الشافعي وكُتُبه: أبو عوانة صاحب المسند -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٦هـ)(٧).

٤٧. أول من جمع القراءات السبع: الإمام أبو بكر بن مجاهد -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٤هـ)(٨).

---

(١) المعلم بفوائد مسلم (٢١٦/١)
(٢) الأوائل للعسكري (ص: ٣٨٤)
(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٤٨/١٨) و (٢٣/١٨)
(٤) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢٣٣/١٤)
(٥) الأعلام للزركلي (١٧٤/٥)
(٦) غاية النهاية في طبقات القراء (٢١٧/٢) وتراجم المؤلفين التونسيين (٢٦٤/٢)
(٧) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤١٩/١٤)
(٨) مجموع الفتاوى (٣٩٠/١٣)

٤٨. أول من صنف في التجويد: أبو مزاحم الخاقاني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٥هـ)[١].

٤٩. أول من صنف في الجدَل الحسن بين الفقهاء: القفال الشاشي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٦هـ)[٢].

٥٠. أول من أدخل «مدونة سحنون» مدينة فاس: أبو ميمونة درَّاس الفاسي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٧هـ)[٣].

٥١. أول من أَلَّف في مصطلح الحديث: الرامهرمزي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٠هـ) في كتابه: «المحدث الفاصل»[٤].

٥٢. أول من أدخل «سنن النسائي» إلى الأندلس، وحدّث به وانتشر عنه: ابن الأحْمَر الأندلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٥هـ)[٥].

٥٣. أول من نظم قصيدة في القراءات السبع: الحسين بن عثمان البغدادي الضرير -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٨هـ)[٦].

٥٤. أول من وضع في القراءات أبواب الأصول قبل الفَرْش: الدارقطني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٥هـ)[٧].

٥٥. أول من صنف في علم «المؤتلف والمختلف» في أسماء الرواة وأنسابهم: عبد الغني الأزدي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٠٩هـ)[٨].

---

(١) غاية النهاية في طبقات القراء (٢/٣٢١)
(٢) طبقات الفقهاء (ص: ١١٢)
(٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (١/٢٦١)
(٤) نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر ت. الرحيلي (ص: ١٩٣)
(٥) الأعلام للزركلي (٧/١٠٥)
(٦) غاية النهاية في طبقات القراء (١/٢٤٣)
(٧) المصدر السابق (١/٥٥٩)
(٨) إكمال الإكمال لابن نقطة (١/٩٦)

٥٦. أول من أدخل علم القراءات إلى الأندلس: أبو عمر الطَّلَمنكيّ -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٩هـ)(١).

٥٧. أول من وضع علم الخلاف، وأبرَزَه إلى الوجود: أبو زيد الدبوسي الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٣٠هـ)(٢).

٥٨. أول من أدخل إلى الأندلس كتاب «غريب الحديث» للخطابي: ابن الضابط الصدَفي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٤هـ)(٣).

٥٩. أول من جمع نصوص الإمام الشافعي: البيهقي -رحمهما الله تعالى- (ت ٤٥٨هـ)(٤).

٦٠. أول من وضع أسس البلاغة العربية: عبد القاهر الجرجاني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧١هـ)(٥).

٦١. أول من ألَّف في شيوخ أصحاب الكتب الستة: ابن عساكر -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧١هـ)(٦).

٦٢. أول من جمع أربعين حديثًا، عن أربعين شيخًا، في أربعين بلدًا: أبو طاهر السِّلَفي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٦هـ)(٧).

٦٣. أول من ألَّف في رواة الكتب الستة: عبد الغني المقدسي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٠هـ)(٨).

---

(١) الأعلام للزركلي (٢١٢/١)
(٢) وفيات الأعيان (٤٨/٣)
(٣) الصلة لابن بشكوال (ص: ٣٩٠) ونزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار لمحمود مقديش (٢٧٣/٢)
(٤) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ١٧)
(٥) علم البيان لعبد العزيز عتيق (ص: ٢٢)
(٦) تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٣٨/١)
(٧) التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد (ص: ١٧٧)
(٨) المصدر السابق (٣٨/١)

٦٤. أول من اخترع الترتيب والتقسيم في كتبه، وأتى فيها بما لم يسبق إليه: الفخر الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ) لأنه يذكر المسألة، ويفتح باب تقسيمها، وقسمة فروع ذلك التقسيم، ويستدلّ بأدلّة السبر والتقسيم، فلا يشذّ منه عن تلك المسألة فرع لها به علاقة، فانضبطت له القواعد، وانحصرت معه المسائل[١].

٦٥. أول من أدخل «القصيدة الشاطبية» في القراءات إلى الأندلس، وعنه أخذها الناس هناك: أبو بكر الشقريّ الخطيب -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٤هـ)[٢].

٦٦. أول من أدخل كتاب «الكشاف» لبلاد الأندلس: ابن رأس غنمة الإشبيلي -رحمه الله تعالى- (بعد ٦٤٠هـ)[٣].

٦٧. أول مؤسس لعلم الاجتماع: ابن خلدون -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٨هـ)[٤].

٦٨. أول من أشاع في بلد فاس «مختصر خليل»: ابن الفتوح التلمساني المكناسي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٨هـ)[٥].

٦٩. أول من أدخل مذهب الشافعية إلى جزر المالديف: جمال الدين المحَلّي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٩٠هـ) وكان أهلها مالكية، وكلهم مسلمون[٦].

٧٠. أول من أدخل النسخة اليونينية للمغرب: ابن ناصر الدرعي -رحمه الله تعالى- (ت ١١٢٩هـ)[٧].

---

(١) معجم الأدباء (٢٥٨٦/٦)

(٢) المقفى الكبير (٥٦/٧)

(٣) تبصير المنتبه بتحرير المشتبه (٩٣٣/٣)

(٤) انظر: مجلة الرسالة (٥٦٤/٩) وجمهرة مقالات أحمد شاكر (٣١٩/١)

(٥) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (١٠١/٤) ونيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٤٩٧)

(٦) الأعلام للزركلي (٧/٦)

(٧) فهرس الفهارس (٦٧٧/٢) قال الكتاني: كنا نفهم ونسمع من الناس، أنه أدخل الأصلَ اليونينيَ بنفسه، ثم تحقق أنه أدخل بعض فروعه، المقابَلة على الأصل اليونيني.

٢٧. المبدعون السبَّاقون في عامة مؤلفاتهم، أو لم يُسبقوا في تأليف معين

إن الله -تعالى- جعل من العلماء نوادر في العالَم، لا يطيب لأحدهم أن يُسبق، بل هو السابق في كل مضمار، ولهم أسوة في الرجل الأول في الأمة، أبي بكر الصديق، الذي قال عنه عمر ﷺ: ما سابقتُ أبا بكر إلى خير قط، إلا سبقني إليه(١).

فهو البارع الذي حاز فضلًا   قصب السبق يوم عقد الرهان(٢)

إنهم نخبة موفقة متفوقة، قد أبدعوا، فابتدؤوا وابتكروا مؤلفات لم يُسبَقوا إليها، والواحد منهم:

قد حاز قصب السبق بين الورى   حتى المعالي قادها بالزمامِ(٣)

وهؤلاء المؤلفون السابقون، يأبى الواحد منهم أن يكرر جهد السالفين، بل مؤلفاتهم مبتكرات، أَتَيْنَ بكل جديد وفريد:

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٢٤/١) وتاريخ دمشق لابن عساكر (٦٦/٣٠)

(٢) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (٨٩/٢)

(٣) معنى قولهم: أحرز قصب السبق، أصله أنهم كانوا ينصبون في حلبة السباق قصبة، فمن سبق اقتلعها وأخذها؛ ليُعلم أنه السابق من غير نزاع، ثم كثر، حتى أطلق على المبرّزِ والمشمِّر. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٦٧/٤) والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير (٥٠٤/٢) والبيت في سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (٢٧٧/٣)

انـظـر إلـيـه مـصـنَّـفًـا تـجـدْه قـد حـاز الـطُّـرَفْ
لـم يـحـوِ سـطـر مثـلـهُ فـي غـابـرٍ مـمـا سـلـفْ[١]

وخذ على ذلك خمسين مثالًا؛ عشرة منها لأفراد مبدعين سبَّاقين في عامة مؤلفاتهم، وأربعين مثالًا لسبَّاقين في تأليف معين، فإلى الأمثلة:

١. أبو حنيفة -رحمه الله تعالى- (ت ١٥٠هـ) رأى في النوم، كأنه ينبش قبر النبي ﷺ فبعث من سأل له محمد بن سيرين، فقال ابن سيرين: صاحب هذه الرؤيا يثوِّر علمًا، لم يسبقه إليه أحد قبله. وقد قال عنه بعض معاصريه: لو وُزن علم أبي حنيفة بعلم أهل زمانه لرجح عليهم. وقال عنه أبو حيان التوحيدي: الفقهاء عيالُ أبي حنيفة إذا قاسوا[٢].

٢. مالك بن أنس -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ)، وهو أول من صنف في الفقه[٣].

٣. الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) قال عنه تلميذه ابن عبد الحكم -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٨هـ): الفقيه الذي يستنبط أصلًا من كتاب أو سنة، لم يُسبق إليه، ثم يُشَعِّبُ في ذلك الأصل مئة شِعب. قيل: فمَن يقوَى على هذا؟ قال: محمد بن إدريس الشافعي[٤].

٤. أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ) قال عنه أبو حيان التوحيدي: المحدثون كلهم عيال على أحمد بن حنبل إذا أسندوا[٥].

---

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢٣٣/١)
(٢) أخبار أبي حنيفة وأصحابه (ص: ٢٣) وتاريخ بغداد ت بشار (٤٥٩/١٥) والجواهر المضية في طبقات الحنفية (٤٦١/٢)
(٣) الأوائل للعسكري (ص: ٣٧٣)
(٤) مناقب الشافعي للبيهقي (٢٧٢/٢)
(٥) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (٤٦١/٢)

٥. الخليل بن أحمد الفراهيدي -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٠هـ) استنبط من علم النحو ما لم يُسبق إليه، وحصر علم اللغة بحروف المعجم، وسماه «كتاب العين»[١].

٦. يحيى بن معين -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٣هـ) قال العلماء عنه: الناس كلهم عيال على ابن معين، وما في الدنيا أحد مثله، سبق الناس إلى هذا الباب الذي هو فيه، لم يسبقه إليه أحد[٢].

٧. أبو علي الفارسي النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٧هـ) قال عنه الخطيب البغدادي: وصنف كُتُبًا عجيبة حسنة، لم يُسبق إلى مثلها[٣].

٨. البيهقي -رحمه الله تعالى- (ت هـ) تتميز عامة مصنفاته بالسبق والإبداع.

قال عنه ابن كثير: له التصانيف الّتي سارت به الرُّكْبان في سائر الأمصار والأقطار.. وجمع أشياء كثيرة نافعة جدًا لم يُسبق إلى مثلها، ولا يدرك فيها.

وقال الذهبي: وطالب الحديث اليوم ينبغي له أن يُكثر من تحصيل تواليف البيهقي؛ فإنها نافعة.

وقال ابن عبد الهادي: وصنَّف كُتُبًا لم يُسبقْ إلى مثلها.

وقال التاج السبكي: وكلها مصنفات يشهد من يراها من العارفين، بأنها لم تتهيأ لأحد من السابقين، ولا أعرف أحدًا بعده جمع النصوص؛ لأنه سد الباب على من بعده[٤].

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٣٧٨/١)
(٢) تاريخ بغداد ت بشار (٢٦٣/١٦)
(٣) تاريخ بغداد ت بشار (٢١٧/٨)
(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٩/١٦) وزغل العلم للذهبي (ص: ٢٨) وطبقات علماء الحديث لابن عبد الهادي (٣٣٠/٣) وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٠/٤)

٩. الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ) قال عنه ابن نقطة: وله مصنفات في علوم الحديث، لم يُسبق إلى مثلها، ولا شبهة عند كل لبيب، أن المتأخرين من أصحاب الحديث عيال على أبي بكر الخطيب(١).

١٠. الفخر الرازي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ) قال عنه ياقوت الحموي: أتى في كتبه بما لم يُسبق إليه؛ لأنه يذكر المسألة؛ ويفتح باب تقسيمها؛ وقسمة فروع ذلك التقسيم؛ ويستدلّ بأدلّة السبر والتقسيم(٢).

وقال عنه ابن خلكان: وكل كتبه ممتعة، وانتشرت تصانيفه في البلاد، ورُزق فيها سعادة عظيمة؛ فإن الناس اشتغلوا بها، ورفضوا كتب المتقدمين، وهو أول من اخترع هذا الترتيب في كتبه، وأتى فيها بما لم يُسبق إليه(٣).

هذا عن الأشخاص السباقين، الذين سبقوا بعامة مصنفاتهم.

فأما الكتب التي حازت قصب السبق فكثيرة، وقد بذلت جهدًا في البحث، فاخترت منها هذه الأربعين التي احتفى بها العلماء، وأشادوا بمحتواها، وشهدوا لها بالسبق:

١. «الموطأ» للإمام مالك-رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ) قال تلاميذه: عرَضْنا على مالك «الموطأ» في أربعين يومًا، فقال: كتاب ألَّفتُه في أربعين سنة؛ أخذتموه في أربعين يومًا، قلَّما تفقهون فيه(٤).

٢. قال المزني -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٤هـ): أمْلَى علينا الشافعي «كتاب السبق والرمي»، ولا نعلم أحدًا سبقه إليه(٥).

---

(١) إكمال الإكمال لابن نقطة (١٠٣/١)
(٢) معجم الأدباء (٢٥٨٦/٦)
(٣) وفيات الأعيان (٢٤٩/٤)
(٤) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (ص: ١٣)
(٥) مناقب الشافعي للبيهقي (٢٧٣/٢)

٣. كتاب « الرسالة» للشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) وقد امتدحها القاضي عياض -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٤هـ) فقال: للشافعي في تقرير الأصول، وتمهيد القواعد، وترتيب الأدلة والمآخذ، ما لم يسبقه إليه مَن قبله(١).

وقال النووي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ) فقال: ابتكر الشافعي كُتُبًا لم يُسبق إليها، منها أصول الفقه(٢).

٤. «المسند» للإمام أحمد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤١هـ) فقد سبق المسانيد ودواوين السنة في استيعابه لها، وفي انفراده عنها بأحاديث لا تكون إلا فيه، ولذا كان يقول لابنه عبد الله: احتفظ بهذا المسند؛ فإنه سيكون للناس إمامًا(٣).

٥. «مسائل أحمد» للخلال -رحمه الله تعالى- (ت ٢٤٧هـ) فقد رحل إلى أقاصي البلاد، في جمع «مسائل أحمد» وسبق إلى ما لم يسبقه إليه سابقٌ، ولم يلحقه بعده لاحِقٌ(٤).

٦. «صحيح البخاري» سبق الكتب في أنه أصح كتاب بعد كتاب الله. ولذا قيل فيه:

صحيح البخاري لو أنصفوهُ   لما خُطّ إلا بماء الذهبْ
أسانيد مثل نجوم السما   ءِ أمام متون كمثل الشُّهُبْ(٥)

وقال الآخر:

صحيح البخاري لو أنصفوهُ   لما خُط إلا بماء البصرْ
وقد فاق فضلًا على غيرهِ   فأضحى إمامًا لكُتب الأثرْ(٦)

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٨٦/١)
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٥٢/١)
(٣) مناقب الإمام أحمد (ص: ٢٦١)
(٤) طبقات الحنابلة (١٣/٢)
(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٤/٥٢) والبداية والنهاية ط هجر (٥٣٤/١٤)
(٦) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ٣٨٨)

٧. «التاريخ الكبير» للبخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) قال عنه الإمام أبو أحمد الحاكم الكبير -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٨هـ): وكتاب محمد بن إسماعيل في «التاريخ» كتاب لم يُسبق إليه، ومَن ألّف بعده شيئًا في التاريخ أو الأسامي لم يستغنِ عنه[1].

وقد قال عنه البخاري مفتخرًا: لو نُشر بعض أستاذِيَّ هؤلاء، لم يفهموا كيف صنفتُ كتاب «التاريخ» ولا عرفوه.

وأخذه إسحاق بن راهويه، فأدخله على الأمير عبد الله بن طاهر، فقال: أيها الأمير! ألا أريك سحرًا؟! فنظر فيه ابن طاهر، فتعجب منه، وقال: لست أفهم تصنيفه![2].

٨. كتاب «الصُّنَّاع من الفقهاء والمحدثين» لمحمد بن إسحاق السعدي الفروي -رحمه الله تعالى- (بعد ٢٥٧هـ) قال ابن السمعاني عن الكتاب: وهو حَسَنٌ؛ أظنه لم يُسبق إليه[3].

٩. «السنن» لأبي داود -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٥هـ) قال الخطابي عن هذا الديوان: لم يُصَنَّف في حكم الدين كتاب مثله.

وقال النووي: وقد جمع أبو داود في كتابه هذا، من الحديث في أصول العلم، وأمهات السنن، وأحكام الفقه، ما لا نعلم متقدمًا سبقه إليه، ولا متأخرًا لحقه فيه[4].

١٠. بقيُّ بن مخلد -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٦هـ) من مصنّفاته «كتاب

---

(١) الكنى والأسماء للإمام مسلم (٢٦/١)
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٥/٥٢)
(٣) العقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ١٢٠)
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (٢٢٧/٢)

تفسير القرآن» وهو الكتاب الذي قال عنه ابن حزم: أقطع قطعًا لا أستثني فيه؛ أنه لم يؤلَّف في الإسلام مثله[١].

١١. النسائي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٣هـ) مصنف «السنن» قالوا عنها: أشرف المصنفات كلها، وما وُضع في الإسلام مثله[٢].

١٢. أبو القاسم الكعبي البلخي -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٩هـ) له كتاب «تفسير القرآن» على رسم لم يُسبق إليه[٣].

١٣. الحافظ الماسرجسي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٥هـ) قال الحاكم: جمع حديث الزهري جمعًا لم يُسبق إليه، وكان يحفظه مثل الماء[٤].

١٤. اللغوي المشهور الجوهري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٣هـ) قال عن كتابه «الصحاح»: فإني قد أودعتُ هذا الكتاب، على ترتيب لم أُسبق إليه، وتهذيب لم أُغلب عليه[٥].

١٥. القزاز القيرواني -رحمه الله تعالى- (ت ٤١٢هـ) ألَّف كتابًا، يجمع فيه سائر الحروف التي جاء لمعنى، فبلغ جملة الكتاب ألف ورقة، وقسَّمه على حروف المعجم، على وجه لم يُسبق إليه[٦].

١٦. ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) له كتاب « إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل، وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك، مما لا يحتمل التأويل » قال ابن خَلكان: وهذا معنى لم يُسبق إليه[٧].

---

(١) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس (ص: ١٧٧) ومعجم الأدباء (٧٤٧/٢)
(٢) فهرسة ابن خير الإشبيلي (ص: ٩٧)
(٣) معجم الأدباء (١٤٩٣/٤)
(٤) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (١٩٧/٣)
(٥) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٣٣/١)
(٦) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (٣٢٨/٣)
(٧) وفيات الأعيان (٣٢٦/٣)

١٧. ابن شرف القيرواني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٠هـ) قال عن نفسه: وقد كنت حاولتُ ما لم أُسبق إليه، فصنفتُ الكتاب الملقب بـ «أبكار الأفكار»[١].

١٨. أبو المعالي الجويني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٨هـ) صنف كتاب « نهاية المطلب في دراية المذهب » الذي قالوا عنه: ما صنف في الإسلام مثله[٢].

١٩. المحدث ابن جعفر السَّمَرْقندي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٩١هـ) له كتاب «بحر الأسانيد في صحاح المسانيد» جمع فيه مئة ألف حديث. قال الذهبي: لم يقع في الإسلام مثله[٣].

٢٠. المقرئ الشاطبي الأندلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٠هـ) صاحب القصيدة الشهيرة في القراءات. قال عنها التاج السبكي: صنف هذه القصيدة التي لم يُسبق إلى مثلها، ولم يُلحق بما يقاربها[٤].

٢١. السِّلَفي -رحمه الله تعالى- (ت هـ) قال عنه الذهبي: وعمل «الأربعين البلدية» التي لم يسبق إلى مثلها[٥].

٢٢. الحافظ الرهاوي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٢هـ) عمل «الأربعين المتباينة والإسناد والبلدان» وهذا شيء لم يُسبق إليه، ولا يرجوه أحد بعده.. من نظر فيه علِم سعيه، وتعبه، وحفظه[٦].

٢٣. ابن الشعار الموصلي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٥٤هـ) قال عن كتابه «سُقته على حروف المعجم مرتبًا؛ فإنه ترتيب لم أُسبق إليه، وتأليف لم يُزاحمني أحد عليه»[٧].

---

(١) تراجم المؤلفين التونسيين (١٦١/٣)
(٢) وفيات الأعيان (١٦٨/٣)
(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢٠٦/١٩)
(٤) طبقات الفقهاء الشافعية (٦٦٥/٢)
(٥) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٠١/٤٠)
(٦) الوافي بالوفيات (٢٨/١٩)
(٧) قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان (٦١/١)

٢٤. ابن النقيب البلخي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٦٨هـ) جمع تفسيرًا في ثمانين مجلدًا؛ لم يُسبق إليه[١].

٢٥. عبد المؤمن الدمياطي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٥هـ) صنف في «صيام ستة أيام من شوال» أفاد فيه وأجاد، وجمع ما لم يُسبق إليه[٢].

٢٦. قال ابن الدَّوَاداري -رحمه الله تعالى- (بعد ٧٣٦هـ): ثم إن العبد -يقصد نفسه- قد اقترح في تأليفه اقتراحًا؛ أظن أنني لم أُسبق إليه، وذلك أنني خصَّصتُ كل جزء من أجزائه التسع، بدولة من الدول[٣].

٢٧. المِزي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٢هـ) صنَّف كتاب «تهذيب الكمال في أسماء الرِّجال» و«كتاب الأَطْراف» وأوضح في هذين الكتابين مشكلاتٍ لم يُسْبق إليها[٤].

٢٨. أبو حيان الأندلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٥هـ) له «تفسير البحر المحيط» الذي لم يُسبق إليه[٥].

٢٩. ابن فرحون الفقيه المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٩هـ) قال عن كتابه «العدة في إعراب العمدة»: وضعته على مثال لم أُسبق إليه، وحبَّرته على مِنوال لم يُنسخ عليه[٦].

٣٠. ابن عرفة -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٣هـ) له «المختصر الفقهي» قال عنه تلميذه الأُبِّي: ما وُضع في الإسلام مثله[٧].

---

(١) الفوائد البهية في تراجم الحنفية (ص: ١٦٨)
(٢) البداية والنهاية ط هجر (٦١/١٨)
(٣) كنز الدرر وجامع الغرر (١٠/١)
(٤) طبقات علماء الحديث (٢٧٦/٤)
(٥) سلم الوصول إلى طبقات الفحول (٣٢٢/١)
(٦) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (٤٢٣/٢)
(٧) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (٣٤/٣)

٣١. قال ابن قنفذ القسنطيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٠هـ) عن كتابه «الوفيات»: رتبته على المئين من السنين، بوجه لم أُسبق إليه[١].

٣٢. المقرئ الزبيدي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٧هـ) برز في جميع الفنون، وكان مفرط الذكاء، فقد عمل للسلطان كتابه الذي لم يسبق إليه، المعروف بـ «عنوان الشرف» والتزم أن يخرج من أواخره ووسطه علومًا، غير العلم الذي يخرج من جميعه، وهو الفقه، ووقع عند سائر علماء عصره موقعًا عظيمًا، ومن تأمله رأى فيه ما يعجز عنه غالب الطباع البشرية، فإنه إذا قرأه القارئ جميعًا وجده فقهًا، وإذا قرأ أوائل السطور فقط، وأوساطها فقط، وأواخرها فقط، استخرج من ذلك علم النحو، والتاريخ، والعروض[٢].

٣٣. لابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) مصنف «تغليق التعليق» قال عنه المؤرخ المقريزي: لم يُسبَق إليه[٣].

٣٤. ابن قُطْلُوْبَغَا -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٩هـ) تحدث عن صحة رواية راوٍ عن الإمام أحمد، فقال: ولي فيه تحقيق لم أُسْبَق إليه[٤].

٣٥. المرداوي الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٥هـ) صنف كتاب «الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف» وهو من كتب الإسلام؛ فإنه سلك فيه مسلكًا لم يُسبق إليه[٥].

٣٦. السخاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٢هـ) له «التاريخ المحيط» على حروف المعجم، قال هو عن مؤلفه: لا أعلم من سبقني إليه[٦].

---

(١) الوفيات لابن قنفذ (ص: ٢١)
(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٢/٢٩٣) والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١/١٤٢)
(٣) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١/٣٠٣)
(٤) الثقات ممن لم يقع في الكتب الستة (٤/٢٤)
(٥) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (٣/١٤١٤)
(٦) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٨/١٧)

٣٧. شمس الدّين محمد الشامي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤٢هـ) ألّف «السيرة النبوية» المشهورة، التي جمعها من ألف كتاب، ومشى فيها على أنموذج لم يَسبق إليه أحد(١).

٣٨. محمد الرعيني الحطاب -رحمه الله تعالى- (ت ٩٥٤هـ) ألّف في مسائل إلزام الإنسان نفسه معروفًا؛ سماه «تحرير الكلام في مسائل الإلزام» حَسَنٌ في نوعه، لم يُسبق إليه(٢).

٣٩. أبو البركات الغَزِّي العَامري -رحمه الله تعالى- (ت ٩٨٤هـ) له تفسير منظوم، سمّاه «تيسير التبيان في تفسير القرآن» وهو مما لم يُسبق إليه(٣).

٤٠. الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ) جمع مروياته في ثبت سماه «إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر» وقال في آخره: وقد جمعنا ما فيها في هذا المختصر، على هذا الترتيب الذي لم أُسبق إليه(٤).



(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٣٥٣/١٠)
(٢) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٥٩٣)
(٣) سلم الوصول إلى طبقات الفحول (٢٤٣/٣)
(٤) فهرس الفهارس (١٠٨٥/٢)

٢٨. المؤلفون المبدعون أعمارهم أقصر من مؤلفاتهم:

من عجيب أحوال المؤلفين الموعِبين المبدعِين أنك إذا حسبت أعمارهم وجدتها لا توازي الجهد الضخم الذي أنجزوه من المؤلفات، لكنها البركة، والبركة من الله.

ومن أعجب الأمثلة ما جرى لابن جرير الطبري -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٠هـ) حيث قال لأصحابه: أَتَنْشَطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قَدْره؟ قال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه! فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة. ثم قال: تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحوًا مما ذكره في التفسير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنا لله! ماتت الهمم! فاختصره في نحو مما اختصر التفسير[1].

ولذا تجد المتبحرين المكثرين من المؤلفات، عندهم عزائم كثيرة لمؤلفات قادمة، ومشاريع بحثية رهينة الذهن والتفكير، ولذا كثيرًا ما يقول قائلهم: «لعلي أكتب في ذلك كتابًا» أو يقول: «وهذا يستدعي سِفْرًا، لعلنا نفرده». ثم قد يَفعل، وقد لا يُمهِلُه الموت.

وخذ أمثلةً لعالِم واحد فقط، وهو ابن القيم -رحمه الله تعالى- فحسب! فقد تمنى أماني علمية، لكن لم يُمهِله الأجل! ولنلتقط بعض تلك الأماني من ثنايا كتبه. وخذ خمسة أمثلة:

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٩٨/٥٢)

• قال في تحريم نكاح المحلِّل وبطلانه: يستدعي سِفْرًا ضخمًا[١].

• ما يخفى على الصحابة مما قضى الله ورسوله به: لو تتبعناه لجاء سِفرًا كبيرًا[٢]

• أمثلة في قوى الأغذية والأدوية المدرَكة بالحس. قال: تزيد على الألف.. ولولا الإطالة لكتبنا منها ما يبلغ ألف مثال[٣].

• مسألة «سلام عليكم». قال: فلولا قصد الاختصار لجاءت مجلدًا ضخمًا[٤].

• مسألة الجهر بالبسملة في الصلاة. قال: يستدعي مجلدًا ضخمًا[٥].

إبداعات المؤلفين التي سبقها مُعاناة وأتعاب، حتى تم الكتاب:

١. قال تلاميذ الإمام مالك -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ): عرَضْنا على مالك «الموطأ» في أربعين يومًا، فقال: كتاب أَلَّفتُه في أربعين سنة؛ أخذتموه في أربعين يومًا، قلَّما تفقهون فيه[٦].

٢. الفقيه الكبير صاحب أبي حنيفة محمد بن الحسن الشيباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٩هـ) لما أخذ في تصنيف «الجامع الكبير» خلا في سرداب، وأمر أهله أن يُراعوا وقت غدائه ووضوئه، وأن يُؤخذ من شعره إذا طال، وأن يُنظَّف ثوبه إذا اتسخ، وألا يُورِدوا عليه شيئًا يشتغل به خاطره، وأقام على ماله وكيلًا، ثم أقبل على تصنيف الكتاب[٧].

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤٤/٣)
(٢) المصدر السابق (١٩٢/٢)
(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١٠٣/٢)
(٤) بدائع الفوائد (١٩٧/٢)
(٥) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢٠٠/١)
(٦) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (ص: ١٣)
(٧) العزلة للخطابي (ص٣٥)

٣. اتفق النقَلة على أن عُمُر الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ): لا يفِي بعُشر ما أبرزه من التصانيف مع الأمراض التي كانت تعتَوِرُه، بحيث ربما اجتمع فيه ثلاثون مرضًا. فسبحان من يبارك لهم، ويطوي لهم(١).

٤. الفراءَ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٧هـ) حين ألَّف ما يجمع به أصول النحو، أمر الخليفة المأمون أن يُفرَد في حُجرة، ووكَّل به جواري وخدمًا، يقمْنَ بما يحتاج إليه؛ حتى لا تتشرف نفسه إلى شيء، حتى إنهم كانوا يؤْذِنونه بأوقات الصلاة، فكان يُملي والوَرَّاقون يكتبون، فانتهى منه في سنتين(٢).

٥. البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) ابتدأ تصنيف «صحيحه»، ووضَعَ تخطيطه العام في المسجد الحرام، ثم أكمله وبيَّضه في بخارَى، بدليل طول مدة تأليفه، البالغة ستة عشر عامًا(٣).

٦. الإمام الطبري -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٠هـ) له أهم كتاب في التفسير، وأهم كتاب في التاريخ، ولما حُسِبت مدة تأليفه بلغت أربعين سنة، مقابل نصف مليون صفحة، فصار معدل كتابته اليومية أربعين صفحة! وهذا شيء هائل لا يكاد يُطاق. وقد قال عن نفسه: استخرتُ الله، وسألته العَون على ما نَوَيْته من تصنيف التفسير، قبل أن أعمله بثلاث سنين، فأعانني(٤).

٧. قال المفسر أبو إسحاق الثعلبي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٧هـ) عن استخراجه الموسوعي لفوائد تفسيره: فاستخرت الله -تعالى- في تصنيف كتاب شامل كامل، مهذب ملخّص، مفهوم منظوم، مستخرج من نيِّف ومئة كتاب.. سوى ما التقطْتُه.. وتلقّفْتُه عن أقوام من المشايخ، وهم قريب من ثلاث مئة(٥).

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣٤٢/٢)

(٢) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (١٥٥/١٤)

(٣) فتح الباري لابن حجر (٤٨٩/١)

(٤) معجم الأدباء (٢٤٥٣/٦)

(٥) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٧٥/١)

٨. قال ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) عن كتابه الفائق « الأخلاق والسير»: أنفقتُ في ذلك أكثر عمري، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له، والفكرة فيه على جميع اللذات التي تميل إليها أكثر النفوس.. وأهديته إليه هنيئًا، فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال، وعقد الأملاك إذا تدبره، ويسره الله -تعالى- لاستعماله[١].

٩. ابن بابشاذ النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٩هـ) انقطع في غرفة بجامع عمرو بن العاص بمصر، وكتب تعليقة كبيرة في النحو، لو بُيِّضت لقارَبَت خمسة عشر مجلدًا، وسماها النحاة الذين وصلت إليهم بعده بـ «تعليقه الغرفة»[٢].

١٠. أبو صالح المؤذن النيسابوري -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٠هـ) جمع بعد طول ترحال حصيلة طلبه للعلم في «الأحاديث الألف» عن ألف شيخ[٣].

١١. عبد السلام القزويني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٨هـ) لهَج بالتفاسير، حتى جمع تفسيرًا بلغ خمس مئة مجلد، وقيل: ثلاث مئة، حشا فيه العجائب، حتى لقد فسَّر في مجلد كامل آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢][٤].

١٢. ابن عساكر -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧١هـ) لو لم يعِش إلا اثنتين وسبعين سنة، لقلتَ إنه استغرق في تصنيف تاريخ دمشق مئة سنة! فمشروعه الضخم «تاريخ دمشق» بلغ عدد مجلداته أكثر من عدد سنيّ مؤلفه. وسبب تأليفه إلحاح فقيه تركي، اسمه يَغمر بن ألْب -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٨هـ). ويقُصُّ علينا ابن عساكر القصة، فيقول: كان يَحُثُّني على تبييض هذا الكتاب، ويَوَدُّ لو

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس (ص: ١١)
(٢) معجم الأدباء (١٤٥٦/٤)
(٣) المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور (ص: ١١٣)
(٤) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٥٢/٣٣)

أنه تمَّ.. إلى أن يسر الله الشروع فيه بعد وفاته.. وكان شديد الاهتمام به، يكاد يبكي إذا ذكره، ويقول: لو تمَّ هذا الكتاب لا يكون في الإسلام كتاب مثله(١).

١٣. لما قدِم الأصولي سيف الدين الآمدي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣١هـ) إلى حماة بالَغ السلطان في إكرامه، وجمع في خزانته من الكُتُب ما لا مزيد عليه، وجعَلَ في خدمته ما يناهز مئتَي معمَّم، من الفقهاء والأدباء والنحاة والكَتَبة، فألَّف الآمدي لأجل ذلك «طبقات الشعراء» وكتاب «مضمار الحقائق» في التاريخ؛ نحو عشرين مجلدة(٢).

١٤. النووي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ) عاش ستًا وأربعين سنة، وبدأ التأليف في منتصف عمره، فقدَّروا أنه يكتب بمعدل كراسين باليوم، حتى تكِلَّ يده، فيضع القلم؛ ليستريح بُرهة(٣). وقال - مشيرًا إلى همته، ونهمته في التأليف المطول-: ولولا ضعف الهمم، وقلة الراغبين، وخوف عدم انتشار الكتاب؛ لقلة الطالبين للمطولات لبسطته، فبلغت به ما يزيد على مئة من المجلدات، من غير تكرار، ولا زيادات عاطلات(٤).

١٥. باستقراء حياة ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) فإن عمره سبع وستون سنة، وقد ألَّف ثلاث مئة كتاب خلال ثلاثين سنة، بمعدل عشرة كتب سنويًا، أي كل أربعين يومًا تقريبًا يؤلف كتابًا، هذا باستثناء الفتاوى والرسائل والأجزاء والقواعد، التي تقترب بالعدد إلى الألف!.

١٦. أبو الحجاج المزي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٢هـ) هذَّب كتاب «الكمال في أسماء الرجال» واستدرك عليه فيه نحوًا من ألف موضع(٥).

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٠٢/٧٤)
(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٧٨/٤) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٤٧/٢٢)
(٣) المنهل العذب الروي للسخاوي (ص: ١٥)
(٤) شرح النووي على مسلم (٥/١)
(٥) البداية والنهاية ط هجر (٧٣٤/١٦)

١٧. الحافظ ابن الملقن -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٤هـ) امتُحن، فلزم داره، وأكبّ على التصنيف، حتّى صار أكثر أهل زمانه تصنيفًا، وبلغت مصنّفاته نحو ثلاث مئة مصنّف[١].

١٨. أبو المعالي الألوسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٢هـ) لما اشتغل في تفسيره «روح المعاني»، كان في نهاره يشتغل بالتدريس والإفتاء، وفي أول ليله يجتمع بالعلماء، ويتناقش معهم في المسائل العلمية، وفي آخر ليله يكتب في التفسير، ثم بعد ذلك يدفع ما كتبه إلى كُتَّاب استأجرهم لهذه المهمة، فيبيِّضون ما كتبه في ليلته في عشر ساعات! فهذا يدل على كثرة كتابته وسرعة بديهته، وموسوعيته التفسيرية[٢].

وتأمل في وصفه لمقدار عنائه في أدائه، حين يقول: فلو رأيتَني وأنا أصافح بالجبين صفحات الكتاب من السهر، وأطالع -إن أعْوَزَ الشمع يومًا- على نور القمر، في كثير من ليالي الشهر، وأمثالي إذ ذاك يَرفُلون في مَطارِف اللهو، ويَرقُلون في ميادين الزهو[٣].

وكل أبيٍ باسلٌ غير أنني إذا عرضَتْ أولى الطرائدِ أبسَلُ[٤]

١٩. د. محمد عبد الله درَّاز -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٧٨هـ) ألَّف كتابه الفذ «دستور الأخلاق في القرآن» طيلة أحد عشر عامًا، وقد قاسَى معاناةً فترةَ تأليفه، حيث اكتنفها سنوات حرب عصيبة، وما أثارته هذه الحرب من مشكلات مادية ونفسية، واضطر لقضاء أيام طويلة مع أسرته، في مَخبأ تحت الأرض، وسط صوت القنابل التي تدوِّي فوقه، وكان يقرأ على ضوء شمعة، أو مصباح خافِت[٥].

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٧٢/٩)
(٢) تفسير الألوسي = روح المعاني (٦/١)
(٣) المصدر السابق (٤/١)
(٤) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (١٠٦/٢)
(٥) مقدمة كتاب: دستور الأخلاق في القرآن (ص٦)

٢٠. قال الألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ): «معجم الحديث» جمعتُه من مخطوطات المكتبة الظاهرية، في نحو أربعين مجلدًا، في كل مجلد نحو أربع مئة ورقة[١].



(١) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٣٠٨/٨)

٢٩. المبدعون من مؤلفي المئات من المؤلفات

عجبًا لهذا القلم الذي يجعل الله منه هذه الكنوز، وينشر الله منه هذه النفائس.

وقد قالوا: المداد كالبحر، والقلم كالغواص، واللفظ كالجوهر، فما أعجب شأن القلم؛ يشرب ظُلمة، ويلفِظ نورًا[١].

تساؤل: ما مقدار صفحات المجلد الواحد في الأزمان الغابرة؟

يتراوح متوسط عدد صفحات المجلد في زماننا (٣٠٠ - ٤٠٠). أما في زمانهم فإن البَون شاسع، والفرق واسع.

وقد وجدتُ نَصَّين عزيزَين متقدمَين، يقرِّبان لك مقدار المجلد في أزمانهم، بالورقات وبالسطور.

✓ نقل الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ) أن تقدير المجلد عشر ورقات[٢].

✓ وقال ابن النديم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٣٨هـ): (الورقة مقدار ما فيها عشرون سطرًا، أعني في صفحة الورقة)[٣].

---

(١) المغرب في حلى المغرب (٨٧/١)

(٢) تاريخ بغداد ت بشار (٢٢٠/١٦)

(٣) الفهرست (ص: ١٩٥)

وبناءً عليهما؛ فالمجلد في زمننا قد يُقارِب عشرين مجلدًا في زمنهم، وقد يُقارِب ما في زمننا، بل قد يطابقه. فمصطلح «مجلد» يعتبر فضفاضًا واسعًا، يبدأ من العشر ورقات، إلى أن يبلغ الألف! والمسألة تحتاج إلى مزيد تحرير.

ولكن تأمل معيَ هذا الجدول في المقارنة بين حصر عدد مجلدات مشاهير كتب شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ):

اسم الكتاب	عدد أجزائه أو صفحاته حسب كلام أهل التراجم[١]	عدد أجزائه أو صفحاته حسب المطبوع الآن
الاستقامة	في مجلدين	في مجلدين
تلبيس الجهمية	ست مجلدات	عشر مجلدات
منهاج السنة النبوية	أربع مجلدات	تسع مجلدات
الجواب الصحيح	في مجلدين	في مجلدين
الرد على البكرِي في الاستغاثة	في مجلد	في مجلدين
العقيدة الواسطية	نحو ثلاثين ورقة	في سبعين صفحة
الفرقان	نحو ستين ورقة	في مئتي صفحة
قاعدة في أمراض القلوب	نحو أربعين ورقة	في ثمانين صفحة

(١) أسماء مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية (ص: ١٩ - ٢٤)

الاستنتاج:

التقارب كبير بين تعداد الأجزاء والصفحات، وبين زمانهم وزماننا، بل ربما التطابق أحيانًا، إذا ما راعينا حذف التحقيق والحواشي.

كم كانوا يكتبون من المجلدات طول حياتهم العلمية؟

قال الأديب محمد رجب البيومي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٢هـ): كنت أقرأ عن كثرة مؤلفات الطبري وابن الجوزي والسيوطي ما يُدهِش ويَرُوعِ، حتى عنَّ لي أن أتّهِم الراوِين بالتزيُّد والإغراق، ثم طالعت حياة الأمير «شكيب أرسلان» في مدى ستين عامًا، لم يترك يومًا واحدًا دون تحرير مقالة ضافية في جريدة، أو كتابة بحث علمي في مؤلف، أو صياغة مذكرة.. أو رسالة.. حتى اكتمل له من ذلك كله ما يزيد عن خمس مئة مجلد! ضاع أكثرها![1].

ولما وقف شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) عند عبارة الحافظ الذهبي، وهي قوله: فالحافظ.. يكفيه أن يكتب بيده مئتي مجلد[2].

فعلق قائلًا: إن كان المجلد المعروف الذي عدد صفحاته ست مئة صفحة، فالواحد منا لو بقي ليلًا ونهارًا ما أظنه يكتب مئتي مجلد في ست مئة صفحة.. وعلى كل حال؛ هم يقولون على قدر حالهم، ونقول: الله المستعان![3].

وتأمل في قوله: الله المستعان! أقول: فقد أعان المعينُ هذا الإمام، فحقَّق له -بفضله- ما لم يتوقعه، ولذا فقد فاقَت مؤلفاته المئتي مجلدة، من خلال مئة وثمانين عنوانًا! فسبحان الواهب المانح.

---

(١) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين - محمد رجب البيومي (ص١٨٧)
(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٨٠/١٣)
(٣) شرح حلية طالب العلم للشيخ محمد العثيمين (ص١٠٣)

أصحاب المئين:

وقد فاوَتَ الله في فتوحاته بين كل عالم ومؤلفاته، فمنهم أصحاب المئين، وهم كثير عبر القرون. ومنهم من له مؤلَّف واحد، لكن قد جاوَزت عدد مجلداته المئة. ومن الأمثلة:

١. صنّف الطبري -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٠هـ) كتاب تفسيرًا كبيرًا للقرآن الكريم غير المطبوع في مئة مجلّد، حتى قيل: لو سافر رجل إلى الصين؛ حتى يحصل له «تفسير الطبري»، لم يكن ذلك كثيرًا[١].

٢. والطبري - أيضًا- ابتدأ بتصنيف كتاب «تهذيب الآثار» فمات قبل تمامه. قال الذهبي: هذا لو تمَّ لكان يجيء في مئة مجلد[٢].

٣. أبو الحسن الأشعري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٤هـ) له كتاب: «المختزن في علوم القرآن» كتاب عظيم جدًا، بلغ فيه سورة الكهف، وقد أنهى مئة كتاب[٣].

٤. الأنباري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٨هـ) من أماليه «غريب الحديث» في خمس وأربعين ألف ورقة. قال الذهبي: فإن صح هذا، فهذا الكتاب يكون أزيد من مئة مجلد[٤].

٥. كتاب «البارع» لأبي علي القالي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٥٦هـ) يحتوي على مئة مجلد[٥].

٦. كتاب «السماء والعالم» يبلغ مئة مجلد، بدأ فيه بالفلك وختم بالذرة، لمؤلفه اللغوي ابن السيد الأندلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٢هـ)[٦].

---

(١) الدر الثمين في أسماء المصنفين (ص: ٩٢)
(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢٧٣/١٤)
(٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (٢٢٦/٢)
(٤) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢٧٧/١٥)
(٥) معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (٧٣٠/٢)
(٦) الوافي بالوفيات (١٢٦/٦) ونفح الطيب (٣٨١/٣)

٧. عبد الملك بن شهيد القرطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٣هـ) مؤلف كتاب «التاريخ الكبير في الأخبار»، وهو أزيَد من مئة سِفر[١].

٨. الملك العالم خلف بن الليث -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٩هـ) يُنسب إليه «تفسير القرآن»، في أكثر من مئة مجلد[٢].

٩. الشاعر أبو العلاء المعرّي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٩هـ) له كتاب «الهمزة والردف» في مئة مجلد[٣].

١٠. ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) قال عنه ابنه: اجتمع عندي بخط أبي من تأليفه نحو أربع مئة مجلد[٤].

١١. اللغوي ابن سِيده -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٨هـ) له كتاب «العالم في اللغة على الأجناس» يكون نحو مئة مجلد[٥].

١٢. عبد السلام القزويني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٨هـ) له «تفسير القرآن» ثلاث مئة مجلد، سبعة منها في الفاتحة[٦].

١٣. «الفنون» لابن عقيل الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٣هـ) أزيد من أربع مئة مجلد. وأقل ما قيل: مِئتا مجلد[٧].

---

(١) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٣٣٨)
(٢) ديوان الإسلام (٢/٢٠٩)
(٣) الدر الثمين في أسماء المصنفين (ص: ٥٧) وشذرات الذهب في أخبار من ذهب (٥/٢٠٩)
(٤) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٣٩٥)
(٥) تاريخ الإسلام ت تدمري (٣٠/٤٤٨)
(٦) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (١/٣١٦)
(٧) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٩/٤٤٥). وقال في تاريخ الإسلام ت. تدمري (٣٥/٣٥١): حدثني من رأى منه المجلد الفلاني بعد الأربع مئة. وفي ذيل طبقات الحنابلة (١/٣٤٤) قال ابن الجوزي: مئتا مجلد، وقع لي منه نحو من مئة وخمسين مجلدًا.

١٤. الحافظ الزاغولي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٩هـ) صنف كتابًا سماه «قيد الأوائل» جمع فيه كل نوع من العلوم الشرعية، يبلغ أربع مئة مجلد[١].

١٥. محمد بن علي الأدفوي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٩هـ) صنف في «التفسير» في مئة مجلد[٢].

١٦. المفسر ابن النقيب -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٨هـ) صرف همته أكثر دهره إلى التفسير، و«تفسيره» مشهور في نحو مئة مجلد[٣].

١٧. الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة الزيدي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٥هـ) مصنفاته بلغت مئة مجلد، ويروى أنها زادت كراريس تصانيفه على عدد أيام عمره[٤].

١٨. المؤرخ ابن الفوطي (ت ٧٢٣هـ) كتب من التواريخ ما لا يوصف، ومصنفاته وِقْر بعير[٥].

١٩. شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ) ففتاواه التي في فنون العلم الشرعي فقط؛ تبلغ ثلاث مئة مجلد، بل أكثر. وقد شرع في جمع تفسير؛ لو أتمَّه لبلغ خمسين مجلدًا. وقد مَنَّ الله عليه بسرعة الكتابة، فقد كان يكتب على السؤال الواحد مجلدًا، وأما جواب يكتبه فيه خمسين ورقة وستين؛ فكثير جدًا[٦].

---

(١) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص: ١٤٣٧)
(٢) طبقات المفسرين للأدنه وي (ص: ٢٤٩)
(٣) طبقات المفسرين للداوودي (١٤٩/٢)
(٤) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٣٣١/٢)
(٥) انظر: إيضاح الدلائل في الفرق بين المسائل للزريراني (ص: ٦٨) والمعجم المختص بالمحدثين للذهبي (ص: ١٤٤)
(٦) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص: ٢١)والشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية (ص: ٥٤) وانظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص: ٧١٧)

٢٠. «الكوكب السَّاري في تَرتيب المسند على أبواب البخاري» لابن عروة الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٧هـ) مئة وعشرون مجلدًا(١)

٢١. المفسر محمد الزاهد البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٢هـ) فسَّر القرآن في مئة مجلد(٢).

وأما كتبٌ كبيرة، لو أتمها مؤلفوها لبلغت المئة فأكثر، فخُذْ ثلاثة أمثلة:

٢٢. يعقوب بن شيبة -رحمه الله تعالى- (ت ٢٦٢هـ) صاحب «المسند الكبير» الذي تم من مسانيده نحو من ثلاثين مجلدًا، ولو كمُل لجاء في مئة مجلد(٣).

٢٣. من مؤلفات ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) «قطعة على البخاري» غير الفتح، بلغ فيها إلى أثناء كتاب «الإيمان»، أطال النفَس فيه جدًا، فجاء في مجلد، ولو قُدِّر إكماله لبلَغ مئتي مجلد(٤).

٢٤. ناصر الدين ابن الفرات -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٧هـ) كَتَب في التاريخ كتابًا كبيرًا جدًا، بيَّض منه نحو عشرين مجلدًا، وقد بِيع باقيه ثمانون مجلدًا مسودة؛ لعدم اشتغال ولده بذلك. قال المقريزي: وقفتُ عليها، واستفدت منها(٥).

---

(١) الجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب أحمد (٩٩/١) قال عنه ابن المِبْرَد: وهو كتاب مفيد قريبًا من أربعة عشر مجلدًا ثم أنه بعد ذلك أدخل فيه أشياء، وروى فيه أشياء وبلغ به إلى مئة وعشرين مجلّدًا، وهذا الثاني فيه عفاشة.. وأدخل فيه أشياء ترتيبها على وجه لا يفعله عاقل. قال شيخ المحققين د. عبد الرحمن العثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٣٦هـ) -وهو محقق الجوهر المنضد: (وقد صورتُ الموجود من الكتاب - ولله الحمد - هو موجود الآن في مكتبة مركز البحث العلمي بكلية الشريعة بجامعة أم القرى. ثم وجدتُ بعض أجزائه بدار الكتب المصرية)

(٢) عجائب المقدور في أخبار تيمور (ص: ٤٦٧)

(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤٧٦/١٢)

(٤) لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ (ص: ١٤٠)

(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٥١/٨)

طائفة من أصحاب المِئين من المؤلفين السالفين والمعاصرين

اسم المؤلِّف المُكثِر	عدد مؤلفاته
١. شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ)	١٠٠٠ بل أكثر(١)
٢. ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ)	١٠٠٠ وقيل أكثر(٢)
٣. البيهقي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٨هـ)	١٠٠٠ (٣)
٤. ابن حبيب المالكي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٨هـ)	١٠٥٠ (٤)
٥. يوسف ابن المِبرَد -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٩هـ)	٦٣٤ (٥)

(١) قال الذهبي كما في الرد الوافر (ص٣٥): (جمعتُ مصنفات شيخ الإسلام فوجدتُها ألْفَ مصنّف، ثم رأيتُ له أيضًا مصنفات أُخَر). وقال أخص تلاميذه بكتابة مؤلفاته ابن رشيّق -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٩هـ): لو أراد الشيخ أو غيره حصر مؤلفاته لما قدروا. انظر: الرد الوافر للبزار (ص٧٢)
وقال تلميذه البزار في الأعلام العلية ص٢٥: «وأما مؤلفاته ومصنفاته، فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها، أو يحضرني جملة أسمائها، بل هذا لا يُقدر عليه غالبًا أحدٌ».
وقال الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى- في الذيل (٤٠٣/٢): «وأما تصانيفه.. فقد جاوزت حدّ الكثرة، فلا يمكن لأحد حصرها!
ومن كثرة كتبه وفتاويه، فإن أكثر رسائله اختير لها عناوين في حياته، أو بعد وفاته، من قِبل تلاميذه وأصحابه الذين قاموا بنسخها، وتبييضها، ونشرها، وعلى رأسهم ابن رُشَيِّق الذي كان أبصر بخط الشيخ منه، وإذا عزَب شيء منه على الشيخ استخرجه. ذكر ذلك ابن كثير في البداية والنهاية (٢٢٩/١٤)

(٢) قال ابن تيمية: عددتها فرأيتها أكثر من ألف مصنف. ورأيت بعد ذلك له ما لم أره. انظر: ذيل طبقات الحنابلة (٤٨٩/٢)

(٣) تاريخ الإسلام ت تدمري (٤٤٠/٣٠)

(٤) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١٢٨/٤)

(٥) مقدمة محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - يوسف ابن المبرد.

اسم المؤلِّف المُكثِر	عدد مؤلفاته
٦. السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ)	٥٠٠ وقيل ٦٠٠ (١)
٧. أنور الجندي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٢هـ)	٤٠٤ (٢)
٨. الشافعي ابن سُريج -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٦هـ)	٤٠٠ (٣)
٩. أبو الحسن الأشعري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٤هـ)	٣٨٠ (٤)
١٠. ابن الملقِّن -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٤هـ)	٣٠٠ (٥)
١١. ابن قتيبة الدينوري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٦هـ)	٣٠٠ (٦)
١٢. محمد ناصر الدين الألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ)	٢٣١ (٧)
١٣. محمد بن ناصر العبودي -رحمه الله تعالى- (١٤٤٣هـ)	٢٢٨
١٤. صديق حسن القِنّوجي - رحمه الله - (ت ١٣٠٧هـ)	٢٢٠ (٨)
١٥. المقريزي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٥هـ)	٢٠٠ (٩)

(١) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (المقدمة/٧) وذيل طبقات الحفاظ (ص٢٢٣). كلاهما للسيوطي.
(٢) المكتبة الشاملة (بطاقة المؤلف)
(٣) توضيح المشتبه (٧٣/٥)
(٤) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (١٤٥/١)
(٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٧٢/٩)
(٦) مجموع الفتاوى (٣٩١/١٧)
(٧) انظر: ثبَت مؤلفات الألباني - للشيخ د. عبد الله الشمراني.
(٨) دعايات مكثفة ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: ٣٤)
(٩) المقفى الكبير (٩/١)

اسم المؤلِّف المُكثِر	عدد مؤلفاته
١٦. ابن حَجَر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥١ هـ)	٢٠٠ (١)
١٧. محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ)	١٨٠ (٢)
١٨. أبو الحسن الندوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ)	١٧٦
١٩. ابن أبي الدنيا -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨١هـ)	١٧٤ (٣)
٢٠. عبد الله الجار الله -رحمه الله تعالى- (ت ١٤١٤هـ)	١٥٦ (٤)
٢١. عبد الله بن محمد الطيار -حفظه الله تعالى-	١٥٥
٢٢. محمد بن إبراهيم الحمد -حفظه الله تعالى-	١٤٠
٢٣. سعيد بن علي وهف القحطاني-رحمه الله- (ت١٤٤٠هـ)	١٣٠
٢٤. عبد الحي اللكنوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٠٤هـ)	١٢٠ (٥)
٢٥. المقرئ إبراهيم الجعبري-رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٢ هـ)	أكثر من ١٠٠ (٦)

---

(١) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٣٢٢/١)

(٢) الموقع الرسمي لفضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله تعالى-.

(٣) بحث منشور في شبكة الألوكة للشيخ محمد زياد التكلة.

(٤) معجم مصنفات الحنابلة - أ. د. عبد الله الطريقي (٣٠٤/٧). علمًا أن كثيرًا من مؤلفات الجار الله رسائل صغيرة وكتيبات.

(٥) انظر: الإمام عبد الحي اللكنوي - د. ولي الدين الندوي (ص ١٦٥)

(٦) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (٢٠٣/٦)، وقد نظِم ذلك في أبيات فقال:

أيا سائلي عن عـدِّ ما قد جمعته ... من الكُتُبِ في أثناء عمري من العِلْمِ

أصِـخْ لي فقد عرفتُ ذاك بنيِّفِ ... على مئة ما بين نثر إلـى نظمِ

اسم المؤلِّف المُكثِر	عدد مؤلفاته
٢٦. جمال الدين القاسمي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٣٢هـ)	أكثر من ١٠٠
٢٧. عبد الرحيم اللخمي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٦هـ)	١٠٠ (١)

تأمل:

إلى هنا يُكتفَى بالمرقوم، وليس القصد الإحصاء، ولكن لتتأمل أمورًا:

١. هذه الكثرة الكاثرة من مئات المؤلفات لشخص واحد تقودك لنتيجة ظاهرة: ألا وهي اعتناؤهم بالعلم من خلال التأليف أكثر من أي مجال علمي آخر.

٢. أن الإبداع بالتأليف تجعل المؤلِّف ينْهَمِك، فلا ينقطع، بل ربما تجده يشتغل في أكثر من كتاب في زمن واحد، يتذوق من هذا ذَوقة، ومن ذاك أخرى.

٣. أنك واجِدٌ بعض هذه الأسماء اللامعة من لم ينقطع للتأليف، بل ستجد فيهم من هو إمام في التدريس، وإمام في نفع الخلق، فكيف جمع بين ذلك كله؟! إنها البركة من الله.

٤. وبناء على ذلك، فلا تندُبْ زمانك، أو تعِبْ على غيرك أن لم يكن كذلك، «**ولكن اعملوا؛ فكلٌّ ميسَّر لما خُلق له**». واطمح واطمع، ولا تقنع بما دون النجوم.

٥. أن المؤلفين القدامى قبل الكهرباء كانوا يُعانُون، ولكنهم مُعانُون، فالنسخ والمقابلة الورق يتم بطريقة بدائية فردية، ولكنْ طرح الله البركة والانتشار لمؤلفاتهم برغم معاناتهم.

٦. من بركة مؤلفاتهم ذلكم الثراء العلمي فيها، في امتداد نفعها، بكثرة شروحاتها، وضخامة الإحالات عليها، وتكرار نُسخها وطبعاتها، برغم مرور القرون على تأليفها، والترحُّم على مؤلفيها جيلًا بعد جيل.

---

(١) العقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ٣٣٣)

٧. من إتقانهم لتصنيفاتهم: اعتناؤهم الكبير على التسويد والمقابلة، ثم التبييض، حتى يستوي المصنَّف على سُوقه، وإلا لكانت الأعداد مضاعفة.

٨. اعلم أن هذا الكم الهائل الذي خلَّفوه لنا من المؤلفات؛ قد نُهب وحُبس في مكتبات العالم، أو ضاع أو تلف بحرق أو غرق أو بأرَضَة، وربما غرق بعضه في نهر دجلة أيام التتار، ولله الحكمة البالغة.



علماء أكثرُ مؤَلّفاتهِم مَخطوطةٌ أو مَفقودَةٌ

اسم العالِم المؤلِف	عدد مؤلفاته	عدد المطبوع منها	المفقود أو المخطوط
١. ابن أبي الدّنْيا -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨١هـ)	١٧٤	٦٠	١١٤
٢. ابن حَزْم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ)	٩٧	٢٥	٧٢
٣. ابن الجَوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ)	١٠٠٠	٦٩	٤٥٠
٤. ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ)	١٠٠٠	٣٢٨	٦٨٢
٥. ابن القيّم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ)	٩٨	٣٤	٦٤
٦. الذّهَبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ)	٢١٦	٥٢	١٦٤

اسم العالِم المؤلِف	عدد مؤلفاته	عدد المطبوع منها	المفقود أو المخطوط
٧. ابن حَجَر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ)	٢٧٠	٦٧	٢٠٣
٨. ابن المُلَقِّن -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٤هـ)	٣٠٠	٢٩	٢٧١
٩. ابن المِبْرَد -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٩هـ)	٦٣٤	٣٣	٦٠١
١٠. السُّيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ)	٦٠٠	٢٥٠	٣٥٠

٣٠. قائمة بأسماء من اشتهر بتأليف كتاب واحد، فأبدع فيه:

أصحاب المؤلَّف الواحد:

١. القرشي -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٠هـ) = جمهرة أشعار العرب.

٢. الإمام مالك -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ) = الموطأ.

٣. سيبويه -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٠هـ) = الكتاب.

٤. أبو مسهر الغساني -رحمه الله تعالى- (ت ٢١٨هـ) = نسخة أبي مسهر.

٥. إسحاق الكوسج -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥١هـ) = مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه.

٦. ابن زنجويه -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥١هـ) = الأموال.

٧. الفاكهي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٢هـ) =أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه.

٨. القاسم بن ثابت السرقسطي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٢هـ) الدلائل في غريب الحديث.

٩. ابن الجارود -رحمه الله تعالى- (ت ٣٠٧هـ) = المنتقى من السنن المسندة.

١٠. الرحالة ابن فضلان -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٠هـ) =رحلاته.

١١. الطُّوْسِيُّ، المُلَقَّبُ بِـ: كَرْدُوشٍ -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٢هـ) = مستخرج الطوسي على جامع الترمذي.

١٢. ابن عبد ربه -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٨هـ) = العِقد الفريد[1].

١٣. ابن عزير السجستاني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٠هـ) ليس له إلا «نزهة القلوب في غريب القرآن»، ولكنه أنجزه في عدة سنين.

١٤. الخِرقي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٤هـ) = له تصانيف احترقت، وبقي منها «مختصر الخرقي».

١٥. القحطاني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٨هـ) = ألفية القحطاني.

١٦. ابن بطال -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٩هـ) = شرح صحيح البخاري.

١٧. أبو طاهر إسماعيل السرقسطي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٥هـ)= العنوان في القراءات السبع.

١٨. ابن غنائم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٠هـ)= الفوائد المخرَّجة من أصول سماعاته، لابن الغرِيق (٤٦٥هـ).

١٩. سراج السنة أبو نصر الغازي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٢هـ) = جزء فيه مجلس من أماليه.

٢٠. ابن البَاذِش (ت ٥٤٠هـ) = الإقناع في القراءات السبع.

٢١. ابن حمدون -رحمه الله -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٢هـ) = التذكرة الحمدونية.

٢٢. ابن خَيْر الإشبيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧٥هـ) = فهرسة ما رواه عن شيوخه.

---

(١) فائدة: قال الزركلي في الأعلام (٢٠٧/١) سماه (العِقد) وأضاف النُّسّاخ المتأخرون لفظ (الفريد)

٢٣. الزرنوجي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٤٠هـ) = تعليم المتعلم طريق التعلم.

٢٤. ابن الصابوني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨٠هـ) = تكملة إكمال الاكمال - جعله ذيلًا لكتاب ابن نقطة.

٢٥. ابن خَلكان -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨١هـ) = الوفيات.

٢٦. السنامي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٦هـ) = نصاب الاحتساب.

٢٧. القزويني -رحمه الله تعالى- (ت ٦٩٩هـ) = مختصر شعب الإيمان للبيهقي.

٢٨. ابن الأخوة، القرشي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٩هـ) = معالم القُربة في طلب الحسبة.

٢٩. الرحالة ابن بطوطة -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٩هـ) =رحلاته -رحمه الله تعالى- (تحفة النُّظّار) وقد كتبها تلميذه محمد بن جُزي.

٣٠. الصالحي الشامي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤٢هـ) = سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد.

٣١. عثمان بن جامع -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٤٠هـ) =الفوائد المنتخبات في شرح أخصر المختصرات.

٣٢. محمد الفقيه -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٥هـ)[1] =الكشف المُبدي بتكملة الصارم المنكي.

٣٣. عمر بن عبد العزيز المترك -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٥هـ) = الربا في المعاملات المصرفيّة.

٣٤. محمد المختار الشنقيطي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٠٥هـ) = شرَح بعض النسائي، بمقدار ٨٨٢ حديثًا.

---

(١) كان ضريرًا، فحجَّ بأمه وعمره ١٦ سنة، ثم جلس بجدة لطلب العلم، حتى صار عالِم جدة، ومات وعمره ٥١ سنة.

من له مؤلَّفان أو ثلاثة، ولكن لم يشتهر إلا بأحدها، حتى إنه يُظنُّ أنه لم يؤلف غيره من شهرته:

١. ابن سَلّام -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٢هـ) = طبقات فحول الشعراء.

٢. أبو مسلم الكَجِّي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٩٢هـ) = كتاب (السنن).

٣. البَرْبهاري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٩هـ) = شرح السنة.

٤. ابن النديم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٣٨هـ) = الفهرست[١].

٥. ابن جُبير -رحمه الله تعالى- (ت ٦١٤هـ) = رحلاته.

٦. الآجُرُّومي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٢هـ) = الآجرومية في النحو.

٧. البيقوني -رحمه الله تعالى- (نحو ١٠٨٠هـ) = البيقونية في مصطلح الحديث.

٨. ابن العِماد الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٨٩هـ) = شذرات الذهب في أخبار من ذهب.

٩. أبو البقاء الكفوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٩٤هـ) = الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية.

١٠. الجَمزوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٠٩هـ) = تحفة الأطفال في التجويد.

والخلاصة المجتناة، والنتيجة المجتباة من هذا الجَرْد والسرْد:

أن يُقال لك: اكتب وابحث واجمع، واسعَ، وسلِ الله البركة، ولا تحقِر عملك؛ فإنك لا تدري في أي مكتوبك النفع والقبول.

وأما الطباعة والنشر لهذا المكتوب؛ فتأنَّ وأتقِن، وتخيَّر ما هو أعظم نفعًا، وأكثر إتقانًا.

---

(١) مكث في تأليفه ٣٥ سنة! انظر: الأعلام للزركلي (٦/٢٩)

ولأضرب لك مثالًا من العشرة الآنفة الذِّكر. فهذا البيقوني ليس له ترجمة إلا من بضعة سطور، حتى إنه مختلف في اسمه، والعجب أنه كتب تلك المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث، كتبها في ورقتين أو ثلاث، من أربعة وثلاثين بيتًا، فجعل الله لهذه الأبيات اليسيرة القبول الكبير، بحيث شُرحت في المجامع والمساجد والمدارس والكتب بما لم يمكن إحصاؤه.

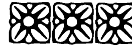
وأَقدَم أربعة شروح للبيقونية، ممن عاصَروا المؤلف، ولعلهم لَقُوه، بل ربما أنهم تلاميذه:

١. أحمد بن محمد مكي الحسيني -رحمه الله تعالى- (٠٠٠ - ١٠٩٨ هـ)[١].

٢. الزُّرْقاني -رحمه الله تعالى- (١٠٥٥ - ١١٢٢هـ)[٢].

٣. البُدَيْري -رحمه الله تعالى- (٠٠٠ - ١١٤٠ هـ)[٣].

٤. عبد الغني البُرْهاني -رحمه الله تعالى- (٠٠٠ - ١١٥١ هـ)[٤].



(١) الأعلام للزركلي (١/٢٣٩)

(٢) المصدر السابق (٦/١٨٤)

(٣) المصدر السابق (٧/٦٥)

(٤) المصدر السابق (٤/٣٤)

٣١. نماذج لعلماء أبدعوا في تأليفاتهم في مقتبل حياتهم:

مكمن الإبداع في هذا المبحث من أربع جهات:

- كونه من شاب لم يبلغ أشدَّه، وعلمه المبكر أقلُّ من المتأخر.
- كونه أجاد في طرحه وعرضه، برغم ابتدائه في طريق التأليف.
- كونه في علم دقيق يحتاج إلى أخذ العُدَّة، وفن رفيع يحتاج لمزيد التبحر.
- كون الكتاب لقي انتشارًا أوسع من سائر كتبه التي جاءت بعده.

وهؤلاء العباقرة امتن الله عليهم بما هو خارج عن المألوف، ولذا تجدهم يقتحمون في العلم مجالًا صعب المرتقى، فسبحان من وهبهم. وخذ على ذلك خمسة أمثلة لمغمورِينَ أشهَرَتْهم مؤلفاتهم:

١. الوزير الصاحب ابن عباد -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٥هـ) صنف كتاب «الوقف والابتداء» في عنفوان شبابه، فأرسل إليه أبو بكر بن الأنباري متعجبًا، وقال له: إنما صنفتُ كتاب «الوقف والابتداء» بعد أن نظرتُ في سبعين كتابًا تتعلق بهذا العلم، فكيف صنعتَ هذا الكتاب مع حداثة سنك؟! فقال الصاحب للرسول: قل للشيخ: نظرتُ في السبعين التي نظرتَ فيها، ونظرتُ في كتابك أيضًا[١].

٢. ابن أبي زيد القيرواني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٨٦هـ) رسالته المشهورة؛ ألَّفها وسِنُّهُ سبعة عشر عامًا، ووقع التنافس في اقتنائها، حتى كُتبت بالذهب[٢].

---

(١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص: ٢٤٠)

(٢) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (١/١٤٣)

٣. أحمد بن عبدالصمد الخزرجي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٢هـ) له «مقامع الصلبان» ألفه مأسورًا، وهو فتىً في الحادية والعشرين! بل قد جاء في مقدمة كتابه أنه: «صبي من آل عبد الحق الخزرجي». وقال هو نفسه: «على أني بائن القصور؛ لصغر السن». وباعثه على تأليفه أنه كان في زمنه قِسٌّ يُكثر من الاعتراض في الدين، فجعلوا يرفعون سؤالاتهم إلى الصبي، فيجاوِبهم الصبي عليها، فيرجعون بذلك إلى القس، فأنكر جوابهم؛ لعلمه أنهم ليسوا من أهل العلم[1].

وهذا الرد من أهم الردود المؤلفة، والذي يزيد انبهارك أن المفسر القرطبي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧١هـ) قد نقل عن هذا الفتى في «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام»[2].

٤. أبو حامد أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٣هـ) لما كان عمره ست عشرة سنة، صنف مجلدة ضخمة في «تناقض كلام الرافعي والنووي» وأُذن له بالإفتاء وعمره عشرون سنة، ومات وعمره أربع وأربعون سنة[3].

٥. المولى البسطامي مصنفك -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٥هـ) لُقب بذلك؛ لاشتغاله بالتصنيف في حداثة سِنه -والكاف للتصغير في لغة العجم-، فقد صنف «الإرشاد» وعمره عشرون سنة[4].

وأما الآن؛ فإليك جدولًا لفطاحلة العلماء، المباركين في بعض مؤلفاتهم،

---

(١) مقامع الصلبان ص٢٩ وانظر ترجمته في: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٤٢٠/١)

(٢) مقدمة «مقامع الصلبان» ص٥ - ص ١٤وانظر ترجمته في: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٤٢٠/١)

(٣) الوافي بالوفيات (١٦١/٧)

(٤) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٤٩٧/١) والشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص: ١٠٠)

التي انتشرت انتشارًا كبيرًا، ولكن العجب أن فترة تأليفهم لتلك المؤلفات كانت في مقتبل أعمارهم.

فهذه سبعة كتب، لمؤلفين مشهورين، ومؤلفاتهم من أشهر ما انتشر لهم:

الكتاب	المؤلف	عمره حين ألّفه
١. أصل صفة صلاة النبي ﷺ	الألباني	٣٣
٢. فتح رب البرية بتلخيص الحموية	ابن عثيمين	٣٣
٣. الأذكار النووية	النووي	٣٦
تفسير الكريم الرحمن(١)	ابن سعدي	٣٧
٤. تفسير القرآن العظيم	ابن كثير	٣٧
٥. العقيدة الواسطية	ابن تيمية	٣٧
٦. الفتوى الحموية	ابن تيمية	٣٨

موقظات أربع:

• انتبه إلى تحقيق الإخلاص أشد الانتباه، ولا يدفعنَّك تأليف مَن صَغُرَ مِن نوابغ العلماء إلى أن تتعجل طيباتك؛ فإن التأليف في الصِّغَر فتنة خفية، لا ينجو

(١) بدأ الشيخ -رحمه الله تعالى- تأليفه لهذا التفسير المبارك في عام ١٣٤٢هـ، وأنهاه في عام ١٣٤٤هـ وبهذا يظهر أنه قد بدأه وله من العمر خمسة وثلاثون عامًا، وأتمه وله من العمر سبعة وثلاثون عامًا. مقدمة تفسير السعدي (ص: ١٣). وقد اختصره في كتابه (تيسير اللطيف المنان) في ١٣٦٨/١٠/٣هـ ولكن الأصل أنفع، وفي كلٍ خير.

منها إلا مَن جاهَد نفسه، وأراد الله له النجاة، فتريَّثوا - يا صغار طلبة العلم- ولا يفتننَّكم الشيطان.

• طالب العلم الذي يريد أن يؤلِّف، قبل أن يملأ قلبه وعقله من العلم؛ هو كَمَن يريد أن يرمي بقوسٍ وكِنانتُه فارغة، ليس فيها سهم، وقد قالت العرب قديمًا: قبل الرِّماء تُملأ الكَنائن!.

• السبق شيء، والإجادة شيء آخر، فما كل من صنف أجادَ، ولا كل من قال وفَّى بالمراد، والفضل مواهب، والناس في الفنون مراتب، وقد تظفر الأواخر بما تركتَه الأوائل، وكم ترك الأول للآخِر[1].

• هؤلاء الذين ألَّفوا في مقتبل أعمارهم؛ الظن بهم أنهم لم يُخرِجوا مؤلفاتهم على عِلَّاتها، بل راجعوها، ونقّحوها، وأَبدؤوا فيها وأعادوا.

• رسائل الماجستير على وجه الخصوص، تكون غالبًا في مقتبل العمر، وقد يُستهان بها في مقابل رسائل الدكتوراه. فليفتِّش كل باحثٍ في بحثه، فإن رأى فيه تميزًا ظاهرًا، فليستعِنْ بالله، وليُعِد النظر في بحثه، وليُخرجه مطبوعًا؛ لينتفعَ هو به، وينفع القارئين.

---

(١) الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (١/٤)

مَسْرَدُ تسعة وتسعين مبدع،
ممن ألَّفوا في مُقتَبَل عُمُرهم أو قبل سِن الأشُد[١]:

اسم الكتاب	اسم المؤلف	عمره
١. الاستذكار في فقه الشافعي	أبو الفرج الدارمي (ت ٤٤٨هـ)	في صباه[٢]
٢. امتحان الطلبة في الصيَغ المشكلة	اللكنوي توفي عن ٣٩ سنة	في صباه
٣. الزهرة	محمد بن داود الظاهري (٢٩٧)	في صباه
٤. واو الثمانية	الصفدي (ت ٧٦٤هـ)	في صباه
٥. خالص الجمان في أنساب بني عدنان	محمد الأمين الشنقيطي	١٤ عامًا
٦. إظهار الحقيقة	محمد المكي الناصري	١٦ عامًا
٧. حكم التمثيل	عبد السلام البرجس (١٤٢٥هـ)	١٦

(١) في الجُعبة أكثر من التسعة والتسعين، لكن وقفت على هذا الرقم؛ تيمُّنًا بما نعلمه من أسماء الله الحسنى.

(٢) وهذا الاستذكار للشافعي يقع في ثلاثة مجلدات. قالوا عنه: إنه كتاب نفيس، ولكن لا يصلح لمطالعته، والنقل منه، إلا العارف بالمذهب؛ لانغلاق رَمْزه. انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٨٢/٤) وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/١)

اسم الكتاب	اسم المؤلف	عمره
٨. رسالة (السفينة)	جمال الدين القاسمي	١٦
٩. شرح التصريف	التفتازاني (٧٩٢هـ)	١٦
١٠. شرح مئة المعاني والبيان	ابن الشحنة	١٦
١١. فرح نامه (فارسي)	العلائي	١٦
١٢. لواء النصر في أدباء العصر	عبد الله النديم	١٦
١٣. كتاب في الصرف	علي آبادي (ت ١٢٤٩هـ)	١٦
١٤. تناقض كلام الرافعي والنووي	أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي	١٦
رسالة: عقيدة السلف(١)	ابن أبي زيد القيرواني (٣٨٦هـ)	١٧ عامًا
١٥. مختصر «إصلاح المنطق»	أبو القاسم المغربي (ت ٤١٨هـ)	١٧
١٦. رياض الطالبين في الاستعاذة والبسملة	السيوطي (٩١١هـ)	١٧
١٧. آلات الظلال	إبراهيم الصابي الحرّاني (ت ٣٣٥هـ)	١٧

(١) قال ابن مخلوف في «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية» (١٤٤/١) عن الرسالة: وقع التنافس في اقتنائها، حتى كُتبت بالذهب!

اسم الكتاب	اسم المؤلف	عمره
١٨. التمهيد في التجويد	ابن الجزري	١٧
١٩. التاريخ الكبير (قبل المراجعة)	البخاري (٢٥٦هـ)	١٨ عامًا
٢٠. شرح «قطر الندى لابن هشام»	عبد الله الفاكهي (ت ٩٧٢هـ)	١٨
٢١. معارف الإنعام وفضل الشهور والأيام	ابن المِبرَد (ت ٩٠٩هـ)	١٨
٢٢. الرياض الأدبية	سليمان بن الجون	١٨
مختصر تلبيس إبليس[١]	ابن الجوزي	١٨
٢٣. منظومة اليواقيت في فن المواقيت٣٦٨ بيتًا	محمد بن أحمد الشاطري	١٨
٢٤. الإنصاف في حكم الاعتكاف	أبو الحسنات اللكنوي (١٣٠٤هـ)	١٨
٢٥. سلم الوصول	حافظ حكمي (١٣٧٧)	١٨
٢٦. الحدائق الخضرة في سيرة النبي والعشرة	العيدروس (ت ١٠٣٨هـ)	١٩ عامًا
٢٧. شرح منهاج القرش	الإمام الهادي بن المؤيد	١٩

(١) العجيب أن المختصر سابق للأصل! على غير المعهود.

اسم الكتاب	اسم المؤلف	عمره
٢٨. شرح قصيدة نهج البردة	رضا الكاكوروي (بعد ١٣٠٠هـ)	١٩
٢٩. ذيل على وفيات الأعيان	الزركشي (٧٩٤)	١٩
٣٠. المقرب المستوفي شرح الحوفي	الأمير محمد السنوسي (ت ٨٩٥هـ)	١٩[(١)]
٣١. شرح ديوان علقمة	أحمد صقر	١٩
٣٢. شرح على مراح الأرواح في الصرف	العيني	١٩
٣٣. صفة نطق الضاد	الألباني	١٩
٣٤. لباب المحصّل	ابن خلدون	١٩
٣٥. معجم شيوخه «ملحة الراوي»	طلحة بن الأسعد الإشبيلي (٦٤٣هـ)	١٩
٣٦. بغية الوعاة	السيوطي	١٩
٣٧. مقاليد التصريف في الصرف	سعيد الخليلي	١٩
٣٨. تفسير الجلالين	السيوطي (من الكهف)	٢٠ عامًا

(١) وقالوا عن الكتاب: كبير الجرم، كثير العلم، ولما وقف عليه شيخه الحسن أبركان تعجب منه، وأمر بإخفائه حتى يكمل سِنُّه أربعين سنة؛ لئلا يصاب بالعين! ويقول له: لا نظير له فيما أعلم. ودعا لمؤلفه. انظر: نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: ٥٦٣)

اسم الكتاب	اسم المؤلف	عمره
٣٩. رسائل في سبيل الإصلاح	علي الطنطاوي	٢٠
٤٠. خلاصة السير لسيد البشر	عبدالله الحبشي (١٣٧٤)	٢٠
٤١. حكم سب الصحابة	محمد مال الله (١٤٣٣هـ)	٢٠
٤٢. قصيدة تقريب المنافع ٣٠٠ بيت	محمد الوهراني شقرون (ت ٩٢٩هـ)	٢٠
٤٣. الإرشاد	المولى مصنفك (ت ٨٧٥هـ)	٢٠
٤٤. زينة العرائس من الطُّرف والنفائس	ابن المِبْرَد	٢٠
٤٥. السير الحاث إلى علم الطلاق الثلاث	ابن المِبْرَد	٢٠
٤٦. إرشاد الحائر إلى علم الكبائر	ابن المِبْرَد	٢٠
٤٧. بلوغ الأمل في المفردات والجمل	عبد الله بن حميد السالمي	٢٠
٤٨. المختار للفتوى	عبد الله الموصلى (ت ٦٨٣هـ)	حداثة سنه
٤٩. الوقف والابتداء	الصاحب بن عباد (ت ٣٨٥هـ)	في شبابه

اسم الكتاب	اسم المؤلف	عمره
٥٠. رسالة الشك في الركعتين الأوليين	حسين بن دلدار آبادي (ت ١٢٧٣هـ)	في شبابه
٥١. الفهرست	ابن النديم	في شبابه
٥٢. حاشية على شرح الأسباب والعلامات	هاشم بن أحسن الدهلوي	في شبابه
٥٣. مقامع هامات الصلبان	أحمد بن عبدالصمد الخزرجي (٥٨٢)	٢١ عامًا
٥٤. السلم المنورق في علم المنطق	عبد الرحمن بن سيدي الصغير	٢١ عامًا
٥٥. منظومة سلم الوصول	حافظ حكمي	٢٢ عامًا
٥٦. صون المنطق والكلام	السيوطي(١)	٢٢
٥٧. مغني المستفيد في أحكام التجويد	عبدالمحسن أبابطين (١٣٣٧هـ)	٢٢
٥٨. منجد المقرئين	ابن الجزري	٢٢
٥٩. أمير الشعراء امرؤ القيس	محمد صالح سمك	٢٢

(١) وبسبب كتابه هذا؛ فقد تعرض لهجوم عنيف من قبل علماء عصره؛ لأنه اعتمد فيه على كتاب ابن تيمية في الرد على المنطق.

اسم الكتاب	اسم المؤلف	عمره
٦٠. ترجمة المراح في التصريف	صديق خان القِنّوجي	٢٢
٦١. أعلام السنة المنشورة	حافظ حكمي	٢٣ عامًا
٦٢. جامع الفنون	محمد بن علي الهمذاني (٨٠٩هـ)	٢٣
٦٣. نهاية الدرايات في القراءات	ابن الجزري	٢٣
٦٤. المئة العشاريات	ابن الجوزي	٢٣
٦٥. خلاصة تذهيب التهذيب	ابن أبي الخير (٩٢٣)	٢٣
٦٦. منظومة القواعد	ابن سعدي (١٣٧٦هـ)	٢٣
٦٧. المستجمع في تلخيص مجمع البحرين	العيني	٢٤ عامًا
٦٨. عقود اللؤلؤ والمرجان في وظائف رمضان	إبراهيم بن عبيد	٢٥ عامًا
٦٩. حاشية الألفية الصغرى	ابن هشام (٧٦١)	٢٥
٧٠. كتاب الأحكام	ابن الفرس الخزرجي	٢٥
٧١. أدب الخواص	الوزير المغربي (٤١٨)	٢٥
٧٢. الروض النضير	الألباني	٢٥

اسم الكتاب	اسم المؤلف	عمره
٧٣. محض الصواب في فضائل عمر بن الخطاب	ابن المِبرد	٢٦ عامًا
٧٤. شرح العز في التصريف	سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩١هـ)	٢٦
٧٥. الفوائد الجلية في المباحث الفرضية	ابن باز	٢٧ عامًا
٧٦. فقه النوازل (مسودة)	بكر أبو زيد (١٤٢٩هـ)	٢٧
٧٧. كتاب «المتنبي»	محمود شاكر (١٤١٨هـ)	٢٧
٧٨. شرح الواسطية	زيد الفياض (١٤١٦)	٢٧
٧٩. مختصر التحفة الاثني عشرية	محمود الألوسي	٢٨ عامًا[1]
٨٠. هذه مفاهيمنا	صالح آل الشيخ	٢٨
٨١. الفوائد البهية	أبو الحسنات اللكنوي (١٣٠٤هـ)	٢٨
٨٢. شرح الأخْسِيكَثي	قوّام الفارابي الأتقاني	٢٩ عامًا

(١) وقد قال عنه الشيخ صِدّيق خان: واشتغل بالتأليف وهو ابن ثلاث عشرة سنة. ولكني لم أجد من سمَّى كتابًا له وهو بهذا العمر. انظر: التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٥٠٨)

اسم الكتاب	اسم المؤلف	عمره
٨٣. كتاب في العروض	أحمد القشيري الملقب بالتاج	٢٩
٨٤. تعليقة على علل ابن أبي حاتم	ابن عبد الهادي (٧٤٤هـ)	٢٩
٨٥. السيوف المشرقة	محمود الألوسي	٣٠ عامًا
٨٦. يوميات نجدي	محمد العبودي (١٤٤٣هـ)	٣٠
٨٧. تحقيق الكلام	عبد الرحمن المعلمي (١٣٨٦)	٣٢ عامًا
٨٨. المورد الزلال في التنبيه على أخطاء تفسير الظلال	عبد الله الدويش (١٤٠٨)	٣٢
٨٩. فتح رب البرية بتلخيص الحموية	ابن عثيمين (١٤٢١هـ)	٣٣ عامًا
٩٠. تيسير العزيز الحميد	سليمان بن عبد الله آل الشيخ	٣٣
٩١. العنقود في نظم العقود	شعلة الموصلي (٦٥٦هـ)	٣٣
٩٢. التوضيح المفيد على كتاب التوحيد	عبد الله الدويش	٣٣
٩٣. طوق الحمامة	ابن حزم (٤٥٦)	٣٤ عامًا
٩٤. تغليق التعليق	ابن حجر	٣٥ عامًا

اسم الكتاب	اسم المؤلف	عمره
٩٥. تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب	عبد الله الميورقي (٨٣٢)	٣٥
٩٦. شرح المنهاج للبيضاوي	عبد الرحيم الإسنوي	٣٦ عامًا
٩٧. الأدب الصغير والكبير	ابن المقفع (١٤٥هـ)	٣٦



٣٢. نماذج لعلماء أبدعوا بتأليفاتهم في آخر حياتهم

المبدِعون بالعلم حياتهم مليئة بالكفاح، والعطاء العلمي المتواصل، من المحبرة إلى المقبرة، بل أنفاسهم مصحوبة بالمثابرة إلى آخر رمق!

ومن الطريف العجيب أن المعمَّر الأمير الأديب أسامة بن منقذ -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨٤هـ) قد أَلَّف كُتبًا بعد ما جاوز التسعين من عمره، ثم تراه يعتريه بعض العَتَب لنفسه، فيقول في خاتمة أحدها: اشتغال من بلغ من السنين إحدى وتسعين، بأعمال البر والثواب، أجدى عليه من الاشتغال بتأليف كتاب[1].

إن هؤلاء المبدعين طموحون، ويصنعون العجائب ولو طعنوا في السن، بل يعملون ويؤلفون، وهم بروح الشباب لا يَفتُرون.

ولتأخذ الآن خمس أعاجيب، قبل أن تدلُف إلى جدول يُسرد لك سردًا.

١. عز الدين ابن الأثير -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٠هـ) مصنف التاريخ الكبير الملقب بـ «الكامل» قال خمسة ممن ترجموا له: مات في شعبان، ولم يُعيِّنوا اليوم. لكن العجب أن الذهبي يقول: وقد رأيت أنا خطه تصحيحًا على طبقة سماع، تاريخها في نصف شعبان من السنة[2].

٢. كتاب «أعيان العصر وأعوان النصر» للصفدي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٤هـ) لم يَنْتَهِ منه مؤلِّفه إلا قبل وفاته بعشرة أيام فقط؛ لأن آخِر رجل ترجم

(١) لباب الآداب لأسامة بن منقذ (٤٦٧/١)

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٣٥٦/٢٢)

له هو القاضي علاء الدين الآمدي، فقال في ترجمته: توفي -رحمه الله تعالى- ليلة عيد رمضان، في طاعون دمشق(١).

وقد قال عنه صديقه منذ الطفولة حتى الممات، عبد الوهاب السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧١هـ): مات بالطاعون، ليلة عاشر شوال(٢). فيكون الفرق بينهما عشرة أيام لا غيرَ.

٣. كتاب « البناية في شرح الهداية » للعيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٥هـ) جمعه في ثلاث وثلاثين سنة! وقال: كان جمعي لهذا الشرح في زمن.. تراكب الهموم والأحزان، حتى من الأصدقاء والإخوان، وخصوصًا كنت في سن الذي ناهز التسعين، من ضعف البصر، وغالب الكتابة في الليالي(٣).

٤. المفسر الثعالبي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٧٦هـ) يُفصِح عما في نفسه، وأنه إذا شاب رأسه سيقتصر على تفسير القرآن. فتأمل كلامه إذ يقول: وما زال يختلج في ذكري، ويعتلِج في فكري، أني إذا بلغت العِقد الذي يحُلُّ عُرى الشباب، المَقُول فيه: «إذا بلغ الرجل الستين، فإيّاه وإيّا الشَّوابَّ» ألوذُ بجَناب الرحمن، وأقتصر على النظر في تفسير القرآن، فأتاح الله لي ذلك قبل بلوغ ذلك العِقد(٤).

٥. الشيخ الزاهد عبد العزيز السلمان -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٢هـ) يروون عنه أنه عندما أَلَّف كتابه الأخير «مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار» قال لابنه عبد الحميد: أريد أن أتأهب بهذا الكتاب -إن شاء الله- لدخول دار القرار. ولم يؤلِّف الشيخ بعد هذا الكتاب أيَّ كتاب.

---

(١) أعيان العصر وأعوان النصر (٣٠١/٣)

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٦/١٠). وقال السبكي -أيضًا- عن صديقه الصفدي: ما صنَّف كتابًا إلا وسألني فيه عما يَحتاج إليه، من فقه وحديث وأصول ونحو، لا سيما أعيان العصر، فأنا أشرت عليه بعمله.

(٣) البناية شرح الهداية (٥٤٥/١٣)

(٤) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢٨/١)

مَسْرَدٌ لمن أبدع فألَّف في آخر حياته

اسم الكتاب	اسم المؤلف	قبل موته بـ
١. الأوائل	العسكري (ت ٣٩٥هـ)	ببضعة أشهر
٢. البناية شرح الهداية	العَيني	وعمره = ٩٠
٣. فتح المجيد في علم التجويد	إبراهيم الجوريشي (ت ١٣٢٥هـ)	بشهرين
٤. حل رموز الشاطبية	عمر الأرمنازي	بمرض موته
٥. القواعد والأصول الجامعة	ابن سعدي	سنة و٣ شهور
٦. مُطّلَع خصوص الكلم	القَيْصَري (٧٥١ هـ)	بخمسة أشهر
٧. رسالة في مذهب أهل السلف	الغزالي	بأسابيع
٨. الحاشية على تفسير الكشاف	علاء الدين القوشجي	بأيام

اسم الكتاب	اسم المؤلف	قبل موته بـ
٩. ما لا يسع المحدث جهله	الميّانشي (ت ٥٨١ هـ)	بعامين
١٠. لسان الميزان	ابن حجر	بأربعة أشهر
١١. الميسر في شرح مصابيح السنة للبغوي	التوربشتي الحنفي (ت ٦٦٠هـ)	بشهور(١)
١٢. جهّز بحوثًا لتطبع	عبد العزيز الرفاعي (ت ١٤١٤هـ)	قبيل وفاته(٢)
١٣. شرح منهاج البيضاوي	الفقيه محمد بن الجزري (٧١١هـ)	اعتذربكبر السن(٣)
١٤. البدر المنير كتاب البدر المنير	ابن الملقن (ت ٨٠٤هـ)	بخمسة أشهر(٤)
١٥. المهيأ في كشف أسرار الموطأ	عثمان الكماخي (ت ١١٧١هـ)	بمرض موته(٥)

(١) الميسر في شرح مصابيح السنة للتوربشتي (١٣٦٣/٤) وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣٤٩/٨)

(٢) تكملة معجم المؤلفين (ص: ٣٠٠) والكتب لم تطبع إلا بعد وفاته.

(٣) بغية الوعاة (٢٧٨/١) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٥٥/٦)

(٤) البدر المنير (٧٦١/٩)

(٥) المهيأ في كشف أسرار الموطأ (٣٧٨/٤) وقد دعا بآخره دعاءً مبكيًا، ومما قال: اللَّهُمَّ إن حبيبك المصطفى قال: إن الله ليستحي أن يعذب الشيخ الكبير، اللَّهُمَّ أنا شيخ كبير أستحي أن أجيء إلى حضورك مع ذنوبي، وارحم بياض لحيتي!

قبل موته بـ	اسم المؤلف	اسم الكتاب
بيسير[1]	ابن حجر	١٦. فتح الباري
آخر حياته	أبو المعالي الجويني	١٧. نهاية المطلب في دراية المذهب
آخر كتاب	الشيخ عبد العزيز السلمان (١٤٢٢)	١٨. مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار
بأيام	عز الدين ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)	١٩. تصحيح بخطه على طبقة سماع
١٠ أيام	خليل بن أيبك الصفدي	٢٠. أعيان العصر وأعوان النصر
بمرض موته	سليمان بن سحمان (ت ١٣٤٩هـ)	٢١. الحجج الواضحة الإسلامية

وهذا الجدول الآنِف؛ إنما هو في ذكر طائفة من العلماء، الذين فرَغوا من أحد تأليفاتهم عند قرب وفاتهم. أما من لم يَفرُغ من تأليفه حتى وافتْه المنية؛ فكثير جدًا يطول إحصاؤه.

---

(١) فائدة عزيزة: بعد مضي خمسة وعشرين عامًا من الدأب المُضْني، قرَّت عين ابن حجر، بفراغه من تبييض مشروع العمر: «فتح الباري بشرح صحيح البخاري»، وذلك قبل وفاته بعشرة أعوام. لكن هذه العشرة الأعوام الأخيرة كانت فرصة للإضافات، والتعديلات.
قال تلميذه الوفي الحفي السخاوي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٢هـ): (ألحق فيه بعد ذلك، فلم ينتهِ، إلا قُبيل وفاة المؤلف بيسير). فتكون المدة خمسة وثلاثون عامًا، وليست خمسة وعشرين. انظر: الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر للسخاوي (٢/٦٧٥)

ولعل من أسباب عدم إكمالهم أمراض اعترَتْهم، أو قلاقل ومصائب شغلتهم، أو أنهم قد يشتغلون بأكثر من كتاب في آن واحد. أو أن السبب هو فجأة الموت -نسأل الله حسن الختام-.

ولأقتصر على أربعة أمثلة فحسب، لمن لم يتم تأليفه، فطُبع، وتداولته الأيدي ناقصًا:

١. ابن العطار -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٤هـ) لازَم شيخه النووي، آخر ست سنوات من حياة شيخه. قال ابن العطار: وقال لي: إذا انتقلتُ إلى الله -تعالى- فأتْمِمْ «شرح المهذَّب» من هذه الكتب». فلم يُقَدَّر ذلك لي[١].

٢. الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧٤هـ) ضعُف بصره في آخر حياته، وهو يؤلف «جامع المسانيد»، فأكمله إلا بعضه، وفيه قال: لازلتُ فيه في الليل، والسراج يُنَوْنِصُ، حتى ذهب بصري معه، ولعل الله ييسر من يكمله[٢].

٣. كتاب «البيان والتعريف في أسباب وُرود الحديث الشريف»، شرع فيه الحافظ السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ)، وذكر فيه نحو مئة حديث، فاخترمته المنية قبل إتمامه[٣].

٤. «المنهل العذب المورود شرح سنن أبي داود»، شرع فيه مؤلفه الشيخ محمود خطاب -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٥٢هـ) وخلال تسع سنوات دأبًا، وصل فيه إلى كتاب الحج، فودع الدنيا ولم يكمله[٤].

---

(١) تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين (ص: ٥٣)
(٢) مقدمة جامع المسانيد (ص٥) عن المصعد الأحمد في ختم مسند أحمد لابن الجزري (ص٤٠)
(٣) البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف (٢/١)
(٤) قام ابنه أمين بعمل «فتح الملك المعبود تكملة المنهل العذب المورود» وصل فيه إلى نهاية كتاب الطلاق، وطُبعت التكملة في ٤ مجلدات، ثم توفي الابن ولم يُكملها أيضًا. فالشرح وتكملته استوعبا ما يقارب شطر أحاديث «السنن» فقط. انظر: المنهل العذب المورود شرح سنن أبي داود (٢/١) و (٢٩٦/١٠)

إحصاءات رقمية مع الأئمة العشرة في الحديث والفقه:

تأمل هذا الجدول مَلِيًا، وقارن ترَ عِبرًا:

الأئمة الستة في الحديث والأربعة في الفقه بحسب الأطول عمرًا- رحمهم الله-

الاسم	العمر	تاريخ الولادة والوفاة	
النسائي	٨٨	٢١٥ - ٣٠٣	الأئمة الستة كلهم تعاصروا مدة ٢٦ سنة ٢٣٠ - ٢٥٦
أبو داود	٧٣	٢٠٢ - ٢٧٥	
الترمذي	٦٩	٢١٠ - ٢٧٩	
ابن ماجه	٦٤	٢٠٩ - ٢٧٣	
البخاري	٦٢	١٩٤ - ٢٥٦	
مسلم	٥٧	٢٠٤ - ٢٦١	
مالك	٨٦	٩٣ - ١٧٩	الأئمة الثلاثة دون أبي حنيفة قد تعاصروا عشر سنين ١٦٩ - ١٧٩
أحمد	٧٧	١٦٤ - ٢٤١	
أبو حنيفة	٧٠	٨٠ - ١٥٠	
الشافعي	٥٤	١٥٠ - ٢٠٤	



٣٣. الإبداع في كُتُب أُلِّفت في مُدَدٍ قصيرة

قبل الإفاضة بتعدادها؛ إليك هذه التساؤلات:

- **هل طول مدة التأليف تدل على ضعف المخزون العلمي؟**

الجواب: ليس بالضرورة، بل ربما يدل على طول النفَس، في مزيد الطرح والاستيعاب، لكن لكل كتاب ظَرفه، ويُلبَس لكل حالة لَبوسُها، إما نعيمها أو بؤسها. فكم من كتاب طالت مدة تأليفه، وآخر قصُرت، وكلاهما مرجعان للأمة كبيران.

وخذ هذا المثال: تفسير الزمخشري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٨هـ) ألّفه في مدة وجيزة، يصفها بقوله: ففُرِغ منه في مقدار مدّة خلافة أبى بكر الصدّيق ﷺ وكان يقدَّر تمامُه في أكثر من ثلاثين سنة[١].

- **هل السرعة في التأليف تدل على ضعف محتوى الكتاب، أو قلة صفحاته؟**

الجواب: -أيضًا- ليس بالضرورة، بل ربما العكس هو الصحيح، إذا كانت من أهل الإبداع وسيأتيك شواهد تُدلي بشهادتها.

- **هل هذا يدل على التمكن العلمي للمؤلِّف؟**

الجواب: نعم غالبًا، بشرط أن يكون من متمكِّن، وربما أن المادة الخام

(١) تفسير الزمخشري (المقدمة/٤)

للكتاب متوفرة لدى هذا العالِم، وهذا -أيضًا- يؤكد لك أن العلم الباقي هو الحفظ، وأن مخزونه المتقَن أسرع من كل حاسبات العالم.

وقد مر معك أن الشافعي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) كان يصنع كتابًا من غدوة إلى الظهر من حِفظه، من غير أن يكون في يده أصل[١].

وخذ عشرة أمثلة للإمام الهُمام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٨هـ)

(١) فتوى جوابًا عن سؤال، في صفة كلام الله. وبعدما كتب فيه مقدار ثمانين صفحة قال: هذا الجواب كُتِب، وصاحبه مستوفزٌ في قَعدة واحدة[٢].

(٢) رسالته في المنطق: في مئة وثلاث وسبعين صفحة؛ يقول عنها: كُتبتْ في قَعدة بعد الظهر[٣].

(٣) الفتوى الحموية الكبرى: في مئة وست عشرة صفحة؛ يقول عنها: فكتبتُ الجواب في قَعدة بين الظهر والعصر[٤].

(٤) العقيدة الواسطية: عدد صفحاتها في «الفتاوى» ثلاثون صفحة؛ يقول عنها: فكتبتُ هذه العقيدة، وأنا قاعد بعد العصر[٥].

(٥) رسالة من تسع صفحات، إلى ابن عمِّه عبد العزيز بن عبد اللطيف؛ بسبب فتح جبل كسروان. يقول فيها: كَتبتُ هذا الكتابَ عجلانَ بالليل؛ لكون حامله أراد السَّفر بليلٍ[٦].

---

(١) حلية الأولياء (١٢٩/٩)

(٢) مجموع الفتاوى (١١٦/١٢)

(٣) الرد على المنطقيين (ص: ٣)

(٤) بيان تلبيس الجهمية (٤/١) والعقود الدرية من مناقب ابن تيمية (ص: ٨٣)

(٥) جامع المسائل لابن تيمية ط عالم الفوائد - المجموعة الثامنة (١٨٣/١) ومجموع الفتاوى (١٢٩/٣ - ١٥٩)

(٦) المصدر السابق المجموعة التاسعة (٤٧٩/١)

(٦) رسالة إلى الشيخ المنبجي، في ثمان وعشرين صفحة. يقول في آخرها: فلا يمكن شرح هذه الأشياء في كتاب، ولكن ذكرت للشيخ - أحسن الله تعالى إليه - ما اقتضى الحال أن أذكره، وحامل الكتاب مُستوفِز عجلان[١].

(٧) رسالة عن «المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر»؛ كتبها في اثنتين وأربعين صفحة، ثم يقول في ختامها: هذا ما تيسر تعليقه وأنا عجلان، في حين من الزمان[٢]

(٨) التحفة العراقية في أعمال القلوب: في خمس وثمانين صفحة؛ يقول في مقدمتها: اقتضى ذلك بعض من أوجب الله حقه من أهل الإيمان، واستكتَبها وكلٌّ منا عَجلان[٣].

(٩) الفتوى الكيلانية؛ كتبها في ثمانين صفحة، ثم ختمها بقوله: هذا الموضع فيه اشتباه وإشكال، لا تحتمل تحريره وبسطه هذه الفتوى؛ لأن صاحبها مستوفز عجلان، يريد أخذها[٤].

(١٠) وأختم بهذا المشروع العلمي (التيمي) الأعجوبة، الذي هو من مفاخر أهل الإسلام؛ إنه كتاب «بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية»: حققه ثمانية أشخاص في خمس سنوات، فيكون المجموع أربعين سنة:

وكذلك التأسيس أصبح نَقْضُه أعجوبة للعالِم الرباني[٥]

---

(١) مجموع الفتاوى (٤٧٩/٢)
(٢) المصدر السابق (٣٩٢/٤)
(٣) المصدر السابق (٦/١٠)
(٤) المصدر السابق (٤١٦/١٢)
(٥) نونية ابن القيم = الكافية الشافية (ص: ٢٣٠)

خمسة وأربعون كتابًا أُلِّفَت في مُدَدٍ قصيرة

اسم الكتاب	مؤلفه	مدة تأليفه
١. أعلام السنة المنشورة	حافظ حكمي	١٤ يومًا
٢. ترقيق الأسل في تصفيق العسل	الفيروز آبادي	ألّفها في ليلة[1]
٣. مئة صفحة في «معنى لا إلٰه إلا الله»	الزركشي (ت ٧٩٤هـ)	في ليلة
٤. نشر العبير في التعبير	ابن أبي الفتح المقدسي	٢١ يومًا
٥. غاية الأماني في الرد على النبهاني	الألوسي	٥٤ يومًا
٦. إظهار الحق	رحمة الله الهندي	٦ أشهر
٧. كتاب في علم العروض	عبد الله القرطبي (ت ٦١١هـ)	يوم وليلة[2]
٨. كتاب في الفقه	الفَناري الحنفي (ت ٨٣٤هـ)	نهارٌ واحدٌ

(١) ألَّفها عندما سأله بعض الناس عن العسل، هل هو قيء النحلة أو خَرؤها؟ انظر: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (٢/٤٢٥ - ٤٣١)

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة (٣/٣١٠)

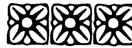
اسم الكتاب	مؤلفه	مدة تأليفه
٩. ميزان الاعتدال	الذهبي	٤ أشهر إلا يومين
١٠. تهذيب سنن أبي داود	ابن القيم (٧٥١هـ)	٤ أشهر
١١. تلخيص الحاكم	الذهبي (٧٤٨هـ)	٣ أشهر و ١١ يومًا
١٢. النشر في القراءات العشر	ابن الجزري	٩ شهور
١٣. تحفة المحتاج	ابن الملقن	شهر
١٤. الأشباه والنظائر	ابن نجيم	٦ شهور
١٥. درر البحار	القونوي الحنفي (٧٨٨ هـ)	شهر ونصف
١٦. فتح الغفار على أصول المنار	ابن نجيم	٥ أشهر
١٧. نكت البيان	علي خان الموسوي المشعشعي	٥ أشهر
١٨. الفتوى الحموية	ابن تيمية (٧٢٨هـ)	بين الظهر والعصر

اسم الكتاب	مؤلفه	مدة تأليفه
١٩. العقيدة الواسطية	ابن تيمية	قَعْدة بعد العصر
٢٠. رسالة في المنطق ١٧٣ صفحة	ابن تيمية	بعد الظهر
٢١. فتوى في صفة كلام الله ٨٠ صفحة	ابن تيمية	قَعدة واحدة
٢٢. الوقوف على ما في صحيح مسلم من الموقوف	ابن حجر (٨٥٢)	٣ أيام
٢٣. ألفية السيوطي	السيوطي (٩١١هـ)	٥ أيام
٢٤. نظم فصيح ثعلب ٨٠٠ بيت	ابن أبي الحديد	يوم واحد
٢٥. نظم نخبة الفكر	الصنعاني	يوم واحد
٢٦. إغاثة الأمة بكشف الغمة	المقريزي (ت ٨٤٥هـ)[1]	ليلة واحدة
٢٧. أوضح منهج إلى معرفة مناسك الحج	عبدالباقي الألوسي (١٢٩٨هـ)	١٥ يومًا
٢٨. الحديقة في علوم الحديث	م العجيسي	١٥ يومًا
٢٩. تفسير الكشاف	الزمخشري	سنة ونصف

(١) إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزي - ت. كرم فرحات (ص١٦١)

مدة تأليفه	مؤلفه	اسم الكتاب
٥٥ يومًا	العلائي	٣٠. جامع التحصيل
١٥ يومًا	ابن حجر الهيثمي (٩٧٣هـ)	٣١. أشرف الوسائل في شرح الشمائل
يوم واحد	جلال الدين السيوطي	٣٢. النفحة المسكية والتحفة المكية
يوم واحد	محمد بن حمزة الفنادي	٣٣. شرح على الرسالة الأثيرية في المنطق
٤٠ يومًا	أبو تراب إبراهيم بن عبيد الله	٣٤. شرح الهداية في الكلام
٤ أيام برمضان	عبد الرحمن بن الدِّيْبَع	٣٥. تمييز الطيب من الخبيث
٥ أشهر	ابن خلدون	٣٦. «المقدمة»
شهر ونصف	ابن النحاس (٨١٤)	٣٧. تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين
ستة عشر شهرًا	فيصل المبارك	٣٨. توفيق الرحمن في دروس القرآن
٨ شهور	القاسمي	٣٩. قواعد التحديث (مصطلح)

اسم الكتاب	مؤلفه	مدة تأليفه
٤٠. حاشية الطحطاوي على المراقي	الطحطاوي (ت ١٢٣١هـ)	أقل من شهر
٤١. ميزان الاعتدال	الذهبي	٤ أشهر إلا يومين
٤٢. القواعد	ابن رجب	أيام يسيرة وليال
٤٣. الروض الأنُف	السهيلي	٦ أشهر(١)
٤٤. أحكام الجنائز	الألباني	٣ أشهر(٢)
٤٥. محمد بن محمود الحنفي	الصدفة الملية بالدرة الألفية	شهران



(١) والأعجب أن الكتاب مكون من سبعة مجلدات، ومستخرج من مئة وعشرين مرجعًا ونيِّف. انظر: الروض الأنف ت الوكيل (١/٣٥)

(٢) قال الألباني في مقدمة أحكام الجنائز (ص ٧): فاستخرتُ الله -تعالى- وانكببت على الدراسة، والمراجعة، قرابة ثلاثة أشهر، أعمل فيها ليلًا نهارًا، إلا ما لابد منه من العمل في مهنتي، والنوم الذي لا غنى عنه لراحة جسمي، حتى تمكنت من إعداد هذا الكتاب.

٣٤. الإبداع في كتب أُلِّفَتْ في مُدَدٍ طويلة

تساؤل متوقع:

إذا كان في تأليف الكتب في زمن قصير جدًا إبداع؛ فأين الإبداع في تأليفهن في زمن طويل؟!

فيقال: الإبداع في إمضاء المُدَد الطِوال يَكمن في نواحٍ، تتلخص فيما يلي:

١. أن مؤلفه قد أضنى جسمه، وبذل عصارة علمه، في كتاب عاش معه سنام عمره.

٢. أن مؤلفه قد قدم لك كتابًا يعتبره (مشروع عمره).

٣. أن المؤلف يطيل النفَس، ليستوعب كل جوانب ما يطرحه.

٤. أن مؤلفه أثبت لك ضمنيًا أن المبدع يعيش دومًا مع العلم ما دام نفَسه يتردد.

٥. أن المؤلف يتكيف مع حاله وزمانه، تطويلًا وتقصيرًا لمُدَد التأليف.

وليُعلم أن بعض تلك الكتب؛ ليس وقت تأليفها مستغرقًا كلَّ ولا جُلَّ المدة، فقد يكون المؤلِّف يُضيف إليها الشيء بعد الشيء، وقد يكون لم يَرتضِها، فهو يُعيد فيها الكَرَّة بعد الكَرَّة، وتكون بينها فترات، قد انقطع فيها عن النظر في الكتاب.

ولا يغِبْ عن بالك أن بعض هذه المؤلفات إنما هي مشاريع عمر، تُصنعُ على عين مؤلفها، ويَسقيها بمُهجته، وتراه يصرف لها من سَنام عمره، فلا غرابة في طول المدة واستغراقها.

كما أن بعض المؤلفين إلى يومنا هذا، قد يشتغل -مثلًا- بثلاثة مشاريع تأليفية في آن واحد، فيؤدي هذا لتأخُر الجميع، وربما أخرجها جميعًا أو متتابعة، يقال هذا بغض النظر عن سلامة الطريقة من خطئها.

لكن كان التأليف هاجسًا يراوِدهم منذ الفتوَّة، بل يمتد هذا الهاجس، ليكون همًّا، ومشروعًا مهمًا، يحتاج منهم تفرغًا، وتأملًا، ومراجعة بين الفَينة والفَينة، حتى لربما بدأه مؤلِّفه زمان الشباب، ولم يفرغ منه إلا زمن الكهولة؛ لأنه يعتبره (مشروع العمر) أو (كتاب العمر). وإليك هذين المثالين:

✓ هذا المفسِّر أبو حيان الأندلسي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٥هـ) يصف لنا كيفية ومقدار الجهد المفترض للمفسِّر حين يُزمِع أن يبتدئ تصنيف كتاب في تفسير القرآن، فيقول: لا يرتقي من علم التفسير ذروته، ولا يمتطي منه صهوته، إلا بإبداء ما اخترعته فكرته السليمة، في أبدع صورة وأجمل جلباب، واستفرَغ في ذلك زمانه النفيس، وهجَر الأهل والولد والأنيس[١]

✓ وهذا ابن عبد الهادي-رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٤هـ) يحكي عن مشروع علمي له وهو في زمن الصبا! نعم الصبا. وانظر ماذا يقول: كان السبب في إثارة العزم لتصنيف هذا الكتاب: أن جماعة من إخواني ومشايخي في الفقه، كانوا يسألوني في زمن الصبا جمع أحاديث «التعليق»، وبيان ما صح منها، وما طُعن فيه، وكنت أتوانَى عن هذا لشيئين:

أحدهما: اشتغالي بالطلب.

(١) البحر المحيط في التفسير (١/١٧)

والثاني: ظني أن ما في التعاليق من ذلك يكفي، فلما نظرت في التعاليق رأيت بضاعة أكثر الفقهاء في الحديث مُزجاة[١].

ثم لاحِظ -أيضًا- في هذه الأمثلة الأربعة الآتية؛ لتتبين أنهم منذ شُبُوبيَّتِهم إلى شيخوختهم، وهم يُبدِئون ويُعيدون في الكتاب الواحد، فإما يُكرِّرون، أو يُمْلون فلا يَمَلُّون:

١. أبو حسان الزيادي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٠هـ) قال: أنا أعمل في التاريخ من ستين سنة[٢].

٢. ابن الأخرم النيسابوري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٤هـ) يقول: ذهب عمري في جمع هذا الكتاب. يعني: «المستخرج على كتاب مسلم»[٣].

٣. قال ابن العربي المفسِّر -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٣هـ) عند ختام تفسيره «أحكام القرآن» وقد كنا أملَينا عليكم في ثلاثين سنة؛ ما لو قُيِّض له تحصيل، لكانت له جملة تدل على التفصيل[٤].

---

(١) تنقيح التحقيق لابن عبد الهادي (٣/١)

(٢) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٣١/١٨)

(٣) طبقات الفقهاء الشافعية (٢٩٠/١)

(٤) يقصد ابن العربي كتابًا له ضخمًا في التفسير، ضاع أكثره، وتفرق بين أيدي طلابه. واسمه «أنوار الفجر». ويقول عنه متحسرًا: إنا كنا أملينا في القرآن كتابًا موعبًا «أنوار الفجر في مجالس الذكر» قريبًا من عشرين ألف ورقة، في نحو من عشرين عامًا، ولكنه لم ينضبط للخلق، وإنما حصل كل واحد منهم جزءًا دون جزء. أ. هـ من قانون التأويل (ص: ٦٥٥). وقال في القبس (ص: ١٠٤٨):وقد كنا أملينا فيه [أي التفسير] في كتاب أنوار الفجر، في عشرين عامًا، ثمانين ألف ورقة، وتفرقت بين أيدي الناس.. وحصل عند كل طائفة منها فن. وقد ندبتُهم إلى أن يجمعوا منها ولو عشرين ألفًا.. إلَّا أن فساد الزمان، بمواصلة الإخوان، ومصاولة الأقران، وضرورة المعاش، والرياش الملازمة للإنسان، قواطع تقي المتاع وتقطع أسباب الامتاع. وقد كنا عوتبنا في إعراضنا عن مجموع في تفسير القرآن، يثلج حرارة الصدور، ويفرج عن حزازات المصدور، فاعتذرت فما قبل عذري، وقيل لي: قد شاهدناك تملي فيه في نيف على عشرين عامًا؛ ما لَوْ سطر لملأ النشر، وعجز عن تحصيله البشر، فقلت: كان ذلك والشباب بنضارته، والعمر في عنفوانه. انظر: أحكام القرآن لابن العربي ط. العلمية (٤٧٠/٤)

٤. بهاء الدين بن عقيل الشافعيّ -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٩هـ) ختم القرآن تفسيرًا في مدة ثلاث وعشرين سنة، ثم شرع في أول القرآن، فمات في أثناء ذلك[١].

٥. ابن عبد الدائم البرماوي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٣٠هـ) نظم «ألفية» في أصول الفقه، لم يسبق إلى مثل وضعها، وكان يقول: أكثر هذا الكتاب هو جملة ما حصلت في طول عمري[٢].

٦. شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢١هـ) له مشروعه العمري: «الشرح الممتع على زاد المستقنع» في خمسة عشر مجلدًا. وقد شرح الشيخ متن الزاد كاملًا ثلاث مرات، وفي كل مرة يتداول الطلاب مذكِّرات من إملاءاته، أولها عام ١٣٩٢ هـ. فتفرغ الشيخ لمراجعته الطويلة لأجل طباعته. وقد قال في مقدمة «الممتع»: وقد اعتنى به الطلبة وسجَّلوه وكتبوه.. ولما كان الشرح بالتقرير لا يساوي الشرح بالتحرير.. تَبيَّن أنَّ من الضروري إعادة النظر في الكتاب، وتهذيبه وترتيبه. وقد تمَّ ذلك فعلًا -ولله الحمد-.

لكن أتدري متى كانت كتابة تلك الكلمات في المقدمة؟! لقد كانت قبل وفاته -رحمه الله- بأربعة عشر شهرًا، بتاريخ ٤ / ٦ / ١٤٢٠هـ، فهذه قرابة ثلاثين سنة، امتدت بين تدريس وإملاءات، ومراجعات، ثم طباعة كتاب فريد، وفردٍ في بابه، حتى صار -حقًا- مشروع الشيخ العُمْري[٣].

---

(١) طبقات المفسرين للداوودي (١/٢٤٠)

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٩/٢٨٦)

(٣) سمعتُ أحد كبار معبِّري الرؤى يقصُّ: أنه ركب مع الشيخ ابن عثيمين، في سيارة أجرة عند الحرم المكي، فسأله الشيخ عن رؤيا رآها، فقال المعبِّر للشيخ: تعبيرها أن هذا مشروع علمي ضخم يكون على يديك، وسينفع الله به الأمة. فقال الشيخ عندها: لا أظنه إلا «الممتع»!

جدول يعرض مئةٍ وخمسين كتابًا طالتْ مُدَدُ تأليفهن

اسم الكتاب المؤلّف	اسم العالِم المؤلِّف	مدة إنهائه[١]
١. المُغرِب في حُلى المَغرِب	ستة مؤلفين (لا يُعرف له نظير)	١١١ عامًا[٢]
٢. الأعلام	الزركلي (ت ١٣٩٦هـ)	٦٦ عامًا
٣. شرح منظومة ابن الشحنة	ابن عبد الحق العُمَرِيّ (ت ١٠٢٤هـ)	٦٠ عامًا
٤. كتاب في التاريخ	أبو حسان الزيادي	٦٠ عامًا
٥. التصريف لمن عجز عن التأليف	الطبيب الزهراوي	٥٠ عامًا
٦. الأغاني	أبو الفرج الأصفهاني	٥٠ عامًا
٧. مجموع فتاوى ابن تيمية (بلا فهرسة)	عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد	٤٩ عامًا

(١) جرى إحصاء هذه المُدَدِ بعد طول استقصاء، من خلال مقدمات المؤلفين، أو من كتب لهم أخرى، أو تدوين تلاميذهم، أو مترجميهم. وأؤكد أنه لا يلزم أن تكون كل الكتب قد أمضى فيها مؤلفوها كل المدة، من أولها إلى آخرها، ولكن الاعتبار بزمن بدئه إلى زمن ختمه.

(٢) في نفح الطيب (٢/٣٢٨) أن آخر مؤلفيه قال: فهذا كتاب راحةٍ؛ قد تعبتُ في جمعه الأسماع والأبصار والأفكار.. وقد بُدئ فيه من سنة ثلاثين وخمس مئة، ومنتهاه إلى غرة سنة إحدى وأربعين وست مئة.

٨. تاريخ بغداد	ابن النجار	٤٧ عامًا
٩. زهر الآس في بيوتات فاس	الكتاني	٤٥ عامًا
١٠. فتاوى ورسائل محمد بن إبراهيم	جمع: عبد الرحمن بن قاسم	٤٢ عامًا
١١. الأخلاق والسير	ابن حزم. قال عنه: أنفقتُ	أكثر عمري
١٢. المستخرج على كتاب مسلم	ابن الأخرم (ت ٣٤٤هـ)	أكثر عمره
١٣. «ألفية» في أصول الفقه	ابن عبد الدائم البرماوي	أكثر عمره
١٤. الموطأ	الإمام مالك	٤٠ عامًا
١٥. غريب الحديث	القاسم بن سلام	٤٠ عامًا
١٦. حاشية الروض المربع	جمع: عبد الرحمن بن قاسم	٤٠ عامًا
١٧. سلسلة الأحاديث الضعيفة	الألباني	٤٠ عامًا

١٨. الإصابة في معرفة الصحابة	ابن حجر العسقلاني	٤٠ عامًا[١]
١٩. الأشباه والنظائر	ابن الملقن	٤٠ عامًا[٢]
٢٠. الفتوحات المكية	ابن العربي	٤٠ عامًا
٢١. الحكيم (في الطب)	أحمد الصافي السوداني	٤٠ عامًا
٢٢. نجاح القاري لصحيح البخاري	الأماسي (ت ١١٦٧هـ)	٤٠ عامًا
٢٣. المفصل في تاريخ العرب	جواد علي (ت ١٤٠٨هـ)	٤٠ عامًا
٢٤. موسوعة الديار الأندلسية	د. محمد عبده حتاملة	٤٠ عامًا[٣]
٢٥. تحقيق مستدرك الحاكم	محمود ميرة	٤٠ عامًا
٢٦. تفسير النابلسي	محمد راتب النابلسي	٤٠ عامًا

(١) ولما انتهى من حرف العين قال -كما في الإصابة (٦٤١/٤)-: وقد فرغت منه في تاسع عشر شوال، سنة أربع وأربعين وثمان مئة.

(٢) والأعجب أن ابن الملقن يصِفها بقوله: فانظر في عمل أربعين سنة؛ لم يحصل فيها تكاسُل ولا فُتور. انظر: الأشباه والنظائر (٨٠/١)

(٣) الكتاب جليل القدر، حتى قال عنه د. محمود مكي، أستاذ الدراسات الأندلسية: يستحق الكتاب أن يفوز بجائزة الملك فيصل العالمية!

وقد أفادني بهذه المعلومة الأديب الشيخ محمد بن سعود الحمد -وفقه الله تعالى -.

٢٧. التحرير والتنوير	الطاهر بن عاشور	٣٩.٥ عامًا
٢٨. حسن التنبه لما ورد في التشبه	نجم الدين الغزي العامري	٣٨ عامًا
٢٩. تحقيق تقريب التهذيب	عبد الله بن عبد العزيز اللحيدان	٣٧ عامًا
٣٠. دراسات لأسلوب القرآن الكريم	محمد عبد الخالق عضيمة	٣٥ عامًا
٣١. الفهرست	ابن النديم	٣٥ عامًا
٣٢. النجم اللامع للنوادر جامع	محمد العلي العُبيّد	٣١ عامًا
٣٣. منظومة «شاه نامه» ٦٠ ألف بيت	أبي القاسم الطوسي (ت ٣٢٩هـ)	٣٠ عامًا
٣٤. التمهيد	ابن عبد البر	٣٠ عامًا
٣٥. تفسير أحكام القرآن	ابن العربي المالكي (ت ٥٤٣هـ)	٣٠ عامًا
٣٦. تهذيب الكمال	المِزي	٣٠ عامًا
٣٧. النكت على ألفية ابن مالك	السيوطي (مخطوط ضخم)	٣٠ عامًا

٣٨. كتاب في الأصول	ابن الفَنَاري (ت ٨٣٤هـ)	٣٠ عامًا
٣٩. فصل الخطاب في تدبير الطعام والشراب	التيفاشيّ القفصيّ (ت ٦٥١هـ)	٣٠ عامًا
٤٠. تفهُّم القرآن	أبو الأعلى المودودي	٣٠ عامًا
٤١. الممتع شرح زاد المستقنع	ابن عثيمين	٣٠ عامًا
٤٢. عون الرحمن في تفسير القرآن	أ. د. سليمان اللاحم	٣٠ عامًا
٤٣. القاموس الجغرافي لمصر	محمد بك رمزي	٣٠ عامًا
٤٤. المعين على تفهم الأربعين	ابن الملقن	٢٩ عامًا
٤٥. الأبدال والمتصرفون في الكون	عبد الغفار بن حميدة	٢٧ عامًا
٤٦. غاية البيان في شرح الهداية	أمير كاتب الفارابي (٧٥٨هـ)	٢٦ عامًا
٤٧. فتح الباري	ابن حجر العسقلاني	٢٥ عامًا(١)

(١) قد أنهاه قبل وفاته بـ١٠ سنين، لكن سبق أن ذكرتُ آنفًا عن السخاوي، أنه مكث يضيف عليه إلى قبيل وفاته بيسير، فتكون المدة بهذا الاعتبار خمسًا وثلاثين سنة.

٤٨. تحقيق درء التعارض لابن تيمية	محمد رشاد سالم	٢٥ عامًا
٤٩. توصيف الأقضية في الشريعة	عبد الله آل خنين	٢٥ عامًا
٥٠. دولة الإسلام في الأندلس	محمد عبد الله عنان	٢٥ عامًا
٥١. المعيار المعرب	أحمد بن يحيى الونشريسي	٢٥ عامًا
٥٢. تاريخ القرن الأفريقي	جامع عمر عيسى	٢٥ عامًا
٥٣. خطط الشام	محمد كرد علي	٢٥ عامًا
٥٤. صحيح الترغيب والترهيب	الألباني	٢٥ عامًا
٥٥. معجم الفردوس	مهند الفلوجي	٢٤ عامًا
٥٦. تفسير روح البيان	إسماعيل حقي الحنفي	٢٣ عامًا
٥٧. نظم الدرر	البقاعي	٢٢ عامًا
٥٨. تحقيق تاريخ حلب	د. سامي محمد الدهان	٢٢ عامًا
٥٩. مختصر خليل	خليل بن إسحاق (ت ٧٦٧هـ)	٢١ عامًا
٦٠. غاية النهاية في طبقات القراء	ابن الجزري	٢١ عامًا
٦١. العقد الثمين	الفاسي (ت ٨٣٢هـ)	٢١ عامًا

٦٢. تفسير إرشاد العقل السليم	خواجه جلبي (ت ٩٨٢هـ)	٢١ عامًا
٦٣. الجامع الكبير في المنطق	عبد اللطيف اللباد (٦٢٩هـ)	٢١ عامًا
٦٤. الفصل في المِلل والنِحل	ابن حزم	٢٠ عامًا
٦٥. كتاب الأدوية	الوزير أبو مطرف اللخمي	٢٠ عامًا
٦٦. أنوار الفجر في تفسير القرآن	ابن العربي	٢٠ عامًا
٦٧. الخصائص الكبرى	السيوطي	٢٠ عامًا
٦٨. نشوار المحاضرة	التنوخي (ت ٣٨٤هـ)	٢٠ عامًا
٦٩. هِجَر العِلم ومعاقلُه	إسماعيل الأكوع (١٤٢٨هـ)	٢٠ عامًا[١]
٧٠. النثر الفني في القرن الرابع	زكي مبارك	٢٠عامًا
٧١. الحواشي السابغات	أحمد القُعيمي	٢٠ عامًا
٧٢. تحقيق نهاية المطلب	عبد العظيم الديب	٢٠ عامًا
٧٣. أمراء البيان	محمد كرد علي	٢٠ عامًا

(١) طاف لأجله دولاً متباعدة، ومنها: السعودية - مصر - تركيا - أمريكا - ألمانيا - بريطانيا - إيطاليا - هولندا.

٧٤. نواهد الأبكار وشواهد الأفكار	للسيوطي	٢٠ عامًا
٧٥. كشف الظنون	حاجي خليفة	٢٠ عامًا
٧٦. طبقات الشافعية	الإسنوي (٧٧٢هـ)	٢٠ عامًا
٧٧. قيمة الزمن عند العلماء	عبد الفتاح أبو غدة	٢٠ عامًا
٧٨. التكملة لكتاب الصلة	ابن الأبّار (ت ٦٥٨هـ)	٢٠ عامًا
٧٩. شرح الإشارات	الطوسي	٢٠ عامًا
٨٠. السيل الجرار	الشوكاني	٢٠ عامًا
٨١. اليهود واليهودية والصهيونية	عبد الوهاب المسيري	٢٠ عامًا
٨٢. فقه السنة	سيد سابق	٢٠ عامًا
٨٣. حجرات النبي ﷺ	إبراهيم العياشي	٢٠ عامًا
٨٤. إنجاز الحاجة شرح ابن ماجه	محمد علي جانباز	٢٠ عامًا
٨٥. حائل بصمات التاريخ	تنيضب الفايدي	٢٠ عامًا

٨٦- الله والعلم الحديث[1]	عبد الرزاق نوفل	١٨ عامًا
٨٦. وفيات الأعيان	ابن خَلكان	١٨ عامًا
٨٧. صحيح البخاري	البخاري	١٦ عامًا
٨٨. معاني القرآن	الزجّاج	١٦ عامًا
٨٩. تفسير ابن فرْح القرطبي	ابن فرْح القرطبي المالكي	١٦ عامًا
٩٠. مغاني الوفا بمعاني الاكتفا	محمد البناني (ت ١١٦٣هـ)	١٦ عامًا
٩١. محاسن التأويل	جمال الدين القاسمي	١٦ عامًا
٩٢. المختصر في الفقه الشافعي	المزني	١٦ عامًا
٩٣. سلوة الأنفاس	محمد جعفر الكتاني	١٦ عامًا
٩٤. جلاء القلوب	محمد جعفر الكتاني	١٦ عامًا
٩٥. غريب القرآن	ابن خالويه	١٥ عامًا
٩٦. غريب القرآن	أبو بكر العُزيري	١٥ عامًا
٩٧. نتائج الأفكار	ابن حجر العسقلاني	١٥ عامًا
٩٨. موسوعة مقدمات العلوم	أنور الجندي	١٥ عامًا

(١) وقد ترجم هذا الكتاب إلى معظم لغات العالم. انظر: تكملة معجم المؤلفين (ص: ٢٨٩)

٩٩. تاريخ الإسلام (٥٠ مجلدًا)	الذهبي	١٥ عامًا
١٠٠. المهمات في شرح الروضة والرافعي	عبد الرحيم الإسنوي (٧٧٢ هـ)	١٥ عامًا
١٠١. صحيح مسلم	الإمام مسلم - بدأه وعمره ٢٩ سنة	١٥ عامًا
١٠٢. روح المعاني	الألوسي	١٥ عامًا
١٠٣. التفسير الوسيط	شيخ الأزهر سيد طنطاوي	١٥ عامًا
١٠٤. ذخيرة العقبى في شرح المجتبى	محمد علي الأثيوبي (١٤٤٢هـ)	١٥ عامًا
١٠٥. النحو الوافي	عباس حسن	١٥ عامًا
١٠٦. بوابة النجاح	نورة طاع الله	١٥ عامًا
١٠٧. سمط اللآل	محمد قُوَيْسِم (ت ١١١٤هـ)	١٤ عامًا
١٠٨. شرح القاموس	صديق خان	١٤ عامًا
١٠٩. بداية المبتدي	المرغيناني (يصوم عند الكتابة!)	١٣ عامًا
١١٠. معجم كتب السير الذاتية	محمد بن سعود الحمد	١٣ عامًا

١١١. الموسوعة في سماحة الإسلام	محمد الصادق عرجون	١٢ عامًا
١١٢. شرح الشفا في حديث المصطفى	عمر العرضي الحلبي القادري	١٢ عامًا
١١٣. اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون	موسى العازمي	١٢ عامًا
١١٤. غاية النهاية	ابن الجزري	١٢ عامًا
١١٥. البيان والتحصيل	ابن رشد	١٢ عامًا
١١٦. دستور الأخلاق في القرآن	محمد درّاز	١١ عامًا
١١٧. الإحاطة في أخبار غرناطة	لسان الدين ابن الخطيب	١١ عامًا
١١٨. الفتح الرباني	أحمد البنا الساعاتي	١١ عامًا[١]
١١٩. تفسير حدائق الروح والريحان	محمد الهرري (٣٣ مجلدًا)	١١ عامًا

(١) توفي وهو يشتغل في أواخر الكتاب أكثر أوقاته، ولم يفارقه إلا قبيل وفاته بثلاثة أيام. فأكمله ابنه، وقد بقي منه مجلد ونصف. وكانت وفاة الساعاتي عام ١٣٧٨هـ انظر مقالة ابنه في الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (٢١٢/٢٢)

١٢٠. عمدة القاري	العيني	١١ عامًا[1]
١٢١. أسرار الشيعة والإرهاب	أنور مالك	١١ عامًا
١٢٢. أبحاث السرطان لخدمة الإنسان	جمعية الإمارات للأورام	١١ عامًا
١٢٣. بذل المجهود	السهارنفوري (ت ١٣٤٦هـ)	١٠ أعوام
١٢٤. منحة العلام شرح عمدة الأحكام	عبد الله الفوزان	١٠ أعوام
١٢٥. الكوكب الوهاج	محمد الأمين الهرري (٢٦ مجلدًا)	١٠ أعوام
١٢٦. الكليات في المتشابهات	عبد الرحمن القصيِّر	١٠ أعوام
١٢٧. الصادح والباغم (٢٠٠٠ بيت)	ابن الهبارية (٥٠٩هـ)	١٠ أعوام
١٢٨. حياة السلف بين القول والعمل	أحمد الطيار	١٠ أعوام

(١) بدأه عام ٨٢٠ هـ، وانتهى منه ٨٤٧ هـ، وقد صرح أنه توقف عن كتابته ١٦ عامًا، فيكون المجموع أحد عشر عامًا.

١٢٩. معاني النحو	فاضل السامرائي	١٠ أعوام
١٣٠. باب السلام	عبد الوهاب أبو سليمان	١٠ أعوام
١٣١. شخصية مصر	جمال حمدان	١٠ أعوام
١٣٢. طريق النجاح	صبحي بترجي	١٠ أعوام
١٣٣. المغني عن حمل الأسفار	العراقي	٩ أعوام
١٣٤. صبح الأعشى	القلقشندي	٩ أعوام
١٣٥. التصوف الإسلامي	زكي مبارك	٩ أعوام(١)
١٣٦. تهذيب الكمال	المزي	٨ أعوام(٢)
١٣٧. تهذيب التهذيب	الحافظ ابن حجر	٨ أعوام
١٣٨. فتح الغفار	الحسن الرباعي (١٢٤٠هـ)	٨ أعوام

(١) يقول عنه مؤلفه: شغلتُ به نفسي نحو تسع سنين، وأنفقتُ في تأليفه من الجهد والعافية ما أنفقتُ، في أعوام عِجاف؛ لو ابتلي بمثلها أصبر الصابرين، وأشجع الشجعان لألقَى السيف، وطوَى اللواء!. انظر التصوف الإسلامي (ص١٧)

(٢) هذه مُدة تَبييضه فقط! كما ذكر محققه (٤٢/١)

١٣٩. سمط اللآلئ	عبد العزيز الميمني	٨ أعوام
١٤٠. فهرسة وطباعة فتاوى ابن تيمية	عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد	٨ أعوام
١٤١. تفسير القرآن الكريم	عبد العزيز المسند (١٤٢٨هـ)	٨ أعوام
١٤٢. جامع البيان	ابن جرير الطبري	٧ أعوام
١٤٣. سير أعلام النبلاء	الذهبي	٧ أعوام
١٤٤. حقائق منظومة النسفي	الأفشنجي	٧ أعوام
١٤٥. كشف الكنوز السّنية	وائل الجمازي (ت١٤٤٢)	٧ أعوام
١٤٦. موسوعة الرحلات	محمد بن سعود الحمد	٧ أعوام
١٤٧. تفسير المراغي	أحمد المَراغي (ت ١٣٧١هـ)	٧ أعوام
١٤٨. تفسير السراج المنير	الشربيني الشافعي (ت ٩٧٧هـ)	٧ أعوام

هل هالَتْك كما هالَتني فخامة الأرقام، وضخامة السنون؟!
إنهم نُخبة قد سعِدوا حين صَعَدوا، فهانَ ما ذَلّلُوا وما بَذَلُوا.
إنهم مبدعون، وعلى التأليف عكفوا، وبأقلامهم قد وكَفُوا.

١٤٩. الكتاب **الخمسون بعد المئة**: كتابي الجديد الفريد «**المتلذِّذون بالعلم**» فقد مضى على جمعه ربع قرن (٢٤ سنة) وقد بدأته - ولله الحمد والفضل وحده - عام ١٤٢٠ هـ، على إثْر مُباحَثة مع شيخي وصاحبي الفقيه المفيد سليمان بن خالد الحربي، فقال آنذاك: ليتَ أحدًا يَجمع ما قيل عن «لذة العلم»، فخطرتِ الفكرة في بالي، فبدأتُ أجمع الشيء إلى الشيء، وأضمُّ النّظير إلى نظيره، لا قصدًا للتأليف، ولكن لنفسي، فكلما وجدتُ شيئًا دوّنتُه الكترونيًا، ثم فكرتُ في طبعه في كتاب، فتفرغتُ لتقسيمه وتنسيقه، وتوجهت بكُلّيتي لإنهائه، فمكثتُ -بفضل الله - آخِرَ خمس سنوات سَنيّات قبل طبعه، في « تلذُّذٍ» مفيد فريد متصل، وصار مجموع كل ذلك = ٢٤ سنة (١٤٢٠ - ١٤٤٤) فالحمد لله أولًا وآخرًا.

وبعد: فهؤلاء كلهم مؤلفون مبدعون مسلمون عبر القرون

أما المؤلفون من غير مِلَّتنا، الذين طالت مُدَد تأليفاتهم؛ فإليك ما وجدتُه عن مؤلفاتهم لهذا الصدد:

اسم الكتاب المؤلّف	اسم العالِم المؤلِّف	مدة إنهائه
١. المعجم المفهرس لألفاظ الحديث	مستشرقون متتابعون	٧١ عامًا
٢. تاريخ الأدب العربي	بروكلمان	٥٠ عامًا
٣. جزر العباقرة	دارولد تريفيرت	٤٧ عامًا

اسم الكتاب المؤلّف	اسم العالِم المؤلِّف	مدة إنهائه
٤. العرب من وجهة نظر يابانية	نوبواكي نوتوهارتا	٤٠ عامًا
٥. قصة الحضارة	ويل ديورانت وزوجته أريل	٤٠ عامًا
٦. المبادئ الأولى	هربرت سبنسر	٤٠ عامًا
٧. دراسة في التاريخ	أرنولد تويبني	٤٠ عامًا
٨. تاريخ الإمبراطورية العثمانية	جوزيف هامر	٣٠ عامًا
٩. أعظم ١٠٠ شخصية	مايكل هارت	٢٨ عامًا
١٠. فاوست (مسرحية)	جوته	٢٦ عامًا
١١. تاريخ الجنون	ميشيل فوكو	٢٥ عامًا
١٢. علم اجتماع الفلسفات	راندال كولينز	٢٥ عامًا

اسم الكتاب المؤلّف	اسم العالِم المؤلِّف	مدة إنهائه
١٣. رأس المال	كارل ماركس	٢٠ عامًا
١٤. روح الشرائع	مونتسكيو	٢٠ عامًا
١٥. فكِّر وازددْ ثراء	نابليون هيل	٢٠ عامًا
١٦. علم الأخلاق	سبينوزا	١٥ عامًا
١٧. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	مايكل كوك	١٠ أعوام
١٨. العلم الحقيقي للجراثيم	ديفيد باركر+دون لستر	١٠ أعوام
١٩. عرب الخليج	ب. سلوت	٩ أعوام
٢٠. أصول علم النفس	وليام جيمس	٩ أعوام
٢١. دع القلق وابدأ الحياة	ديل كارنيجي	٧ أعوام



٣٥. علماء مَدَحوا كُتُبًا لهم، أو احتَفَوا بها، وتحدثوا عن إبداعاتهم فيها:

لا يُلام المؤلف إذا أبرز وامتدح كتابًا له، قد بذل فيه سَنام وقته، ولذا تراه يفرح بمن يسأله عن كتابه، فيَتحدث عن كنز من كنوزه، حتى يكاد يَغيب عن الوعي من شدة ولَهِه:

١. قال ابن خزيمة -رحمه الله تعالى- (ت ٣١١هـ): من نظر في كتبي، بانَ له أنه لم يصنِّف أحد في التوحيد والقدَر، وأصول العلم مثل تصنيفي[١].

٢. الأديب المرزوقي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢١هـ) يقول مادحًا كتابه «شرح ديوان الحماسة»: وهذا الكتاب؛ وإن عظم حجمه، وكثر ورقه، فإنه لا يُمِلُّك تصفُّحه وقراءته.. فإني لم أدركه إلا في مدةٍ طويلةٍ، لا أذكر طرفَيها، وبمجاهداتٍ لشيوخ الصناعة عجيبة، لا أنسى مجاذباتي فيها.. حين كان الرأي وَلُودًا، والخاطر عَمولًا[٢].

٣. وفي «أحكام القرآن» للكيا الهراسي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٤هـ) قال عنه مؤلفه: ولن يَعرف قَدر هذا الكتاب، وما فيه من العَجَب العجاب، إلا من وفَّر حظه من علوم المعقول والمنقول، وتبحَّر في الفروع والأصول، ثم أكبَّ على مطالعة هذه الفصول بمَسكة صحيحة، وقريحة نقية غير قريحة[٣].

---

(١) تاريخ الإسلام للإمام الذهبي (٤٢٥/٢٣)
(٢) شرح ديوان الحماسة (ص: ١٣١٩)
(٣) أحكام القرآن للكيا الهراسي (٢/١)

٤. وقال الديلمي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٠٩هـ) عن «الفردوس بمأثور الخطاب»: ولعمري! إن مَن أدمنَ النظر في كتابي هذا؛ يجِد فيه من الفوائد ما لا يجد في عدة كتب[١].

٥. وأما الزمخشري -رحمه الله تعالى- (ت ٥٣٨هـ) فقد قال عن تفسيره «الكشاف»:

إنَّ التَّفاسيرَ في الدنيا بلا عددٍ ... وليس فيها لعَمري مثلُ كشَّافي[٢]

٦. وقال ابن قَرقول -رحمه الله تعالى- (ت ٥٦٩هـ) في مطلع «مطالع الأنوار على صحاح الآثار»: ولا أعلم أن أحدًا قبلي، ألَّف على مجموع هذِه المصنفات كتابًا مفردًا.. فإني نَحلتُ فيه معلومي، وبثثتُه مكتومي، وأودعتُه محفوظي ومفهومي[٣].

٧. والسهيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨١هـ) في «الروضِ الأُنُف» قال: وتَحصّلَ في هذا الكتاب من.. نُكَتٍ علمية لم أُسْبَقْ إليها، ولم أُزْحَمْ عليها.. ولو ألّفَهُ غيري لَقُلْت فيه أكثر من قولي[٤].

٨. وياقوت الحموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ) كأنما يتغزل بمشروعه الضخم «معجم الأدباء» ويتعشقه شعرًا فيقول:

يُرنِّح أعطافي إذا ما قرأتُهُ ... كما رنّحت شُرّابَها ابنة الكَرْمِ
ولو أنني أنصفته في محبّتي ... لجلّدْتُه جِلدي وصندقْتُه عظمي
ولو أنني أسْطيع من فَرْط حبّهِ ... لما زال من كَفّي ولا غاب عن كُمي[٥]

---

(١) الفردوس بمأثور الخطاب (٧/١)
(٢) معجم الأدباء (٢٦٨٩/٦)
(٣) مطالع الأنوار على صحاح الآثار (١٥٦/١)
(٤) الروض الأنف (١/١)
(٥) معجم الأدباء (١٣/١)

ثم يُردِف مُغريًا بقراءته، فيقول: وإنما تصديت لجمع هذا الكتاب؛ لفَرْط الشّغف والغرام، والوَجْد بما حوى والهيام. وقد نظمت لآلىءَ هذا الكتاب، وأبرزته في أبهى من الحُليّ على ترائب الكِعاب؛ لأنه مني بمنزلة الروح من جسد الجبان. واعلم أنني لو أُعطيتُ حُمْر النَّعَم وسُوْدَها، ومَقانِبَ الملوك وبُنُودها، لما سرّني أن يُنسب هذا الكتاب إلى سِواي.. فتمتع به؛ فإنه كتاب أسهرتُ لك فيه طرْفي، وأنْضيتُ في تحصيله طَرَفي وطُرَفي.. ولو أنصف أهل الأدب، لاستغنوا به عن المأكل والمشرب[١].

وأما المشروع الآخر الأضخم لياقوت، فهو «معجم البلدان» ويقول عنه -أيضًا- محتفيًا به: إن كتابي هذا أوحَدُ في بابه، مؤمَّر على أضرابه، لا يقوم بإبراز مثله إلا من أُيِّد بالتوفيق، وركب في طلب فوائده كل طريق[٢].

٩. وابن الأثير -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣٧هـ) في «المثل السائر» قال عنه: وإذا تركت الهوى قلت: إن هذا الكتاب بديع في إغرابه، وليس له صاحب في الكتب.. مفرَد بين أصحابه[٣]

١٠. وقال النووي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ) عن كتابه «تهذيب الأسماء واللغات»: كتاب جليل، لا يستغني طالب علم من العلوم كلِّها عن مثله[٤].

١١. ومدح ابن القيم -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥١هـ) جُملة من كتبه في مقدماتها. ولأكتفِ من ذلك بأربعة أمثلة:

أ- كتابه «شفاء العليل» فقال: فيه من الفوائد التي لعلك لا تَظْفَرُ بها في كتاب، ولعلَّ أكبر من تُعَظِّمُهُ ماتوا بحسرتها، ولم يصلوا إلى معرفتها[٥].

---

(١) المصدر السابق (١/١٢ - ١٤). والمقانب: خيول الجيش. والبنود: رايات الحرب.
(٢) معجم البلدان (١/١٣)
(٣) المثل السائر (١/٢٥)
(٤) المجموع شرح المهذب (١/٦٩)
(٥) شفاء العليل (ص٦)

ب- وعن «عدة الصابرين» قال: فيه من الفوائد التي لا تكاد تَظفر بها في كتاب سواه[1].

ج- وعن «جلاء الأفهام» قال: هذا كِتَابٌ فَرْدٌ فِي مَعْنَاهُ، لَمْ يُسْبَقْ إِلَى مِثْلِهِ فِي كَثْرَةِ فَوَائِدِهِ وَغَزَارَتِهَا.. ومَخْبَرُ الكِتابِ فوقَ وَصْفِهِ[2].

د- وعن «مفتاح دار السعادة» قال: وهذه عرائس؛ معانيها الآن تجلى عليك، وخَودُ أبكارها البديعة الجَمال تَرْفُل في حُلَلها، وهي تُزَفُّ إليك[3]

١٢. وعبد الوهاب السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧١هـ) قال عن كتابَيه:

أ- «جمع الجوامع»: جمع مقاصد زُهاء مئة من مصنفات علم الأصول[4].

ب- «رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب»: جمع فأوعى، وفَاق كتب هذا الفَنّ [جِنْسًا ونوعًا، جَمعنَا فيه أكثر ما حوته كتب هذا الفن]، وأودَعْناه مباحث، كُنَّا نستعمل الفِكر فيها إذا ما الليل جَنَّ[5].

١٣. والكرماني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٦هـ) قال عن كتابه «الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري»: فجاء -بحمد الله- كتابًا حافلًا، بكل ما يحتاج إليه المحتفِل به.. فإنك استغنيتَ به عن ألف كتاب، أو أزْيَد[6].

١٤. وابن الأحمر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٧هـ) قال عن «أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن»: وكتابي هذا قد أينعت أفنان رياضه، وملئت بالآداب الرائقة أرجاء حياضه، فآدابه فائقة، وصفحاته بالحسن رائقة، وقد قلتُ في وصفه:

---

(١) عدة الصابرين (ص: ٥)
(٢) جلاء الأفهام (ص: ٢٧)
(٣) مفتاح دار السعادة (٤٧/١)
(٤) الأصل الجامع لإيضاح الدرر المنظومة في سلك جمع الجوامع (٢/١)
(٥) رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب (ص: ٢٣٠)
(٦) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (٥/١)

فوائــد مثــل الــروض فــي جيــدة وفــوق أزهــاره فــي الحســن والنســبِ
يَــروي الظمــا ويــداوي كل ذي ولــهٍ وليــس جَــدواه عــن راجٍ بمحتجــبِ
قاريــه فــي لــذةٍ ما تنقضــي أبــدا إلــى انقضــاء الأماني البِيض فــي الطلب(١)

١٥. وأما المقريزي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٤٥هـ) في «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» فقد قال: فدونَك -طالبَ العلم- تناوَلْ ما قد بذلتُ فيه جهدي، وأطلتُ بسببه سهري وكَدّي(٢).

١٦. فأما «تغليق التعليق» لابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) فله به فخر كبير؛ لكونه لم يُسبق إلى جمعه في تأليف.. حتى قال: ولولا خشية العُجب، لأطنبتُ أكثر مما أطنبتُ، ولولا فَرط محبة المرء لولده لحبَّبت غيري فيما أحببت، وما ادَّعيتُ(٣).

وقال -أيضًا-: إن أحسن مؤلفاتي «الفتح»، و«تغليق التعليق»، و«اللسان»(٤).

١٧. و«عمدة القاري» احتفى به العَيني -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٥هـ) فقال: وَاجْتَهَدتُ بالسهر الطويل في الليالي الطويلة.. فجاء -بحمد الله وتوفيقه- فوق ما في الخواطر، فائقًا على سائر الشروح، بكثرة الفوائد والنوادر(٥).

١٨. وقال البقاعي -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٥هـ) عن كتابه «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»: ومن نظر في كتابي هذا مع غيره؛ علِم النسبة بينهما.. فربَّ آيةٍ أقمتُ في تأمُّلِها شهورًا.. وهو التفسير الذي لم تسمح الأعصار بمثله:

أودعتُــه فرائــدًا يَرقُــص منهــا الفُهَمَــا تجلــو العَمى مــن لُطفها وتُسمِع الأُصَمَا(٦)

---

(١) أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن (ص: ٢٧)
(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (١٩٣/٤)
(٣) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٦٦٥/٢)
(٤) المصدر السابق (٣٢٩/١)
(٥) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٤/١)
(٦) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢/١)

وقال: ومن طالع تفسير «الزيتون» من كتابي [نظم الدرر] هذا؛ حصل له هذا ذوقًا(١).

وفي خاتمته قال: فدونَك تفسيرًا كأنه سبيكة عسجَد، أو دُرًّا منَضَّد.. مظهرًا لدقائق؛ استعملنا الفكر فيها إذا الليل جنّ(٢).

١٩. وفي «تفسير الإيجي» قال مؤلفه -رحمه الله تعالى- (ت ٩٠٥هـ): وأَيْمُ الله! إنه مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، كتاب موفًّى فيه الحكمة والمعرفة، مصفًّى عن الاعتزال والفلسفة(٣).

٢٠. وقال السيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) عن كتابيه:

أ- «نواهد الأبكار وشوارد الأفكار»: هذا الكتاب البديع المثال، المنيع المنال.. فيه من فرائد الفوائد ما يجلّ عن مقابلته من الذهب الناض بحمل بعير.. فدونك كتابًا تُشَدُّ إليه الرحال، وتخضع له أعناق فحول الرجال(٤).

ب- وعن «الإتقان في علوم القرآن»: فَظَهَرَ ليَ استخراج أنواع لم يُسبق إليها.. لِأكون في إيجاد هذا العِلم ثَانِيَ اثْنَيْنِ.. وكلها - أي المؤلفات في علوم القرآن - بالنسبة إلى نوع من هذا الكتاب كَحَبَّةِ رَمْلٍ في جَنْبِ رَمْلٍ عَالِجٍ، وَنُقْطَةِ قَطْرٍ في حِيال بَحْرٍ زَاخِرٍ(٥).

٢١. وقال الشربيني -رحمه الله تعالى- (ت ٩٧٧هـ) عن كتابه: «الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع»: فلو كان له نفسٌ ناطقة، ولسان منطلقة، لقال بمقال صريح، وكلام فصيح: لله دَر مؤلف هذا التأليف الرائق النفيس! ولا شُلَّت يدَا مصنف هذا التصنيف الفائق النفيس(٦).

---

(١) المصدر السابق (٤٠/١٢)
(٢) السابق (٦١٨/٤)
(٣) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (١٥/١)
(٤) حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي (١٦/١)
(٥) الإتقان في علوم القرآن (١٩/١)
(٦) الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (٦٦٢/٢)

٢٢. وقال المناوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٣٠هـ) عن كتابه «التيسير بشرح الجامع الصغير»: كأنه سبيكة نُضَار، ومع ذلك فيه طَرَف من الظُّرَف[١].

٢٣. وقال السفَّاريني -رحمه الله تعالى- (ت ١١٨٨هـ) مادحًا كتابه «غذاء الألباب»: فجاء هذا الشرح.. أعظم مما تخيلتُه، وقد سهرتُ الليالي في جمع مسائله.. لو سافرتَ إلى صنعاء اليمن في تحصيله لما خابَتْ سفرتك.. وقد جلبتُ إليك فيه نفائس في مثلها يتنافس المتنافسون، وجلَّيتُ عليك فيه عرائس إلى مثلها يبادر الخاطبون[٢].

٢٤. وقال الشوكاني -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٠هـ)

أ- عن «فتح القدير»: هذا الكتاب هو لب اللباب، وعجب العجاب، وذخيرة الطلاب، ونهاية مأرب الألباب[٣].

ب- وعن «نيل الأوطار»: لم أرضَ، عن شيء من مؤلفاتي سواه؛ لما هو عليه من التحرير بأرفع مكان، ومن التمسك بالدليل في أعلى شأن. وكان تأليفه في أيام مشايخه، فنبهوه على مواضع منه حتى تحرر[٤].

ج- وعن «إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول»: كتابٌ تَنْشَرِحُ له صدور المُنْصِفِينَ.. ولا يَعرف ما اشتمل عليه من المَعَارِف الْحَقَّةِ إلا مَن كان من المُحَقِّقِينَ[٥].

٢٥. و«العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية» قال عنه مؤلفه ابن عابدين -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٥٢هـ): والحري بأن يُكتب بماء الذهب. وقال: فدونَك كتابًا قد أعملتُ فيه الفِكر، وألزمتُ فيه الجفنَ السهرَ[٦].

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير (١/٢)
(٢) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٢/٦٠٣)
(٣) فتح القدير (١/١٧)
(٤) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٤٤٤)
(٥) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول (١/١٦)
(٦) العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية (١/٢) و (٢/٣٣٦)

٢٦. وقال الطاهر ابن عاشور -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٣هـ) عن تفسيره «التحرير والتنوير»: نُكَتًا لم أرَ من سبقني إليها.. ففيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير(١).

٢٧. وقال الأستاذ خير الدين الزِّرِكْلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٦هـ) عن موسوعته التاريخية النفيسة «الأعلام»: لو أُحرِقَ «الأعلام» لألقيتُ بنفسي في البحر؛ أسفًا عليه!(٢).

تتمة أخبار من مدح أحد كتبه؛ لأنه تعب في تأليفه حتى صار مشروع عمره:

هذه بعض ثناءاتهم على كتبهم، وحُقَّ لهم أن يُثنوا على هذه اللذات العلمية، وهذا الكدِّ الذي حصَّلوه بعرَق الجبين الشريف، فوجدوا بعده رَوحًا وراحة.

مشاريع العمر من المؤلفات:

بعضهم جعل كتابًا من كتبه مشروع عمره، ونتيجة حياته العلمية!

فهل سمعت بعبارة: كتاب العمر، أو خلاصة العمر، أو نتيجة العمر؟

فقد يَجمع المؤلف جَرَامِيزَه، ويُنضِي له ركائب الطلب، ويركب فيه كل صعب وذلول، ويُعيد النظر فيه، فلا يخرج إلا وقد حوى غالب ما يريده صاحبه، بل ربما أخرج كتابًا هو عُصارة حياته العلمية؛ ليكون الكتاب خَليقًا أن يوصف بكتاب عمر مؤلفه!

وإليك زُهاء خمسين نموذجًا، لمن احتفى احتفاءً خاصًا بكتاب واحد من بين كتبه الكثيرة، وكأنه أحد أحب أولاده إليه، بل روحه التي بين جنبيه، فصار «مشروع العمر» فكتب الله لهذا الكتاب قبولًا وإقبالًا:

١. قال تلاميذ الإمام مالك -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ): عرَضْنا على

(١) التحرير والتنوير (٥/١) و (٥٥٧/٣٠)
(٢) عَلَم الأعلام خير الدين الزركلي - من إصدار وزارة الثقافة السورية ١٣٩٧ هـ - (ص٤١)

مالك «الموطأ» في أربعين يومًا، فقال: كتاب أَلَّفتُه في أربعين سنة؛ أخذتموه في أربعين يومًا، قلّما تفقهون فيه(١).

٢. الفقيه الكبير صاحب أبي حنيفة محمد بن الحسن الشيباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٩هـ) لما أخذ في تصنيف «الجامع الكبير» خلا بنفسه في سرداب، وأمر أهله أن يُراعوا وقت غدائه ووضوئه، وأن يُؤخذ من شعره إذا طال، وأن يُنظِّف ثوبه إذا اتَّسخ، وألا يُورِدوا عليه شيئًا يشتغل به خاطره، وأقام على ماله وكيلًا، ثم أقبل على تصنيف الكتاب(٢).

٣. رئي الشافعيّ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٤هـ) في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: أنا في الفردوس الأعلى. قيل: بماذا؟ قال: بكتاب صنّفتُه، وسمّيته بكتاب «الرسالة»(٣).

٤. الفراءَ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٠٧هـ) أَلَّف ما يجمع به «أصول النحو»، وذلك بأمر من الخليفة المأمون، وأمر المأمون أن يُفرَد في حُجرة، ووكَّل به جواري وخدمًا، يقُمْنَ بما يحتاج إليه؛ حتى لا تتشرف نفسه إلى شيء، حتى إنهم كانوا يؤْذِنونه بأوقات الصلاة، فكان يُملي والوَرَّاقون يكتبون، فانتهى منه في سنتين(٤).

٥. «غريب الحديث» لأبي عبيد القاسم بن سلام -رحمه الله تعالى- (ت ٢٢٤هـ) قال عنه مؤلفه: «جَمَعْتُ كتابي هذا في أربعين سنة، وهو كان خُلاصة عمري». فعلّق ابن الأثير -رحمه الله تعالى- (ت ٦٠٦هـ) قائلًا: ولقد صدق -رحمه الله-(٥).

---

(١) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (ص: ١٣)
(٢) العزلة للخطابي (ص٣٥)
(٣) المقفى الكبير (٢٠٨/٥)
(٤) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (١٥٥/١٤)
(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر (٦/١)

٦. قال الجاحظ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ): وهذا كتاب وسمْتُه بـ«المحاسن والأضداد» لم أُسبق إلى نِحلته، ولم يسألني أحد صُنعه(١).

٧. البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ) ابتدأ تصنيف «صحيحه»، ووضَعَ تخطيطه العام في المسجد الحرام، ثم أكمله وبيَّضه في بخارَى، بدليل طول مدة تأليفه الممتدة ستة عشر عامًا(٢).

٨. قال الإمام أبو داود -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٥هـ) عن كتابه «السنن»: لو وَضعه غيري لقلتُ أنا فيه أكثر.. ولا أعرف أحدًا جَمع على الِاسْتِقْصَاء غيري. ولا أعلم شيئًا بعد القرآن ألزمَ للناس أن يتعلموه من هذا الكتاب(٣).

٩. «المبسوط» لإسماعيل القاضي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٨٢هـ) في الفقه المالكي، يشتمل على سبعين ألف مسألة(٤)

١٠. الإمام الطبري -رحمه الله تعالى- (ت ٣١٠هـ) له أهم كتاب في التفسير، وأهم كتاب في التاريخ، ولما حُسِبت مدة تأليفه بلغت أربعين سنة، مقابل نصف مليون صفحة، فصار معدل كتابته اليومية أربعين صفحة! وهذا شيء هائل لا يكاد يُطاق.

١١. قال ابن إسحاق الصبغي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٢هـ): لما فرغتُ من تصنيف كتاب «فضائل الصحابة»، رأيت في المنام كأني خارج من منزل، واستقبلني النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، أو عليٌّ رضي الله عنهم، فتقدمْتُ فسلمتُ على رسول الله ﷺ، فرد عليَّ السلام، ثم تقدم إليَّ أبو بكر، فقبَّل بين عينيَّ، وقال: جزاك الله عن نبيه خيرًا، وعنا خيرًا(٥).

---

(١) المحاسن والأضداد للجاحظ (ص: ١٨)
(٢) فتح الباري لابن حجر (٤٨٩/١)
(٣) رسالة أبي داود إلى أهل مكة (ص: ٢٧)
(٤) حديث السلفي عن الأبهريين (ص: ٥١)
(٥) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٠/٣)

١٢. غلام ثعلب -رحمه الله تعالى- (ت ٣٤٥هـ) صنّف كتابه «الياقوت في اللغة»، وقد مر التصنيف بمراحل طويلة، طيلة خمس سنوات: الإملاء، ثم المراجعة ثم المقابلة، ثم الزيادة، ثم العرض النهائي. وقد شرع في تكرير قراءته، ويزيد فيه مرّة بعد مرّة. ثم جمع الناس على قراءته عليه مرارًا، وسمّى القراءة الثانية الفذْلكة؛ لكثرة مقابلة النسخ. ثم زاد فيه بعد قراءة الكتاب عليه مدة سنة وخمسة أشهر، ثم جمع الناس، ووعَدهم بعرض الكتاب، ولا يكون بعدها زيادة، وسمَّى هذه العَرْضة «المِحرابية». واجتمع الناس للإملاء والنسخ[١].

١٣. «المعجم الأوسط» للطبراني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٦٠هـ) قال عنه الطبراني من شدة حفاوته به: هذا الكتاب رُوحي[٢].

١٤. قال الجوهري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٩٣هـ) عن كتابه «الصحاح»: قد أودعتُ هذا الكتاب.. على ترتيب لم أُسبق إليه، وتهذيب لم أُغلب عليه[٣].

١٥. قال المفسر أبو إسحاق الثعلبي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٧هـ) عن استخراجه الموسوعي لفوائد «تفسيره»: فاستخرت الله -تعالى- في تصنيف كتاب شامل كامل، مهذب ملخّص، مفهوم منظوم، مستخرج من نيِّف ومئة كتاب.. سوى ما التقطْتُه.. وتلقّفْتُه عن أقوام من المشايخ، وهم قريب من ثلاث مئة[٤].

١٦. قال ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) عن كتابه المليء بالدرر «الأخلاق والسير»: أنفقتُ في ذلك أكثر عمري، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له، والفكرة فيه، على جميع اللذات التي تميل إليها أكثر النفوس.. وأهديته إليه هنيئًا،

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة (١٧٥/٣)
(٢) تاريخ الإسلام ت بشار (١٤٦/٨)
(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٣٣/١)
(٤) تفسير الثعلبي (٧٥/١)

فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال، وعقد الأملاك إذا تدبره، ويسره الله -تعالى- لاستعماله(١).

١٧. قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٣هـ) عن كتابه «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»:

سَمِيْرُ فُؤَادِي مُذْ ثَلَاثُونَ حِجّةً ... وَصَيْقَلُ ذِهْنِي وَالمُفَرِّجُ عَنْ هَمِّي(٢)

١٨. ابن بابشاذ النحوي -رحمه الله تعالى- (ت ٤٦٩هـ) كان يلازم الإقراء بجامع عمرو بن العاص بمصر، وانقطع في غرفة بالجامع وتزهد، وكتب تعليقة كبيرة في النحو، لو بُيضت لقاربت خمسة عشر مجلدًا، وسماها النحاة الذين وصلت إليهم بعده بـ «تعليقه الغرفة»(٣).

١٩. أبو المعالي الجويني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٧٨هـ) صنف «نهاية المطلب في دراية المذهب» في تسعة عشر مجلدًا، وقال في مقدمته: وهو على التحقيق نتيجةُ عمري، وثمرةُ فكري في دهري(٤).

٢٠. عبد السلام القزويني -رحمه الله تعالى- (ت ٤٨٨هـ) لَهَج بالتفاسير، حتى جمع تفسيرًا بلغ خمس مئة مجلد، وقيل: ثلاث مئة، حشا فيه العجائب، حتى لقد فسَّر في مجلد كامل آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢](٥).

٢١. ابن رُشد الجد -رحمه الله تعالى- (ت ٥٢٠هـ) يحكي معاناته في تأليف «البيان والتحصيل» في الفقه المالكي، والمكوَّن من تسع مجلدات. قال: فتماديتُ

---

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس (ص: ١١)
(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٤٤٨/٢٤) وترتيب المدارك وتقريب المسالك (١٣٠/٨)
(٣) معجم الأدباء (١٤٥٦/٤)
(٤) نهاية المطلب في دراية المذهب (٣/١)
(٥) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٥٢/٣٣)

لا آوِي إلى راحة، متى ما تفرغتُ من ليل أو نهار، فكلما أكملتُ منه كتابًا ازددتُ من التمادي على بقيته؛ حرصًا وإقبالًا، فتماديت إلى أن.. شرعت في رُزمة الأقضية، وامتُحنت بتولي القضاء.. فشغلتني أمور المسلمين عما كنتُ بسبيله من ذلك، ولم أقدر من التفرغ إليه على أكثر من يوم واحد في الجمعة، فاعتزلت فيه عن الناس، إلا فيما لم يكن منه بُد.. فأيِستُ من تمامه في بقية عمري، إلا أن يُريحني الله عَزَّوَجَلَّ من ولاية القضاء.. واستعفيتُ ابن تاشفين - أدام الله تأييده وتوفيقه -، وغبطته بالأجر على تفريغي لتمامه.. فواليَتُ من حينئذ في إكمال الكتاب، إلى أن كمُل بحمد الله[١].

٢٢. ابن عطية -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٢هـ) يقول عن تفسيره «المحرر الوجيز»: جعلتُه فائدة العُمر[٢].

٢٣. كتاب «مشارق الأنوار» للقاضي عياض -رحمه الله تعالى- (ت ٥٤٤هـ) قال عنه ابن فرحون -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٩هـ): وهو كتاب لو كُتب بالذهب، أو وُزن بالجوهر، لكان قليلًا في حقه[٣].

٢٤. ابن عساكر -رحمه الله تعالى- (ت ٥٧١هـ) لو لم يعِشْ إلا اثنتين وسبعين سنة، لقلتَ إنه استغرق في تصنيف تاريخ دمشق مئة سنة! فمشروعه الضخم «تاريخ دمشق» بلغ عدد مجلداته أكثر من عدد سنيِّ مؤلفه. وسبب تأليفه إلحاح فقيه تركي اسمه يَغمر بن أُلْب -رحمه الله تعالى- (ت ٥٥٨هـ). ويقُصُّ علينا ابن عساكر القصة، فيقول: كان يَحُثُّني على تبييض هذا الكتاب، ويَوَدُّ لو أنه تمَّ.. إلى أن يسر الله الشروع فيه بعد وفاته، والله يعين على إتمامه. ويا ليت أنه كان بقي حتى يراه، ولو كان رآه لعلم أنه أكثر مما وقع في نفسه. ولما كنا في

---

(١) البيان والتحصيل (٣١/١)
(٢) المحرر الوجيز (٣٤/١)
(٣) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (٤٩/٢)

جنازته فكرتُ في نفسي، وقلت: واللهِ إني لأحق مِن «يَغمر» بالاهتمام بهذا التاريخ. فصرفت همتي إليه، وشرعت فيه، ويسر الله تمامه بهمة «يَغْمر»، فإنه كان يتأسف على ترك الشروع فيه، وكان شديد الاهتمام به، يكاد يبكي إذا ذكره، ويقول: لو تمَّ هذا الكتاب لا يكون في الإسلام كتاب مثله(١).

٢٥. قال ياقوت الحموي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٢٦هـ) عن مشروعه الباذخ «معجم الأدباء»: إنه مني بمنزلة الروح من جسد الجبان.. ولو أنصف أهل الأدب، لاستغنوا به عن المأكل والمشرب(٢).

٢٦. لما قدِم الأصولي سيف الدين الآمدي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٣١هـ) إلى حماة بالَغ السلطان في إكرامه، وجمع في خزانته من الكُتُب ما لا مزيد عليه، وجعَلَ في خدمته ما يناهز مئتي معمَّم، من الفقهاء والأدباء والنحاة والكَتَبة، فألَّف الآمدي لأجل ذلك «طبقات الشعراء» وكتاب «مضمار الحقائق» في التاريخ؛ نحو عشرين مجلدة(٣).

٢٧. النووي -رحمه الله تعالى- (ت ٦٧٦هـ) قال - مشيرًا إلى همته، ونهمته في التأليف للشرح المطول لصحيح مسلم -: ولولا ضعف الهمم، وقلة الراغبين، وخوف عدم انتشار الكتاب؛ لقلة الطالبين للمطولات لبسطته، فبلغت به ما يزيد على مئة من المجلدات، من غير تكرار، ولا زيادات عاطلات(٤).

٢٨. كتاب «شرح الإلمام» لابن دقيق العيد -رحمه الله تعالى- (ت ٧٠٢هـ) قال هو عنه: أنا جازم أنه ما وُضع في هذا الفن مثلُه. وقال عنه ابن تيمية: هو كتاب

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٠٢/٧٤)
(٢) معجم الأدباء (١٢/١ - ١٤)
(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٧٨/٤) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٤٧/٢٢)
(٤) شرح النووي على مسلم (٥/١)

الإسلام، ما عمل أحد مثله، ولا الحافظ الضياء، ولا جدي أبو البركات[١]. يعني أنه يفضِّله على «المختارة»، وعلى «المنتقى».

٢٩. الحافظ المِزي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٢هـ) صنف «تهذيب الكمال» فاشتهر في زمانه، ومن الحفاوة به فقد حدَّث به خمس مِرار[٢].

٣٠. أنجز الذهبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٤٨هـ) مشروعه التأليفي العظيم «تاريخ الإسلام» المكون من اثنين وخمسين مجلدًا وانتهى من تأليفه أول مرة سنة ٧١٤هـ، ثم أعاد النظر فيه، وبيَّض قسمًا منه سنة ٧٢٦هـ[٣].

٣١. قال السمين الحلبي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٥٦هـ) عن كتابه «الدر المصون»: وهذا التصنيف في الحقيقة نتيجة عُمري، وذخيرة دهري؛ فإنه لُبُّ كلام أهل هذه العلوم[٤].

٣٢. «مختصر خليل»: هذا المتن المختصر هو عصارة المذهب المالكي، وقد حفظَتْه الأجيال عبر القرون، وقد جمع خليل -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٧هـ) في مشروعه نحوًا من مئة ألف مسألة فقهية، خلال خمس وعشرين سنة. وقد انقطع عن الناس والملهيات، بحيث أقام عشرين سنة لم يَرَ النيل وهو بمصر! وهذا لا يتأتَّى إلا بالجرد والجهد، والجمع الطويل، وكثرة مجالسة الأشياخ. ومع ذلك فقد اخترمت المنيةُ خليلًا، فانتهى إلى باب النكاح، فأكمله اثنان من تلاميذه[٥].

٣٣. الحافظ ابن الملقن -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٤هـ) يَحكي عن معاناته،

---

(١) انظر: «الطالع السعيد» للأدفوي (ص: ٥٧٥) والمقفى الكبير (١٩٧/٦) وشرح الإلمام بأحاديث الأحكام (مقدمة/٥)
(٢) ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام للذهبي (ص: ٥٣)
(٣) المصدر السابق (المقدمة/٩٢)
(٤) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون - مقدمة (٤٦/١)
(٥) شفاء الغليل في حل مقفل خليل (١١٣/١)

ويحدِّث عن إنجازاته في كتاب واحد، ألا وهو «البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير» وأن مصادره في كتابه تُنَيِّف على مئة تأليف(١).

٣٤. قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- (ت ٨٥٢هـ) عن بعض كَدْحه؛ لأجل «فتح الباري»: ولولا خشية الإعجاب، لشرحتُ ما يستحق أن يوصف به هذا الكتاب. وقال: حصل لي الوقوف مما لم يقف عليه مَن قبلي.. وطالما طالعتُ المجلد بتمامه في اليوم واليومين، فلا أظفَر بشيء، وربما ظفرتُ بموضع واحد(٢).

وأما عدد المصنفات التي أفاد منها ابن حجر في هذا المشروع العلمي الضخم؛ فقد أحصاها بعض الباحثين المحققين، فبلغت ١٤٣٠ مصنفًا!(٣).

٣٥. ابن بهادر الزركشي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٩٤هـ) قال عن مباحثه في « البحر المحيط»: فإني أفنيتُ العمر في استخراجها من المخبآت، واستنتاجها من الأمهات(٤).

٣٦. «فتح الرحمن في تفسير القرآن» لابن قرقماش الأقتمري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٨٢هـ) قال عنه: هو أجلُّ مصنفاتي(٥).

٣٧. «جمع الجوامع في النحو» للسيوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٩١١هـ) قال عنه: لم أتعب في شيء من مصنفاتي كتَعَبي فيه(٦).

٣٨. والسيوطي -أيضًا- قال عن «إسعاف اللبيث بشرح ألفية الحديث»: قد حررتُ قضاياه على مدار عشرين عامًا، ويحق لي أن أقول فيه ما قاله الطبراني

---

(١) البدر المنير (٢٧٩/١)
(٢) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٦٧٥/٢) و (٧١٣/٢)
(٣) معجم المصنفات الوارد في فتح الباري - تأليف: مشهور حسن سلمان ورائد بن صبري - دار الهجرة (ص٤٤٠). ولكن بعض المحققين يناقش في ثبوت هذا العدد، ويرى أن مصادره لم تبلغ الألف؛ تفريقًا بين المصادر الأصلية وغيرها.
(٤) البحر المحيط في أصول الفقه (٣٨٥/٨)
(٥) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١٢٣٢/٢)
(٦) المصدر السابق (٥٩٨/١)

في «معجمه الأوسط»: «هذا الكتاب رُوحي». ومثله كتابي الآخر: «جُنَّةُ المستغيث بشرح علل الحديث» لابن أبي حاتم(١).

٣٩. سعد الله بن عيسى المفتي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤٥هـ) صَرَف أكثر عمره إلى تحشية كتابين في الفقه الحنفي، وهما «العناية» للبابرتي، و «الهداية» للمرغياني، بحيث صارا نتيجة عمره(٢).

٤٠. عبد القادر العَيْدَرُوس -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٣٨هـ) قال: كتاب «الأنموذج اللطيف في أهل بدر الشريف» لم أعلم أن أحدًا تَقدمني إلى إفراد مناقب أهل بدر -رضي الله عنهم- وهذا الكتاب الشريف من أعظم الأعمال التي أعتمد عليها، وأرجو بها من فضل الله الجنة(٣).

٤١. الحَصْفَكي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٨٨هـ) يقول عن كتابه «الدر المختار» -الذي هو من أصول المذهب الحنفي رغم تأخر زمانه-: بيَّضتُه وفي قلبي من نار البِعاد، عن البلاد والأولاد، والإخوان والأحفاد، ما يفتِّت الأكباد(٤).

٤٢. أبو المعالي الألوسي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٢هـ) لما اشتغل في تفسيره «روح المعاني»، كان في نهاره يشتغل بالتدريس والإِفتاء، وفي أول ليله يجتمع بالعلماء، ويتناقش معهم في المسائل العلمية، وفي آخر ليله يكتب في التفسير، ثم بعد ذلك يدفع ما كتبه إلى كُتَّاب استأجرهم لهذه المهمة، فيبيِّضون ما كتبه في ليلته في عشر ساعات! فهذا يدل على كثرة كتابته، وسرعة بديهته، وموسوعيته التفسيرية(٥).

---

(١) نثل النبال بمعجم الرجال (٧٢/١)
(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢٠٢٢/٢). وقد تكرر هذا في قائمة: أصحاب المؤلَّف الواحد.
(٣) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ٣٠٣)
(٤) الدر المختار للحصفكي (٨١٣/٦)
(٥) تفسير الألوسي = روح المعاني (٦/١)

٤٣. الشيخ خليل السهارنفوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٤٦ه) كان يتمنى ثلاث أمنيات، وكان يدعو الله بها على الملتزم، أُولاهما: أن تقوم في الحجاز حكومة إسلامية مستقرة، والثانية: إكمال كتابه «بذل المجهود في حل سنن أبي داود »، والثالثة: أن يدفن في البقيع. وقد أجاب الله كل دعواته الثلاث التي دعا بها -ولله الحمد-.

وكان الشيخ قد ملكته فكرة هذا التأليف، وتغلغلت في أحشائه، وخالطت لحمه ودمه، وسيطرت على مشاعره وتفكيره وذوقه، حتى كان آخر ما يفكر فيه قبل النوم وأول ما يهتم به عند اليقظة، وحُق له أن ينشد بلسان الشاعر:

آخــر شــيء أنــت فــي كل هَجْعَــة   وأول شــيء أنــت عنــد هبــوبي

حتى إنه رأى مرة فيما يرى النائم، كأن مُنَبِّهًا يُنَبِّهَهُ على خطأ في هذا الشرح، ولما راجعه وجد أن فيه خطأ، فأصلحه.

يقول السهارنفوري: كنتُ لا أقدر على الكتابة، ولا على التتبع لرعشةٍ حدثت في يدي، وضعف في دماغي وبصري، فكنت أُملي على محمد زكريا الكاندهلوي.

وفي عام ١٣٤٤ هـ توجه إلى الحرمين الشريفين؛ لإتمام الشرح هناك، منقطعًا إليه، لا يتخللها إلَّا الفرائض وما لا بدَّ منه. وبعد عشرة أشهر من مجاورة الحرم النبوي تحققت أمنيته الكبرى، التي غَذَّاها بدم قلبه، فتم الشرح في خمسة مجلدات، وقد كانت مدة تأليفه عشر سنوات ونصف، فكان له كيوم عيد، بل أشد، فعيَّن يومًا لضيافة علماء المدينة وأحِبَّته وأصدقائه؛ شكرًا لله تعالى وإبداءً لسروره وفرحه، وصنع طعامًا كثيرًا، وأخبر تلاميذه وأحِبَّته في الهند بهذا الموعد المبارك؛ ليشاركوه في السرور والشكر. وبعد ثمانية أشهر من هذا الاحتفال البهيج يَتوفى الله المؤلفَ! ويُدفن بالبقيع -كما تمنى- في جنازة حاشدة[1].

---

(١) بذل المجهود في حل سنن أبي داود (١/٣٣ - ٤١)

يؤلــف اللؤلــؤ المنثــور منطقُــه ... وينظِـم الـدر بالأقـلام فـي الكتـب[١]

٤٤. «كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين» لحسن حسني عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٨٨هـ) قال الزركلي: سألت مؤلفه عن اسمه؟ فقال: كتاب العُمُر[٢].

٤٥. المحدث الألباني -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٠هـ) مكث في مشروعه العلمي العظيم في خدمة السنة المطهرة سبعة وأربعين عامًا، يتعاهده ويعدّله، ويستقي منه، وقد سماه بـ «تقريب السنة بين يدي الأمة»، وتحدث عنه مرارًا في بعض كتبه[٣].

قال الألباني: «معجم الحديث» جمعتُه من مخطوطات المكتبة الظاهرية في نحو أربعين مجلدًا، في كل مجلد نحو أربع مئة ورقة[٤].

٤٦. قال الشيخ عبد الله البسام -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٣هـ): أرجو من الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعل كتابي «تيسير العلام شرح عمدة الأحكام» مفتاحًا لي إلى دخول الجنة[٥].

٤٧. الشيخ بكر أبو زيد -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٢٩هـ) يقول عن كتابه «التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل»: أُراه من مشاريع العُمر[٦]. ومات ولم يكمله!

---

(١) اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب (ص: ٣٠٠)
(٢) الأعلام للزركلي (٢/١٨٨) و (٨/٣١٧). وانظر: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية (١/١٢٧)
(٣) يقول -رحمه الله تعالى- في تحقيقه لمختصر صحيح مسلم للمنذري (مقدمة/٥): كنتُ قد وضعتُ لنفسي منذ نحو عشرين سنة مشروعًا، سميته «تقريب السنة بين يدي الأمة». وتاريخ المقدمة عام ١٣٨٩ هـ. وقد تحدث - أيضًا - عن هذا المشروع الجبَّار في مختصره لصحيح الإمام البخاري (١/٧)، وكان تاريخ تحرير مقدمته عام ١٤١٦ هـ، فيكون التاريخ بين عامي ١٣٦٩ و ١٤١٦، إذًا فالمجموع ٤٧ سنة!
(٤) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٨/٣٠٨)
(٥) سماحة الشيخ عبد الله بن حميد في عيون محبيه وتلامذته - صلاح الزامل (ص ١٤٧)
(٦) التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل (ص٧)

٤٨. قال المحقق الكبير د. بشار معروف عواد -حفظه الله تعالى-في مقابلة مرئية: كتاب عُمري! «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» في خمسة وثلاثين مجلدًا، الذي قضيتُ في تحقيقه أكثر من اثني عشر عامًا. وقال في مقدمته: وقطعتُ كثيرًا من الأشغال لأجله، لم أَبخل عليه بضياء عين ثمين، ولا وقت عزيز، ولا تدقيق أو تمحيص[١].

٤٩. سئل الشيخ عبد الله الفوزان -حفظه الله تعالى-: ما أقربُ كُتُبك إلى قلبك؟ فأجاب: «مِنحة العلَّام شرح بلوغ المرام». وقد مكث في تأليفه عشر سنين إلا قليلًا.

مشاريع عمرية للمُقلِّين من التأليف[٢]:

إليك قائمة بالعلماء الذين ما أَلَّفوا إلا كتابًا واحدًا أو كتابين، لكن طرح الله للكتاب الفرد القبول، حتى صارت الأجيال تحفظه وتشرحه، وتقرؤه جيلًا بعد جيل، وربما صار أصلًا في الباب الذي طرقوه، ولا غرابة في ذلك؛ فقد تعب الواحد منهم في كتابه ذلك؛ ليكون مشروعَ عمره الذي قدَّمه للأمة، وليكون ذخرًا يجري له أجره إلى قيام الساعة:

١. الخِرقي -رحمه الله تعالى- (ت ٣٣٤هـ) = له «مختصر الخرقي».

٢. الآجُرُّومي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٣٢هـ) = الآجرومية في النحو.

٣. البيقوني -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٨٠هـ) = البيقونية في مصطلح الحديث.

٤. الجَمزوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٢٠٩هـ) = تحفة الأطفال في التجويد.

٥. الإمام مالك -رحمه الله تعالى- (ت ١٧٩هـ) = الموطأ.

٦. سيبويه -رحمه الله تعالى- (ت ١٨٠هـ) = الكتاب.

---

(١) تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٨٩/١)

(٢) هذه المشاريع مر ذكرها وأزيد منها مبسوطة في مبحث: علماء لم يؤلفوا إلا مؤلَّفًا واحدًا..

٧. الفاكهي -رحمه الله تعالى- (ت ٢٧٢هـ) = أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه.

٨. ابن عبد ربه -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٨هـ) = العقد الفريد.

٩. القحطاني -رحمه الله تعالى- (ت ٣٧٨هـ) = ألفية القحطاني.

١٠. ابن بطال -رحمه الله تعالى- (ت ٤٤٩هـ) = شرح صحيح البخاري.

١١. ابن خَلكان -رحمه الله تعالى- (ت ٦٨١هـ) = الوفيات.

١٢. الصالحي الشامي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤٢هـ) = سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد.

١٣. ابن سَلّام -رحمه الله تعالى- (ت ٢٣٢هـ) = طبقات فحول الشعراء.

١٤. البَرْبهاري -رحمه الله تعالى- (ت ٣٢٩هـ) = شرح السنة.

١٥. ابن النديم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٣٨هـ) = الفهرست[1].

١٦. ابن العِماد الحنبلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٨٩هـ) = شذرات الذهب في أخبار من ذهب.



(١) مكث في تأليفه ٣٥ سنة! انظر: الأعلام للزركلي (٦/٢٩)

٣٦. المبدِعات العالمات والمؤلِّفات من النساء

بعضنا لا يعرف من المرأة إلا أنها ناقصة عقل ودين، لا شيء غير ذلك!

أفلا يعلمون أن كثيرًا من علماء الأمة إنما هم نتاج لتربية أمهات؟!

أليس النبي ﷺ قال: «**إنما النساء شقائق الرجال**»؟![١]

أليس طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة؟!

أليس الواقع يشهد أن البنات أكثر حرصًا واجتهادًا من الأولاد؟!

إذًا: فلا عَجَبَ أن يكون من الأئمة تلاميذ على عالِمات فاضلات.

وقد حفلت دواوين السنة بنماذج متكاثرة، في رواية النساء عن النساء وعن الرجال، وإليك أعجب ما عثرتُ عليه من تلك النماذج:

الرواية عن الجَدات الصحابيات -رضي الله عنهن-:

١. سعيد بن خثيم الهلالي، قال: سمعت جدتي ربيعة ابنة عياض، قالت: سمعت جدي عبيدة بن عمرو الكلابي، يقول: رأيت رسول الله ﷺ..[٢]

٢. القاسم بن غنام، عن جدته أم أبيه، عن جدته أم فروة- وكانت ممن بايع رسول الله ﷺ[٣].

(١) سنن أبي داود (٢٣٦)
(٢) مسند أحمد ط الرسالة (١٥٩٥٠)
(٣) مسند أحمد (٢٧١٠٥)

٣. عاصم بن عمر بن قتادة، عن جدته رميثة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول - ولو أشاء أن أقبِّل الخاتم الذي بين كتفيه -من قُربي منه- لفعلت-[(١)].

رواية البنات عن آبائهن الصحابة:

١. عائشة بنت سعد، روَتْ عن أبيها.
٢. حفصة ابنة عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عن أبيها.
٣. فاطمة بنت الحسين، عن أبيها.
٤. ميمونة بنت كردم، عن أبيها.
٥. ضباعة بنت المقداد بن الأسود، عن أبيها.
٦. حبيبة بنت العرباض، عن أبيها.
٧. رباح بن عبد الرحمن بن حويطب يروي عن جدته، عن أبيها.

شَيخات الأئمة الكبار -رحمهن الله تعالى-:

- ابن عساكر له ثمانون شيخة.
- ابن الجوزي له ثلاث شيخات.
- ابن تيمية له أربع شيخات.
- للسخاوي خمس وثمانون شيخة.
- السيوطي له ثنتان وأربعون شيخة.
- وذكر ابن حجر في تقريب التهذيب ترجمة ثمان مئة امرأة ممن لهن رواية في الحديث.
- وترجم السخاوي في الضوء اللامع لألفٍ وسبعين امرأة.
- وأما ابن حزم -رحمه الله تعالى- (ت ٤٥٦هـ) فيقول: رُبِّيْتُ في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالستُ الرجال إلا وأنا في حد الشباب،

(١) المسند (٢٦٧٩٣)

وحين تبقَّل وجهي؛ وهن علمْنَني القرآن، وروَّيْنَني كثيرًا من الأشعار، ودربْنَني في الخط(١).

فهيا يا بنات المسلمين؛ فالميادين مفتوحة، والطاقات ممنوحة، والقدوات كثيرة، والمنافسة مثيرة. فإليكن أكثر من عشرين نموذجًا من أُولاءِ(٢):

١. ابنة الإمام مالك - رحمهما الله تعالى - (بعد ١٥٠هـ) كانت تحفظ الموطأ، وكانت تقف خلف الباب، فإذا غلط القارىء نقَرَت الباب، فيفطن مالك، فيَرد عليه(٣).

٢. أم الواحد بنت القاضي الحسين المحاملي -رحمها الله تعالى- (ت ٣٧٧هـ) درَّست في دارها النساء المخدَّرات، قرأ عليها كثير من النساء، وكان في عصرها وقُطرها لا تحتاج النساء إلى سؤال مسألة لأحد من العلماء؛ لأنها كفَتِ الجميع ما يحتاجون إليه(٤).

٣. إشراق السويداء العَروضية -رحمها الله تعالى- (ت ٤٥١هـ) أخذت عن مولاها أبي المطرف ابن غلبون العربية واللغة والآداب، حتى فاقَته في كثير مما أخذته عنه، وكانت تحفظ «النوادر» لأبي علي، و«الكامل» للمبرد، وتتكلم عليهما(٥).

---

(١) طوق الحمامة لابن حزم (ص: ١٦٦)

(٢) بسطتُ القول في كتابي: (المتلذِّذون بالعلم) فذكرتُ ثلاثةً وأربعين نموذجًا. فانظرها هناك مبسوطة.

(٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١/١١٦). ولهذا الخبر الجميل تتمة عجيبة، فيها سلوان لكل من اجتهد في تربية ابنه، ولكن لم يكن له كما أراد! وتَتِمَّتُه هي أن للإمام مالك ابن اسمه محمد؛ يجيء وأبوه يحدث، وعلى يده باشق (طائر الصيد، يشبه الصقر)، وقد أرخى سراويله، ويدخل الابن ويخرج، ولا يجلس بمجلس العلم، فيلتفت مالك إلى أصحابه، ويقول: إنما الأدب مع الله: هذا ابني وهذه ابنتي. ويقول: إن مما يهون عليَّ أن هذا الشأن لا يورَّث!

(٤) الروضة الفيحاء في أعلام النساء - ياسين بن خير الله العمري (المتوفى بعد ١٢٣٢هـ) (ص: ٨٣)

(٥) التكملة لكتاب الصلة (٤/٢٥٠)

٤. أسماء بنت المقرىء أبي داود بن نجاح -رحمهما الله تعالى- (بعد ٥٠٠هـ) روت عن أبيها كثيرًا، وشاركته في بعض شيوخه، وزوَّجها من فتى فاضل، كان يقرأ عليه، فأعجبه سَمته، وقال له يومًا: أتحب أن أزوِّجك بنتي؟ فخجل الفتى، وذكر حاجة تمنعه. فزوّجها منه، وأسكنه في دار له، وزفَّها إليه(١).

٥. فاطمة بنت الأمير الفقيه علاء الدين الكاساني الحنفي - رحمها الله تعالى - (ت ٥٨٧هـ) ابنة مصنف «تحفة الفقهاء»، كانت فقيهة جميلة، وقد حفظت «التحفة» وخطبها غير واحد من الملوك، فامتنع والدها، ولما فاق الكاساني عنده، وصنَّف «البدائع شرح التحفة» زوَّجه ابنته، وجعل مهرها منه ذلك، فقالوا: شرح «تحفته» وتزوج ابنته. وكانت تنقل المذهب، وربما وهِم الشيخ في الفتوى في بعض الأحيان، فتأخذ عليه ذلك الوهم، وتنبُّهه على وجه الصواب فيرجع الى قولها، وكانت الفتوى تأتي، فتخرج وعليها خطها، وخط أبيها، فلما تزوجت بصاحب البدائع، كانت الفتاوى تخرج وعليها خطها، وخط أبيها، وخط زوجها(٢).

٦. والدة الأمير المفسر زين الدّين ابن نجيَّة الأنصاري -رحمها الله تعالى- (ت ٥٩٩هـ) كانت صالحة حافظة. قال ابنها: كنا نسمع من خالي التفسير، ثم أجيء إليها فتقول: إيش فسّر أخي اليوم، فأقول: سورة كذا وكذا، فتقول: ذكر قول فلان؟ ذكر الشيء الفلاني؟ فأقول: لا. فتقول: ترك هذا. وكانت تحفظ كتاب «الجواهر» تأليف والدها(٣).

٧. أسماء بنت ابن هبة الله بن محفوظ - رحمها الله تعالى - (ت ٦٣٨هـ) قال البرزالي عنها: قرأتُ عليها مجلس شهر رمضان في رمضان سنة ثلاث وثمانين

---

(١) المصدر السابق (٢٥٤/٤)

(٢) الفوائد البهية في تراجم الحنفية (ص: ١٥٨) وسلم الوصول إلى طبقات الفحول (٨٩/١) وبغية الطلب في تاريخ حلب (٤٣٤٨/١٠)

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٥٥٥/٦)

وخمس مئة، وقرأتُ عليها قبل موتها بأربعة أيام. فبيْنَ التاريخَين أكثر من خمسين سنة(١).

٨. بنت الحافظ سراج الدّين ابن شحانة الحنبلي - رحمها الله تعالى- (بعد ٦٤٣هـ) وهي بنت عمياء، أعجوبة تحفظ كثيرًا، إذا سئلت عن باب من الكتب الستة ذَكَرَتْ أكثرَه، ولم تَبلغ أَوَان الرواية(٢).

٩. أسماء بنت أبي بكر الدمشقية -رحمها الله تعالى- (ت ٦٩١هـ) من تلاميذها ابن تيمية والمِزي(٣).

١٠. فاطمة ابنة جمال الدين سليمان بن عبد الكريم الأنصاري - رحمها الله تعالى - (ت ٧٠٨هـ) روَتْ عن أكثر من مئة شيخ، وقرأ عليها الذهبي قبل موتها بيوم(٤).

١١. الشيخة المفتية العابدة، فاطمة بنت عباس البغدادية الحنبلية الواعظة - رحمها الله تعالى - (ت ٧١٤هـ) كانت تحضر مجلس ابن تيمية، وكان يتعجب من عملها، ويثني على ذكائها وبكائها. وكان يذكر عنها أنها كانت تستحضر كثيرًا من «المغني» أو أكثره، وأنه كان يستعدُّ لها؛ من كثرة مسائلها، وحسن سؤالاتها، وسرعة فهمها.

وكانت تنكر أحوال أهل البدع، وتفعل من ذلك ما لا يقدر عليه الرجال، فكانت تصعد المنبر، وتعِظ النساء. قال ابن تيمية: بقي في نفسي منها شيء؛ لأنها تصعد المنبر، وأردت أن أنهاها، فنمتُ ليلة، فرأيت النبي ﷺ في المنام، فسألته عنها. فقال: امرأة صالحة(٥).

---

(١) المصدر السابق (٤٩١/١)
(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٥٢٣/٣) وشذرات الذهب في أخبار من ذهب (٣٨١/٧)
(٣) تاريخ الإسلام ت تدمري (١١٢/٥٢)
(٤) أعيان العصر وأعوان النصر (٢٧/٤)
(٥) البداية والنهاية (٨٢/١٤)

١٢. أم الحسن ابنة علم الدين البرزالي -رحمهما الله تعالى- (ت ٧٣١هـ) ماتت وعمرها أربع وعشرون سنة. وعدد الشيوخ الذين سمعت منهم مئة وخمس وثمانون نفسًا. كتبت كتاب «الأحكام» لابن تيمية، و«صحيح البخاري»، وكمّلته قبل موتها بأيام قليلة[1].

١٣. زينب المقدسية، المعروفة ببنت الكمال - رحمها الله تعالى- (ت ٧٤٠هـ) قال الذهبي: تفرَّدت بقَدر وِقْر بعير، من الأجزاء بالإجازة، وتزاحَم عليها الطلبة، وقرؤوا عليها الكتب الكبار، وكانت طويلة الروح، ربما سمعوا عليها أكثر النهار، ولم تتزوج قط[2].

١٤. ستّ العرب بنت محمد بن الفخر بن البخاري -رحمها الله تعالى- (ت ٧٦٧هـ) الشّيخة الحنبلية المسنِدة المكثرة. حضرت على جدّها كثيرًا، وحدّثت، وانتشر عنها حديثٌ كثير، وسمع منها العراقي والهيثمي وابن رجب[3].

١٥. المُسنِدة الشيخة مريم ابنة هاني الهورينيّ -رحمها الله تعالى- (قبل ٨٨٠هـ) سمعت كثيًرا، وساوَتْ الحافظ ابن حجر في سنده، وعلَتْ عليه في غير «الصحيحين». وكان لها أربعة من الأولاد أقرأتهم على المذاهب الأربعة[4].

١٦. أمَة الخالق ابنة الزين العقبي -رحمها الله تعالى- (قبل ٩٠٠هـ): أجازت للسخاوي، وحفظت بعض «المنهاج الفرعي»، وجميع «ألفية ابن مالك»[5].

١٧. حكى المقَّري -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٤١هـ) أن بعض قضاة «لوشة بالأندلس» كانت له زوجة فاقت العلماء، في معرفة الأحكام والنوازل، وكان في

---

(١) المصدر السابق (٣٠/٤). وبِنتا البرزالي وابن الجزري؛ سأعيد سيرتهما الأولى ببعض البسط؛ لارتباطهما بمبحث قادم، ألا وهو «فرحهم بإقبال أولادهم على العلم».
(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٢٤٨/٢)
(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٣٥٧/٨)
(٤) نيل الأمل في ذيل الدول (٢٦٨/٦)
(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٩/١٢)

مجلس قضائه تنزل به النوازل، فيقوم إليها فتشير عليه بما يحكم به، فكتب إليه بعض أصحابه مداعبًا بقوله:

بِـلُـوشـة قـاضٍ لـه زوجـةٌ   وأحكـامـهـا فـي الـورى ماضيةْ
فـيـا لـيـتـه لـم يـكـن قـاضيًا   ويـا لـيـتـهـا كـانـت الـقـاضـيـةْ

فأطلع زوجته عليه حين قرأه، فقالت: ناولني القلم. فناولها، فكتبت بديهة:

هـو شـيـخ سـوء مـزدرَى   لـه شُـيـوب عـاصـيـةْ
كـلا لـئـن لـم يـنـتـهِ   لـنـسـفـعًـا بـالـنـاصـيـةْ[1]

١٨. الشيخة أم الزين المدنية -رحمها الله تعالى- (بعد ١٢٠٠هـ) أبرز شيوخها زوجها. قال عنها ولدها الشيخ إسماعيل: هي شيخة مشايخ الحرمين، حفظت القرآن بالعشر، وخمسة وعشرين متنًا من سائر الفنون، وهي بنت سبع سنين، وجاء بها والدها إلى والدي محمد سعيد، فقال له: أقرئها «الكتب الستة» و«البيضاوي» و«الكشاف»[2].

١٩. الشيخة حصة الحنيف -رحمها الله تعالى- (ت ١٣٣٦هـ) زوجة قاضي الزبير، فقد رحلت بعد وفاة زوجها للتعليم في أقاصي الدنيا، فقد كان يقيم بالهند أحد تجار اللؤلؤ من أهل الزبير، فطلب منهم أن يختاروا امرأة طالبة علم؛ لكي تُدرِّس الصغار من أولاد التجار العرب، في مبادئ العلوم الشرعية، والقراءة، فرشَّحوا الشيخة حصة، فاشترطت أن تذهب مع طفلها الوحيد، فرحَلَتْ، ومكثتْ تسع سنوات، ودرَّست ونفعَت أولاد المسلمين هناك[3].

٢٠. خديجة العمودي -رحمها الله تعالى- (بعد ١٤٠٠هـ) نسخَتْ كتاب

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس (٢٩٤/٤)
(٢) فهرس الفهارس (٩٠٤/٢)
(٣) النجديون في الهند - إبراهيم المديهش (ص٣١٢)

«النهاية» للرملي، ثمانية أجزاء، وقالت في آخر الثامن: فليعذُرني مَن وقف على هذا الكتاب؛ فإني كتبتُه وأنا أُرضع ولدي[(١)].

٢١. الشيخة موضي بنت عبد الله الجلهم -رحمها الله تعالى- (ت ١٤٣٧هـ) حفظت القرآن و«الصحيحين». ثم صارت تتابع دروس كبار العلماء، كابن باز وابن عثيمين والفوزان. كما أوتيت ذكاء حادًا، فربما نقلَتْ من ذاكرتها عن ابن تيمية أو ابن القيم بالجزء والصفحة.

ثم صارت تلقي الدروس النسائية يوميًا إلا يوم الجمعة، طيلة اثنين وعشرين عامًا، حتى في أيام مرضها، بـ«الغرغرينا»، حيث مكثت في المستشفى عدة أشهر، وكانت تخرج من المستشفى كل يوم أحد؛ لإلقاء درس العقيدة ثم تعود.

وقد أحصي ما شرحَتْ من الكتب، فبلغت خمسة وسبعين كتابًا ومتنًا، ومنها: شرح أبواب من «صحيح البخاري»، و«كتاب التوحيد» مرارًا، و«شرح الواسطية» ثلاث مرات، و«شرح السنة» للبربهاري، و«شرح الطحاوية». وقد توفيَتْ ولم تبلغ الستين عامًا.

٢٢. الشيخة المقرئة المعمَّرة المصرية تناظر مصطفى النجولي -رحمه الله تعالى- (ت ١٤٤٢هـ) جلست مدة سبعين عامًا؛ للإقراء بالقراءات العشر، وتوفيت عن سبعة وتسعين عامًا.



(١) تاج الأعراس في مناقب الحبيب صالح العطاس (٢/٥٦٣)

استراحة إلغاز بعناوين الكتب

الصحابة حازوا من مِنَحِ فتحِ كشْفِ فَيْضِ فضل الله الوافي حقائقًا[١].

دعنا نستريح، فنستخرج من هذا السطر الآنف ستة عناوين لكتب، سُرِدت بأسلوب أدبي بديع، فيه حسن إبهام، بذِكر ما له معنى قريب ومعنى بعيد، والمراد المعنى البعيد.

وتفسيرها وتفصيلها كما يلي:

١. المِنَح للحصفكي.

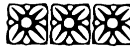
٢. الفتح شرح الهداية للمحقق ابن الهمام.

٣. الكشف شرح المنار للنسفي.

٤. الفيض للكركي.

٥. الوافي متن الكافي للنسفي.

٦. الحقائق شرح منظومة النسفي.



(١) الدر المختار للحصفكي (١/١٤)

٣٧. وصايا للمؤلفين الصاعدين على سلم الإبداع:

هذه وصايا تعين على السلوك صُعُدًا في سبيل الإبداع في التأليف، وفيها تحذيرات عن التردي من سلم التميز، ولربما أن كاتب هذه السطور قد وقع فيما فرَّ منه، وأتى ما حذَّر عنه. لكني أوصي نفسي ومن يحتاج، وأنا الأشد حاجة. فإلى تلك الوصايا:

١. انصَبْ واتعبْ، واجمع جَرَامِيزَك عندما تؤلِّف، واستقصِ ما يدور في فَلَك موضوعك. واستخلص منه أحسنه، وارجع لكل مرجع يُعنى بمضامين كتابك. وتأمل هذه الأمثلة الثلاثة:

• المؤرخ ابن الفوطي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٢٣هـ) مؤلف كتاب «دُرر الأصداف في غُرر الأوصاف» وهو كبير جدًا، ذكر أنه جمعه من ألْف كتاب مصنَّف[١].

• «سبل الرشاد في سيرة خير العباد» للصالحي الشامي -رحمه الله تعالى- (ت ٩٤٢هـ) جمعه من ألف كتاب، ومشى فيه على أنموذج لم يَسبق إليه أحد[٢].

• قال الفيروز آبادي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٧هـ): جمعتُ «القاموس المحيط في اللغة» مختصرًا من ألف كتاب[٣].

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي (١٩٠/٤)
(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٣٥٣/١٠)
(٣) تاريخ البريهي (ص: ٢٩٥)

وإياك والمهلهَل والمتخاذِل، فلا يكن همُّك أن تؤلف كيفما اتفق، بل تَمثَّل نفسَك إذا نصبت ففرغت كأنك تقول:

كتبتُ كُتْبيَ وسهْد العين يشهد لي ... والدمع من ناظري يشكو ليَ الغَرَقا

كم بِتُّ أرتَعُ في روضات بَهجتها ... وأقطَع الحَزن سهلًا في الورى طرُقا[1]

واعتبر بأولئك الذين أضنَوا أبدانهم، وأفنَوا أعمارهم، حتى جعلوا بعض كتبهم مشاريع عمُرهم، وقد يُمضي أحدهم دهرًا من عمره حتى يُنجِزه، وربَّما ألَّف في حياته كتابًا واحدًا فقط، لكن قد عمَّ نفع هذا الواحد، «وواحدٌ كالألف إن أمرٌ عَنَا»، ولربما صار هذا الواحد الوحيد يُحفظ مَتنًا على مرِّ القرون. وارجع للنماذج السالفة آنفًا؛ لتزداد مَضاء وعطاء.

٢. ابتكِرْ، ولا تُكَرِّرْ جُهد من سبقك، وأخرج ما لم تُسبق إليه؛ إما بطرح جديد، أو عرض قشيب؛ فالمكتبات ملأى بالمكرر، وبتناسُخ المطبوعات. وإنما اعتنِ بما يعم نفعه، وتكثر الحاجة إليه، وبما لم تُسبق إلى تصنيفه؛ فإن المؤلِّف إذا صنف كتابًا قد سُبق إلى مثله، يَسهل عليه تعاطي ما يشابهه، ويزيده فوائد وقيودًا، وينقحه ويهذبه، بخلاف من صنف في شيء لم يُسبق إلى التصنيف فيه؛ لأنه يحصل له مشقة بسبب ذلك[2].

قال المناوي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٣٠هـ): ومَن كان دأبه ليس إلا إعادة ما ذكره الماضون، وجمع ما دوَّنه السابقون، فهو مُنحاز عن مراتب التحقيق، مُعرِّج عن ذلك الطريق، بل هو كحاطب ليل، وغريق في سيل[3].

---

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣١٧/٤)

(٢) انظر: آداب العلماء والمتعلمين (ص: ٥) وخاتمة الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي (٢٩٦/١٢)

(٣) فيض القدير (٢/١)

ولذا فقد كان المبدعون ينتَقون من مدوَّناتهم أحسن ما يَكتبون، ثم يَبتكرون فيُبدِعون. وإليك هذه الأمثلة الأربعة:

• اعجب من الإمام ابن المبارك -رحمه الله تعالى- (ت ١٨١هـ) حيث يقول: صنفتُ من ألف جزء جزءًا[١].

• وتشبَّه بالسهيلي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٨١هـ) حيث يحكي لنا فضلَ الله عليه، من خلال جُهده في كتابه «الروض الأُنُف» فيقول: وهو مستخرَج من نيِّف على خمس مئة كتاب، سوى ما أنتجه صدري، ونتَّجه نظري، ولقَّنتُه عن مشيختي، من نُكت علمية لم أُسبَق إليها، ولم أُزحَم عليها، كل ذلك بيُمن الله[٢].

• واقتدِ بالتاج عبد الوهاب ابن السبكي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٧١هـ) الذي يقول: وأنا مِنْ عادتي في هذا.. بحث مخترع، أو نقل غريب.. ومجرد جمعٍ من كتب متفرقة؛ لا يَصدق اسم المصنِّف على فاعله![٣].

• وانظر غير مأمور كتاب: «إكمال تهذيب الكمال» (٢/ ٢٨٣) طبعة دار الفاروق الحديثة، لمؤلفه مُغَلْطاي بن قليج الحنفي -رحمه الله تعالى- (ت ٧٦٢هـ) حيث سترى فيها أنه يدبِّج لك في صفحة واحدة فقط، ثمانية نقولات نفيسات، من ثمانية كتب مختلفات.

واعلم أن حُسن النقل ونفاسته، قسيم الابتكار، وافتراع المعاني.

قال الكِرماني -رحمه الله تعالى- (ت ٧٨٦هـ): مُجتَنى كنوز العلم في اختياره، وُحسنِ جَمْعِهِ واختصارِهِ[٤].

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/٢٨٠)

(٢) الروض الأنف ت الوكيل (١/٣٥)

(٣) الإبهاج في شرح المنهاج لابن السبكي - ط دبي (١٣٦١/٤)

(٤) غرائب التفسير وعجائب التأويل (١/٨٨)

٣. دبِّج عباراتك، وفخِّم إفاداتك، وأوصِل فكرتك بجميل صياغتك، وحُسن سَبكِكَ، ولا تكن ممن يسرُد سَردًا: «فالمؤلفات تتفاضل بالزهر والثمر لا بالهذر، وبجموم اللطائف لا بتكثير الصحائف، وبفخامة الأسرار لا بضخامة الأسفار.. ومؤلَّف الإنسان على فضله أو نقصه عنوان»(١).

ولا ضَير أن يمدح المرء كتابه، ويُثنيَ على مَباحثه، لا سيما إذا اقتنع أنه قد أتى بجديد مفيد، وما أكثر اعتزازهم في مقدماتهم بالكتب الذي ألَّفوها، أو بالفوائد التي طرحوها(٢).

٤. اجتهد -ما استطعت إلى ذلك سبيلًا- في تقديم كتابك متوَّجًا بالأساليب المحببة الجاذبة للنفوس، مثل: «الأسلوب القصصي» و«ضرب الأمثال» و«مخاطبة الوجدان». وهذا ينسحب حتى على المؤلفات العلمية.

فأما القصص؛ فالعلماء يقولون: الحكايات جند من جنود الله(٣). وقال أبو حنيفة: الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إلي من الفقه؛ لأنها آداب القوم(٤).

ثم ألم يقُل ربنا المتعال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

٥. أخرِج مؤلَّفك بثوب قَشِيب، واعتنِ بالإخراج، وحسن الصف، ومناسبة الخطوط وحجمها، ومراعاة علامات الترقيم، وتنويع الألوان، وصقالة الورق، وجاذبية الفهرسة. ولا تستهن بهذه الشكليات؛ فإنها كالمقبِّلات للأكل.

---

(١) فيض القدير (٢/١)
(٢) أفردت لهذا مبحثًا خاصًا.
(٣) تاريخ بغداد ت بشار (١٢٧/٤)
(٤) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٢٣/١)

٦. راعِ لغة عصرك، وخاطِب أهل زمانك بما يعرفون، لا بما عفا عليه الزمن من مصطلحات مهجورة، أو أطروحات مهمَلةٍ، فلكل زمان احتياجاته واصطلاحاته.

وقد تحدث العلامة البغوي -رحمه الله تعالى- (ت ٥١٦هـ) في مقدمة تفسيره عن سبب تأليفه، فذكر كلامًا جميلًا ومختصرًا، في الحث على ضرورة تدوين كتاب في التفسير في كل زمان، وفق احتياجاته، حيث قال: ولكن لا بد في كل زمان من تجديد ما طال به العهد[1].

٧. أكثِرْ من مراجعة ما تكتبه، المرة بعد المرة، ولا يخرج تصنيفك من يدك قبل تقسيمه وتبويبه، وتكرير النظر فيه وترتيبه، ولن تَسلم من الزلل، لكن لتُقارِب الكمال، وإلا فالضعف مستولٍ على سائر البشر.

واعمل بوصية الجاحظ -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٥هـ) حيث يقول: وينبغي لمن كتب كتابًا؛ ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء، وكلهم عالم بالأمور، وكلهم متفرّغ له، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلًا، ولا يرضى بالرأي الفطير[2].

ولا تمَلَّ من التعديل والمراجعة لمؤلَّفك، كما لا تبالغ في ذلك.

قال الثعالبي-رحمه الله تعالى- (ت ٤٢٩هـ): أول ما يبدو من ضعف ابن آدم، أنه لا يكتب كتابًا، فيبيت عنده ليلة، إلا أَحبَّ في غدِها أن يزيد فيه، أو ينقص منه، هذا في ليلة واحدة، فكيف في سنين عدة؟[3]

ومن الحلول المجدية أن تطرح فكرتك للمهتمين، لتدَعَهم يُعيدون ويُبدئون. فهذا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري -رحمه الله تعالى- (ت ٩٢٦هـ) قرئ

---

(١) تفسير البغوي - إحياء التراث (٤٦/١)

(٢) الحيوان (٦٠/١)

(٣) يتيمة الدهر (١/١)

عليه شرحه على «البهجة الوردية في الفقه الشافعي» سبعًا وخمسين مرة، حتى حرَّره أتم تحرير(١).

٨. وطِّن نفسك على تَقَبُّل النقد عن كتابك، وكما تبتهج للمدح العالي، فتهيأ للقدح النازل. وقد قالوا: لا يزال المرء في فُسحة من أمره ما لم يقُلْ شعرًا أو يؤلِّف كتابًا. فالمتصدي للتأليف، والمعتني بالتصنيف، ولو بلغ السُّها في النُّهى إذا صنف فقد استُهدف، ولله درّ بعض الأكياس! حيث قال: من صَنَّف فقد وضع عقله في طبق، وعرَضه على الناس(٢).

لكن أيها المؤلف: لا يَثْنِيَنَّك التحطيم والتثبيط، وليزِدْك مُضِيًا، وتصحيحًا لمسارك وتجاربك.

٩. انسِب كل تقرير لصاحبه، وكل نقل لكاتبه، ولا تدَّعِ ما ليس منك، فالعلم أمانة!

وقد صح عن سفيان الثوري -رحمه الله تعالى- (ت ١٦١هـ) أنه قال: إن نسبة الفائدة إلى مُفِيدها من الصدق في العلم، وشُكره(٣).

١٠. أظهر شخصيَّتك في الطرح، وفي التقرير، وفي الرد، وفي النقد، وفي التعليق، وفي الموافقة والمخالفة، ولا تكتفِ بسرد النقول المجردة، فـ«ظهور شخصية الباحث» مطلب يُثبتُ عمق البحث، وتمكن الباحث.

١١. ابتهِلْ إلى ربك، واضرَعْ إليه أن يَقبله، وينشر بركته بين الخلائق، فـ«**البَرَكة من الله**»(٤)، كما قال نبيك ﷺ، واعمل أعمالاً صالحة؛ تَنوي بها نزول البركة على ما ألَّفْتَ.

---

(١) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٢٠٣/١)
(٢) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٤٨٨/١٠)
(٣) مواهب الجليل في شرح مختصر خليل (٤/١)
(٤) صحيح البخاري (٥٦٣٩)

قال البخاري -رحمه الله تعالى- (ت ٢٥٦هـ): ما وضعتُ في كتابي الصحيح حديثًا إلا اغتسلتُ قبل ذلك، وصليت ركعتين[١].

وأبو إسحاق الشيرازي - رحمه الله- (ت ٤٧٦هـ) ما صنَّف مسألة إلا بعد أن يصلي ركعات، فلا جَرم شاع اسمه، واشتهرت تصانيفه شرقًا وغربًا، فهذه بركات الإخلاص». وقد رؤي في النوم وعليه ثياب بيض، فقيل له: ما هذا؟ فقال: عِزُّ العلم[٢].

١٢. صنِّف ولو لم تَطبع تصنيفك! لأن هذا يدعوك لإتقان العلم، ويصِلك بالبحث والجمع، والتحرير ليس كالتقرير، ولعل الله يبعث من يطبع لك، فيُنشر علمك ولو بعد رحيلك.

ومما يحفزك على التأليف ابتداءً ما قاله رسول الله ﷺ: «**إن مما يَلحق المؤمن من حسناته بعد موته علمًا نشره**»[٣].

قالوا: وهو شامل للتصنيف والتعليم، وهو في التصنيف أظهر؛ لأنه أطول استمرارًا، وأكثر انتشارًا[٤].

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ): تصنيف العالِم ولدُه المخلَّد[٥].

بل حتى لو لم يطبعه أحد فهو رصيد تدَّخره عند الله، ولذلك وُجد في تراجم

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٢/٥٢)وتاريخ بغداد ت بشار (٣٢٧/٢)
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١٧٤/٢) وبدائع الفوائد (١٧٥/٣)
(٣) رواه ابن ماجه (٢٤٢) وابن خزيمة (٢٤٩٠)وحسنه ابن خزيمة وابن الْمُنْذر كما في حاشية السندي على ابن ماجه (٢٢٣/١) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٢٣) وابن الملقن في البدر المنير (١٠٢/٧) والمناوي في التيسير بشرح الجامع الصغير (٧١١/١) والعجلوني في كشف الخفاء (٣٠٨/٢) والألباني في أحكام الجنائز (ص ١٧٧)
(٤) كشف الخفاء ت هنداوي (١١/١)
(٥) صيد الخاطر (ص: ٣٤)

بعض العلماء وطلبة العلم من اختط طريقه في تأليفٍ ما ولما يُتمه، وربما أتمه مَن بعده:

- فالحافظ ابن بُصيلة المسكي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٨هـ) سمع السِلَفِي، وسوَّد تاريخًا، ومات قبل أن يبيضه؛ لفقرِه[١].

- وناصر الدين البسكري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٢٣هـ) كان أبوه من الأمراء، فأراد تبييض كتاب واسع في التاريخ، فأعجلته المنية[٢].

- وناصر الدين ابن الفرات المصري -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٧هـ) كان لهِجًا بالتاريخ، فكتب تاريخًا كبيرًا جدًّا، بيّض بعضه في نحو عشرين مجلّدًا.. فأدركته الوفاة، وما أتمَّه[٣].

- ثم قد يبعث الله من أحبابك أو طلابك من ينتدب لطبع شيء من إرثك العلمي، وما أكثر الكتب التي يكون سبب تأليفها طلب من طلابه أو مشايخه: فمن بركات التأليف، أن الله قد يَكتب لك تأليفًا لم تُخرِجه لوحدك، كأن يهيئ لك من يحضُّك المِرَّة بعد المَرَّة، أو يرزقك تلميذًا نشِطًا أو ابنا برًّا، فيتولى جمع علمٍ أمليتَه، أو بحث كوَّنته. ومن بركات التأليف أنه ربما تلخِّص كتابًا في أوراق لنفسك، أو لتقريب فهم ذلك الكتاب، فيبعث الله له من ينفخ فيه الروح، فيَحيا ليُنير لصاحبه في قبره. فلا تَستهِنْ بمجاميع العلم، وإنما السيل اجتماع النُّقط.

- ومن الطرق المطروقة قديمًا ما يسمى بـ «حديث الشيوخ» وهو مشروع جرى عليه العلماء السالفون، بأن يَنتدب عالِم لجمع أحاديث شيخه، أو مسموعاته منه، وأشهَرُ من يَجمع حديث شيوخه رَجُلان رحَّالان: أبو القاسم البغوي، وأبو طاهر

---

(١) توضيح المشتبه (١٦١/٨)
(٢) المقفى الكبير (٢٨٦/٤) وإنباء الغمر بأبناء العمر (٢٣٥/٣)
(٣) المصدر السابق (٢٨٦/٤) والمصدر الثاني السابق (٣١٣/٢)

السِّلَفي. وهذه الطريقة تشبه في زمننا -من بعض الوجوه- عمل بعض طلبة العلم مع شيوخهم، في جمع فوائدهم، أو تفريغ تسجيلاتهم.

١٣. لا تعكُف على التأليف فحسب؛ بل اضرب من كل غنيمة بسهم، والناس طاقات وقدرات، لكن اعمل بالوصية النبوية المتينة: احرِصْ على ما يَنفعُك ولا تعجَزْ(١)؛ لأن العكوف على التأليف يُضعِف مَلَكة الاستنباط، ويخبو وهَجُه عند مطارحة الطلاب والعلماء، ويقطعك عن مخالطة الناس، التي دعا لها الشرع بمقدار.

وهذا ابن الملقن -رحمه الله تعالى- (ت ٨٠٤هـ) قالوا عنه: إنه كان في أول أمره ذكيًا فطِنًا، ولكن لم يكن في الاستحضار بذاك. وكأنه لما طال عمره استرْوَح، وغلبتْ عليه الكتابة، فوقف ذهنه، واعتنى بالتصنيف. وشرح البخاري في عشرين مجلدة، وعمله في نصفه الأول أقوى من عمله في نصف الآخر. وقد ذُكر أن بينهما مدة عشرين سنة(٢).

ولذا يرى طائفة قليلة من العلماء أن التأليف يقطع عن التدريس، وأن التدريس -برأيهم- أنفع.

فهذا ابن علاء الدين البابلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٧٧هـ) -مع تبحره في العلوم- لم يعتنِ بالتأليف، بل كان ينهى عنه ويقول: التأليف في هذه الأزمان من ضياع الوقت؛ فإن الإنسان إذا فهم كلام المتقدمين الآن، واشتغل بتفهيمه؛ فذاك من أجلِّ النعم، وأبقى لذكر العلم ونشره، والتأليف في سائر الفنون مفروغ منه(٣).

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٦٤)
(٢) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٤٥/٤) وبهجة الناظرين إلى تراجم المتأخرين من الشافعية البارعين (ص: ٢٢٢)
(٣) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤٢/٤)

والقول الوسط: أن من قدِر عليهما كليهما فهو الكمال، ومن فتح الله له في أحدهما فليُكثِر منه. والأمر كما قال خالد بن معدان -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٣هـ): إذا فُتح لأحدكم باب خير فليُسرع إليه؛ فإنه لا يدرِي متى يُغلَق عنه[١].

وإلا فالأصل أن التأليف أكثر نفعًا، وأدوم بقاءً، والتدريس مقدمة للتأليف، وكثير من المؤلفات إنما نشأت من خلاصة دروس سبقَتْها. كما أن العلماء الغابرين إنما بقيت مؤلفاتهم، وأما دروسهم فلم يبق منها إلا ما دوِّن، فصار مؤلَّفًا.

ولا يَغِب عن بالك تلك الجملة الجميلة الآنِفة لابن الجوزي -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٧هـ) حين قال: تصنيف العالِم ولده المخلَّد.

والكتب - كما يعبر عنها أحد المفكرين- بأنها أولاد العقول، لا أولاد الظهور.

وإنما بقاء العلم وتخليده بالكتب، فالخلود للمكتوب أكثر من المسموع.

والعلماء قالوا: ما خُلِدت العلوم إلا بما دُبِّج من تدوينها، والتصنيف في أفانينها[٢].

فاكتب، وسطِّرْ من العلم ولو قليلًا، وسيكتب الله للقليل مع القليل كثيرًا. ومما يُنقَل مشافهةً عن المؤرخ المشهور الزركلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٣٩٦هـ) قوله: اكتبْ في كل يوم صفحة، فإذا انتهت السنة كان عندك كتاب في ٣٦٥ صفحة!

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢١١/٥)

(٢) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٥٢/٤)

إيقاظة[١]:

هذه الإيقاظة تفتح لك أبوابًا من الإبداع؛ لتجني وراءها ثمارًا من الأجور والحسنات العظيمة. فتأملها -رحمك الله-.

فإن مؤلفي الكتب - كما يعبر عنهم أحد المفكرين- بأنهم أنتجوا أولاد العقول، لا أولاد الظهور. وإنما بقاء العلم وتخليده بالكتب، فالخلود للمكتوب أكثر من المسموع.

لكن لا يلزم أن تكون ذا قلم سيّال بالكتابة الرصينة، أو أن تكون متمكنًا من التأليف؛ بل أمامك مجالات يمكن أن تشارك التلذذ بالعلم من خلالها، فاضرب من كل غنيمة بسهم، والناس طاقات وقدرات، لكن اعمل بالوصية النبوية المتينة: احرِصْ على ما يَنفعُك ولا تعجَزْ[٢].

فرجع الأمر إلى قول الحكيم خالد بن معدان، والذي مرَّ قبل سطور، فارجع إليه وتأمله.

مجالات المشاركة في التأليف الإبداعي:

فعليك - أيها الموفق للعلم- أن تشارك في الإبداع في تبليغ العلم، بمجالات متنوعة متاحة، ولا يلزم أن تكون عالمًا نحريرًا، أو مؤلفًا شهيرًا. ولكن أبدِع وابحث عن باب تقدر أن تشارك فيه بنشر العلم، ونفع المسلمين.

فمن مجالات الإبداع للمشاركة في نشر العلم وتبليغه:

١. اشتغل بإيضاح وشرح كتب المتقدمين، وفك عباراتها، وفتح مستغلِقها:
فهذا ابن علاء الدين البابلي -رحمه الله تعالى- (ت ١٠٧٧هـ): إن الإنسان إذا فهم

---

(١) مستفاد كثير منها من مدارسات مع صاحبي الشيخ: ماجد السلمان، وقد نقلها عن شيخنا وصاحبنا الفقيه: سليمان الحربي -حفظني الله وإياهما-.
(٢) صحيح مسلم (٢٦٦٤)

كلام المتقدمين الآن، واشتغل بتفهيمه؛ فذاك من أجلِّ النعم، وأبقى لذكر العلم ونشره[1].

٢. انظم العلم: كما فعل العمريطي -رحمه الله تعالى- **(بعد ٩٨٩هـ)** فإنه لم يُفتح عليه في تدريس العلم، لكن فُتح عليه في النظم، وحُفظ علمه؛ بسبب نظمه.

٣. اختصر الكتب: فكم من كتاب فُقِدَ وبقي مختصَره، وقد يكون المختصِر لا يُعرف، مثل كتاب «الأحكام» للطحاوي -رحمه الله تعالى- **(ت ٣٢١هـ)** فالكتاب مفقود، ولكن بقي «المختصَر» للشاشي، والشاشي لا يُعرف له كتابٌ غيرُه.

ومن الإبداعات في التأليف؛ أنه ربما تلخِّص كتابًا في أوراق لنفسك، أو لتقريب فهم ذلك الكتاب، فيبعث الله له من ينفخ فيه الروح، فيَحيا ليُنير لصاحبه في قبره. فلا تَستهِنْ بمجاميع العلم، وإنما السيل اجتماع النُّقط.

٤. شارِكْ في جمع المتفرق من كتُب العالِم الواحد: وانظر مثلًا إلى ابن قاسم -رحمه الله تعالى- **(ت ١٣٩٢هـ)** في جمعه لفتاوى ابن تيمية، وكيف بارك الله فيه؛ مباركة أكثر مما تَحْفَل بها كتبُه على بركتها.

٥. جمع فوائد ومسائل من مجالس أو كتب علمية:

كفعل علي بن عمر الحربي -رحمه الله تعالى- **(ت ٣٨٦هـ)** في كتابه «الفوائد المنتقاة عن الشيوخ العوالي». وكفعل الردواني المغربي -رحمه الله تعالى- **(ت ١٠٩٤هـ)** في كتابه «جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزَّوائِد».

فاكتب أحسن ما تسمع وما تقرأ، واجمعه في كناشات، ورتِّبه حسب الفنون، ومما يدخل في هذا المضمار إنشاء حسابات لك في الوسائل التقنية للتواصل الاجتماعي، وضع فيها أحسن ما يمر عليك من مَقولات ومنقولات.

---

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/٤٢)

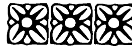
٦. **استحثاث عالِم للتأليف**: وما أكثر الكتب التي يكون سبب تأليفها طلب من طلابه أو مشايخه. وافعل كما فعل قاضي واسط، في الإلحاح على شيخ الإسلام -رحمهما الله تعالى- في كتاب «العقيدة الواسطية».

وبعد:

فإن كتابي «المتلذذون بالعلم» هو الأم، وهذا الكتاب «الإبداعات» قد تُربِّيَ في حَجرِهِ، فالأول كرأس المال الاستثماري، وذا كالربحِ المستفاد، والربحُ أطيب، وبالقلب أعلَقُ، ونسيمه أعبَقُ. فاللَّهُمَّ يا خير الرازقين: بارِك في رأس المال، وفي الربح.

وقد جهِدت في تطلُّب الكمال، ولم آلُ في تسديد النقص، ولكنه يبقى جهدًا بشريًا فرديًا، والأمر كما قال القاضي عبد الرحيم البيساني -رحمه الله تعالى- (ت ٥٩٦هـ): لا يَكتبُ إنسان كتابًا في يومه، إلا قال في غدٍ: لو كان غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زِيد هذا المكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أجمل، ولو تُرِك هذا لكان أفضل. وهذا من أعظم العِبر، ودليل استيلاء النقص على جملة البشر.

ما خطّ كفُّ امرئ شيئًا وراجعَهُ ... إلا وعَنَّ له تبديلُ ما فيهِ[1]



(١) رحلة الشتاء والصيف (ص: ٩) وكشف الظنون (١/١٤)

خاتمة

إنهم علماء طموحون، ومؤلفون متفوقون، لسان حال أحدهم أن يقول:

أبَتْ هِمتيَ العلياءُ عنيَ أن ترى   رجالًا مكاني لا تَسُدُّ مكانيا[١]

وقد سطرت إبداعاتهم، وقد حوت عجائب وفرائد:

وحَوَتْ محاسن كل حسن مبدعٍ   فيه عقول أولي العقول تحارُ[٢]

فأحمده -سبحانه- على صيد شرائدَ من فوائد، أَلِفْتُ وعرفتُ فرائد نتاجها، وسيأنَس كل مستوحِش سائرٍ في فِجاجها، و«مَن أنِسَ بالخلوة مع العلم، أورثه ذلك أنسًا من غير وحشة»[٣].

فما عليك إلا أن تأنَس، وتحرص فتلحق بالركب السَّراة المصعِدين للعلياء، وإياك أن تقعد مع المحبَطين المثبِطين، وليكن نداؤك وحُداؤك:

دبَبْتُ للمجد والساعون قد بلغوا   جَهْدَ النفوس وألقَوا دونه الأُزُرا

وكابَدوا المجد حتى ملَّ أكثرهم   وعانَق المجد من أوفَى ومن صبَرا

لا تحسبِ المجد تمرًا أنت آكلُه   لن تبلغ المجد حتى تلْعَق الصبِرا[٤]

فاللَّهُمَّ بارك بتلك الإبداعات، وارزقنا اللحاق بركب أولئك المبدعين، واجمعنا بهم في الفردوس أجمعين، يا أكرم الأكرمين.

---

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/٤٢١)
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٦٤/٢٣٦)
(٣) طبقات الصوفية للسلمي (ص: ٤١١)
(٤) أمالي القالي (١/١١٣) والصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٦٢١)

مفكرة